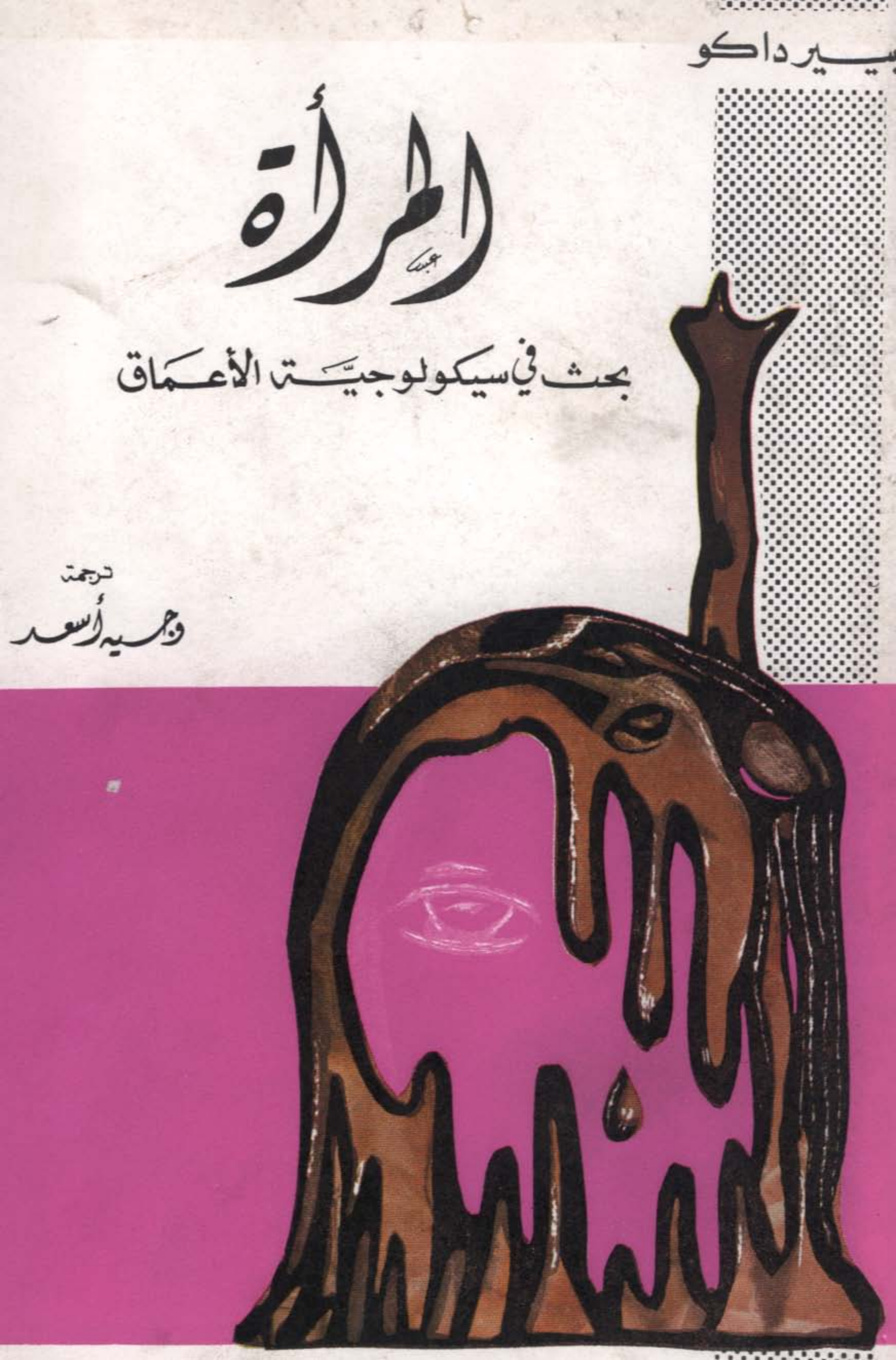


ـيير داكو

المرأة

بحث في سيكولوجية الأعماق

ترجمة
وجيه أسعد



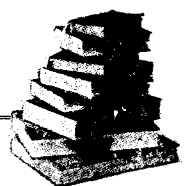
بيير داكو

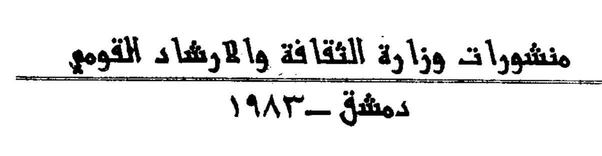


المرأة ؟

بحث في سيكولوجية الأعماق

ترجمة: وجيه أسعد





منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي

دمشق — ١٩٨٣

العنوان الاصلي للكتاب :

PIERRE DACO

Comprendre

LES FEMMES

et Leurs psychologies profondes

MARABOUT

المقدّمة

المرأة تتبع زوجها .
والزوج يبحث عن الآلهة .

الحب . نادر . ساطع .

وأي انبهار يحدثه لقاء الآخر ! ومن أجل هذا الثنائي وحده ، يشرق فجر الخلق برمته . وهذان العاشقان ، عاشقا البنفسج ذي الفلسين ثمناً ، يغيظان البخلاء . ذلك أن ضرباً من الابتسامة التي تكتنفها الأسرار تجعل الذهب يتلألأ في عيني كل منهما . وأي حنان في الوجه ، حنان يثقل كتف العاشق ، وفي الشفتين اللتين تستجيبان وهما تمسان الجبهة البادية ! فالمترو ، والشارع أو المقعد ، تصبح « البيت » . إنه اتحاد بين من تثق بنفسها ومن يثق فيها . إنها ، كونها واثقة ومعطاءة ، تبدعه قوياً ومتيناً . ويمضيان مجنونين وعاقلين بأعجوبة .

ولكن ، كيف يكون ممكناً هذا الحب إذا لم تحقق المرأة خصوصيتها التي اعترف الناس بها أخيراً ومنحوها شأناً عظيماً ، خصوصية كم هي مفتاح الرغبة ؟ إن شأنها ليس أكبر من شأن الرجل ولا أقل . إنها هي ذاتها بكل بساطة ، ولكنها مختلفة عن الرجل .

كلا المرأة والرجل منعزل عن الآخر . فاذا لبثا في هذه الحال من العزلة وهما يعيشان معاً ، أصابنا الضياع .

إن أهمية مسألة من المسائل وحاليتها تبدوان في ضوء الوقيد الانفعالي الذي تشعاه هذه المسألة . وفي عدد قليل من السنين ، اكتشفت النساء ، وقد جابهن جميعاً مسلمة واحدة ، مسلمة أنهن متماثلات . مفادها «يتألف النوع الإنساني من الرجال ، ثم من الباقي » .

والنساء لسن رجالاً . وحسب المجتمع الغربي ذلك لكي يُنزلها منزلة متوسطة ضمنية ، في الأجور والأدوار على حد سواء .

واتحدن أمام هذه القضية العنادية : **أن يكون الموجود رجلاً أو لايكون شيئاً** ، دون أن يعرفن ، مع ذلك ، ما هو المؤنث .

والرجال منذ قرون ، تجنبوا الصعوبة ، إذ سجنوا المرأة في الممنوعات الإجتماعية التي تعوق تحررها الممكن . وسلّمت العصور الوسطى ، بصعوبة ، أن للمرأة روحاً . ثم انتزعها عصر النهضة منها وازدهار الثقافة اليونانية اللاتينية . فأصبحت الحيوان النزق مجدّداً ، والحيوان الطفلي ، الذي يعدّه الرجل المحارب العظيم قاصراً .

وأصبحت المرأة ، مكرهة ، هي الحائزة على « الأخلاط * » التي يرى الرجال أنها غير جديرة بهم . وتلك هي النزوات التي لا يريدون أن يعترفوا بها ، وضروب عدم الوفاء التي يأبونها على أنفسهم ، ولكنهم يفترضون أنها تُرتكب دائماً (كم هو مسل عدم وفاء زوجة الغير !) . يقول أحد الرجال بعفة : « لو عرفت زوجها ، لما استطعت أن أمس امرأة » . أي ذهنية رائعة هذه ، ذهنية الحريم ! . . .

(*) الأخلاط : Les humeurs . مجموعة من الاستعدادات الانفعالية الأساسية ، الغنية بالالحاح الهيجاني الغريزي « م »

وكم هنّ ، مع ذلك ، أكثر حظا من أخواتهن في الشرق ، حيث المرأة لا تنفصل عن أبيها ، أو زوجها ، أو أخيها ، وحيث المرأة تتصف ، على سبيل الحصر ، بأنها بطن ينتقل من عشيرة إلى أخرى ، بطن جدير بالتكريم إن كان خصباً بالبنين الذين تزداد بهم حظوظ الأسرة في أن لا تموت من الجوع ، وبطن جدير بالإحتقار إن كان لا يصنع غير البنات . هذا الجسد ذي الثمن البخس * .

ولكن ، من نحن أول الأمر ؟

نحن العامة من إنسانية تطالب بالعدالة في الحساب . . .

نحن من لهن صوت ، ما دام حق الإقتراع هو العوض عن خدماتنا الطيبة والمخلصة – تلك الخدمات التي كانت تقتضيها الحرب ! . . .

نحن اللواتي نملك معرفة حدسية ، عريقة في القدم ، عن المنفى الذي هو البيت . . .

نحن المتهمات بالحساسية الزائفة ، في حين أننا توّاقات إلى العواطف..

نحن المتضامنات مع كل ضرب من ضروب التعب (ومن يتخلى عن مكانه في سيارة النقل العام ؟) .

نحن اللواتي يخشين التحدث إلى من ربما سيهزأ . . .

نحن اللحم للمتعة ، بما في ذلك منع الحمل ! . . .

(*) تلجأ كاتبة المقدمة هنا إلى التعميم ، علماً بأن وضع المرأة في الشرق يختلف من بلد إلى اخر ، ومن بيئة محلية إلى بيئة محلية أخرى « م » .

نحن صاحبات الجسم المنهك مسبقاً ، القريب « منه » ، وهو « غيمة من الدخان المتجمع فوق الصحيفة المبسوطة » .

نحن القلوب ، القلوب الفقيرة التي تقتات من « أدب » سخيف ، ومن نسيج مزهّر في مروج الكاتالوجات . . .

نحن صاحبات الامتياز عندما لا يحوّلهن عمل المطبخ إلى أشياء فقيرة شاحت . . .

ولكننا نحن الدمى اللواتي يبدأن مساء ، في البيت ، نهاراً ثانياً من العمل . . . .

نحن الزاغات * الفاضلات ، زاغات المقاطعات ، ولكننا نحن أيضاً نساء مدينة الصفائح في فارسوفيا ، التي دربها المؤلم يفرض الصمت ، صمتاً هو وحده الجدير بهن . . .

كان أندره مالرو ، في كتابه **الأمل** ، قد طرح مسألة مفادها معرفة أي إنسان كانت لديه « الشجاعة » في أن ينصب الفخاخ في حديقة كان يلعب بعض الأطفال فيها . هل هو رجل ؟ لا ، إنه امرأة ! . . .

والمرأة ، في بعض الأحيان ، قلق عاطفي كبير . وربما حتى يكون لها ، على الأقل ، ألم خاص بها .

والنساء حرائر من الناحية الظاهرية ، ولكنهن مرتبطات ، على نحو غير مرني ، بشرعة الشرف ، شرعة مذكّرة بحصر المعنى .

(*) زاغ : طائر يشبه الغراب ، ولكنه أصغر منه « م » .

ولنتكلم قليلاً على الأمهات . . . الطفولة الأولى ، دون أن نحسب التعب ، فترة خاوية في حياة امرأة تربي رضيعها . والزوج ، المرهق من نهار عمله ، يخرج كما كان يخرج سابقاً . أما هي ، فانها تسهر على الطفل . والعكس لا يزال غير وارد . ومع ذلك ، « إنني لا أحب الخروج بدونه » ! . . . . ثم ، هل كانت تعمل قبل أمومتها ؟ فاستئناف هذا العمل يرتكز ، في المقام الأول ، على حساب مالي ، إنه مسألة مالية .وإذا صرّحت بأن عملها يروق لها ، دون اهتمام بالمال ، نظرت إليها أمها نظرة رعب ، أو روت لأنحة إخفاقاتها الخاصة : « يا ابنتي المسكينة ، الرجال أنانيون جميعهم » ، الخ . إن التزاماتها ، و « واجباتها » التي تتصف بأنها مبررة على وجه التقريب ، تغرق مسؤولياتها الأصيلة في كتلة يلفّها الغموض .

ويقبل كثير من الرجال ، قبولاً سيئاً جداً ، بشرى طفل سيحرمهم من الاهتمام الأمومي ، اهتمام زوجة طيّعة . فكم زوج يرمي عندئذ بكل ثقله ، ويسحق الزوجة ، ويحصل على الإجهاض ! « وما كان عليك إلا أن تنتبهي » . فتبكي المرأة ، التي وُجّه إليها التحذير الأكبر ، كما تبكي بنت صغيرة ضائعة في الظلام .

أتلد امرأةخمس بنات ، ستا ؟ لا يهم ! إنها ستصنع جيداً طفلاً سابعاً . والزوج سعيد أيضاً إذا لم يفضّل الطبيب المولّد صغيرها عليها ، في حال تعسر الولادة ! ولكنها ، في ذاتها ، ملتزمة التزاماً معنوياً بأن تلد الابن ، « حامل الاسم » ، وأيا كان الإنهاك الذي يصيب كيانها . فأي مرارة ! . . . وماذا ستصبح عليه بناتها ، وقد نشأن في جو الحنين إلى

الصبي وهنّ لسن هذا الصبي ؟ هنّ اللواتي ، فضلاً عن ذلك ، يمكن لهن أن « يجلبن العار » إلى الأسرة .

لقد بينّت ثورة التحليل النفسي كم يضغط خروج الطفل إلى العالم على مصير المرأة ، وكم تتصف ثمرة جسدنا بأنها هي نحن أنفسنا ، وكم يلزمنا من الوضوح والصبر إزاء واقع الغير ، وإزاء واقعنا نحن .

ولكن ما يثير على وجه الخصوص – بحق – سخط كثير من النساء إنما هو أن بعضهم يسوّغ ، باسم تخطيطيات نظرية (تغيّرها الكشوف العلمية الحالية وتكملها) ، إفقار المرأة ، ومهانتها ، وإضعافها ، بالقياس إلى مجتمع الذكور .

وها هي ذي مهانة ، مصابة بالإحباط لكونها تمتلك في داخليتها ما تقذفه جنسية الرجل إلى الخارج ، « آفة » الطمث . ومصابة بالإحباط لكونها « شيئاً صغيراً سريع العطب » ما دامت مخصيّة . إنها لا تسبح ، ولا تمشي ، فمن المؤكد أنها مصابة بألم في بطنها . . . فكيف انتهت هذه الفترات القمرية ، التي جعلت المرأة تحلّ في دورة الطبيعة ، إلى أن تكون علامة عبودية مؤلمة ؟

ولكن هذا ليس كل شيء .

وعلى الرغم من توحّد المرأة بقدرتها على الإغراء ، فان المرأة التي تشيخ ليس لها جنس محدّد . وهي الأولى التي تلعب لعبة هذه اللاإنسانية الضمنية .

والمغفرة لأم تصنع من ابنها شخصاً لا أهمية له . فذلك لا يعرّض

العشيرة إلى الخطر . ولكن لا مغفرة لأرملة تتزوج مرة ثانية ضد إرادة أولادها ، ولا مغفرة لإمرأة تطلّق دون « بواعث » .

والشقاء لمن ترفض أن تعيش وفاق ذوق « الحامي » الذي ألقى الرأي الشائع مسؤوليتها على عاتقه . فان كانت متزوجة ، قيل عنها : « هي الآمرة » ، « إنها مجنونة » ، « صبر زوجها صبر أيوب » . . . وإن كانت وحيدة ، قيل عنها : « إنها لفاجرة » ، « إنها لمتعجرفة » ، « إنها لغير سوية (إذ أنها غير متزوجة) » . . .

وللأم العزباء ، في أيامنا هذه ، حق في سكوت أولئك الذين كانوا ، قبل بضع سنين ، يفرشون الزبل أمام باب بيتها .

ولكن الشقاء أيضاًلمن هي وحيدة وعاقر . إنها تمضي ، إذا كانت وحيدة ، نحو الموت ، يرافقها قدرها المأساوي ،في تيهان يائس ! . . . فليس ثمة منزل ينفتح لها .

أين إذن هؤلاء « العمّات » المحنّنات – والمزعجات بعض الشيء – اللواتي كن يربين أطفال الآخرين ، ويرعين الآباء المسنين ؟

عهدهن انتهى ، ولم يعد لهن متسع . ألنقص في المكان ؟ ليس لهذا فقط . فقد أظهر انقلاع الجذور الإجتماعية أن « الواجب » المنجز كان على وجه الخصوص خوفاً من الرأي العام ، وأحكام القرية والشارع والبيت . إن البطون متخمة ، ولكن الأفئدة فارغة .

وتم نسيان « البريء » الذي كان الناس يصغون إليه برهة ، ولو كانوا – قبل ذلك أو بعده – يسخرون منه . لقد سُجن مع أشقائه في

القلب . وأغلقت أبواب الحبس الأبدي على الساذجين ، ومتأملي النجوم ، والمدلّهين بحب الاله ، والأطفال من غير حنان ، والراشدين البطيئين جداً في كسب لقمة العيش . . .

وتلاشت الإبتسامة الوقور ، ابتسامة الأم التي كانت تقطع حصة الفقير في رغيف الخبز (وأصغر أولادها ينظر إليها ، فخوراً بأهميتها ، ذلك أنه هو الذي كان يعطي للشقاء اتحاد المتواضعين . وفي بعض الأحيان، كان ثمة صحن من الحساء وبعض العلف في المتبنة . وكان الشحاذ المتجوّل في الأرياف يقصّ ، وظهره معرّض للصقيع وصدره معرّض للحرارة المرتفعة ، أخبار ذلك الزمن على أفراخ العش الذي كانوا ينامون وهم يحلمون بالصين) .

والملجأ أصبح مقر الجد الذي كان يقلّم الصفّارة الأولى لأحفاده على نحو ظريف جداً .

وولّى عهد عيد الشموع * ! وقُطعت أشجار الغار ، يا جدتي ، وبدونك لن نذهب إلى الغابة . . .

ولكن أين إذن غاض نهر الحنان الذي كان يُرضع الموجودات بعاطفة من الإنتماء ، واحدة وعميقة ؟

كلا المرأة والرجل منعزل عن الآخر . فاذا لبثا في هذه الحال من العزلة وهما يعيشان معاً ، أصابنا الضياع .

من منهما سيكون المتكلم الأول ؟ المرأة أم الرجل ؟ ومن منهما سيصغي إلى غناء عزلة الآخر ، غناء ينسج فيه العلامة نفسها أملٌ متساو ؟

(*) عيد الشموع عيد تقديم يسوع المسيح إلى المعبد ، وتطهير العذراء (٢ شباط) «م» .

ومن منهما سيسمع ما يحجبه الحياء بين الكلمات ؟ وهل هو ، مع ذلك ، حياء أم بخل عاطفي ؟ بخل عاطفي أم خوف؟

مرعب جداً ، ورائع جداً ، الثنائي ، الذي يؤثر ما نتصف به من الجبن الحذر أن نبتعد عنه بكل الوسائل .

و « العدو الحميم ، » الذي يمكن أن يكون الزوج ، يغذّي كل شيء ، مهما بدا ذلك غير ممكن التصديق : الحروب الدينية ، والنزاعات العنصرية ، والحواجز الإجتماعية ، و « الصالح » ، و « السيء » ، والمعاوم الذي نهمله ، والمجهول الذي نخشى ما هو أسوأ منه ، والنادر ، والصديق الحقير ، ومعتمد الآخر ، وحارسة بيتي التي تفتح الرسائل ، وبقّال الذي يسرق ، والعدوانية التي تدور في الظل وتقتل جيداً جداً ، وكتل الأهواء المدمرّة وضروب الجموح التي لا تخضع لرقابة ، وكل سوسيولوجيا العنف . . .

وكل ذلك عندما الأطباق — الوجبة ، التي صُمّمت لابتلاع البرنامج المتلفز برمته ، تعلن ، دون ريب ، عن الشوك والرضّاعات الموجهة مسافيا . فكم كلمة يتبادلها ثنائي خلال أمسية ، إذا استثنينا تلك الكلمات التي تسجّل ضبط التلفزيون ؟

كلا المرأة والرجل منعزل عن الآخر . فاذا لبثا في هذه الحال من العزلة وهما يعيشان معاً ، أصابنا الضياع .

فمن منهما سيكون المتكلم الأول ؟

إن جهداً صبوراً من الفهم ، ثم من التواصل ، هما اللذان يعقدان الخيط المقطوع . ولهذه المهمة الحيوية إنما يعمل بيير داكو — ذلك أن من الواجب الآن — وعلى وجه السرعة — معرفة من هو الآخر .

وعزلة الرجل تفترسه بفعل ميله نحو كمال باطل ، أو تبتلعه بفعل غرور ضرب من تراكم الخيرات المادية . ومعروض عليه ، مع ذلك ، أن يمضي نحو المثال بمعونة الحنان : هي . فهي المتمّمة . وهي غير التامة لحسن الحظ . وهي التي تتبعه . لأن الحب قانونها ، ودينها ، ومعناها .

شريطة أن يكفّ الناس عن منحها الصفح على أخطاء لم ترتكبها .

الدكتورة هيلين تيبول
أمينة سر الجمعية الفرنسية لعلم النفس التحليلي

* *



طوال سنوات من الممارسة السيكولوجية ، تعلمت ، من خلال رسائل نساء من جميع الأعمار ، أن السعادة المستقرة والوجود العميق هما وطنا المرأة .

ونحن نعيش عصراً حلّت فيه سيكولوجيا انتحارية محل الاستقرار الداخلي ، وتخلّت الماهية عن مكانها إلى جميع المظاهر السطحية .

ولهذا السبب ، فان ظمأ النساء الحالبات إلى الاطمئنان ثانية ظمأ واسع الأرجاء .

ويبحث النساء ، سواء في الثامنة عشرة من عمرهن أو في الرابعة والعشرين وسواء يعملن في الخارج أم لا ، عن جواب لواقعة أنهن كن مخدوعات في جميع العصور . ولا زلن ، في أيامنا هذه ، مسحوقات أكثر من أي وقت مضى . وهن يحسسن بذلك ، على الرغم من الهدايا المذهبة التي تُقدَّم إليهن .

لقد شرعن ، إذ يترجحن من اليسار إلى اليمين ، وإذ يشعرهن الناس من كل مكان بالإثم ، في حركة نواسية خطيرة . فعمّ يبحثن ؟ إنهن يبحثن عن الخروج من اللاأمن الوجداني . ولكن من يخرجهن منه ؟

أولئك الذين سيقولون لهن لماذا يُنبذن ، ويُهملن ، ويُقهرن ، ويُستعبدن ، في أيامنا هذه كما بالأمس .

ويخدعهن الرجل ، على غير علم منه ، لأنه يعاني حصراً أبدياً تدفع المرأة تكاليفه . ولكن النساء يخدعن أنفسهن أيضاً ، إذ يجعلن من أنفسهن ضالعات لاإراديات في هذا الحصر المذكر ، وإذ يحوّلن استطاعة الأنوثة غالباً إلى سحر هزيل ، خال من الإبداعية .

فعلى النساء أن يعلمن أنهن أقل مما يعتقدن بكثير حرمانا من الميزات. بل إنهن لسن ، بصورة أساسية ، محرومات على الإطلاق . وعليهن كذلك أن يدركن أن غالبية الإنتفاضات الراهنة تتكشّف أنها تنذر بالخطر ، وأن « المرأة » توشك أن تفقد معناها .

هل ثمة حل لنيهان المرأة الأبدي ؟ لا أعلم . فالهيجانات الراهنة لا تأخذ بالحسبان غير الصعوبات السطحية ، مهما كانت ذات شأن . ولكن جذور الخصومة بين الجنسين ، جذورها ذاتها ، لم تكن قد مسّت قط .

ولهذا السبب ، صممّت على أن أبحث معكم ماهية المرأة ، إذ أن مأساتها أنها كفّت عن أن تكون خادمة الحياة ، لكي تصبح قناً عاجزاً .

* * *

تشجّعن ، أيتها المدانات . فليست الحرية سوى لحظة غير مناسبة على الإنسان أن يقضيها .

كثيرات من النساء يعرفن الأمور التي ستُقال في هذا الكتاب . بيد أنهن لا يعلمن أنهن يعرفن ذلك .

وكل أولئك الذين يتكلمون على الحب بعبارات الميكانيك ، ولكنهم يناقشون الميكانيك بعبارات الحب !

أرى نفسي ، على الغالب ، ملزماً بأن أتكلم على المرأة بدءاً من الرجل . لا تعتقدوا أنني أريد أن أستنبط نسخة عن الرجل ، مثلما يفعل بعضهم غالباً . إنني أحاول كذلك أن أبيّن ما يمكن أن تكون المرأة في مقابل ما كفّ الرجل عن أن يكون .

استخدم الرجل عقله استخداماً تصاعدياً ، فتناقص دويه .

أجر الرجل والمرأة متساو ، هذا حسن ! ولكن هل اعتبار المرأة واعتبار الرجل متساويان ؟

نساء أيامنا هذه ، أو النساء منذ بعض الزمن ، هن الاستطاعة الخفية التي تقود العالم ، سواء كنّ عبدات بيوت الحريم أو الخدور ، ومومسات أو عشيقات ، أم زوجات أو أمهات أسر . فليس نظام الأبوة ، ولو كان هادراً ، غير مزاح لطيف بالقياس إلى القوة الغامضة التي يتصف بها النوع الأنثوي .



الفصْل الأوّل

خدعة الحريّة

> السيدة تموت ، السيدة ميتة!
> بوسويه

لم يسبق للمرأة أن كانت مسحوقة ، ومنهارة ، ومستعمرة ، وخامدة ، مثلما هي عليه الآن .

ويمثّل عصرنا أكثر العمليات دناءة في تاريخ المرأة .

فالمظاهر خدّاعة ، ذلك أن الفخ مموّه على نحو يثير الإعجاب .

والجنسان في العمل يُبديان وجهاً خارجياً باهتاً على نحو متماثل . ومع ذلك ، لم يطرأ أي تغيّر على صراعهما ، بل ربما أصبح أكثر ضراوة .

والورود تحفّ بمعتقل العمل في الخارج . فالنساء ، من جهة ، ينلن حقوقهن العادلة ، الإجتماعية والقانونية . والعمل ، من جهة أخرى ، ممنوح لهن في هذا العالم إلى حد الإشباع . ولكن ، في أي عالم ؟ في عالم الرجال بالطبع .

والنجاح الكبير في هذا السياق من الخداع أن المرأة تظن غالباً أن هذه الحالة الجديدة حرية حديثة العهد . ويمكن للرجال الذين يرغبون في استعباد المرأة أن يتنفسوا الصعداء . لقد تم الأمر ووقعت في الفخ . إنها على وشك أن تفقد شخصيتها وأصالتها الخاصتين . ومفعول روعتها وقدرتها الداخليتين تم إبطاله .

بل يتساءل المرء عما إذا لم تكن « المرأة » في سبيلها إلى الزوال ، الأمر الذي يلائم كثيراً من الناس . ذلك أن الرجال هم وحدهم الذين حاولوا أن يستعبدوا المرأة مدفوعين بالحصر . والعديدات من النساء هنّ كذلك ضد النساء . فهن ، إذ يرفضن أنوثتهن ، بل ويكرهن « الأنوثة» أحياناً ، يدفعن زميلاتهن إلى النضال ضد الرجال ، ولكن في عالم الرجال .

أما النساء اللواتي يرغبن في أن يكنّ حرائر من الناحيتين الداخلية والخارجية ، ويرفضن الخضوع إلى الضرورات الجديدة ، فمدعوّات إلى عمل عسير .

وربما كان كل شيء منوطاً بهن .

أولاً – العالم التكنولوجي المجرد من الإنسانية ومخططه المعادي للمرأة .

كل شيء يحدث كما لو أن قادة العالم التكنولوجي المجرد من الإنسانية تواطؤوا :

– فلنحذر ! لقد بلغ السيل الزبى . إن المرأة تطالب بحقوقها وتحصل عليها . وبدأت تفهم أعمالنا على نحو واضح . فهي تمثّل قوة كبيرة

كامنة ومستترة ، وبالتالي تنذر بالخطر . وعلينا أن نمنع المرأة ، بأي ثمن ، من أن تنتقل إلى الفعل ، بوصفها امرأة . نعم ، بوصفها امرأة .

— ثم إن المرأة تتصف بأنها ثاقبة الفكر . ومن حسن الحظ أنها تجهل إلى أي حد . إنها تحب ما هو أصيل ، ومشخّص ، وطبيعي ، وإنساني ، ومستقر . ولكن عالمنا ، والحالة هذه ، غير أصيل ، ومجرد ، ومصطنع ، وغير إنساني ، وغير مستقر . وستحاول المرأة ، يوماً من الأيام ، أن تهدم ما بنيناه . بل وربما تدخلت في إيقاف حروبنا ! وعندئذ سينتهي أمر تجاربنا الشديدة الخطر ، ورجال الأعمال لدينا ، وضروب ولعنا بالربح ، ونظرياتنا . وسينتهي أمرنا بالمناسبة ذاتها .

فرسموا عندئذ خطة عامة :

— علينا أن نمنع الأنوثة من أن تستعيد نشاطها . وفيما يتعلق بالزمن الحالي ، فانها تظل مقيمة في تخطيطيات الضعف القديمة . فليست إذن موضع خشية . ولكن هذا لن يدوم طويلاً : ذلك أن ثمة ما يحضّ المرأة على أن تعي ما هي عليه ، وثمة ما يدفعها إلى أن تتدخّل ، وإلى أن تصلح عالمنا . فلا بد من التعجيل ، ولا بد من تقويض الاستطاعة الداخلية للمرأة . ولا بد من حذف الأنوثة من الخارطة .

فاذا وضعنا تدبيرهم على الورق ، أعطى ما يلي على وجه التقريب :

الأمر الأول من الخطة المعادية للمرأة :

— أن ينجذب العدد الأكبر من النساء إلى عالم العمل .

— ولتحقيق ذلك ، ينبغي تملقهن ، واتخامهن من الناحية القانونية والإجتماعية . دع القيود ، ولكن احتفظ بالرقابة الكلية .

— امنحهن الانطباع بأنهن متحررات من وصاية الذكر ، تُعقْ في الوقت نفسه حريتها الداخلية .

— اجذبهن إلى الاعمال التي تلزمهن بالتخلي بوصفهن نساء .

الأمر الثاني من الخطة المعادية للمرأة :

— استأجر النساء في أعمال ، حتى ذات الأهمية الكبيرة منها ، ولكن في أعمال لن يكون للأنوثة أي علاقة بها .

— وستضمر الأنوثة بوصفها غير مستعملة ، وستفنى . وسيتوقّف الخطر .

الأمر الثالث من الخطة المعادية للمرأة :

— يمكنْ للمرأة أن تصبح شاهداً صاحياً ، وبالتالي يُخشى جانبه . فلا بد من استبعاد هذا الشاهد . ومن أجل ذلك ، لنجعل منه شريكاً في الجرم ، وعندئذ تنطلي الخديعة . وهي ، بوصفها شريكنا في الجرم ، لن تجرؤ على أن تحشر أنفها في أعمالنا بصفتها شاهد إثبات . ونحتفظ نحن بالمهمة السهلة ، لأننا نفتح لها الأبواب . . . أبوابنا على الأقل .

الأمر الرابع من الخطة المعادية للمرأة :

ولكي نجعل هذه العبودية كاملة ، سنجبر ملايين النساء على أن يفقدن شخصيتهن . ومن أجل هذا ، نستخدم الأزياء ، والكيمياء ، والإعلان والملايين . ونصنع فتيات هن من الاتصاف بالجمود بحيث يُستبعد كل خطر .

ثانياً – النتائج بالنسبة إلى المرأة

١ – محصورات في عالم الذكر . . .

كان بوسع المرء أن يتصور أن النساء ، وقد فزن بالحرية الخارجية ، سيستفدن منها ليباشرن « صعوداً » داخلياً. وبعبارة أخرى، إنهن لن يستسلمن .

إن الفخ ، على العكس ، قام بعمله على نحو ممتاز . لقد كانت الفرصة ، مع ذلك ، فرصة مثالية . فالسمكة كانت جائعة . وكان يكفي إلقاء الصنارة في الماء حتى تنخدع بها .

وهذا هو السبب في أن المرأة تشارك في سير العالم مشاركة متزايدة. ولكن في أي عالم ؟ لم يسبق لعالمنا خلال القرون أنْ كان بمثل ما هو عليه الآن من الجمود ، والضجر ، وفقدان الحياة، والحرب ، والعنف ، والعدوان ، والنزعة الفردية ، والترويض ، والتفجر ، والتسامت ، والتماثل ، والخراب . ولم يسبق له أن كان إلى هذا الحد من المبالغة في الإتصاف بصفات الذكورة .

يقال إن وابلاً من الهرمونات المذكرة هطلت ، في حين أن الهرمونات الأنثوية بقيت في الغيوم .

وعلى هذا النحو إذن ، **يتحوّل ذلك إلى نهاية سعيدة بالنسبة إلى المرأة ، ولكن بالمقلوب . إن عالمنا عالم مثالي بالنسبة إلى النساء اللواتي فاتهن رورق حياتهن النسائية** . وهو كذلك مثالي بالنسبة إلى اللواتي يبحثن ، وهن يشعرن بصعوبات حادة في وجودهن ، عن أن يجعلن

أنفسهن مجدداً، وبأي ثمن ، مركز اهتمامهن ، وعن أن يكتشفن أنفسهن ، ويعرفن من هنّ . فيشعرن عندئذ أن العمل في قلب هذا العالم ، عالم الذكر ، سيتيح لهن أن يكتشفن هويتهن العميقة .

وتُمنح الحقوق لهن ، فينطلقن نحو الطعم ، ولكن دون أن يكتشفن الشبكة .

٢ — « المنافسة » النسائية .

وتجد المرأة نفسها تسلك رَدْباً * هو الردب الذي يختنق فيه الرجال ، لأن منافستها مبنيّة على تضخم في المنطق وتضخم في العقل . فما هما هذان « الشيئان » ، والحالة هذه ، إن لم يكونا مجرد تابعين للحياة السيكولوجية ؟

الذكاء الحقيقي موجود لدى المرأة والرجل على السواء . والجنسان ، في هذا النوع من الذكاء ، يمكن أن يحل أحدهما محل الآخر على نحو كامل . ومن سوء حظ المرأة أنها على وشك أن تفقد هذا النموذج من الذكاء .

أما فيما يخص الرجال ، فقد فقدوه منذ زمن بعيد .

ولكي يتسنى للمرأة أن تضارع الرجل في هذه المنافسة الحديثة ، لا بد لها من أن تفقد إنسانيتها . **ولكن هذا الأمر متعذر عليها ، شاءت ذلك أم أبت .**

وهنا إنما تكمن مأساتها ، وعدم شعورها بالأمن ، وتشوّهها ،

(*) الردب : الدرب المسدود « م » .

وحَصرها . **فهل تشارك النساء في هذه المنافسة ؟ نعم إن النساء يشاركن ، أما الأنوثة فلا** . إنهن يشاركن في هذه المنافسة إلى درجة أن الناس جعلوا من الخصائص التي تتصف ، لدى المرأة ، بأنها أرفع شأناً ، كقابلية التأثر والجاهزية ونفاذ البصيرة والقوة الداخلية ، خصائص تحط من القدر . بل إن رأفتها الطبيعية ، الرأفة التي أحالتها محدلة التكنولوجيا إلى مسحوق ، موضع تحقير . أما العاطفة الواسعة ، عاطفة الأمومة (العاطفة التي تستغني عن الوصف) ، فقد قالت لي عنها إحدى المناضلات في سبيل حقوق المرأة : « **ولكن هيا ! إنها جيدة بالنسبة إلى النساء الساذجات** » !

وينجم عن ذلك أن المرأة تجد نفسها ، برفقة الرجل ، في قعر واحد من حفرة وضيعة . فلم يسبق لها أن كانت بمثل ما هي عليه الآن من العبودية في عالم ألصقت نفسها به باسم ضرب من بديل للحرية التي يبدو وميضها . وذلك على وجه الضبط كما لو أن قادة العالم التكنولوجي كانوا يقولون لأنفسهم :

— هل استعبدنا النساء دائماً ؟ إننا ، في الحالة الراهنة ، نمسكهن فقط. إنهن يعملن لدينا ومن أجلنا ، ويهدمن أنفسهن بوساطتنا . ويصبحن أنصاف ذكور . أمر ممتاز ! فنحن نبقى ذكوراً على نحو كامل ، ونحتفظ بالهيمنة عليهن .

ذلك أن العمل « على شاكلة الذكر » ليس إلا ضرباً من ظاهر الحرية. وليس هذا مخرجاً ، وإنما هو باب جهنم .

٣ ــ حال المرأة أسوأ مما كانت عليه من قبل

كم كانتا كبيرتين فيما مضى سلطة المرأة واستطاعتها عندما كانت

تمارس تأثيراً خارج الحياة العامة ! كان تدخّلها يعدّل أخطاء الذكور. فكانت المرأة ، وقد بقيت امرأة بصورة عميقة ، تصغي وتقدّر وتلاحظ وتنتظر ، ثم تتعرّض للأمر وتتدخّل ، وتصيغ قرار الرجل .

وتتعدّل كفتا الميزان .

ذلك أن جليسة الملك فيما مضى ، أو زوجته ، أو عشيقته ، كنّ ، بآلاف المرات ، أكثر فعالية ، بصورة خفية ، من النساء الشبيهات بالنمل في أيامنا هذه .

وليست العودة إلى الوراء أمراً مطروحاً على بساط البحث ، بيد أنه ينبغي أن نستخلص عبرة من ذلك . فالمرأة التي كانت ماهرة في حفظ نفاذ البصيرة المعصوم الذي يتصف به نوعها ، كانت تحكم الممالك وبيوت الزوجية .

ولكن هذه القدرة التي لا قرار لها ، قدرة المرأة ، تلاشت أو تكاد تتلاشى . واختفت روعة المرأة التي كانت تتمتع بها فيما مضى .

عصرنا عصر النساء الأرضات * وعصر النمل العاملات . فهن ، من لندن إلى شيكاغو ، يضربن على الآلة الكاتبة ذاتها ، وينهمكن أمام المحركات التي ينهمك أمامها الرجال ، ويصوبن على الدريئات نفسها : وهن يفعلن ذلك لأن مقتضيات التكنولوجيات الحديثة ومتطلبات «الأعمال» توجّههن عن بعد .

أمن الممكن أن تفوز النساء ، يوماً من الأيام ، بحريتهن الداخلية ، وبتحقيق ذواتهن ، وبسعادتهن ؟ ولكن ، لن يتسنى لهن أن يمنحن روحاً

(*) النساء الأرضات : Femmes - termites والأرضة حشرة تسمى النمل الأبيض أيضاً ، تعيش على صورة المجتمع ، وتكثر في المناطق الحارة . وبتألف مجتمع الأرضات من أنثى ذات بطن هائل ، ومن ذكر وعاملات تؤمن بناء المأوى وجلب الغذاء ، ومن عدة جنود للدفاع « م » .

للأرض مجدداً ، ما دمن لم يستعدن روحهن ، وقيمهن الأساسية في الوقت نفسه .

ثالثاً – العالم التكنولوجي المجرد من الإنسانية مهتم

١ – مسرور ولكنه قلق .

لنتصور قادة **العالم التكنولوجي المجرد من الإنسانية** يستثيرون رزم بطاقاتهم ، وتلك حكاية الإشراف على الوضع بمجمله .

إنهم سيفركون أيديهم بالطبع .

– فالنتائج تتجاوز التوقعات ! ألم نكن نريد استعمار المرأة استعماراً خفياً ، ونحن نظاهر في الوقت نفسه بمظهر الحواريين الصالحين المحررين ؟ لقد تمّ ذلك . فالقسم الأكبر من النساء تم تجميده . إنهن يعملن وكأنهن رجل واحد ، إذا جاز لنا القول . بل ثمة ما هو أفضل : إنهن مبتهجات بكونهن مستقلات . فقد وجدن حرية الطاعة للآلات التي تراقب دخولهن إلى المصانع وخروجهن منها ، وللأوقات المضبوطة ، وللرؤساء ومساعديهم ، وللمراقبين الآخرين . إن مجرد كونهن مسجونات يمنحهن وهم أنهن موجودات . وإذا ما انتظرنا ، فانهن سيعملن من أجلنا . إنهن أيد عاملة ممتازة ، رخيصة الأجور ، إنهن لسن نساء ولا رجالاً . وكل شيء على أحسن ما يرام .

وإذ يحلّل قادة العالم التكنولوجي المجرد من الانسانية الجزء الثاني من علبة البطاقات ، يتوصلون إلى ما يلي :

– آه ! ها هو ذا الجيل الضحية . إنهن بين الثالثة عشرة والتاسعة

عشرة من أعمارهن . ولكنهن نساء أشياء ، سار معظمهن إلى النهاية . إنهن صبيّات ، وذلك إنما هو أمر تزداد أهميته بقدر ما سيؤثرن على أولادهن . فليس ثمة من خطر على عالمنا .

والجزء الثالث من علبة البطاقات كانت تحتوي على كومة كبيرة منها .

– إنهن النساء الناصلات اللون ، ضرب من الظاهرة الإجتماعية الحقيقية ! هل كنا نرغب في أن يفقدن كامل شخصيتهن ؟ لقد نجحنا. فهذا النموذج من النساء يتكاثر ، وهن يطعننا بحركة من الاصبع وغمزة من العين ، دون أن يعرفن ذلك . وأصبحن الممثلات الجامدات لعالمنا الفولاذي . ولا بد من دفع الاعلانات في هذا الإتجاه (١) .

والجزء الرابع من علبة البطاقات (ولكن وجوه قادة العالم التكنولوجي المجرد من الانسانية صارت قلقة هنا) كانت تحتوي على ما يلي :

– انتبهوا ! لا يزال كثير من النساء اللواتي قدرن على البقاء ذكيّات ، ومتوازنات ، وصاحيات ، واحتفظن بالخصائص القوية ، خصائص الأنوثة ، مع ما ينشأ عنها من الفاعلية المبدعة . وهؤلاء النسوة من النخبة ينذرن عالمنا بالخطر الشديد. ذلك أنهن لا يزلن يتمتعن بروح عميقة الغور . فاذا اهتممن بتنظيم المعمورة ، كنّ قادرات على النجاح. وحظنا الوحيد أنهن لا يستطعن أن يفعلن شيئاً وحدهن . ولا بد لهن أول الأمر من أن يتّحدن فيما بينهن ، ثم ينضممن إلى الرجال الذين يسعون إلى بلوغ

---

(١) ستكون هذه الظاهرة العجيبة موضوع فصل من فصول هذا الكتاب ، وهي تستحق ذلك . (وتلك هي ظاهرة نصول اللون « م ») .

الهدف ذاته : إضفاء الانسانية على المعمورة مجدّداً . إنه لمن المؤكد أن ذلك لن يكون في المستقبل القريب . ولكن علينا أن نحتاط له . فلنفتح لهن الأبواب بحذر.ولنرفض أن نقبل منهن دفعة واحدة غير عدد قليل. ذلك أن ذكاءهن المتوازن يؤهلهن للوظائف العليا . والحقيقة أن عالمنا التكنولوجي لا يسترعي اهتمامهن ، بل إنه ينفّرهن . ولكنهن يتصفن بما يكفي من المهارة لكي ينزلقن فيه ، ليمنحنه وجهاً من لحم ودم . فلا بأ إذن من منع هؤلاء النسوة من أن يتحدن.فالقيادة هنا إنما هي التفرقة والتقسيم .

٢ – المرأة شاهد يخشى جانبه .

الرزمة الأخيرة من بطاقات العالم التكنولوجي المجرد من الانسانية كانت خاصة إذن بالنساء السليمات ، النافذات البصيرة ، اللواتي بقين على الرغم من إبادة الجنس . إنهن نساء شاهدات ، ينتقلن ويلاحظن حاضرة الذكور ، المجردين من الصفات الانسانية . إنهن يصوّرن في أفكارهن أخطاء الذكور التي تنذر بالخطر . ويعاينّ ، على نحو واضح ، ضرباً من الشعور المسبق بما ينتظر العالم . فهن لا يحسسن بأي عداء ضد الرجل ، ولكنهن يلاحظن أنه **لا** يدرك حتى انتحاره التدريجي المحتوم .

ويبحث هؤلاء النسوة عن التصدّعات في الحيطان السميكة.إن قادة العالم التكنولوجي المجرد من الصفات الانسانية كانوا يدمدمون :

— من المحتمل أن يصبح هؤلاء النسوة هن اللواتي يتهمننا . إنهن سيوقدن نار التمرد ضد ضروب الظلم ، وضد أعمالنا التي لا تصدر عن أي عقل إنساني ، وضد حروبنا وبحوثنا الطائشة . إنهن يرغبن في كوكب تسكنه موجودات انسانية ، تسكن وتتغذى بصورة إنسانية .

من هنا ينطلق الأمر الثالث من الخطة المعادية للمرأة .

٣ — المرأة تصبح شريكاً في الجرم .

ليس ثمة مكر أكثر كمالاً من أن يتحول شاهد الاثبات إلى ضالع في الجرم . وذلك أمر يكافيء قتل الشاهد : إنها جريمة كاملة على وجه التقريب .

وما الشاهد إن لم يكن شخصاً يلاحظ على نحو إجمالي ، شخصاً ثاقب الفكر ، صاحياً ؟ ومن جهة أخرى ، فأن يكون المرء شاهداً أصيلاً يقتضي بعض الشروط : ينبغي أن لا يكون قد تدخّل ، على أي نحو ، بالعمل الذي تم انجازه . إن أي شاهد يحتاج إلى ضرب من الإبتعاد والحياد .

فأنت تمحو الشاهد ، إذا ألغيت هذا الابتعاد ، وهذا الحياد . ذلك أن المرء لا يستطيع أن يكون شاهداً صاحياً في حادث من الحوادث إذا كان مصاباً بالحادث .

والحيلة الثانية لاستبعاد الشاهد أن تشتري سكوته .

أوليس هذا ما يحدث ؟

بيد أني أعطي الكلام ثانية لممثل العالم التكنولوجي المجرد من الصفات الانسانية :

— أتريد بعض النساء أن يكنّ مصححات الخطأ ؟ أيرغبن في أن يكبحن سيرنا إلى الأمام ؟ أيهيئن أنفسهن ليفضحننا أمام العالم ؟ حسن ، فلنجنّدهن ، لكي نضفي الحياد عليهن . ألسنا نبني حاضرات لا روح

فيها ؟ فلنلزم النساء ، بوسيلة أو بأخرى ، أن يشاركن في البناء . ألسنا نصنع الصواريخ والأسلحة ؟ لنجعل هؤلاء النسوة يقمن بدور هام في الفيزياء والكيمياء والالكترونيات . ولنحوّل هؤلاء الشاهدات أيضاً إلى نساء أعمال . ومنذئذ ، كيف يمكن لهن بعدُ أن ينتقدننا وهن سيكنّ متهملات بفعل المسؤوليات التي يقبلنها؟فشاهدناسيصبح شريكنا في الجرم : وسيكون ذلك أجمل مغامراتنا .

وقد يعترض بعضهم :

– ولكن المرأة الذكية لا تنطلي عليها الخديعة !

نعم بالتأكيد ! ولكن الخدعة انطلت على الكثيرات .

٤ – إشعار المرأة بأنها آثمة على كل الجبهات

كان ثمة إمكان لأن يشهد المرء تغيّراً في الإتجاه لوأن النساء كن على علم بماهن عليه واقعياً ، ولو قيل لهن إن **الأنوثة** ليست غشياناً حلو المذاق ، بل هي قوة حيوية لا غنى عنها ، ولو ، بالاختصار ، تم استئصال الأخطاء القديمة . فلو وعت النساء ذاتهن ، لأصبحن مجدّداً قوة وحكمة وذكاء وعملاً ، ولأمكن لهؤلاء النساء المتجدّدات أن يباشرن نفاذهن التدريجي في العالم الخارجي الذي سيتصف بالتوازن مجدّداً ، بدلاً من أن يستمر في الإنهيار .

وبدلاً من ذلك ، **أشعر الناس المرأة بالإثم .**

أكد الناس لها ، حين كانت تعمل في بيتها ، أنها آثمة لكونها لم تعمل في الخارج ، وأنها ، ولو كانت تعمل في الخارج ، آثمة لكونها لم تهتم بمسكنها.وجعلوها آثمة لأن لها أطفالاً وآثمة لأنها ليس لها أطفال ، وآثمة

إنْ عملت وآثمة إن لم تعمل ، آثمة إن ضجرت وآثمة إن لم تضجر ، آثمة لكونها جميلة وآثمة لكونها غير جميلة ، آثمة لأنها فتية وآثمة لأنها غير فتية . وبالاختصار ، كل هذا ضروب من النهش المدروس بعناية ، ينكأ باستمرار جرح المرأة القديم : أي شعورها بالدونية ، القديم العهد ، ومنعها من الإهتمام بنفسها . وبعبارة أخرى ، **استمرار الناس في أن ينكروا حقها في أن يكون لها حقوق.** وكانوا، في الوقت نفسه ، قد أبقوا لها مظهراً من الاختيار : إما أن تعمل مع الرجال ومن أجلهم ، وإما أن تصبح منزوية يشار إليها بالبنان .

فلنضع أنفسنا مكانهن . إنهن يرين أنفسهن ملزمات بأن يكنّ نساء ورجالاً في الوقت ذاته ، ولكن مع توقفهن عن أن يكنّ نساء ، وعجزهن عن أن يصبحن رجالاً . إنهن يصطدمن باللامعقول والمحال ، فيصرفن طاقتهن دون حساب ، ويسعين إلى التخلص من الشعور بالإثم ، إذ يوجّهن اهتمامهن إلى المطبخ والأولاد ، وإلى مهنتهن ومديرهن ، وإلى أزواجهن ، وإلى نجاحهن وحبهن . ومن الواضح أن هذا كله يتم في وقت واحد .

وبعبارة أخرى ، ألغى الناس **ماهية** المرأة ، ماهية كانت قد أمضت قروناً طويلة تسعى وراءها . وعلى هذا المنوال ، أغلقوا المجال الذي تمتاز فيه على الرجال بميزات لا حصر لها ، ولا مجال للشك فيها .

وأصبح المظهر الفاعل والمهنة ، بالنسبة إليها ، هدفين شبه الزاميين. وصرخ الناس من أعالي السطوح أن نمط الذكاء (الواقعي !) لدى المرأة كان شبيهاً بنمط الذكاء لدى الرجل . ودون أن تنتظر حتى تستردّ ما

كانت قرون الوصاية قد أتلفته فيها ، أرادت العبدة السابقة أن تشبه سيدها السابق .

فارتدت الأثواب البرّاقة ذاتها .

وكان هذا الشعور بالإثم قد تعزّز بفعل بعض فئات من النساء «المتحزبات لمطالب المرأة» . ذلك أنهن نقلن حالاتهن الشخصية إلى المستوى العام . فقد أصبحن ضد الأم ، وضد المرأة ، وضد الرجل ، وضد كل شيء ، وضد أنفسهن على وجه الخصوص ، من جراء كونهن يعانين صعوبات عميقة مع أمهاتهن وآبائهن وأزواجهن .

والمتحزبات لمطالب المرأة هؤلاء لا يدافعن عن المرأة : فذلك إنما هو أقل همومهن شأناً . إنهن لا يسعين إلى تجديد الأنوثة ، بل إلى هدمها ، لأنهن مفعمات بالضغينة . وهن يحاولن إحراق الغابة من أجل قطع عشر أشجار .

لقد أطلقن مواكب من النساء لمهاجمة دبابات الذكور . وما ترك الشعور بالإثم لدى هؤلاء النساء غير حلين : إما أن يجدن اللذة في مطالبهن ، وإما أن يستلمن قيادة هذه الدبابات ذاتها . فوجد هؤلاء النساء أنفسهن أيضاً واقعات في الفخ ، شريكات في الجرم ، وموضع شبهة .

ثالثاً ـ الحل

ولكن ، ثمة ، أخيراً ، عدد من النساء النخبة اللواتي يتصفن بالمهارة في إيجاد إبداعية سعيدة ، في منازلهن أو في الخارج .

إنني أعرف اختصاصيات في الفيزياء والكيمياء والرياضيات ، وأعرف نساء مديرات . إنهن لا يشعرن بالراحة .لقد شكون لي حصرهن

من عملهن في عالم انشحاري ومن أجل هذا العالم الذي لا يعرف أحد إلى أين يمضي . إنهن يعملن دون ميل ولا سرور ، ويأسفن لعجزهن عن فعل أي شيء ضد هذه الضروب من الشذوذ ، لأنهن ينهكن أنفسهن لصالح هذه الضروب من الشذوذ ذاتها . فهن أيضاً نساء واقعات في الفخ .

جان وماري ، مهندستان معماريتان ، رفضتا ، ذات يوم ، أن تثابرا على المشاركة في هدم مواقع قرّره بعض الممولين . واستقالتا ، متبرئتين من هذه اللعبة اللا إنسانية ، وعاجزتين عن فعل أي شيء ضد ما هو غير قابل للعكس .

ولكن ما الوضع لو أنهما لا تملكان الضروري من الدراهم لكي تهجرا كل شيء ؟ لو أنهما كانتا ملزمتين بانتظار أن « يتفضّل » الزبُن الخاصّون باستدعاء « امرأة مهندسة معمارية » ؟

هنا يكمن الشذوذ : يشعر كثير من النساء أن عملاً خارجياً يمكن ، مهما كان وضيعاً ولسن بحاجة إليه في الغالب ، أن يسوّغ وجودهن . بل ثمة ما هو أكثر أيضاً : ثمة عدد من النساء ، اللواتي خضعن لقانون العمل الخارجي ، يحتقرن اللواتي يؤثرن البقاء في بيوتهن .

غير أن النساء اللواتي يبحثن عن هويتهن من خلال مهنة من المهن لن يجدنها أبداً . ذلك أن الجنسين ، شئنا أم أبينا ، موجودان دائماً أحدهما بواسطة الآخر . ولن تحصل المرأة على **وضعها الأساسي** إلا **بواسطة** الرجل ومن **أجل** الرجل ، والمقابل صحيح أيضاً كل الصحة . فالمرأة التي لا تحب وليست محبوبة تظل « خامدة » ، وعابرة ، مهما كانت فاعليتها . وتبقى لامتمايزة وغير بارزة ، ميتة إذا صح التعبير .

ينبغي على النساء الصاحيات المتوازنات أن يكن قادرات على الكلام، والكشف، وإعادة التنظيم. وكونهن يعملن خارج منازلهن أمر عديم الأهمية. فالأهمية الوحيدة لفضيلة النفس.

ولكن أي الوسائل يمكن للنساء أن يستخدمنها؟ إنني أفكر بالفعاليات ذات الإنتشار الواسع : الإذاعة والصحافة والتلفزيون، حيث لا يزال للإنسانية بعض الكلمات التي ينبغي أن تقولها. وهناك رئاسة البلديات ومجالس الشيوخ والنواب، حيث يمكن للمرأة أن تصنع العجائب.

إن المرأة السليمة الذكية ينبغي أن تكون حصان طروادة الجديد، الذي ينزلق داخل منظمات الذكور، ولكن دون أن تدع نفسها تتشوّه بها. ذلك أن هؤلاء النساء ينبغي أن لا يقعن، وبأي ثمن، في النمخاخ التي جعلت من الرجال مصاصي دماء. فأن يعملن **ضد** الرجل أمر غير مطروح على بساط البحث إطلاقاً، وإنما ينبغي أن يعملن مع بعض منهم بهدف تجديد العالم الراهن. **وملايين الرجال يرغبون في ذلك.**

وعلى أولئك الذين، من الرجال، بيدهم مفاتيح هذه الممالك المتجمّدة أن يحسوا، ولو إحساساً مبهماً، بقيمة شهادة هؤلاء النساء، وأن يفتحوا لهن الباب.

لا بد من المضي بهدوء . فثمة عدد من النساء والرجال هم من سرعة الانفعال بحيث يترجمون مباشرة جميع المعوقات أو المزايا بمصطلحي الدونية أو التفوق . ولكن ، أوليست الحاجة إلى السيطرة والقوة وقفا على الخائفين ؟

ثمة نساء يردن المساواة — أو بالحري : التسوية — وفق نمط الذكر . ولكن ، لماذا لا يبحثن عن الوصول إلى مستوى الرجال وفق الخصائص النسائية ؟ فهل يُعزى ذلك إلى العبادة القديمة ، عبادة القوة ، ذات الصلة بكره جنسهن الخاص ؟

أبداً لن يفهم الرجل ، الذي لم يُزوّد بالبطن الخلاّق ، إلى أي مدى تغوص نفس المرأة في الواقع العميق ، واقع الأشياء والموجودات . فقوة المرأة ناجمة عن أنها ، وحدها ، هي القادرة على الإحساس بقوى الحياة.

خلال مقابلة إذاعية مع عامل في آلات التوجيه الحديث ، أعلن العامل بهدوء، بعدأن تكلم على ناظماته الآلية، عن الحب الذي يكنّه لأشجار منطقته وحقولها وآفاقها .

وبدلاً من أن يستنتج المذيع أن هذا الرجل إنما هو عامل تقني اتصف بالقدرة على البقاء رجلاً سوياً ، سأل ، وقد بدا على وجهه ما يشبه الإشفاق ، أليس هذا العامل في التوجية الحديث شاعراً « بعض الشيء »؟

فهل يعني أنه أبله ؟

الفصل الثاني

خدعة الدونية

> وتوقفت المعركة نظراً لعدم توافر المقاتلين .
> كورنيل

يتساءل كثير من النساء :

— هل صحيح ، في نهاية المطاف ، أن المرأة تعاني من دونية طبيعية ؟ وهل هي ، بصورة طبيعية ، أقل ذكاء ، وابداعية ، وفاعلية ، من الرجل؟

كتبت إلي بعض النساء قائلات :

— نادى الناس منذ بداية الأزمنة بدونيتنا . وكثيرات منا مقتنعات بهذا مع ذلك .

ولكن ، هل تمت البرهنة من الناحية العلمية على نواقصنا ؟ وهل فرويد محق فيما ادعى ؟

وقالت لي نساء أخريات :

إذا كان من الثابت أن المرأة أدنى من الرجل حتماً ، فانها تستسلم لذلك . ومع هذا فلا بد لها من معرفته . . .

أولاً – الدونية المزعومة ، دونية المرأة

١ – بعض السخافات

أ – يبحث الناس دائماً عما لا تتصف به المرأة قياساً على الرجل . ولكنهم قلّما يتساءلون عما ينقص الرجل بالقياس إلى المرأة .

ب – يعبّر الناس دائماً عن **الإعاقة** بـ **الدونية** وعن **الميزة** بـ **التفوق**

ج – وإذا تكلموا على « الفروق » بين النساء والرجال ، فان المرأة مشروطة بالتفكير أنها مختلفة **نقصاً** ، وأن الرجل مختلف **زيادة** .

د – مسألتا الدونية والتفوق مطروحتان على الغالب طرحاً إجمالياً دون أن تؤخذ الظروف بالحسبان .

هـ – قلّما يبحث الناس في أي شيء تتصف امرأة بأنها دون ما يمكن أن تكون عليه .

وثمة سخافة سادسة

عندما تصبح إحدى النساء مستقلة ، فان الناس يعدّونها « **نافعة** » من الناحيتين الإجتماعية الإقتصادية . غير أنه يبدو أنهم ينظرون إلى أن ذلك لا يغيّر شيئاً فيها ، الأمر الذي يعني أن المرأة قد تم تصنيفها تصنيفاً نهائياً : إن قدر المرأة أن تعجب بالرجل ، وأن تعمل من أجله ، وأن تلد أطفالاً ، الخ . ويستخلص الناس من ذلك أن المسألة هي مسألة أقدارها الطبيعية الوحيدة ، دون الأخذ بالحسبان صورة المجتمع الذي

تعيش فيه المرأة . فثمة إلتباس بين المحصول وبين ما يُعبّأ فيه المحصول .

٢ — بالقياس إلى أي شيء تتصف المرأة بأنها أدنى ؟

تُصاغ ضروب السلوك الإنساني دائماً بمصطلحي الدونيةوالتفوق. فغالبية الكتابات والمناظرات تقع في الإلتباس ذاته . ويرفع المرء ، بالإضافة إلى ذلك ، من قيمة سلوكه . وعلى هذا النحو ، ينتهي الناس إلى الإعجاب عندما يكون « التفوق » ، وإلى الاحتقار عندما تكون « الدونية » .

و « المتفوق » ينضح بالأهمية . و « الأدنى » ينسحب خجلاً مرتبكاً. ويعود النظام إلى نصابه ، ويسود الهدوء في فارصوفيا ، ولكن النار تستمر كامنة .

أيهما « المتفوق » ، المرأة أم الرجل ؟ ليس لهذا السؤال معنى ، لأن التفوق والدونية يقاسان بمقياس مشترك .

فعندما نفصل ، والحالة هذه ، بين الجنسين، كما يحدث ذلك على وجه العموم ، يصبح متعذراً كل قاسم مشترك . ان مثلنا في ذلك مثل من يتساءل : «أيهما المتفوق ؟ الماء أم النار ؟ الذهب أم الفضة ، الجبل أم الوادي ؟ »

وما دمنا نفصل على هذا النحو بين الجنسين ، فان كل مناظرة تبقى مناظرة متعذرة . كيف يمكننا أن نبرهن على تفوق أحد الجنسين ؟ بالقياس إلى أي شيء يتصف أحد الجنسين بأنه متفوق ؟

إننا لا نتساءل أبداً ما إذا كانت المرأة والرجل هما حقاً ما يمكن أن

يكونا عليه . أوليست المرأة والرجل ، كلاهما ، في مستوى أدنى من حيث إمكان تحققهما الخاص ؟

هنا إنما تكمن المسألة ، على ما يبدو لي . فالمرأة المتحققة « أسمى » من رجل مراهق ولو كان عبقرياً ، والرجل المكتمل « أسمى » من امرأة طفل . وكذلك فالمرأة الجميلة التافهة أدنى من امرأة تتصف بأنها امرأة على نحو **كلي** ، والفلاح الذي يحب أرضه أسمى من قائد لامبال بمهنته ، الخ .

إنني أقترح أن يحلّ مصطلح « معوق » محل مصطلح « أدنى » ، ومصطلح « متميز » محل مصطلح « متفوق » . ذلك يتيح لنا أن نرى من خلالهما على نحو أكثر وضوحاً . فالمسألة مسألة قدرات بالطبع ، ولكنها أيضاً مسألة **تحقيق الذات** . وكون الإنسان ، في هذا المجال ، امرأة أو رجلاً ، لا يدخل في الحساب ، كما لا يدخل في الحساب كون الإنسان حاكماً أو محكوماً .

وأود أن أشير إلى إلتباس آخر . يوازن المرء على وجه العموم شخصاً بشخص آخر بدلاً من أن يقيسه بمعيار إمكاناته الخاصة .

فلنتصور عاملة فقدت استخدام ذراعها . إنها تعتقد في نفسها مباشرة بأنها « أدنى » من الآخرين . والواقع أنها معوق بالقياس إلى معيارين : عملها ومردودها . ولكن ذلك لا يعني على الإطلاق أنها أصبحت « أدنى » (من الناحية الداخلية) من ذاتها ولا من أي شخص . بيد أن احتمال أن تعاني الشعور بالدونية يبلغ ٩٠ بالمئة ، لأنها تخلط بين ما هي **عليه** وبين ما **يتوقعه منها** المجتمع . ومع ذلك ، لن يبدو أي شعور بالدونية إذا

كانت هذه العاملة متوازنة . ولن تعاني غير إحساس بالإعاقة التي ستسعى جهدها لتعويضها في حدود إمكاناتها .

ومن الواضح أننا جميعاً متميزون أو معوقون مائة مرة في اليوم وبحسب الظروف . فعازفة البيانو الشهيرة ، على سبيل المثال ، معوق بالقياس إلى مغرم بالرياضيات في الخامسة عشرة من عمره ، إذا اتخذنا الرياضيات معياراً . وينقلب كل شيء إذا أصبح البيانو هو المعيار .

ومن اليسير أن نكثر من الأمثلة . فكل إعاقة وكل ميزة منوطتان بالوقت والظروف . والإعاقة هذا اليوم قد تصبح ميزة في الغد .

٣ – جدول مقارنة

تلك هي بعض الموازنات بين المرأة والرجل . ولكن لا تعتمدوا على المظاهر . ذلك أن بعض الميزات يمكن أن تحجب بعض الإعاقات ، والعكس صحيح . خذوا مثالاً على ذلك : رجل يبدو متميزاً إزاء الشعور بالدونية لأن صورة مجتمعنا مذكرة.وهذا لا يمنع أن يكون معوقاً في نهاية الأمر : إنه يخشى أن يفقد مكانته ، وأن لا يبدو على مستوى ما يتطلبه الناس منه ، الخ . يمكن إذن أن تغيّر كل إعاقة أو كل ميزة من العمود الموجودة فيه بحسب الظرف .

وغني عن البيان أن أياً من الإعاقات أو الميزات يمكن التعبير عنها بمصطلح « الدونية » أو بمصطلح « التفوق » . فذلك سيكون تطبيق **مفاهيم قيمية** على أوضاع تتصف بأنها إما طبيعية وإما ناشئة عن الظروف .

وسيكون مضحكاً أن يدعي المرء بأنه أدنى أو أسمى لأنه يمتلك صبغياً واحداً أكثر ، أو أن صبغياته تنقص واحداً .

أمام	تتصف المرأة بأنها	يتصف الرجل بأنه
العالم الحديث	معوق	متميز
الشعور بالدونية	معوق	متميز
الجنسية (١)	متميزة	معوق
خلق الحياة	متميزة	معوق
الإبداعية الداخلية	متميزة	معوق
الإبداعية الخارجية	معوق	متميز
النضج السريع	متميزة	معوق
عقدة أوديب	معوق	متميز
قوة النفس	متميزة	معوق
حَصَر الحياة	متميزة	معوق
حَصَر الموت	متميزة	معوق
العدوانية المهنية	معوق	متميز
الإستقرار داخل مهنة	معوق	متميز
حس التديّن	متميزة	معوق
الذكاء الإجمالي	متميزة	معوق
الذكاء المجرد	معوق	متميز
الوضوح النافذ	متميزة	معوق
الصبر	متميزة	معوق
الحس السليم	متميزة	معوق
الفهم الانساني	متميزة	معوق
المظهر الاجتماعي	معوق	متميز
الوجود العميق	متميزة	معوق
الرمزية	معوق	متميز

(١) سيتم تحديد هذا المصطلح فيما بعد .

يعتقد الناس على وجه العموم ، في الصورة التي تتصف بها حضارتنا ، أن المرأة تعاني الشعور بالدونية أكثر من الرجل . ويضيفون أن قرون « الدور الثاني » لم تسوّ أمورها . ومع ذلك !

ويعتقد كثير من النساء في أنفسهن أنهن أدنى **لمجرد كونهن نساء** . ولكن هل هذا إحساس طبيعي أم إحساس ثقافي ؟ لن يفكر رجل من الرجال أبداً أنه : « ليس غير رجل » . بل يقول على العكس : « أحس في نفسي أنني أدنى لأنني لست رجلاً » . أو يقول : « إنني أصبح أنثى ضعيفة خائفة » .

كانت إحدى الصبايا تقول لي :

— نحن أدنى ، لا بالكيف بل بالكم . تلك هي طبيعتنا . الإناث ، في مملكة الحيوان . تافهات وخاضعات . ويتقاتل الذكور ، وتنتظر الإناث بغبطة ليعبدن المنتصر . إن فرويد على حق بالتأكيد .

وقالت لي الصبية ذاتها :

— الإناث تافهات . إن هذا واقع ، ولا بد من قبوله . . .

وقالت لي صبية أخرى :

تابعت دراسة علمية . حاول بعضهم أن يوفّر الحياة معاً لمجموعة من إناث القرود الآسيوية : دون جدوى . ثم أدخلوا في وسطها ذكراً واحداً بالغاً : وفي الحال تكوّن مجتمع منظم ، اجتماعي . أليس هذا دليل أولية الذكر ؟

تذكروا ما كنا قد قلناه فيما سبق : يستعمل الناس مصطلحي

«أدنى » و « أسمى » بالنسبة إلى الآخرين ، وقلّما يستخدمهما المرء بالإسناد إلى ذاته . وذلك ، والحالة هذه ، إنما هو الخطأ الغريب الذي يمكن للمرء أن يرتكبه .

٤ – أيهما أكثر خوفاً ، الرجل أم المرأة ؟

أليس الرجل ،في نهاية المطاف ، هو الذي يعاني الشعور بعدم الأمن والعجز والدونية أكثر من المرأة ، ؟

لنلاحظ أول الأمر :

أ – أن الرجل يخاف المرأة خوفاً عميقاً : وسأوضح ذلك فيما بعد دونما عجلة .

ب – لا يحس الرجل في نفسه أنه متفوق على المرأة : إنه يعاني الحاجة إلى **الزعم** بأنه متفوق عليها ، مع بأنه يحس إزاء المرأة بحالة من الخطر وعدم الأمن .

ج – منذ أن تتفوق إحدى النساء ، يتصرف الرجل العادي كما لو أن هوة كانت قد انحفرت تحته . وسنرى أنه يتصرف على هذا النحو لا لأنه يخشى أن يفقد رجحانه بالمعنى التقليدي للكلمة ، بل لأن المرأة «تقود » الرجل في كل مرة يكون فيها فريسة خشية غريبة خفية .

ء – يُصاب المرء بالذهول لو لاحظ عدد سلوكات الرجال التي تذكّر ، أمام امرأة (وربما زوجة) ، بسلوكات صبي صغير أمام أمه .

ه – بل إنني أعتقد أن المرأة تشعر بأنها « متفوقة » على الرجل . وهذا الشعور يعشعش في مناطق وجدانية منيعة على الرجل بصورة كلية.

فالمرأة قبل كل شيء أم (بالفعل أو بالقوة) . وعاطفة الأمومة جزء من طبيعتها . وهذه العاطفة ، من جهة أخرى ، ليست معنيّة « بطفلها» على سبيل الحصر ، بل هي معنيّة أيضاً بالعالم كله . وهذا هو السبب في أن المرأة تميل إلى النظر إلى أفعال الرجال كما تنظر إلى ألعاب أطفالها : بنوع من الريبية ، بل بالتهكم أو بالعطف .

وثمة ما هو أكثر : وجود المرأة ضرب من الغلاف الذي يتصف معاً بأنه مغلق وواسع ، والذي يتيح لها أن « تمسّ » قوى الوجود العميقة . وهذا هو السبب الذي من أجله تنظر إلى أعمال الذكور ، وفتوحاتهم ، نظرة تتصف بالقليل من الشرود ، على أنها ظاهرات سطحية . ونحن سندرس هذا الأمر بكثير من التفصيل ، ذلك أنه على جانب كبير من الأهمية من أجل التفاهم (أو عدم التفاهم) بين الرجال والنساء . ويمكن القول إن المقصود هنا شعور بالتفوق إزاء الرجل ، أو بالحري شعور بالإتساع : إن المرأة تحس إلى أي مدى تتصرف وجدانياً على مستوى آخر يتصف بأنه كالحياة لا يمكن تحديده ، مستوى لا يتوصل الرجل إلى الإحساس به أبداً .

إن لشعور الرجل بالدونية أمام المرأة باعثاً آخر .

فالرجال انحدروا خلال القرون في سقوط حر :

كانوا	فأصبحوا
أقوياء	عصبيين
فاعلين	هائجين
متانا	منهكين

خلاّقين	شهوانيين
صنّاعاً	أناساً آليين
فرديين	مروّضين اجتماعياً
مستقرين	مصابين بالحصر
شخصيين	مغفلين
عمالاً	أقنانا
ذواتاً	خاضعين

كان الرجل ، فيما مضى ، على توافق مع الطبيعة وواقع الأشياء ، ومع عمله وحروبه . وهو ، في أيامنا هذه ، يحاول بمشقة ، وقد تحوّل إلى رقم ، أن يتعلق ببدائله الهزيلة ، بدائل القوة . وكما كان يقول لي أحد الالاب السود : « إن الصيّاد الكبير في العهد الغابر أصبح جرّافاً صغيراً في أيامنا هذه » .

ومن هؤلاء الرجال الذين أصابهم التدهور ، يُتطلب أكثر فأكثر (بالمجهول) . ولكن النساء موجودات أمامهم . وأعماقهم لم تتغيّر من حيث ما تتصف به من إيجابي أو سلبي . أما النساء ، فقد لبثن كما كنّ دائماً على الرغم من المظاهر الخارجية .

وغالبية النساء ، باديء ذي بدء ، يرغبن في أن يبزّنّ الرجل . هل هو الثأر ؟ ذلك سيكون أمراً سويا :

كانت إحدى النساء الذكيات تقول لي :

أتمنى ، لمرة واحدة ، أن أكون الموجّهة ، والقائدة الأولى ، في مهنة وقف بصورة اعتيادية على الرجال . أتمنى أن أُظهر قدرات مساوية

لقدراتهم ، وأن أبرهنها لنفسي . ثم أستعيد مكاني النسوي ، لأنني في الحقيقة قليلة الاكتراث بما يفعله الرجال . . .

فنحن نجد في قول هذه المرأة عنصرين : الرغبة في الثأر التي تكلمت عليها فيما سبق ، ثم عدم اكتراثها بالأعمال الشائنة التي يقوم بها الذكور على سبيل الحصر ، والتي سأفصّل فيها .

وعلى عكس الرجل الذي يتصف بصورة طبيعية أنه غير مسقر ، تتسم المرأة بأنها في **منتهى الاستقرار** . يضاف إلى هذا أنها استطاعت أن تحتفظ ،خلال العصور ، بضرب من مرونة في التلاؤم صانها ، مهما يكن اعتقاد الناس ،من عبودية الذكر .

والمرأة تلاحظ الرجل مزوّدة بسلاح فكرها الثاقب المخيف . فكيف لا يجتاحه منذئذ شعور دائم بالدونية ؟ ذلك أنه على علم بأنه لا يطابق ما هو عليه ، وبأن المرأة تنزع عنه القناع وتقدره بالقيمة الحقيقية ، قيمة **ماهيته** .

يضاف إلى هذا أن كثيراً من النساء يغذّين الشعور بالدونية لدى الرجل ، دون أن يقصدن ذلك بصورة شعورية . ويحدث ذلك عندما تبدي إحدى النساء ، بصورة ماكرة أو جهاراً ، شعوراً بالإعجاب إزاء أحد الرجال :

أنت قوي وذكي . ومن المثير أن يعمل المرء معك ... ولا أستطيع إلاّ أن أستسلم ، فأنت على حق دائماً . . . ويشعر الإنسان بالأمن معك » ، الخ .

ويتمسك الرجل بهذه اللعبة . ويجهد نفسه لـ « يستحق » هذا الإعجاب.

ويمثل دوراً ، ويعلم أن أي كبوة تثير التهكم أو الهزء لدى المرأة التي تشعر بالسعادة القصوى في أن تأخذ بالثأر (حتّى على صورة سلوك أمومي وعطوف على حد قولها ، سلوك ليس إلاّ احتقاراً) .

هذه المرأة تترصّد الرجل . ولكن ليس بدءاً من أيامنا هذه إنما يذهب الناس إلى السيرك أملاً برؤية المروّض تفترسه الوحوش .

والسؤال ذاته يطرح نفسه مجدّداً : من يعاني الشعور بالدونية أكثر ؟ ان الميزان يشبه ميزان العدالة المثالية : الكفتان متعادلتان . والشعور بالدونية أحسن توزيعاً من الثروات .

وما النتيجة ؟ المعركة مستمرة ما دام الناس يمنحون « قيمة أخلاقية» لمزايا كل جنس ولعوائقه .

رابعاً – كيف يتحدد موقع المرأة

١ – المرأة تدافع عن نفسها

في كتابي الأول (١) ، وصفت الشعور بالدونية تفصيلاً ، وكذلك الأعراض التي تنشأ عنه . إنني أذكّر ببعض الأمور الأساسية . يخلق الشعور بالدونية :

أ – الإحساس المؤلم بكون المرء « أقل » من الآخرين.

ب – الانطباع بأن المرء « تحت » المعيار ، مثال ذلك كثير من

(١) الانتصارات المذهلة لعلم النفس الحديث ، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، دمشق ١٩٨١ ، ترجمة وجيه أسعد .

المراهقات اللواتي يستحوذ عليهن القلق بصورة فعلية ، قلق ناشىء من احساسهن بأنهن لسن كسائر الناس .

ج — الإحساس بأن المرء ليس على مستوى المهمة التي حدّدها لنفسه أو فرضها المجتمع عليه .

وقد يتجلى الشعور بالدونية في مجال واحد ، كرد فعل المرأة إزاء الرجال ، على سبيل المثال . ويمكن أيضاً أن يؤثر في جميع الأفعال . وأعراضه الأكثر شيوعاً هي : إحساس خفي بأن المرء يتصرف «كما لو» أنه كان مجرماً ، وانطباع بأن المرء غير جدير بالحياة ، وشعور بأنه يكاد يكون غير مقبول من «الآخرين» ، الخ .

إن الوجل والعدوانية المرضيّة هما ، بالطبع ، مفعولان مباشران من مفعولات الشعور بالدونية .

وتستجيب المرأة للشعور بالدونية :

١ — إما بضرب من **التعويض** يمنحها الإحساس بالقوة والتفوق . فتصبح عبارة «إنني أدنى من . . .» عبارة «عليّ أن أفعل كل شيء لأبدو متفوقة على . . . .» .

٢ — أو بضرب من **إعلان الحرب المعمّمة** . وتلك هي حال عدد من المراهقات اللواتي ، يجترن ، وهن يعتقدن أنهن غير محبوبات ، عداوتهن ضد العالم بأسره ، ويبدين غطرسة غريبة .

٣ — أو بضرب من **الغيرية المغالية** . وستحاول على الغالب بعض النساء ، اللواتي يحكمن على أنفسهن بصورة لاشعورية أنهن غير

«جديرات» بالحياة ، أن يضحين بأنفسهن . إنهن يهبن أنفسهن لعمل من الأعمال دون أي اهتمام بأنفسهن على الإطلاق ، وحتى الموت إذا كان ذلك ضرورياً . ومع ذلك ، فهن يرغبن في هذا الموت لاشعورياً . ومن المحتمل أن يقلن : « إنني أتحرر من الشعور بالدونية بافناء نفسي في سبيل الآخرين » . وذلك انما هو **عصاب الاخفاق** .

٤ — أو **بالكارثة الكلية** . فكثير من النساء ، المقتنعات بعجزهن ، يغرقن في تشاؤمية حادة . فينتحرن بصورة فعلية . ويسقط اعتبارهن لأنفسهن إلى الصفر . ولما كن عاجزات عن أن يباشرن وحدهن أي شيء مهما كان ، فانهن ينتظرن **كل شيء** من الرجل الذي يغذين تجاهه عداوة لاشعورية قوية . ويعتقد بعضهن أنهن شياطين ، فثمة من ألقى عليهن أذى من السحر . إن المسألة هنا هي مسألة مازوخية معنوية عميقة جداً . وعندئذ يرفضن أن يسندن إلى أنفسهن أدنى النجاح الذي يعزونه إلى ضرب من « المصادفة » .

ويلاحظ المرء على وجه الخصوص ردود الفعل هذه لدى نساء كانت لهن علاقات سيئة مع أمهاتهن : مع أم متعسفة وحاضنة ، وجافية الطبع ، ومطالبة ، وخائبة ، ومتشائمة ، ومع أم تفعل كل شيء بدلاً من ابنتها التي تستنتج من ذلك أنها عاجزة ، ومع أم تثير أبنتها ضد أبيها ، الخ .

٢ — أحتج ، إذن أنا موجودة

هذه الصورة الأخرى من رد الفعل ، **الاحتجاج المذكر** ، أبرزها أدلر . فالمسألة بصورة كلاسيكية هي مسألة امرأة تباشر ، علانية وبصورة عدوانية ، أعمالاً موقوفة على الرجال **عادة** . ومن المحتمل ،

بنسبة ٩٠ بالمئة ، أن رد الفعل هذا يمد جذوره في عقدة أوديب (انظر فصل **البنت المحصورة**) .

فالمراهقة ، خلال فترة المراهقة ، صارعت ضد أبيها (إنني سأجلد حتى الموت هذا الذكر الصلف والمنيع ! ») ، أو ضد أمها (« إنني أرفض أن أكون ضحية كأمي . وهذا هو السبب الذي من أجله سأنبذ دوري الأنثوي ، وسأحوّل نفسي إلى صبي ») . وذلك ليس غير مثالين بالطبع .

ثمة بعض المجالات المعروفة جيداً ، التي تظهر فيها هذه « المطالبة » ، مطالبة المرأة : الألعاب الرياضية العنيفة ، وسباق السيارات ، والمجالات التقنية ، والإستكشافات الشديدة الخطر ، الخ .

ولا بد مع ذلك من ملاحظة أن هؤلاء النساء ينفذن إلى مناطق الذكور ، لا بهدف تحقيق الذات بسرور ، مثلما يفعل الرجال ، **بل** بارادة عاتية أن يفعلن أفضل منهم . وقد يعتقد المرء ، للوهلة الأولى ، أن عداوتهن المطالبة موجّهة ضد الرجال على سبيل الحصر . ولكن لا شيء من هذا . والدليل على ذلك أنهن يظهرن عدوانيات ومزدريات تجاه المراهقات أيضاً ، والنساء « ذوات الأنوثة » ، والنساء « المشبعات بعاطفة الأمومة » ، والأطفال .

ويمكن القول إن النساء يحاولن ، حين يصبحن « مثل » الرجال ، أن **يتخلصن من أنوثة تخيفهن** . والحال أن هذه الأنوثة تبقى حاضرة ، سواء شئن أم أبين . فهنّ إذن في تناقض دائم مع أنفسهن ، وحياتهن مشحونة على نحو لاشعوري بالحَصر والألم . **وذكورتهن ليست واقعية ، بل هي**

وهمية (وسنرى أن الذكورة الحقيقية هي شيء مختلف كل الاختلاف).
فكلما أردن أن يكنّ كالرجال ، ابتعدن عن أنوثتهن . إنهن عاجزات عن تصور أن الأنوثة – والمرأة – يمكن أن تكونا مزيتين .

إنهن رجال خائبون ونساء فاشلات. ويتعرّضن إلى خطر أن يسرن يائسات ودونما هدف ، في متاهات الشعور بالدونية .

ثمة صورة أخرى من الاحتجاج الرجولي ، أكثر اتصافاً بالتستر والتخفي والقصد المبطّن .

وإليكم بعض الأمثلة :

– بعض النساء ينتظرن طفلاً انتظاراً يرافقه ضرب من الابتهاج المطالب (« على هذا النحو ، سيرى زوجي أنني ، أنا أيضاً ، قادرة على أن أفعل شيئاً ما وأنني كفيّة لذلك جيداً ! ») . إنهن ، على نحو رمزي ، يدفعن ببطنهن إلى الأمام .

– ثمة الكثير من المواجهات اليومية : تعال ساخرٍ أمام زوج أخرق في المطبخ أو في الأعمال المنزلية ، واستخفاف العطوف إزاء أخطاء الرجل (« أنت قوي جداً في مهنتك ، ولكنك ما أن تخرج منها . . . ») ، وخشونة متعالية أمام تردّد الرجل (« هل أنت ، مع ذلك ، أكبر من أن تقرر ؟ ») ، وفرار دون قيد ولا شرط من مسؤوليات الأمومة (« لن يفعل ابنك شيئاً غير ما تفعله ، إنه نسخة طبق الأصل من أبيه ») ، الخ.

وجميع ردود الفعل هذه واضحة على نحو تام . إن النساء يحاولن بالمقابل خصاء الرجل معنوياً ، لأنهن يعتقدن في أنفسهن « مخصيّات »

وأنهن أدنى . وتلك مقابلة بالأشياء غير عادلة بالنسبة إلى كثير من الأزواج الذين لا يملكون إمكانية تغيير الوضع ، ما داموا غير مسؤولين في شيء عن المراهقة الخائبة لزوجاتهم .

٣ ــ حرب العصابات

إنه لتكتيك المناوشة ، سلاح تفضّله كثير من النسوة . فمحاولات «التفوق » تقع فجأة . ويقع الهجوم بحركة دائبة ، ويتوقف ، ثم ينطلق مجدداً ويستأنف فاعليته في اللحظة التي ينتظر فيها الرجل ما هو أقل. وتحاصر المرأة خصمها بصبر وجرأة . إنها لا تتعجل الأمور ، وسنرى أن الصبر خاصة من خواص الأنوثة . وإذ تتصف المرأة بأنها ثاقبة الفكر ، فانها ماهرة في « مس » النقاط العطوبة لدى الرجل .

وتؤمّن حرب العصابات هذه للمرأة ، على وجه العموم ، إحساساً قوياً بالتفوق . فالمناوشات تندفع من كل مكان : ضروب من التهكم اللاذع ، وملاحظات تتسم بالعطف الزائف ، ومعاينات فظة . والرجل لا يستطيع ، وقد وُضع في حالة من العجز ، إلاّ أن يرفع الراية البيضاء .

وثمة تكتيك آخر تتحوّل فيه المرأة إلى أم ــ دجاجة ، تنتبه إلى أي خطر يمكن أن يهدّد رفيقها : فالزوجة تقتضي أن يضع زوجها ، لمجرد زكام بسيط ، لثاماً على أنفه. ومثل هذا السلوك يخفي ، في العادة ، ضرباً من العدوانية القوية . ولكن لماذا البحث عن التفوق يا ترى ؟ لأن«تضييق نفَس» الرجل يعني تلاشيه واسترجاعه « إليها » في حرارة بطنها الرطبة ، ويعني إيقاعه في الشرك ومنعه من أن يتمتع بأي استقلال. وهي ، من جراء ذلك ، تحتفظ بمكان الصدارة .

٤ ـ الذهان الهذائي (١)

ينطوي هذا المرض العقلي أو الوجداني على مروحة واسعة من ضروب السلوك . هاكم أعراضه الأكثر شيوعاً ، التي نجدها فرادى تارة ، وطوراً مجموعات :

ـ عدم اندماج بالمجتمع ، يكاد يكون كلياً ، وعدوانية .

ـ حذر متعال ازاء أي شخص ، ومن هنا منشأ انعدام الألفة وتعذر «التلقائية » .

ـ غطرسة باردة .

ـ نَزَق حاد تعدلّه إجابات سريعة لاذعة .

ـ أفكار اضطهاد (« كل الناس يريدون الشر بي ، ولا أحد يحبني ، ولا أحد يمكن أن يحتملني . . . ») .

ـ عناد لا يتزعزع في الآراء التي ترسخ بصورة نهائية .

ـ الحاجة إلى برج عاجي يوحي بالتعجرف .

ـ التوحّد بمُثُل عظيمة وأفكار مغالية ، ببلد ، برجل شهير ، بالله ، الخ .

ـ في المجال المرضي : تتلقى الشرطة عدداً من الشكاوى الصادرة عن نساء يزعمن بأن ثمة آلات تصوير وتنصت مخبأة تراقبهن ، وأنهن مخدرات بغاز ثمة « من » سرّبه داخل شقة السكن ، الخ .

---

(١) انظر كذلك « الانتصارات المذهلة لعلم النفس الحديث .»

ويبدو الذهان الهذائي ، على الغالب ، منذ الطفولة ، ولكن من المحتمل جداً أن لا يتحول نحو تعقيدات مرضية واضحة . والواقع أن الذهان الهذائي يبقى ، لدى الكثير من المراهقات والنساء ، في حدود عصابية على سبيل الحصر . إنهن يبدين غطرسة عنيدة . وانعزالهن المتعالي كلي . وتغطي هذه الضروب من السلوك دائماً شعوراً بالدونية راسخاً ، يُستخدم الذهان الهذائي وسيلة من وسائل الدفاع ضده . « لا يحبني الناس ؟ حسن ، سأبدو متعالية ومستخفة ، وستكون نظرتي صاعقة ، ولن أولي ثقتي أحداً ، وسيلغي احتقاري العالم بأسره ، ولن آخذ بالحسبان على الإطلاق آراء الغير ، الخ » .

٥ ــ المأساة التناسلية

المرأة قادرة على العلاقات التناسلية وعلى الولادة ، ولو كانت باردة من الناحية الجنسية . إنها تستطيع أن « تتصنّع » المتعة الجسدية طوال حياتها أحياناً .

أما الرجل ، فانه يصطدم في هذا المجال بعائق جدي . ويتعذر عليه « الغش » ، إذا كان بصورة عامة عاجزاً من الناحية التناسلية . إن الصورة التي تتخذها حضارتنا تقتضي ، والحالة هذه ، أن يبرهن للمرأة عن رجولته . وكل عجز في هذا المجال يثير لديه شعوراً أليماً بالدونية . وسنرى سبب ذلك في فصل « عضو الخدعة » .

وتتصف المرأة أنها على هذا النحو متميزة بصورة مزدوجة .

فالعجز الناجم عن البرود الجنسي لديها يجهله شريكها جهلاً تاماً ، هذا من جهة .

ومن جهة ثانية ، يمكن أن تبيح لنفسها أن تستخف بشريك يحتمل أن يكون عاجزاً ، وأن تحتفظ على هذا النحو بضرب من موقف «التفوق » .

وينسحب الرجل وهو يجرّ ذيول الخزي والارتباك ، جاهلاً أن هذه المرأة الساحرة مصابة بالعجز ذاته .

رابعاً – وضع الرجل

١ – الحنين إلى الحي

هل المرأة أمام الابداعية معوق أم مميزة ؟ نحن الآن أمام إحدى مزاياها الأكيدة ، التي يكون الشعور بالدونية هو رد فعل الرجل إزاءها على الغالب ، دون علم منه . إن هذا الموضوع كان قد درسه كارن هورنه.

ويمكن أن نطرح السؤال على الشكل التالي :

– هل يحس الرجال بأنهم أدنى من النساء لأنهم لا يستطيعون أن يلدوا أطفالاً ، ولأن أي خليقة حية لا تتشكل في جسمهم ؟ ألا يثير هذا « الجفاف » في الإبداع إحساساً بعدم الكمال أو العجز أمام الحياة ؟

ليس ثمة في السؤال شيء من العبث . فكل محلّل نفسي يعلم أن عدداً كبيراً من الرجال الأسوياءيتألمون ، **بصورة لاشعورية**، من عجزهم عن خلق« ما هو حي » . وهذا هو السبب ، من جهة أخرى ، في أن ثمة هوة بين أساليب الرجل في تصور الموت والحياة وأساليب المرأة .

قال لي كثير من الرجال (وأنا أعيد ملاحظاتهم إلى قاسمها المشترك) :

– إننا نعمل ، ونكتشف ، ونحقق الفتوحات ، ونبني . نحن نحاول

أن نـُخلـّد بأعمالنا أو بأولادنا . ولكن ما فائدة ذلك ؟ فنحن نبقى قاحلين ، ذلك أن كل هذا يحدث خارجنا .

قال لي أحد الصناعيين بالحرف الواحد ، وهو الموضوع ذاته :

ـ بنيت مصنعاً كبيراً ، فخر منطقتي . إنه نجاحي . وقد أنتقل إلى الخلود بسبب هذ البناءوالعمل الذي أقدم عليه . ولكن لدي انطباع بأن كل ذلك ، بما فيه المصنع ، لا أهمية له عندي ، ويخلـّف لي طعماً من المرارة . فالمصنع لم يخرج من أحشائي . . . إن رأسي هو الذي صنعه . غير أنني ماذا صنعت أنا بصورة أساسية ؟ لا شيء ، إلا أن يكون ما يهلكه الدهر . وأي دواء مسكن جميل هو !

وإذا أرهفت سمعك ، سمعت يومياً ملاحظات من النموذج ذاته .

ـ كيف حال الطفل ؟ قال أحد التقنيين لمخترع .

ـ لقد حملت أثري الفني في ذاتي خلال سنين ! (رسـّام) .

ـ ليس في اليد حيلة ، إن السيارة « مولودة » على هذا النحو (قال صاحب كراج لإصلاح السيارات إلى زبون كان يشير إلى عيب آلي) .

ـ فكرتي « رأت النور » أخيراً (كاتب) .

ـ قاربي ؟ ولكنه هو طفلي ! (رجل كان قد اشتغل في بناء قاربه الشراعي الصغير) .

ـ هذه الآلة هي روعة حياتي (مهندس) .

ـ في الغد ، أيها السادة ، ستكون ولادة الطفل (بنـّاء يقول لمعاونيه) الخ .

ابتسموا إذا شئتم ، ولكن اعترفوا بأن هذا الكلام كلام يصدر عن «أم » . وقد تجيبون أن المسألة لا تعدو كونها مسألة كليشهات . بيد أن الكليشهات ذاتها حبلى بالدلالات .

ففي هذا الكلام اليومي ، نجد :

– فكرة **الحمل** (« حملت أثري الفني في ذاتي ») ؛

– حب ما **يُصنع** (« إنها نتاج حياتي » ، « إنه طفلي ») ؛

– فكرة **ولادة** (« غداً . ستكون ولادة الطفل ») .

هل يعني هذا أن الرجل يعاني المرارة بسبب عجزه عن الولادة ، بالمعنى الدقيق للكلمة ، مع ما يرافق ذلك من استطالات لامتناهية يفترضها؟ نعم . أعتقد ذلك ، بل إنني واثق من ذلك .

ذلك أن المرء لا يستطيع حقاً أن يحتضن ، لكي يتوحّد به ، غير ما يخرج حياً من ذاته . ولكن ماذا يمكن للرجل أن يشدّ إليه سوى الأفكار والآثار الميتة ، سوى الزمن الذي يتفتت غير مخلّف أي علامة حية ، هذا الزمن الذي يصنع الحَصَر ، حصراً يدفع الرجل إلى أن يمضي دائماً إلى ما هو أبعد ، وأعلى ، وعلى نحو أسرع ؟ وماذا يبقى له غير ما يسميه شهوته إلى الفتح ، شهوة ليست سوى الخوف والدوار الميتافيزيائيين ؟

إن المسألة مسألة منطق صرف : إذا كان بامكان امرأة أن تعتقد في نفسها أنها ليست صاحبة حظوة ، لأنها لا تتصف ببعض الخصائص التي يتصف بها الرجل ، فلماذا لا يشعر رجل بالدونية ما دام لا يتصف ببعض خصائص المرأة ؟

ماذا يوجد مما هو غير سوي في أن يشعر الرجل بالدونية إزاء المرأة الخلاقة للموجودات الحية ؟ إن عبارة « جسم من جسمي » لا تنطوي على أي معنى بالنسبة إلى الرجل . فقد تقول : الرجل يخلق الحياة مع ذلك ما دام يلقي بمنيّه . ولكنه يقذف بمنيه هذا **خارج ذاته ، وفي الآن الذي ينقضي** ، في حين أن المرأة تسوس هذا المنيّ **في ذاتها وفي الديمومة.**

وتنزلق خدعة في هذا المجال كذلك . يعتقد بعض النساء في أنفسهن أنهن أدنى لأنهن لا يتوصلن إلى أن « يخلقن » أشياء كالرجال . ولكنها إنما هي **أشياء** على وجه الدقة ، لا **موجودات** . وبعبارة أخرى ، إن الرجال يصنعون ، ولكنهم لا يخلقون . فمن منهما صاحب الحظوة في نهاية المطاف ؟

أمن المحتمل أن يصنع الرجال الحياة ، يوماً من الأيام ، في المختبرات ؟ هذا أمر ممكن . ولكنهم سيصنعونها **وهم يعملون** ، ودونما حب عميق . وسيبقى هذا الخلق ، مجدداً ، خارجياً بالنسبة إليهم . وذلك هو العائق الأبدي ، عائق الرجل أمام **المرأة التي تستطيع أن تخلق دون أن تعمل ، وهي لا تفعل سوى أن تكون على ما هي عليه !**

نحن الآن نفهم العبارات التي ذكرناها أعلاه على نحو أفضل ، ونفهم السبب الذي من أجله يتمسك الرجال بأعمالهم — أولادهم . إنهم حملوا في ذواتهم مشروع هذه الأعمال الأولاد ، وقاموا بحملها البطيء حتى يوم الولادة الرمزي .

٢ — لا يكفي أن « يبني » الرجل

كل موجود إنساني يكابد الحاجة إلى أن يخلّف أثراً . وهذه الامكانية

التي تتصف بأنها طبيعية لدى المرأة ، يبحث عنها الرجل خلال أي شيء. إنه يتمنى أن ينمّي في ذاته شيئاً ما يكون على صورته . بيد أن هذه الأشياء نسخ ميته دائماً .

ثمة بعض أصحاب الامتياز : إنهم الفنانون الذين يخلّفون آثاراً وجدانية . غير أن هناك جملة الرجال الذي « يبنون » ، ويغزون المجهول ، كيما يعوّضوا استحالة الخلق بصورة حقيقية . إنهم بناة المدن العابرة التي تبتلعها الصحارى .

والرجال يبيدون الأحياء إذ يغزون . فبأي شيء يضايقهم ذلك ؟ يضايقهم أنهم لم يخلقوا حياة ، وابتعدوا ، في الوقت نفسه ، عن الطبيعة.

وهذا هو السبب الذي من أجله قد تتوقّف الحروب ، لو أن العالم كان تحت سيادة نساء هنّ نساء على نحو كلي . فكيف يمكن لهن إفناء الحياة وهن يخلقن الحياة ؟

خامساً ـ لماذا تشعر المرأة بأنها أدنى

١ ـ إنهن ملزمات بالإنجاب

يغرق بعض النساء في ضرب من الشعور العميق بالدونية لأنهن لا يستطعن الإنجاب (بعملية جراحية على سبيل المثال) . فما السبب في ذلك ؟ هل لأن دورهن الطبيعي أصبح متعذراً ؟ في الظاهر ، نعم . ولكن لأن الناس ، على وجه الخصوص ، أجبروهن ، في الأغلب ، على الإعتقاد أنهن لم يُخلقن إلا للإنجاب والتزايد والتكاثر . وكان الناس ينكرون عليهن الصور الأخرى من الإبداعية . بل إن رغبتهن المحتملة في أن لا يكون لهن أطفال ، كانت تصطدم بمحرّمات . « كيف لا يكون

لك طفل ، وأنت متزوجة ، منذ عشر سنوات ؟ » ويحدّق « الناس » بأعين مرتابة ، كمادة من مواد القانون الجزائي .

وهل اللواتي لا يستطعن الإنجاب يتصفن بأنهن يائسات بصورة صحيحة وعميقة ؟ نعم ، ذلك أنهن محرومات ، كما هو محروم من عينيه رسام أعمى . وأفضل ما يمكن للمرء أن يتمنى لهن ، عندئذ ، أن تكون حياتهن الداخلية من الاتساع بحيث تصبح كل لحظة ، بالنسبة إليهن ، مشاركة وإبداعية . ولكن لا بد أيضاً ، من أجل ذلك، أن يتوقفن عن الإعتقاد بأنهن غير جديرات أمام المجتمع ، وبأن الخدعة مستمرة في البقاء .

٢ – ثلاثة ضروب من الشعور بالدونية

يمكن للمرأة أن تعاني ثلاثة أنواع من الشعور بالدونية :

أ – شعور **شخصي** بالدونية تثيره ظروف الحياة ، وطفولتها ، وتربيتها ، والاسلوب الذي استخدمته في رد فعلها على أحداث وجودها. ولكن ذلك كله صحيح على السواء بالنسبة إلى الرجال ، ولا يتصف بأنه نوعي بالنسبة إلى المرأة .

ب – شعور **جماعي** بالدونية ، من جراء انتمائها إلى « السلالة » الأنثوية . فالرجال ، والحالة هذه ، نظروا دائماً إلى هذه « السلالة » على أنها كانت تنذر بالخطر . وسندرس هذه الظاهرة بكثير من التفصيل في في فصل آخر . فكان لا بد اذن من تحييد هذه الأنثى التي كانت تخيف، ولا بد من استبعادها . وأفضل وسيلة كانت تقرير أنها أدنى ، الأمر الذي كان يتيح ، بالإضافة إلى ذلك ، إبعادها محترمة . وهنا غُمرت المرأة :

فمهراجات الهند لم يجمعوا من الثروات بقدر ما كدّست المرأة من المديح. وثمة نتيجة ثانية : إن النساء توصلن للاعتقاد بأنهن أدنى من فرط ما سمعن ذلك يُقال ، واحتقرن أنفسهن على المستوى الفردي والجماعي . ولهذا فان المرأة تسبح في الشعور بالدونية منذ طفولتها . فهل يمكن للمرء أن يحاول عبور مستنقع دون أن يبتل بمائه ؟

ج ـ عاشت المرأة دائماً وفق مقاييس ليست مقاييسها ، **وهي تعيش هذه الحال في أيامنا هذه أكثر مما كانت تعيشها بالأمس** . ويصفها غالبية الرجال بالإستناد إلى مقاييس الذكر ، دون أن يفلحوا في التحرر من الآراء المسبقة اللاشعورية . ويتكلم كثير من النساء على أنفسهن وهن يدركن أنفسهن وفق هذه المقاييس ذاتها ، مقاييس الذكر .

إن ارتقاء المرأة المزعوم لم يغيّر شيئاً من الوضع ، **والسبب أن اللاشعور الانساني لم يتغير**. فكيف يمكن للمرأة ، مندئذ ، أن تتوصل إلى أن تَقْدِر نفسها حق قدرها ؟

سادساً ـ ما الحل ؟

لكي تتخلص المرأة من هذه الخدعة ، خدعة الدونية ، يمكن أن نقول ونتمنى :

ـ أن لا ترعى ضروباً غير موجودة من الدونية أو التفوق ، بل أن تبقى منتبهة لعوائقها ومزاياها . فالانتباه إلى العوائق يهدف إلى إزالتها في حدود الامكان ، وإلى أن تصبح مجدّداً امرأة . والانتباه إلى الثانية يهدف إلى أن تظلّ المحور المستقر والدائم ، محور الجماعة الانسانية .

– أن تعلم إلى أي حد يتصف الرجل بأنه ثلوم بدونها وأعزل .
وكما يعود المغامر إلى وطنه ، وأرضه ، وقريته ، ومنزل طفولته ، كذلك فان الرجل الذي يدفعه حَصَره إلى الفتوحات التي لا تعرف نهاية ، يكابد الحاجة إلى محطة داخلية قرب امرأته ، وفي منزله .

– إذا كان أساسياً بالنسبة للمرأة أن تكون محبوبة وأن يُرد اعتبارها ، فان ذلك ينبغي أن لا يكون لقاء انتحار داخلي ، ولا أن تصبح نصف رجل ، ولا أن ترتد إلى امرأة طفل أو إلى جرادة عابرة. وعليها عندئذ أن لا تصغي إلى أحد ، أن لا تصغي إلا إلى أصواتها الداخلية .

– أن تبدأ بأن تقول لنفسها إن كل شيء مزيف حتى ولو أخطأت. وأن تأخذ ثانية ، في أثناء مسيرتها وخلال تجددها ، ما يطابق ماهيتها ؛

– أن تعلم أن التسامح غير المستساغ أسوأ أنواع التمييز العنصري.

– أن تنبذ عبارات العالم الراهن التي تبدأ بـ « عليك أن » ، لكي لا تصغي إلا إلى عباراتها التي تنسجم مع ما « تقدر عليه » . ومن أجل هذا ، أن تصل من ذلك إلى أن تقدر نفسها حق قدرها ، كبيراً كان أم صغيراً ؛

– أن تعلم أن أقل عطف فاعل أقوى من ألف معركة ومئة ألف فكرة . فاذا لم يكن ثمة نساء ، إلى من سيتضرع المحارب الجريح ؟

– أن تفهم أن اختفاء المرأة يعني زوال العالم . وأن تحذر كذلك المقدسات الجديدة ، مقدسات المردود والنجوع والواجب . فعليها أن تظل ما وراء الأشياء كيما تحتفظ بالقيمة النفيسة جداً ، قيمة الشاهد القادر على أن يدل على القوارب التي تتقاذفها الأمواج .

– أن تفعل كل شيء لتحتفظ بصحوة الشاهد . فالمرء لا يرى وكر النمل إذا أصبح نملة . وكيف يمكن للمرأة أن تحتفظ بذبذبتها الخاصة وهي سجينة تشارك في صنع الاسمنت الحديث ؟

– أن تعلم أن الأبطال الحقيقيين رجال ونساء في الوقت نفسه : عطف ومعركة معاً . ولكن العطف لدى المرأة ، يتقدم على المعركة في الظهور ، فتتوقّف المعركة .

– أن تعلم كم يزكو **المؤنث** في ضروب الحلم الأكثر تواضعاً، وخلال ضروب الإحسان الكبيرة بمقتضى الحال .

– أن تفهم أصول إضفاء الشعور بالدونية الذي فُرض عليها .

– أن تحاول صعود مجرى زمنها الخاص لكي تتساءل : أين توقّفت ؟ لماذا لم أستطع أن أصبح ما أنا عليه ؟ في أي برهة كنت الشريك المتطوع في لعبة مزيّفة ؟

– أن تتمنى ، مع كل شخص ، أن ينزلق العالم من القوة نحو العقل ، ومن الكم نحو الكيف ، ومن المظهر نحو الماهية .

– أن ترفض ، أخيراً ، أن تستمع إلى أولئك الذين ينادون بالغاء ما تختلف به عن الرجل ، فمثل هذا الالغاء متعذر من جهة ، وهذه الفروق ، من جهة أخرى ، مزية بالنسبة إليها وثروة بالنسبة إلى العالم في الوقت نفسه . إن عليها ، على العكس ، أن تجعل هذه الفروق الأساسية أصيلة وتعمّقها ، وأن ترجع إلى أصل أنوثتها التي تتصف بأنها قوة ، وذكاء عميق ، وحكمة ، ورحمة .

ثمة ضرب من الغرابة : على المرأة ، منذ زمن بعيد جداً ، أن تُعجب الرجل الذي ينبغي أن يتملّق رب عمله .

وعلى هذا النحو إنما يسحر رب عمله ، على الغالب ، بواسطة امرأته.

إنه لضرب من البغاء الذي لا يعلن عن اسمه .

أصحاب النزعة العقلية يبدون بوجوه دافني الموتى . والواقع أنهم دافنو الحياة .

الأمر الذي يثير الاهتمام أن يلاحظ المرء امرأة بين أصحاب النزعة العقلية هؤلاء ، أصحاب الأفكار . إنها تدخل تدريجاً في حالة من الشرود. وتتلاشى نظراتها ولا تتابع المناقشات . وتنتظر أن ينتهي « ذلك » ،وأن تصبح المناقشات ثانية مناقشات إنسانية .

ذلك أن المرأة تعطي مليوناً من الأفكار مقابل حب صادر من القلب.

إنها لا تفهم محاولات الرجال لصنع معنى للوجود . فهي ، دون إرادة منها ودون أن تعرف ، تعيش هذا المعنى .

لا يريد الرجل الحالي أن يكون لبوناً ، وهو يرفض ، حتى إشعار آخر ، أن يكون الانسان الآلي .

إنه لحيوان معلّق بين حديقتي حيوانات .



الفصل الثالث

فـــرويـــد : مـــسـوّخ المرأة

> هذا هو السبب الذي من أجله ،
> ياسيدتي ، كانت ابنتك خرساء .
> موليير

النظرية التي تتصف بأنها أكثر النظريات ، التي تناولت موضوع المرأة ، رسوخاً وديمومة وعلمية ، هي النظرية التي تنسب إلى فرويد : لقد غزت العالم بأسره ، وتركت أثراً على المرأة بصورة قوية حتى أيامنا هذه ، ويمكن للمرء أن يتنبأ بدوام تأثيرها في المستقبل .

أعلن أحد أعضاء عائلة فرويد ، ٥ ايار ١٨٥٦ في فريبرغ ، عن ولادة ابن سماه سيغموند . ففي ذهن الرضيع ، الذي كان يتألق في بيت من مقاطعة مورافيا ، كانت قد وجدت ، بالقوة ، أكبر ثورة إنسانية — ونسائية — عرفتها جميع العصور . ثمة حياة عبقرية كانت تأخذ

انطلاقتها : إنها حياة مكتشف التحليل النفسي . وكان مقدّراً لهذه الحياة أن تنطفىء عام ١٩٣٩ ، وقد تركت الباب مفتوحاً لباحثين آخرين .

ومع سيغموند فرويد ، اختفت المرأة « الاختبارية » ، امرأة القرون الماضية ، وانبعثت المرأة « العلمية » من علبته ، علبة الأشباح والأسرار .

فرويد والمرأة : تكشف الكتب والمقالات التي تعالج هذا الموضوع عن اتجاهين : إما أن يجعل الناس من الفرويدية ديانة حقيقية ، وإما أن يسخروا من هذا العالم سخرية لم يسبق لها مثيل . . . هذا إذا لم يتجاهلوه بشموخ ، وكأن العصر الحديث قد تجاوزه . فكيف يحدث ذلك ! هل يحتفظ فرويد بمبرر وجوده في عصر الصواريخ ، فيما أن المرأة تلحق بالرجل في مصانعه التي تشبه وكر النمل ؟ هل ينبغي الاستمرار في قبول حكاياته الهائلة عن عقدة الخصاء والرغبة في عضو الذكر ؟

بيد أن هذا التهكم لا ينبغي أن يخدعنا : يبقى فرويد حاضراً مع ما له من أهمية واسعة .

أولاً — الثورة الفرويدية

١ — القنبلة الموقوتة

ظهر فرويد في اللحظة التي كان يحاول تيارٌ ذو نزعة تناوىء المذهب العقلي أن يكنس نمط الحياة الذي كان سائداً في القرنين السابع عشر والثامن عشر . وكان يسود قبل فرويد الرجال الجذوع والنساء الجذوع . وكانوا ينظرون إلى الرجل والمرأة على نحو معكوس : رأس لقدمين.

كان يبدو أن **الرجل الجذع** غير موجود إلا بطابقه الأول : الرأس

المفكر وصاحب المحاكمة . وكان الناس يعتقدون بسذاجة أن استخدام العقل وحده يكفي لكي يكون المرء إنساناً . وكانت هوات اللاشعور مجهولة ، وكذلك تيارات الوجدانية . وكان الفنانون والشعراء والنساء والأطفال ، وحدهم ، يبرهنون ، بأسلوب حياتهم ، عن وجود « شيء آخر » غير العقل .

وكان رجال هذه العصور **يعقلون الحياة ، ولكنهم لا يعيشونها.** ومع ذلك ، ثمة أصوات كانت ترتفع . وكان المذهب السريالي يقرع الأبواب ، وبعض المتهورين يحاولون التعبير عن وجودهم العميق .

وكان يبدو أن **المرأة الجذع** غير موجودة إلا ببطنها ، مصدر الإخصاب الالزامي والملذات المحرّمة . وقلّما كان رأسها يؤخذ بالحسبان ، اللهم إلاّ على أنه تابع تزييني ، أجوف بالتأكيد ، ودونما نفع معترف به .

فسر المرأة الخفي كان محتقراً أو مبالغاً في إطرائه . وكما يرى المرء ، لم يتغيّر أي شيء في أيامنا هذه .

وصل فرويد في الوقت المناسب ، في الفترة التي كان بعضهم يدرك أن العقل المحض ليس ثروة ، بل إفقار وعُصاب.

ونحو عام ١٨٩٠ ، أشعل العالم الفتيل . فقبل فرويد ، لم يكن الناس يعرفون المرأة أبداً . وكان لا بد من علم نفس الأعماق لدراسة قرقرة الحياة الوجدانية ، والغرائز والإحساسات . وبالتدريج ، صنع علم النفس طرق اللاشعور الكبرى ، وشاخصاته ، وحدوده الكيلومترية .

وعلى هذا النحو إنما حاول التحليل النفسي الفرويدي ، مسبروسونار * للتنصت على النفس الإنسانية ، أن يلتقط المرأة .

ولكن المرأة هذه سقطت من علٍ . ذلك أن عالم النفس الأول ، كان قد جازف ، بالنظر إلى أنه رجل ، في وصف المرأة على أنها طباق الرجل .

ومع ذلك ، كانت مفاهيم التحليل النفسي تنتشر في كل مكان : عقدة ، وعصاب، وأنا عليا ، ورغبة في العضو المذكر . واستخدم الناس هذه المصطلحات خبط عشواء ، ودفعت المرأة الثمن (١) .

٢ ــ المرأة أدنى لأنها مخصيّة

وعلى الرغم من بعض المظاهر الخارجية ، لا يزال كثير من النساء ينخدعن بخدعة الدونية :

ــ نحن ضعيفات وتابعات، يعتقد النساء . فمن المتعذر أن « نساوي» الرجل ، ولا نستطيع في ذلك شيئاً : تلك هي طبيعتنا . إن قدر الرجال أن يملكوا القوة والمجد . فنحن موجودات مشوّهات ، ومخصيّات ، ورجال خائبون . . .

هذا إن لم تستل المرأة سلاح الحرب ، لكي تصبح « كالرجال » ، **ولكنها وهي تنسى ، بالتالي ، أن تصبح امرأة .**

ومن الملاحظ ، من جهة أخرى ، أننا ، حتى الآن ، لم نحدّد بعدُ ماذا يعني أن يكون الإنسان **امرأة أو رجلاً** . ونحن سنعود إلى ذلك .

(*) Sonar : جهاز لكشف الأشياء تحت الماء بواسطة موجات صوتية « م » .

(١) انظر « انتصارات التحليل النفسي » .

وإذ كان فرويد يسمع هذه اللازمات ذاتها ، حين كان يحلل بعض النساء تحليلاً نفسياً ، تساءل عن السبب الذي من أجله كان لهؤلاء رأي إلى هذه الدرجة من التفاهة عن أنفسهن .

كان فرويد يتصور أنه لا بد من وجود باعث عميق لذلك . **فليس للذة بعد كل حساب، إنما يحطّ النساء ، على هذا النحو ، من قيمة وضعهن الخاص . ولكن لماذا ؟**

وتساءل فرويد فيما إذا لم يكن هذا الاحتقار الذاتي ، عدم الثقة هذا تجاه أنفسهن وتجاه زميلاتهن ، ناشئاً من عائق بيولوجي .

وفرضت الفكرة نفسها على العالم واتخذت صورة . وافترض فرويد أن كل امرأة ، من ولادتها حتى موتها ، ترغب بصورة لاشعورية في أن تكون رجلاً . وعليه ، فان الحاجة إلى أن يكون لها « علامة القوة» لدى الرجل ، العضو المذكر ، تعذبها . وثمة نتيجة أخرى : إن المرارة الناشئة من اعتقاد المرأة أنها مخصيّة من الناحية البيولوجية تنهش المرأة بلا رحمة إذن .

والنتائج المترتبة على ذلك ، في رأي فرويد دائماً ، هي :

أ – الليبدو ذو ماهية مذكرة .

ب – العضو الجنسي الأصيل الوحيد هو العضو المذكر ؛ أما عند المرأة ، فانه البظر ، ضرب من العضو المذكر المصغّر .

ج – ليس للمرأة جنسية حقيقية .

ء – المرأة موجود مخصيّ ومثقوب : شبيه بالعدم .

فالمرأة ، بحسب هذه النظرية ، موجود « دون جنس » إذن . وهي ، من جهة أخرى ، تريد أن تبلغ المحال : أن تكون رجلاً ، أن يكون لها العضو المذكر .

وحالة المرأة كانت غير ممكنة الحل إذن ، وخلص فرويد إلى نتيجة مفادها أنه كان من الأفضل أن « يذهب المرء إلى صيد السمك » (كذا) بدلاً من محاولته أن يقنع المرأة بالتخلي عن رغبتها ، المتعذرة التحقيق ، في أن تكون رجلاً .

ومهما يكن من أمر ، **فان المرأة كانت قد أصبحت « مشوّهة » بمرسوم علمي : إنها ضرب من نصف موجود ، ضرب من رجل غير تام ، محكوم عليها بالضغينة إزاء وضعها وبالغيرة إزاء الرجل ، « مالك العضو المذكر »** .

كانت وثيقة فرويد قد دفعت المرأة نحو العطالة والتبعية واللا إبداعية. **فكيف لم تكن المرأة تعاني الحاجة ، في هذه الشروط ، إلى خصاء الرجل بدورها** ؟ والواقع أن المرء يلاحظ ، على الغالب ، أن ثمة نساء يحاولن «تشويه» الرجل بضروب من المزاح الخادع أو التهكمي ، أو أنهن كذلك يحاولن استلام القيادة وإجبار الذكر على أن يستسلم دون شروط . فنحن بصدد نساء « قضيبيات » : وستسنح لي فرصة العودة إلى ذلك .

كانت نظرية فرويد تؤكد أن عائق المرأة طبيعي وبيولوجي : فهو إذن غير ممكن الشفاء ، ونهائي .

ثمة سؤالان يطرحان نفسيهما : هل نظرية فرويد لا تزال تؤذي المرأة الراهنة ؟ وهل فهم الناس ما كان فرويد يريد قوله فعلاً ؟

٣ ـ الحضور « الخفي » لفرويد

أ ـ فرويد في أيامنا هذه

كانت تؤكد لي زوجة طبيب ذات نزعة فكرية قوية ، وتدخن خمسين لفافة من التبغ الأسود يومياً : « فرويد ؟ ولكن تجاوزه الزمن ! » والوقع أنها كانت إبانة حية لنظريات فرويد : كانت تسحق زوجها وتعامله على أنه أنثى ضعيفة ، مبيّنة على هذا النحو إلى أي حد كانت تحتقر النساء (وإذن ، تحتقر نفسها) . إنها ، من الناحية الرمزية ، كانت ذات عضو مذكر . وإذا كان فرويد قد أصبح مهجوراً ، فانها كانت تركض وراءه .

كان فرويد ، ولا يزال على نحو كبير ، مبدع ضرب من الديانة العلمية . ويستمر ظله الهائل في السيطرة . ونظرياته انتشرت انتشاراً سريعاً وأُذيعت وفُسرت . وبقيت الصحف الواسعة الانتشار ، والسينما ، والمسرح ، والاعلان ذاته ، متأثرة بفكر فرويد ؛ وعبارة : « إنه فرويدي جداً » تتردّد في كل مناسبة على شفاه الذين يترددون على الصالونات . بل إن من لم يسمع أي كلام على فرويد متأثر بهذا المناخ .

كانت المرأة دائماً موجوداً من الدرجة الثانية . وكان فرويد يؤكد أنه لم يكن ثمة إمكان لأن يكون الأمر على خلاف ذلك ، إذا تكلمنا من الناحية البيولوجية . وسواء كانت النساء مثقفات أم غير مثقفات ، فقد انطلت الخديعة عليهن ، وانطلت على الرجال أيضاً ، بالطبع . وعلى هذا النحو صبّ فرويد في البيتون الحديث بنية المرأة القديمة ، البنية الرخوة . لم يكن ثمة من جدوى : كل محاولة تقوم بها المرأة، لكي « تصير » ،

كانت – من الناحية البيولوجية – محكوم عليها بالفشل . لقد كانت مثبتة على حائط الموجودات الخائبة .

يضاف إلى هذا أن تعليم نظريات فرويد في الجامعات كان خيبة أمل بالنسبة إلى الطالبات الباحثات عن استقلال اجتماعي وفكري . وانسدّ باب مستقبل النساء ، الذي كان من قبل موضع الشبهة ، وأصبح طريقاً مسدوداً .

ويلاحظ المرء حالياً أن عدداً من النساء انسحبن ، بعد أن عملن في الخارج ، ونلن الشهادات العليا الرائعة . وبكل بساطة ، عدن ليقفن أنفسهن على منازلهن . وينبغي أن لانستخلص من هذا على نحو سريع جداً أن نظريات فرويد قضت على هؤلاء النسوة اللواتي يرين أن العمل الوحيد المقدّر لهن هو البقاء « في الداخل » . وسنرى أن ثمة بواعث أخرى ، أكثر عمقاً بكثير .

ب – ما سمعته في الشارع :

يكفي للبرهان على الحضور « الخفي » لفرويد أن نجمع بعض عناوين المجلات ذات الانتشار الواسع :

فرويد قتل المرأة !

فرويد نسي المرأة !

فرويد يستمر في فتكه !

فرويد عدو المرأة !

المتحزبات لمطالب المرأة ضد فرويد !

أما فيما يتعلق بالشارع ، بحصر المعنى ، فلا بد من كتاب حتى أجمع ما استطعت أن أسمعه عن اليمين واليسار . وإليكم بعض العينات :

ما سمعته في سيارة كبيرة

كانت سائقة السيارة ، امرأة مسترجلة وفق المراد ، قد تجاوزت سيارة نقل عام تقودها ، قيادة مثالية ، زميلة لها ، امرأة جميلة هذه المرة .

– لا بأس بها ، لا بأس بها ، دمدمت المرأة الأولى التي كانت على وشك أن ترفع إبهميها . ولكن هذا لا يمنع من أنها ، في حالة توقّف طارىء أو حادث مؤلم ، لا تتصف بما يجب ، أليس كذلك ؟

وانفجرت ضاحكة ، وغمزت بعينها أحد الركاب ، ثم ردّدت : أليس كذلك ؟

وأجمل ما في الأمر أن الراكب احمرّ خجلاً أمام هذه المرأة التي كانت تتبرّج رمزياً بالعضو المذكر ، وتحتقر زميلتها « الضعيفة » التي كانت ، بوصفها جميلة ، مصنّفة بصورة آلية على أنها لا تملك العضو المذكر .

ما سُمع في الريف

ثمة امرأة ، قوية كأنها جندي مدرب في أعمال التحصينات ، طويلة القامة ، مكتنزة كلها بالعضلات ، كانت تصرخ عالياً ، وكأنها تنفخ

في بوق ، برجل (زوجها) طويل القامة ، نحيل الجسم بصورة تثير الشفقة :

– لو كنت رجلاً لأريتك !

إنها كانت جديرة بقلم دوبو *. لقد كانت تتصرف و « كأنها رجل ». ولكن زوجها بقي مقدساً لأنه كان يملك العضو المذكر الذي كانت محرومة منه . ذلك أنها كانت من جراء ذلك مخصيّة ، ولم يكن لها ، إذن ، أي حق . فاستبدلت الصوت بالحق .

ما سُمع تقوله ممرضة

أي نساء طيبات هؤلاء ! لو أنه يُعطى لهن « زوجان » من الهرمون المذكر ، لسارت الأمور على خير ما يرام !

إنها لمأساة من ثلاثة فصول . فهذه الممرضة ، من جهة ، تحتقر جنسها الخاص (مضمونه : الذي لا يملك العضو المذكر) . وهي ، من جهة ثانية ، ضد الرجل ، الأمر الذي يتصف بعض الشيء بالتناقض . وأخيراً ، تتمنى لـ (النساء الطيبات) هرمونات يذكّر عددها ، في ذهنها ، بالخصيتين .

قالت امرأة كانت تلاحظ رجلاً متردّداً :

ذاك الرجل ، إنه امرأة حقيقية !

. . . كلام نكتشف من خلاله احتقار جنسها الخاص .

(*) دوبو (ألبير) Dubout : رسام فرنسي هزلي ، ولد في مرسيليا عام ١٩٠٥ . تتميز المشاهد التي رسمها بأن ضروب المجون تبعث فيها الحياة « م » .

هل أصبح أناس الشارع فرويديين ، أو أنهم كانوا كذلك دائماً ؟ ذلك أننا ينبغي أن لا ننسى أن فرويد صاغ نظريته بحسب ما لاحظه في عصره .

جـ ـ أمثلة أخرى

لماذا تستشيط غضباً فلانة ، امرأة طبيبة ، عندما يناديها أحد الناس **الدكتورة س** ؟ ولماذا هذه التسمية المضحكة **السيدة الدكتور** ؟ ليس لكلمة **وزير بالفرنسية** ، أو ليس لها بعد مؤنث(باللغة الفرنسية) .فنسمع الناس يقولون لنساء وزيرات (بالفرنسية) **السيدة الوزير** ، **بل السيد الوزير** . وما قولك بهذه القائدة التي كانت تقتضي أن تسمى : **السيدة** ع ، « **مدير** » الـ ... ، وكانت ترفض كلمة « مديرة » ؟ وهذه المرأة الأخرى التي كانت تكتب على بطاقات الزيارة الخاصة بها : السيدة ص ، المدير الشرف لـ . . . !

يمكن أن نلاحظ هنا أيضاً :

أ ـ احتقار المرأة بصفتها امرأة .

ب ـ أن اللغة الراهنة ، ذات الأساس المذكر ، لا تتيح للمرأة أن تحدّد موقعها ، ولا أن تصف نفسها من حيث هي امرأة .

الأمثله كثيرة . فكلمة « طبيب » (بالفرنسية) ليس لها مؤنث . فنقول امرأة طبيب ، الأمر الذي يعدّ غير منطقي ، ويرغم المرأة الطبيب

إلى أن تحدّد نفسها بالنسبة إلى الرجل . ونقول (بالفرنسية) امرأة مهندس معماري ، امرأة مهندس ، امرأة رسام ، امرأة أستاذ ، الخ . وقد يكون من المثير أن يستعرض المرء شتى المهن : فقد يدرك إلى أي حد يتصف المعجم بأنه يضع المرأة في المستوى الثاني .

ء — الإعلان

بعض الإعلانات تبلغ حد الهذيان . ففي التلفزيون . على سبيل المثال ، ثمة أصوات ، أصوات رجال ونساء ، تصبح من الرقة بحيث تضفي الصفة الجنسية حتى على الماء المعدني .

نصب عيني إعلان عن ألبسة الرجال . إنها ألبسة مخصصة ا **الرجال الذين يتصفون بأنهم رجال حقيقيون** ، وهم **فخورون أن يكونوا كذلك**، الأمر الذي يفترض بالتأكيد أن هؤلاء الذي يلبسون السروال الصغير يحتقرون أولئك الذين ليسوا رجالاً ، أي يحتقرون النساء والحالة هذه ونقرأ كذلك أنهم (أي الابطال ذاتهم ، ولكن بالسليب(*)هذه المرة) **يرفضون ارتداء السراويل النسائية** ، ولكنهم **لا يقبلون أن يرتدوا غير السليب الذي صمّمه رجال في حالة غضب** (ولا يشير القول ممن هم غاضبون) (١) .

---

(١) لن أتكلم على مناخ الجنسية المثلية لهذه الاعلانات ، مناخ سيكون تحليله أطول من أن يتم هنا .

(*) slip

أمن الواجب أن نشير إلى أن كل هذا يقع حوالي السنة السادسة من العمر العقلي ؟

في إعلان آخر عن شفرات الحلاقة ، يتحدّد الرجل **بالسرعة والقوة والمخاطرة والولع والمغامرة** . ويستخلص معلن الاعلان لنا ، ببسالة ، أن شاري شفر الحلاقة ، من أجل الحلاقة الصباحية ، يجد ثانية سلوك **رجل المسافات الكبيرة** . ويتابع المعلن ، وهو طافح بالطّفالة(*)، مدّعياً أن رجلنا الأحمق المغرور يوجّه **عناية لاختيار شفرة حلاقته تساوي العناية التي يوجّهها لشراء سلاحه** . . . إنه لأمر رائع حقاً !

وتغوص الإعلانات أيضاً في « الأسرار النسائية» بضرب من المشاركة التزامنية على نحو تام . فنجد بلا نظام : **الابتهاج الخفي الذي تشعر به المرأة وهي تحس الأنظار متعلقة بوجهها تعلق الفراشة بالشعلة** ، أو أن المرأة تُعرض على أنها **فاتنة** ، **ومتقلبة** ، **ونزْوية** ، **ومثيرة** ، **وفريدة** ، **ومخيفة** . ثم تصبح المرأة **الماكرة ، الغامضة حتى طرف أظافرها** ، التي **يصورونها** على شكل مخالب قاطعة وحمراء .

(*) طفالة (infantilisme) : هي ، من الناحية الجسمية ، توقف النمو خلال مرحلة الطفولة . فقد يكون لهذا التوقف انعكاسات نفسية ، كما في الطفالات الناجمة عن أمراض الغدد ، وقد لا يكون : فللفرد ، في هذه الحالة الأخيرة ، قامة قصيرة ، ولكنه يبقى ذا جسم متسق ومتوازنا من الناحية النفسية .

والطفالة ، من الناحية السيكولوجية ، تخلف وجداني ، كما هو الأمر في الخجل والعقد والعصاب . فالفرد سوي من الناحية العقلية أو قد يكون متفوقاً من ناحية الذكاء ، ولكن وجدانيته تبقى متعلقة بأحداث انقضت منذ زمن بعيد . وقد تكون التربية التي أسيء فهمها ، على الغالب ، سببا من أسباب الطفالة السيكولوجية . « الانتصارات المذهلة لعلم النفس الحديث » ، بيير داكو ، القسم الثاني ، ص ٢٧٩ ، ترجمة وجيه أسعد .

ثم هناك السيارات (من الجنس المؤنث كما يعلم كل شخص) المخصصة للذكور الذين يقهرونها . هو ذا اعلان يتحدّد فيه السائق كما يلي : **عيناه القويتان، اليوديتان ، كانتا تثقبان الظلام الدامس** . وبعد أن يُعرض هذا الاله الذي لا يُغلب ، تُقدّم السيارة : **إنها تطيع كنمره ليّنة مروّضة ، في حين أنها تغرز ببطء رجلها المهيمنة** . . . (في أي شيء ؟) .

على هذا النحو اذن :

– يعتقد مجتمعنا أنه يكرّم المرأة حين يقول إنها تفكر وتتصرف «كالرجل» . ويظن أحد الرجال أنه يتملق امرأة حين يؤكد لها : « إنك جديرة بأن تكوني رجلاً » . ومضمون تأكيده هذا : على الرغم من أنك امرأة ، فأنت تساوين أكثر من ذلك .

– أما العكس ، فغير صحيح على الإطلاق . فهل يتصور المرء أحداً يقول باعجاب إلى رجل من الرجال : « إنك جدير بأن تكون امرأة ؟ »

– من المأثور أن يكون المرء حازماً كالرجل ، وليس كالمرأة إطلاقاً . ويُقال كذلك : رجل شجاع وامرأة شجاعة .ولكن الناس يصححون : « امرأة شجاع كرجل » ، دون أن يقولوا أبداً : « رجل

شجاع كامرأة » ، الأمر الذي يعني أن الشجاعة تظل صفة من صفات الذكر .

– يـُقال : « إنه لجبان » ، ولا يـُقال ، أبداً على وجه التقريب : إنها جبانة » . والامثلة التي عرضتها مبتذلة . ولكن اعترفوا أن ثمة ما يـُضحك عندما يزعم الناس أن المرأة نالت « استقلالها » في العالم الراهن .

٤ – التحليل النفسي والمرأة

آ – النزيهون والقنّاصون

إني أتذكر حكاية ممتعة . كان ثمة محلّل نفسي يرفض رفضاً مطلقاً أن يبقى أحد المرضى جالساً في أثناء جلسة تحليل . وكان يقتضي من كل من يطلب استشارة أن يتمدّد على الديوان ، دون أن يأخذ بعض الظروف الفردية بالحسبان .

ومنذئذ سـُمي **الديوان المخيف** ، رجل نزيه ، كما ترون . وثمة كذلك عدد من المحللين النفسيين الذين يستمرون في تبني آراء فرويد الخاصة بالمرأة تبنيا دقيقاً .

ومع ذلك ، ثمة بعض القنّاصين المنفردين ، محللين نفسيين من رجال ونساء ، الذين يبدون بعض الريبية . فقد حدث الشجار على عدة جبهات ، ولكنه ، على العكس ، لا يـُنقص شيئاً من عبقرية فرويد .

كان فرويد ، شأنه شأن كل موجود إنساني ، مشبعاً بالأفكار النمطية الثابتة السائدة في عصره ، وببعض الآراء المسبقة العريقة في القدم .

وتمثّل « المرأة » ، منذ الأزل ، سراً كتيماً ، غامضاً ، غير معروف .

وهي كذلك في أيامنا هذه . لا من الناحية العلمية ، وإنما من الناحية الوجدانية . وحسب المرء أن يفكر بالرمزية الغزيرة التي تحاط بها المرأة (انظر فيما بعد) .

كان فرويد سجين ثقافته . فالأسلوب الذي يصف به المرأة يمثّل طبقة اجتماعية معينة في القرن التاسع عشر . ولم يستطع فرويد (وهذا أمر يمكن فهمه) أن يدرس المرأة **في ذاتها** . ولكنه فحصها وقد انطلق من الرجل واختاره مقياساً .

ب ـ الاسقاطات الاشعاعية السلبية

انتشرت نظريات فرويد كما ينتشر الضباب الذري . وعانى العالم بأسره من نتائجها . وتأثرت بها التربية وعلم الإجتماع تأثراً قوياً . وتم تفسير التاريخ من خلال فرويد . والتهم كثير من علماء النفس نظرياته ، وحاولوا تطبيقها ، بالقوة على وجه التقريب ، على مرضاهم . وعانى التأثير نفسه عدد من المرشدين ، في مجالي الأسرة والزواج . ففي ذهنهم أن النظرية أصبحت أمراً مفروضاً ، فانعكست على طالبي النصح وطالباته .

إن الدور المفروض على المرأة ، الدور القديم جداً ، أصبح ثانية ضرباً من الجدة ، ولكنها جدة موسومة بخاتم العلم .

ها هو ذا مثال من مئات الأمثلة : تتصف امرأة ببعض النزعات «المحافظة ». هذه الصفة استحالت إلى عطالة جسدية ونفسية . واختفى التمييز بين سلبية المرأة (التي تتصف بأنها استطاعة كما سنرى) وبين العطالة . واعتقدت المرأة أنها عاجزة عن أي شيء يتصف بأنه « خاص

بالرجل » . وقد حسبت ، ولو أنها كانت متمردة . أن سلطان الذكر كان يمسك ، وحده وفي جميع الظروف ، مفاتيح المعرفة والسلطة . فماذا كان بامكان المرأة أن تفعل غير أن تنحني أمام عبقرية الذكر ؟

كل ذلك لم يكن من فعل فرويد ، ولكنه فعل ضروب من الشيوع الخرقاء أو غير المفهومة .

وماذا عن فرويد ؟ **لقد عُزي إليه** أنه أكد بصورة جازمة ما لم يكن غير أمر مفترض . الأمر الذي كان يعاني منه . وأخيراً ، وجّه بعضهم إليه المسبة لتحويله تواضعه ، تواضع العالم ، إلى ضرب من النزعة التسلطية التي لا رجعة فيها . أما المرأة ، فاستمرت تعاني ذلك .

وكان فرويد ، من جهة أخرى ، يؤكد أيضاً اعتقاده بالثنائية الجنسية الانسانية : كل موجود إنساني يتسم بأنه أنثى وذكر على السواء. وكان لا بد من أن يكون ذلك نقطة انطلاق لسلسلة طويلة من الكشوف العلمية والسيكولوجية . وعلى هذا النحو . كان ثمة إمكان للنظر إلى « الفرق » بين المرأة والرجل على أنه فرق ضعيف نسبياً . وكان قد أصبح ممكناً ضرب من التقارب الذي يتصف بأنه أكثر حرية وأكثر انسجاماً وسأتكلم على هذا مفصلاً فيما بعد .

٤ ـــ المرأة موضوع لعبة رمي الدمى

١ ـــ ما يعتقده النساء

عندما تكلم فرويد على الرغبة التي تعانيها المرأة في أن تكون رجلاً ، وأن يكون لها عضو الذكر . كان يقصد ضمناً أن هذه الرغبة ، في أكثر الأحيان ، رغبة لاشعورية . ومع ذلك ، ثمة أسئلة شتى تطرح نفسها :

إذا كان فرويد مصيباً ، فهل المقصود جميع النساء ، أم النساء العصابيات على سبيل الحصر ؟ إن بعضهن ، على سبيل المثال ، يحملن تحت ألبستهن عضو ذكر مصطنع . ويبول بعضهن واقفات ، مستعملات زجاجة قنديل . أو أي شيء آخر يشبه عضو الذكر .

ففي الحالة الأولى ، نحن أمام سلوك مرضي على نحو واضح ، وأمام وضع يقصد . في الحالة الثانية ، تقليد وضع الرجل ، ولكن على نحو أكثر اتصافاً بأنه سوي .

ومن جهة أخرى : هل ترغب النساء في أن يكون لهن عضو الذكر من حيث هو عضو ، أم ترغبن ، بصورة أكثر بساطة ، في أن يكنّ رجالاً . وذلك لأسباب شتى ، وليس عضو الذكر في هذا المجال غير رمز ؟

سألت نساء **سويات** : هل تأسفين لأنك امرأة ؟ هل تريدين أن تكوني رجلاً ؟ » ، فحصلت على الإجابات التالية :

الزمرة الأولى : سيكون ذلك أسهل من الناحية الاجتماعية .

الزمرة الثانية : نعم ، إنهم يتمتعون بجميع المزايا وسيتمتعون بها دائماً .

الزمرة الثالثة : نعم ، فالرجال أنظف ، إذا تناولنا الأمر من الناحية الطبيعية .

الزمرة الرابعة : لا بد من أن تكون رؤية **الأعضاء** الجنسية أكثر مدعاة للاطمئنان .

الزمرة الخامسة : لا ، فنحن سعيدات بوضعنا الأنثوي .إنه وضع يزوّدنا بمزايا بعيدة الغور ، ذات علاقة بالوجود.

الزمرة السادسة : لا ، ومع ذلك فان المذكر ذروة ينبغي أن نحقّقها في ذواتنا .

ماذا تعني هذه الاجابات ؟

الزمرة الأولى : الاجابة مبتذلة ، مبنية على أولية الذكر الثقافية .

الزمرة الثانية : الاجابة أكثر إبرازاً للفروق الدقيقة . لماذا« يحظى الرجال دائماً بالمزايا ؟ » . ويبدو أن المسألة ، بالنسبة إلى هؤلاء النساء ، ليست مسألة عنصر ثقافي . بل هن يقصدن ضمناً ، ولا ريب ، أن « الرجال أقوى وأذكى ، وسيجدون أنفسهم دائماً أعلى من المرأة ببعض الدرجات». ولا بد من الاشارة إلىأن المرء لا يكتشف هنا أي عداوة .

الزمرة الثالثة : تلحق هذه الزمرة بالزمرة الرابعة . وينظر هؤلاء النساء إلى أعضائهن الجنسية على نحو يحطّ من القدر.

الزمرة الرابعة : تتطلب هذه الزمرة شروحاً واسعة ، وسأعود إليها.

الزمرة الخامسة : يفهم هؤلاء النسوة إلى أي مدى « تربط » الأنوثة موجوداً إنسانياً بما يحيط به .

الزمرة السادسة : إن « الرجل » ليس هو الذروة ، بل هي « المذكر» الذي يوجد في كل موجود إنساني ، أياً كان جنسه . وأرى نفسي ملزماً ، مرة أخرى ، بأن أحيلكم إلى ما سيأتي فيما بعد .

٢ – هل كان فرويد مصيباً ؟

آ – المناخ العام

يُقال إن الضاربة على الآلة الكاتبة . لدى كاتب العدل في الريف . لا تعرف من فرويد غير اسمه . وإن الكاتب الرابع في كتابة العدل يجهله بالمقدار نفسه . ومع ذلك ، يتصف هذا الكاتب بأنه مغتر على نحو خفي بتفوقه . تفوق الذكر . وتبقى ضاربة الآلة الكاتبة الموما إليها مقتنعة ، في قرارة نفسها ، أنها « أدنى » من الكاتب الرابع في كتابة العدل .

ومن المؤكد أنهما لم يدرسا فرويد ؛ ولكنهما يسبحان في جوه مع ذلك. لقد قلنا إن فرويد كوّن « دينا » جديداً للموجود الإنساني . فالمرأة الملحدة الغربية ، التي لم تقرأ سطراً واحداً من التوراة . لن تندهش ، (ولو أنها تتهكم) ، من أن تجد مسمكة مغلقة يوم عشتروت ، وأن تسمع أجراس أيام الأحد ، وأن ترى قداساً منقولاً على التلفزيون . ولم يسبق لهذه الملحدة أن تصفّحت بسرعة أعمال المجامع الدينية . إنها مطلعة على هذا الأمور كيفما اتفق . ودون أن تقصد ذلك : فهي تعيش في المناخ العام لهذه المناظرات الكبرى التي تدور حول المسائل الكبرى . ومعلوماتها ليست مستندة إلى وثائق . وهذا إذن أشد خطراً بكثير .

وقس على ذلك بالنسبة إلى فرويد .

سمعت امرأة تعلن خلال مناظرة علمية : قيل إن المرأة تشعر بالإحباط من أنها محرومة من عضو الذكر . إنه لأمر ممكن ، ولكن . . .

من هو هذا «القائل» الذي يصل إلى هذه الدرجة من الخفاء بحيث يصبح

كلي الحضور ؟ وهذه العبارة « إنه لأمر ممكن ، ولكن . . . » ، ألا تدل على ضرب من الريبية ؟

ثمة امرأة كانت قد ارتكبت ، خلال مناظرة أخرى ، فلتتي لسان مهمتين ، تعبّران جيداً ، على ما أعتقد ، عما كانت تحس به بصورة لاشعورية .

١ — في معرض إشارتها إلى أن كثيراً من الأزواج يعيشون معاً خلال خمسين سنة ، بفضل إطالة سني الحياة ، أضافت : « لو لم تكن المرأة ناضجة ، لما تسنى لها أن تكون رفيقاً مهما » .

لماذا غذا الإضفاء ، إضفاء صفة المذكر على المرأة ! لماذا لم تقل « رفيقة » في حين أنها كانت تدافع عن المرأة ؟

٢ — قالت أيضاً : إن خاصية الإنسان(*) وجدارته يكمنان في السيادة على وضعه الفيزيولوجي .

غير أنها كانت تتكلم ، والحالة هذه ، على وضع المرأة الفيزيولوجي . ويمكن أن نتساءل ، حتى لو رفضنا فرضية أنها كانت ترغب في أن تكون رجلاً ، لماذا كانت تستعمل الحد العام « إنسان » بدلاً من « الموجود الإنساني » ؟

يقال إن ذلك كله عرضي وسليم ، وأنا أوافقكم على ذلك بطيبة خاطر . ولكن تفصيلات من هذا النوع إنما هي التي تساعد على خلق المناخ العام .

(*) استعملت المرأة في حديثها كلمة «Homme» التي معناها « رجل » أو « إنسان » .

ب ـ المرأة مرفوضة من حيث هي امرأة

إذا كان فرويد مصيباً ، أليست حالة المرأة حالة غير ممكنة الحل ؟ ذلك أمر صحيح كل الصحة .

١ ـ لا تملك المرأة **أية صوّة من الصوى الشخصية**. فهي لا تتحدد بصفتها امرأة ، وإنما بالقياس إلى الرجل . إنها إذن (بقضاء وقدر وإلى الأبد) رجل « ينقصه شيء ما » ، أي : ينقصه عضو ذو رمزية واسعة . إن أي امرأة ، من وجهة نظر فرويد ، لا تستطيع أبداً أن تتساءل : «من أنا ؟ » ، بل تستطيع على سبيل الحصر أن تتساءل : « من أنا بالقياس إلى رجل ؟ »

٢ ـ إن غالبية ضروب العُصاب والحَصَر لدى المرأة ، وصعوبات الحياة والاخفاقات ، تفسرها رغبتها ، التي لا يمكن تحقيقها ، في أن تكون رجلاً . الأمر الذي يعني أن أي امرأة لا يمكن أبداً أن تكون راضية بوضعها رضى عميقاً .

٣ ـ والمرأة ، في جميع الأحوال ، مغمورة بصورة مباشرة ، منذ ولادتها، في عالم الذكر : وهي مغمورة في أيامنا هذه أكثر مما كانت عليه بالأمس .

عرفت رجلاً كان يقول لابنته : « من الطبيعي أن تأخذي أكثر من أخيك ، إذ أنك محرومة من المزايا كونك امرأة » .

إنه لم يكن يوضح ما إذا كانت ابنته محرومة من المزايا بيولوجياً أو حضارياً . ولكنه كان يعتقد أنه يقول الحقيقة ، وكان يريد ، بكل صدق ، أن يُقسط بينهما . والواقع أنه كان يسلك أسوأ أنواع سلوك

التمييز بين الجنسين . وباسم تفوق الرجل ، كان يُغرق ابنته في الشعور بالدونية .

قالت لي ابنته يوماً : « أعطاني أبي سيارة قبل أن يكون لأخي سيارته. كنت أشعر بأنني بلد متخلف يطلب عوناً أوسع » .

ح – استخدام فرويد ذريعة

رسّخ فرويد إذن ، بصورة علمية ، التقابل القديم بين الجنسين . لم يكن ثمة شيء قد تغير ، ولكن ثمة شرحاً كان قد قُدّم ، شرحاً كان يشير إلى أي حد كان الوضع محتماً .

يضاف إلى هذا أن ذريعة رائعة تكمن في هذا الوضع ، بالنسبة إلى الكثيرين . إنه لضرب من الارتياح الكبير ، في الواقع ، أن يكون المرء قادراً على الارتكاز على مثل هذا السلطان ليقول : « يؤكد فرويد ما كنت أعتقده ، إنني محق إذن » .

فاذا كان الرجال بحاجة إلى الاعتقاد بأولية الذكر ، فانهم يتبنون بحماسة أفكار فرويد . وعندئذ :

١ – يمكن للرجل أن يحتقر المرأة علانية ، إذ ينظر إليها على أنها «مصابة بالإحباط » من الناحية البيولوجية . فهو يفكر بأن النساء مخصيّات مهما فعلن . إن هذا يلائمني ويطمئنني .

٢ – الخوف والرهاب ازاء المرأة يضعفان : « لماذا لا أزال أخاف المرأة ؟ إنني قمة التراتب الانساني ، اذا تكلمت من الناحية العلمية . وتظل المرأة في منتصف الطريق . وقد أعاد فرويد وضعها في مكانها دونما اعتراض ممكن . ومن المضحك أن أخشاها » .

أما فيما يخص النساء ، فان باستطاعتهن أيضاً أن يجدن في هذه النظرية ذريعة : فمجرد كونهن لسن رجالاً يشرح جميع صعوباتهن السيكولوجية. إنهن يتعلقن بهذا الباعث . حتى ولو أنه خاطىء بالمناسبة . وعلى هذا النحو ، فانهن يجانبن البحث الحقيقي عن أنفسهن **من حيث هن نساء** . وبدلاً من أن يبحثن **في ذواتهن** عن سبب آلامهن ، فانهن يتهمن الرجل بذلك . بادئات على هذا النحو حلقة مفرغة قد تدوم مدى الحياة .

٣ ـ حصر المرأة بسبب كونها امرأة

آ ـ الخضوع والتحدي

إن المرأة ، وقد حكم عليها العلم بأنها شيء زهيد على الرغم من نجاحاتها الخارجية ، تنطوي على ذاتها غالباً في الخضوع ، أو تنفجر في تحديات حانقة .

إنها تبحث عن المساواة مع « الرجل » بأي ثمن ، دون أن تقول لنفسها إن ألف رجل يمثلون الآن ألفاً من ضروب التفاوت .

ويبدو الحصر عندئذ بسبب كونها امرأة : حصر لاشعوري ، وثقيل ودائم . والمرأة تشعر أنها « آثمة » لأنها امرأة . وإذا حاولت أن تعيد ثقتها بنفسها ، اصطدمت بدرب مسدود : ليس ثمة أي تحديد للمرأة **في ذاتها** .

وإذا بحثت المرأة عن ذكورة مصطنعة تستخدمها ملجأ ، فانها ، هنا أيضاً ، لا يمكن أن تصل إلى أي جهة ، إذ أنها لن تكون رجلاً على الإطلاق .

وأخيراً ، تنتهي المرأة إلى الاعتقاد بأن أي نشاط ، وأي إنجاز

خارجي . وأي « خروج من ذاتها » ، معزوّ إلى رغبتها في أن تكون رجلاً . **فترتاب** في أفكارها ، وابتكاراتها ، ومشروعاتها ، التي تحس بها لا على أنها تحقيق للذات ، بل على أنها ضرب من المطالبة .

إن الأمومة ذاتها والعادات الشهرية يرفضها عدد من النساء بصورة شعورية أو لاشعورية ، لأن ذلك كله يذكرهن بـ « أنوثة » يعددنها دنيا . وهذا هو السبب الذي من أجله يعاني كثير من النساء ، خلال هذه الفترات من حياتهن ، من الاكتئاب والآلام التي لا يمكن تفسيرها ، بل ومن الخجل .

وهذا هو السبب الذي من أجله أيضاً تنتهي النساء إلى رفض كل شكل من أشكال عون الذكر .

في يوم من الأيام ، توقفت عندما شاهدت ، في طريق مهجور ، سيارة مصابة بعطل . وكانت الغريق امرأة شابة ، أجابت على عرضي تقديم العون : « أشكرك . سأتدبر أمري وحدي » . فتساءلت بأي الوسائل ، نظراً لمرور السيارات النادر ، واستأنفت السير . ورأيت في المرآة العاكسة دركيا أعجوبيا راكباً على دراجة نارية **ينبعث** حالاً . وقبلت الصبية عون راكب الدراجة .

فلماذا ؟ هل السبب هو اللباس العسكري ؟ ربما . ولكن ماذا يمثّل؟ السلطان الأسمى ؟ الذكر « الرسمي » ؟ **الأب** ؟

وانزلق الدركي ، بجميل ليس له مثيل ، تحت السيارة **دون أن تبدي الصبية أية حركة** . وظلّت جامدة ، ومستقيمة . وأؤكد لكم أنها

كانت تبدو منتصرة ! هل كانت ترغب في « الحط من قيمة » الذكر وهي تجبره على توسيخ ثيابه من أجلها ، وتبتهج أن تراه يبتلّ بالشحم الأسود ؟

ويبدو لي أن هذه المرأة مثال موضّح حي لآراء فرويد . وها هو ذا السبب .

ب – المرأة ، عميل مزدوج

كثيرات من النساء يلعبن لعبة العميل المزدوج .

– فهن ، **من جهة** ، يردن تمثيل **المؤنث الأبدي**، مقتضيات جميع المزايا والامتيازات ، وضروب الاهتمام والحماية ، التي ترتبط به .

– ويرفضن ، **من جهة أخرى** وفي الوقت نفسه ، هذا الوضع ، نابذات عون الرجال .

التفسير سهل . فاذا كان ثمة امرأة تعتقد بأن الرجل ذو حظوة من الناحية البيولوجية أو من الناحية الاجتماعية ، فلا بد لها من أن تحسده ، وتغار منه ، أو ترغب في أن تلغي هذه المزايا . وعلى هذا النحو إنما يحاول عدد لا يحصى من النساء أن « يخصي » الرجل ، ويسوده ، ويحطّ من قدره ، ويحيله إلى عبد .

وثمة مفارقة تنبعث عندئذ : « أما وقد أفلحت في خصائك ، فانني أحتقرك لأنك مخصي ، ذلك أنك أصبحت ضعيفاً ، ومشوّهاً كامرأة ».
لنتصور النساء اللواتي « يخترن » زوجاً مصاباً بالزكام من الناحية الوجدانية ، حتى ولو أبدى من الناحية الخارجية ، في بعض الأحيان . مظاهر ذكر مفرط في الذكورة . فما الباعث اللاشعوري لهؤلاء النساء؟

إن باعثهن أن يؤدين الدور الذي يتصف ، **بالنسبة إليهن** ، أنه دور مذكر : القيادة ، والسيادة ، والجلد ، الخ .

هذا النوع من الثنائي يحتفظ بالتخطيطية القديمة ، تخطيطية السيادة التبعية ، ولكن التوازن معكوس . فالمرأة تصبح رجلاً . والرجل يتحول إلى امرأة . وكيف يمكن لمثل هذه الأسر أن تكون منسجمة ؟ إن هؤلاء النسوة ، اللواتي يتصفن داخلياً بأنهن شبيهات بالرجال ، **يأخذن** على رفاقهن أنهم ضعفاء . ومع ذلك ، فقد اخترن الوضع لهذا الباعث !

قد يبيّن تحليل أكثر عمقاً ، بالإضافة إلى ذلك ، أن هؤلاء النساء يغذين ، في خيالاتهن وأحلامهن الليلية ، أطيافاً تكشف عن رغبتهن الخفية في ملاقاة ذكر فظ . ويرعين أحلام الاغتصاب ، ويتخيلن أنفسهن ، عن طيب خاطر ، وقد أُخذن بالقوة ، وعوملن بشراسة وعبودية .

هل ذلك يعني أن كثيراً من النساء يتمنين بصورة لاشعورية أن يخضعن لسيادة قوة الذكر الكلية ؟ وذلك بالرغم من مطالبهن وضروب تمردهن وضروب حنقهن **الأخرى** ؟ ألا نرى ، في مئات من الأفلام ، أن قبلة مشبوبة العاطفة تعقب ، دون مرحلة انتقال ، تلقي ضربات متلاحقة قوية ؟

جـ – مطبخ الملائكة :

قالت لي امرأة ، كانت قد باشرت تحليلاً نفسياً عميقاً ، خلال اتصالها الأول بي ، قولاً عدوانياً :

– هل تعلم إلى أي حد أنا من أنصار مساواة الجنسين المطلقة ؟

– قلت لي ذلك ، يا سيدتي .

– هل توافقني على أن جميع الأعمال المنزلية يمكن أن يقوم بها الرجل والمرأة على السواء ؟

– عليك أنت أن تكوني على وفاق مع نفسك ، وليس علي أنا .

– إذن هل أنت غير موافق ؟

– هل قلت ذالك ؟

– كلا ، ولكن ثمة شيء غريب . عندما يقوم زوجي بكي الثياب ، أو بأعمال المطبخ ، أشعر بانزعاج . ان زوجي والحال هذه ملاك ! وأنا أقاوم هذا الانزعاج باسم أفكاري ولكن . . .

– . . . ولكنك لا تتحملين أن يعمل زوجك في المطبخ .

– إنك على صواب . ولكن ما السبب في رأيك ؟

– هل لأن زوجك يبدو كما لو كان امرأة ؟

– هذا هو الأمر .

– ولكن ألست أنت امرأة ؟

– لا ريب في ذلك .

– هل تحتقرين نفسك كونك امرأة ؟

– لا بالتأكيد ! أخيراً . . . لا أعتقد ذلك . . .

– أليس لديك انطباع بأن زوجك يصبح ضرباً من الموجود المخصي عندما يقوم بأعمال المطبخ أو بالكي ؟ أليس على هذا النحو تحكمين على المرأة ؟

— . . . ربما . » تضحك (. وإذا كان زوجي ملاكاً ، فهل من المحتمل أن أكون شيطاناً ؟ وعلى أي حال ، إذا كان الأمر على هذا النحو ، فان ذلك إنما هو لاشعوري بصورة كاملة .

ويبدو لي أن هذه الفقرة المستخلصة من حديث المرأة بليغة . فقد تبيّن أن هذه المرأة ، هي أيضاً ، كانت تحلم على الغالب برجال الكازيمودو(*)الفطين وذوي الأساليب الفطة .

ء — ليثأرْ لي ابني

يُعتقد على وجه العموم أن النساء يرغبن في أن يكون لهن صبي بدلاً من بنت . ولنلاحظ مؤقتاً أن عدداً من النساء **سعيدات** بأن يكون لهن بنت ، **وفخورات** بأن يكون لهن صبي . والأمر مختلف في الحالين .

ويعمّم فرويد ، فيعتقد بأن الرغبة الأساسية لـ **كل** امرأة أن يكون لها طفل ذكر . ويصبح هذا الابن بديلاً لما لم تستطع الأم أن تكون : رجلاً . وتنقل الأم إلى ابنها التطلعات المذكرة التي لم تستطع تحقيقها. وحتى هذا الحد ، ليس ثمة شيء إلاّ ويتصف بأنه معقول جداً ، وعلى وجه الخصوص في مجتمعاتنا ، مجتمعات الذكر .

غير أن فرويد يدفع بالأمور إلى ما هو أبعد . فهو يعتقد بأن « حمل طفل في البطن » يرمز ، بالنسبة لمن ستصير أما في المستقبل ، إلى أنه « سيكون لها عضو الذكر كالرجل » . وآراء فرويد هذه تتصف ،

(*) كازيمودو : شخصية من شخصيات رواية فكتور هوغو « نوتردامدو باريس » ، حيث تمثل فيها دور قارع الأجراس « م » .

بالطبع ، أنها عرضة للمناقشة كثيراً . ولكن ، إذا كان من المتعذر البرهان على صحتها ، فمن المتعذر ، بالدرجة نفسها ، أن نبرهن على عكسها .

ثمة واقعة تثير القلق : من الملاحظ أن كثيراً من الاضطرابات السيكولوجية تتوقف في أثناء الحمل ، وتستعيد الأم الحامل توازنها . ويقال إن الاضطرابات السيكولوجية تتوقف لأن السرور بخلق الحياة يملأ كيان المرأة التي ستصير أماً في المستقبل . **ولكن لماذا تعود الاضطرابات غالباً عندما يولد الطفل ؟ . . . لكي تزول ثانية حالما يحدث حمل آخر ؟**

كانت إحدى الصبايا قد قالت لي حرفيا :

– لست سعيدة إلا عندما يكون لي « بطن ضخم » . لو كنت أستطيع ذلك ، لكررت الحمل دون توقف .

ماذا يقول فرويد ؟

يقول فرويد : إن المرأة ، **في أثناء الحمل** ، تعاني الاحساس ، وهي تحمل طفلاً في بطنها ، بأنها رجل . فهي تجد مجدداً توازنها وسرورها بالحياة .

والأم ، **بعد الولادة** ، تصبح امرأة مجدداً ، وتظهر ثانية رغبتها في أن تكون رجلاً كما تعود إلى الظهور اضطراباتها السيكولوجية . من هنا منشأ الحاجة إلى حمل جديد .

ثمة سؤال ذو أهمية يطرح نفسه في هذا المجال : **هل يمكن التعميم ؟** وهل يخضع النساء اللواتي لا يعانين أي اضطراب سيكولوجي إلى القانون ذاته دون علم منهن ؟ إنه لأمر يصعب قوله .

والحقيقة أن غالبية النساء المصابات بالإحباط (وهل ثمة نساء غير مصابات بالإحباط في مجتمعنا ؟) يرغبن قبل كل شيء في صبي . فما النتيجة ؟ إذا كان الطفل بنتا ، شعرت المرأة مجدداً أنها مسحوقة ، لا لأنها لم تحقق رغبتها في أن يكون لها صبي فحسب ، بل لأنها وضعت في العالم موجوداً يمثّل ما رفضته : الأنوثة المشوّهة المخصيّة . أما إذا كان الطفل صبياً :

– فانه يمثّل الذكورة الظامئة إليها أمه، كما لو أن هذا الأم كانت تفكر على النحو التالي : « هذا الصبي ، إنه أنا ذاتي » .

– هذه الأم تطري ابنها،وتمجّده،وتحمله عارياً،وتحيطهبالرعاية.

– إنها ترفض لاشعورياً أن تنفصل أبداً عن ابنها الذي تعدّه «صنو» ها المذكر . وهي ، في رأي فرويد ، ترفض أن تنفصل عن « عضو الذكر » الذي يرمز إليه الابن ، والذي كانت ترغب في أن يكون لها .

وننتهي إلى الكارثة المعروفة جيداً : إن الولد يصبح ، من الناحية النفسية ، عاجزاً عن أن يترك أمه ، بدلاً من أن يتفتح رجلاً .

ه – هل ينبغي أن نفهم فرويد بحرفية عباراته ؟

إن فكر الذكر ساد العالم بأسره دائماً . وتعاني البنت نتائجه ، منذ المهد . فالظاهرة معروفة .

وأي امرأة ، في مجتمع يتصف على نحو صرف بأنه مجتمع الذكر ، لا تستطيع ، والحالة هذه ، أن تتفتّح بصورة تامة . ويتعذر عليها أن تحقق الجزء المذكر من ذاتها (التعبير عن ذاتها في الخارج تعبيراً تلقائياً، عملها وابداعيتها الخاصين اللذين ينبغي أن يمرا بغربال مقاييس الذكر).

وإذ أُضفيت عليها الدونية **بما هي امرأة**، فمن المنطقي أن ترغب في صبي يرمز إلى طموحاتها الضائعة ، وينجح نجاحاً باهراً (مكانها) ، ويرسم طريقه بصورة حرة (الأمر الذي لم تستطع أن تقوم به) ، ويصبح قوياً (الأمر الذي لم يتسن لها أن تكون) .

ولكن هل هذا هو ، على سبيل الحصر ، صعوبة خاصة بالمرأة ؟ فكم بالفعل من الرجال ، الذين لم ينجحوا كما كانوا يأملون ، يرغبون رغبة جامحة في أن يكون لهم ابن يستطيع أن يحقق ما لم يستطيعوا انجازه !

إنها لواقعة يصعب احتمالها : **أبداً** لن يبحث هؤلاء الأمهات والآباء عن أن تأخذ بناتهم بـ « ثأرهم » . وفي هذا المجال-أيضاً ، تُضفى الدونية على البنت ويُنتقص من قدرها . فلا يكلفون بنت البيت بأي « مهمة » مثل :

— عليك أنت أن تنقذي شرف الأسرة .

— ستحتفظين بشرف اسم العائلة سليماً .

— ستجعلين اسم العائلة يدوم .

وعلى العكس ، يكلّفون البنت بـ « صناعة » تحمل علامة الذكر :

— آمل أن يكون لك ابن ، وإلا آلت أعمالنا إلى الانهيار .

— إن لم يكن لك صبي ، فسينطفىء اسم العائلة .

— من المؤسف أن يكون لك بنت . سأحبها مع ذلك . ولكن صبياً يلائم أعمالنا على نحو أفضل .

وعبارات أخرى على طريقة بلزاك .

وبعبارة أخرى ، إن البنت يُنظر إليها على أنها لا شيء ، ولا تخلّد شيئاً . **فهي ليست غير « ولاّدة » : مجرد معمل للصبيان .**

ولا يطلبون من الصبي كذلك أن يكون غير فحل منتج ، في ظل التبريرات الأكثر اختلافاً والأكثر تعبيراً عن الرضى بالدمدمة .

و- الجنسية النسوية

جنسية المرأة ، في رأي فرويد ، عدم من الناحية العملية . ودونما رغبة في الدخول بالتفصيلات (الكتب حول الجنسية غزيرة) ، لنقتصر على القول إن للمرأة ، على نحو كلي ، **عضواً جنسياً ذا خصوبة كبيرة .** فجنسية المرأة أكثر عمقاً وأكثر اتصافاً بأنها « داخلية ».

وجنسية المرأة داخلية : هنا تكمن نقطة الضعف . ذلك أن كثيراً من النساء يشعرن بأن أعضاءهن وسخة ، وناقصة (مخصيّة) ، ومدعاة للخجل ، ومخيفة . وبالإضافة إلى البواعث التي أبرزها فرويد ، ثمة سبب أكثر اتساعاً : **إن الرجل يحس ببطن المرأة وكأنه ضرب من مغارة الموت** . إنها إنما هي الرمزية الأكثر إثارة للرعب ، التي غلّفت المرأة : وسندرسها في الفصل الخامس .

ولنعد في ذلك إلى فرويد : ثمة معادلة فريدة مستقرة في أذهان النساء:
أسفل الجسم = خصاء = جرح دام = خجل = رفض = رغبة في أن تكون المرأة رجلاً.

قالت لي إحدى النساء :

من المعروف حالياً أن جنسيتنا تتسم ، على نحو غير محدود ، بأنها

أكبر كثافة وأكثر شدة وعمومية مما كان يعتقدة الناس ، وهي جنسية تضفي الاحساس على المرأة بأنها مرتبطة بالكون . . . ولكن ذلك لا يمنع من أنها جنسية دنيا ، أنثوية ! فجنسيتنا لا تنطوي على أي عمل !

ماذا يعني هذا الكلام ؟ تعترف هذه المرأة بغناها ، ولكنها تطمع في فقر جارها : الرجل . والسبب في ذلك أن كون جنسية الذكر أكثر «تموضعاً» بكثير وأكثر فاعلية من الناحية الخارجية، فانها تبدو أكثر قوة ، وتبدو مرئية ومعبّرة عن نفسها خارجياً . الأمر الذي يعني أن عبادة عضو الذكر تتوهج دائماً ، وكذلك عبادة القوة الظاهرة .

وذلك يبين أيضاً أن الموجود الإنساني يفضل على الغالب أن يكون ملكاً لامعاً ، ولكن دون سلطة واقعية ، من أن يكون موجّهاً خفياً في منتهى القوة ، ولكن يجهله العالم .

والنساء غائصات حتى الرقبة في هذه الكذبة وهذه الخدعة .

ز — النساء — الرجال :

العالم الراهن مضفي عليه بافراط صفة الذكورة ، ومسنّن ، ومزمجر ، وقوي إلى حد التقصف .

والنساء ، اللواتي يرغبن في أن يكنّ رجالا ، يتوافر لهن ، إلى حد يتجاوز الآمال ، جميع وسائل تحقيق هذه الرغبة . إنهن يحاربن في الصناعات والأعمال ، بل والبندقية في يدهن .

نحن على علم كذلك بأن المسألة مسألة أضخم غش عرفته العصور : الاستطاعة الواقعية للمرأة ملغاة بفعل أجمل دور من أدوار الشعوذة التي يمكن للمرء أن يحلم بها . ولما كان كل ذلك لاشعورياً ، فان المأساة تمتد على مستوى الشعوب .

وتلكم هي النتائج

١ ـ النساء اللواتي يجدن أنفسهن في تنافس ذي مظهر مذكر يعتقدن أنهن بلغن هدفهن . « هل أرغب في أن أكون رجلاً ؟ إنني إذن سوية ، ومسيرتي العدوانية كذلك . وأصبح ، بصفتي مثل الرجل ، ما أنا عليه واقعياً » .

٢ ـ ويتعرّض النساء الأخريات إلى الاعتقاد بأنهن غير سويات إن رغبن في تحقيق ذواتهن من حيث هن نساء .

وعليه ،

١ ـ يستند النساء ـ الرجال إلى فرويد في احتقار الوضع النسوي ، لكيلا يمنحن مكاناً لغير « قيم » الذكر : النجوع ، والمردود ، وجفاف العواطف ، والمال ، والنجاح الخارجي ، والمظهر ، والمعركة . وينبذن كل ما ينزع إلى اكتشاف القيم الكبرى في الأنوثة ، وإلى تفتيحها .

٢ ـ وينظر هؤلاء النساء ـ الرجال إلى اللواتي يفضلن اختيار عمل ، داخلي أو خارجي ، يطابق ما لديهن عن « المرأة » من إحساسات ، على أنهن عديمات الجدوى ، أو على أنهن أعداد .

٣ ـ وحتى لو أن النساء ـ الرجال نجحن مثل الرجل ، فانهن مستمرات في الاعتقاد بدونيتهن البيولوجية . ويحتفظن من الناحية النفسية بانطباع مفاده أنهن « مخصيّات » . فنضالهن توتر دائم ، وهن في بحث عن وضع لن يكون وضعهن على الاطلاق .

٤ – انعدام الأنوثة المأساوي

إن رفض الأنوثة ، والمغالاة في تقييم قيم الذكر المزعومة ، التي يدعي بعضهم نسبتها إلى فرويد ، يفضيان إلى ما يلي :

– عبادة القوة الخارجية ، الصلبة ، والحادة ، والمنتصبة بصورة عدوانية .

– قبول كل ما هو هدّام بعنف والاعجاب به : تدمير الطبيعة ، والأسلحة ، والحروب ، والفتوحات المزيّفة المدمّرة ، ورموز القضيب الأخرى .

– احتقار كل ما هو « داخلي » احتقاراً يخفي حاجة لاشعورية : العواطف ، والاحساسات ، ومنزل الأسرة ، والفنون ، والحب .

– احتقار الوسطاء والوسيطات الذين يعظّمون التسامح ، والرأفة ، والتفاهم ، وكلها خصائص ما يتصف بأنه أنثوي ، أو الحذر منهم .

– احتقار كل ما يتسم بأنه « عذب مكوّر » : الأرض ، والزراعة ، والفلاّحية ، وعذوبة الحياة ، واحترام الزمن الذي ينصرم ، والتقليد ، وفضائل القلب .

– احتقار كل ما هو « انتظار » ، والانتظار خاصة من خصائص **الأنوثة** . من هنا منشأ نبذ الصبر ، والتجربة ، والأمومة ، ومنزل الأسرة ، وطلب العون ، والصمت . . .

وأؤكد لكم أن ليس لديكم الرغبة بالموافقة .

رابعاً — الصعوبة الراهنة

١ — المرأة تحاول أن تُبرز قيمتها

كان قد تم تنقيح ما كتبه فرويد ، الذي لا يتزعزع ، بطرق كثيرة ، وفيما يتعلق بالمرأة على وجه الخصوص . فلم يعد مطروحاً على بساط البحث أن تُؤخذ بحرفيتها عبارة « رغبة المرأة في أن تكون رجلاً »، ولاسيما أن أي شخص لا يمكن أن يعرف على وجه الدقة ما قصده فرويد بها .

والنظر متجّه في أيامنا هذه إلى أن كل حالة حالة نوعية ، مختلفة بحسب التربية التي تتلقاها المرأة ، والدين الذي تمارسه ، والأخلاق التي تتعلّمها . وثمة تأكيد ، من جهة أخرى ، على أهمية العوامل الحضارية . فمجرد الحس السليم ينبئنا أن اليابانية تختلف عن اللندنية ، والباريسية عن الهولاندية ، وأن ردود الفعل الوجدانية لامرأة تعمل في الزراعة ليست شبيهة بردود الفعل الوجدانية لامرأة تسكن المدينة .

بل انتهى بعض علماء النفس إلى نتيجة مفادها أن الرغبة الشهيرة ، « الرغبة في عضو الذكر »، لا وجود لها .

وسنرى على أي حال أنه لا بد تماماً من التمييز بين **العضو التناسلي** للرجل وبين **الرمز** الذي يمثّله القضيب .

ولكن لنستمر في الدوران حول الكوكب الهائل فرويد ، ولنفكر بهذا السؤال :

— هل تمنّت كل امرأة ، ولو مرة واحدة في حياتها ، أن تكون رجلاً ؟

أعتقد أن بامكاننا أن نؤكد ذلك لدواع عدة . والباعث المبتذل ، الذي يتكرر في كل مناسبة وبحق ، أن الرجل قد نعم دائماً بأولية **ظاهرة**. وقد يبدو ، منذئذ ، منطقياً أن ترغب المرأة ، هذه الطبّاخة الفقيرة ، في الحصول على مزايا قريبها الذكر ، وأن تناضل للفوز بها ، وأن تتحول إلى رجل في حال اليأس من قضيتها . ويبدو أن « تحرر » المرأة ، كما يفهمه الناس حالياً ، يبرهن على ذلك .

ولئن كانت المرأة ، في الواقع ، تتقدم بخطى حثيثة ، فان ذلك على الأغلب انما هو نحو فقدان وجدانيتها الخاصة ، ونحو دمارها المنظم . **ذلك أنها ، في الأعماق ، ليست أكثر اتصافاً بأنها موضع الاحترام والحب، ولا أقل اتصافاً بأنها موضع الخشية .**

تلكم هي المفارقة المأساوية لعصرنا الحديث : **تنتحر المرأة مع الرجل كيما يُعترف بها من حيث هي امرأة .**

٢ ـ الاسرة كومة من الافاعي المتشابكة :

قد تسوّل للمرء نفسه أن يقول : لا بد من أن يكون فرويد على حق ، إذ أن المرأة في ملايين من المنازل الزوجية هي الآمرة خفية أو جهاراً . وغالبية الأزواج يلوذون بالفرار أمام زوجاتهم . ثمة نساء ، لا حصر لعددهن ، يتصرفن تصرف الذكور : يعطين الأوامر ، مستقيمات كأنهن دارتغنون(*) ، إلى خدمهن ، وإلى أزواجهن وأولادهن ،

---

* = d'Artagnon (Charles de batz, comte)
نقيب في كوكبة فرسان الملك لويس الرابع عشر ، عاش بين (١٦١١ ـ ١٦٧٣) على وجه التقريب ، ثم أصبح مارشالا في المعسكرات. قتل في محاصرة احد المدن ، واشتهر في روايات كاتب من كتاب فرنسا (الكسندر دوماس) « م » .

ويوجهن الثنائي بسلطوية ، ويقررن أوقات الفراغ ، والانتقال ، والمال الخ .

هل هذا هو البرهان على أن لهؤلاء النساء رغبة في أن يكن رجالاً؟ ينبغي أن نتساءل أول الأمر :

– لماذا أصبح هؤلاء النساء « هكذا » ؟ أي حَصَر يدفعهن إلى أن يأمرن ويحتقرن الضعفاء والخائفين ، ويدمّرن ، وينشرن الخراب ، بدءاً من سحق زميلاتهن ، ثم النساء الأخريات ؟

إن بواعث هذه المواقف عائلية على الأغلب . وعلى سبيل المثال :

– تربية البنت مع أخوة ذوي حظوة .

– حياة البنت مع أب لم يكن يمنح النساء غير دور تقليدي متواضع.

– كان للبنت أم هي من خبو النجم بحيث رفضت أن تكون مثلها . وبدت لها الأنوثة ، في الوقت نفسه ، على أنها نقيصة اتخذت سلوكاً يناقضها .

– كان للبنت أم على تعارض مع الرجل .

– كان للبنت أب اجبرها ، بموقفه ، على أن تصبح « صبياً فاشلاً » .

وعلى هذا النحو ، يصبح هؤلاء الفتيات من « الجنس المذكر ». وبعبارة أخرى ، إنهن نساء فاشلات ورجال غير ناجحين .

إنهن يفكرن بصورة شعورية :

– إنني أسير خارج حياتي لأنني امرأة ، في حين أنني أتمنى أن أكون رجلاً . ولكن تحليلاً عميقاً يبيّن أنهن يقلن في أنفسهن بصورة لاشعورية :

أشعر بصعوبات هائلة في أن أكون امرأة ، لأنني أجهل معنى «أن أكون امرأة» . فذلك ما لم يقله لي أحد ، ولم يعلمنيه . بل على العكس ، أكد الناس لي دائماً أن المرأة « ليست إلا . . . » . وأرفض أن أعيش وفاق هذه المعايير السلبية .

وعندما يباشرن عملاً سيكولوجياً عميقاً ، يحسسن أخيراً ماذا يعني « أن أكون امرأة » ، ويُلاحظ أن الرغبة في « أن أكون رجلاً » تختفي .

وينبغي أن نتذكر ، فيما يتعلق كذلك بالأسر التي ترى المرأة نفسها ملزمة فيها بدور يعجز عنه الرجل ، أن الزوجين لا يرتبط أحدهما بالآخر « مصادفة » . ثمة ، على الدوام ، اختيار ولو كان بصورة لاشعورية. وإذا اتصفت إحدى النساء ، قبل زواجها ، بنزعات تشبه نزعات الرجال ، فانها تختار زوجاً وفاق هذه النزعات ذاتها ، التي تنمو بالنتيجة ، وتؤمّن الاستمرار بسبب قصور الرجل . وهكذا تنغلق الدائرة .

٣ – خطر المسبق الصنع

لا يمكن أن نلح كثيراً على مدى ما تتصف به من الضرر نظريات فرويد ، المنتشرة في الجمهور الكبير من الناس .

لنفرض أن ثمة امرأة مصابة بالحَصَر والخوف ، وأنها عدوانية وعصبية . فهناك احتمال كبير بأن تجيب بعبارة « هذا مؤكد » ، إذا أوحى لها أحد علماء النفس في سؤال على الصورة التالية : « ألا تنشأ صعوباتك من رغبتك ، التي لا يمكن أن تتحقق ، في أن تكوني رجلاً ؟» ، فتلك عبارة يبدو أنها لا تقبل المناقشة . **ولكن تسرعها هو من الشدة بحيث يبدو غير موضع ظن** . فاذا نظرنا إليها عن كثب ، رأينا أنها قفزت ، والرجلان مقيدتان ، على شرح جاهز .

فما السبب ؟ السبب أن هذا التفسير يتيح لها أن تجانب صعوبتها الحقيقية . إنها تنهش الصنّارة حتى لا تعاني اختبار أن ترى نفسها كما هي عليه ، اختباراً يتصف دائماً بأنه مؤلم ، مع كل ما يرافقه من ضروب حصرها ، حَصَر **المرأة** ، ورغباتها ، رغبات **المرأة** ، وعُصابها ، عصاب **المرأة** .

وبالاختصار ، إن شرحاً مسبق الصنع تستخدمه في الهروب . وهذا هو السبب في أننا لن نجد أي أثر لهذه « الرغبة في أن تكون رجلاً » ، عندما ينتهي التحليل وتكون على وفاق مع ذاتها ، إذ أنها تصبح في منتهى السعادة أن تكون امرأة .

طرافة المكيدة : قامت المرأة بدور حتّى تعجب الرجل ، وتكون محبوبة منه ، وتتجنب الوحدة . فاستحالت إلى امرأة ضعيفة ، متيحة للرجل ، على هذا النحو ، أن يعتقد في نفسه أنه القوي العظيم .

ونفخ الرجل صدره ونفسه حتّى لا يفقد مكانته أمام هذه المرأة التي كانت تنتظره عند المنعطف .

إنه الأمر الطبيعي ، كما ترون .

تظهر غوريلات الغابات ضرباً من الوجدانية . وتعلّم ذكور الغرب إخفاءها باسم الرجولة وإرادة القوة .

فهل هم ، إذن ، أكثر رجولة وأشد قوة من الغوريلات ؟

ثالثة الأثافي : إذا قيل إن الهرمونات الأنثوية تُحدث ميلاً إلى السلبية والداخلية والاستقرار ، استنتج الناس أن المرأة تتصف بالعطالة والجمود والعجز عن الإبداع . ويحكمون عليها .

وإذا أُعلن أن هرمونات الذكر تدفع الموجود نحو العدوانية والفتح وعدم الاستقرار ، استخلص الناس منها أن الرجل فظ ، أناني ، متقلب. ويحكمون عليه .

وبعبارة أخرى : يضفي الناس على الهرمونات صفات أخلاقية .

وينسى الناس بالطبع أن الرجال والنساء مزودون بالفئتين من الهرمونات ، وهي رأس مال مزدوج أساؤوا جميعاً إدارته إساءة كبيرة.



الفصل الرابع

عضو الخدعة

> مثلما يرتل الكاهن ،
> كذا يردد خادم الكنيسة .
> لورو دو لانسي .

نحن بصدد خديعة جديدة تقع مسؤوليتها على اللاشعور الانساني وحده . فالمرأة مشمئزة ، ولكنها — وتلك مفارقة — تصبح الشريكة التامة فيها ، كما لو أنها، وهي تتنكر الشمس ، تقدّم لها ضرباً من العبادة في الوقت نفسه .

فلننتبه فقط إلى ما يلي :

— امرأة يسيطر عليها رجل « ذو رجولة » فتقاوم ؛

— ومع ذلك تحتقر الرجل الذي لا يتصف بأنه « ذو رجولة » ؛

— وهي في الوقت ذاته تصون عبادة البطل الذي لا يُروَّض ولا يُغلب ، وتظل معجبة بالسلطة والقوة الخارجية .

ماذا يعني إذن ، بالنسبة إليها ، « رجل من الرجال » ؟ ماذا يمثّل ،

ما دامت تمجّده بالرغم من كل شيء ، كما لو أنه قمة الخلق ، مع احتمال أن تخلعه عن العرش لتستوي عليه ، لا وفاق المقاييس النسوية وإنما وفاق مقاييس الرجل ؟ ولماذا هذه اللعبة التي فيها يتصف **الرجل بأنه محتقر إذا كان « فحلاً »، ومحتقر بالدرجة نفسها إن لم يكن كذلك ؟**

فلنعد إلى فرويد . قد يبدو إذن أن المرأة تشعر بأنها « مخصيّة » و « ناقصة » لكونها ليس لها « عضو الذكر » . إنها تأسف لكونها امرأة، وترغب أن تكون رجلاً . وإذ يتضح أن حلمها غير ممكن التحقيق ، فان مطالبة وأسفاً دائمين يستقران .

وكل هذا يبدأ منذ الطفولة . فما عضو الذكر لصبي صغير مع ذلك ؟ إنه شيء تافه ، ضرب من الزائدة .

فلماذا يتخذ هذا العضو مثل هذه الأهمية فيما بعد ؟ لماذا كان عضو الذكر ، في جميع العصور ، رمزاً مجيداً على وجه التقريب ، يتغيّر اسمه عندئذ ليُسمى القضيب ؟ ومنذئذ يفهم المرء أن الرجل ، صاحب عضو الذكر ، هو موضوع هذه الرمزية . فتميّز في الوقت نفسه .

ومن هنا إنما يفترق كل شيء . فلنستمر إذن ، ولكن سالكين درباً يتصف بأنه غير متوقع على الأقل .

أولاً – إلى ماذا ترمز الوظيفة البولية ؟

١ – بعض الارتباطات بين الكلمات

الوظيفة البولية مبتذلة في ذاتها ، ولكنها تنطوي ، من الناحية الرمزية، على أهمية كبرى . إنني ، من جهة أخرى ، واثق من أن عدداً من

القارئات ، في هذه الآونة ذاتها ، ترجمن الآن « وظيفة مبتذلة » بـ «وظيفة مزعجة مخجلة ، مقرفة ، الخ » ، وقارن أنفسهن بالرجل ، صاحب الامتياز الفيزيولوجي .

ثمة سؤال قد يبدو سخيفاً للوهلة الأولى : هل للوظيفة البولية أصداء فلسفية ؟ ليس هذا صادر عن مارك توين * ، فاطمئنوا ، بل إن فرويد وعلماء آخرين في التحليل النفسي ، وسيمون دي بوفار ، وجان بول سارتر ، تكلموا عليه .

إنه لامر منطقي ، بعد كل شيء . **ذلك أننا من خلال أي شيء نعقل العالم ، إن لم يكن بأعضائنا، أياً كانت هذه الأعضاء ؟**

إليكم بعض الارتباطات بين الكلمات ، صنعها أربع نساء سويات وذكيات . كانت الكلمة المقترحة « يبول » ، مع دعوة إلى الاستجابة بصورة تلقائية أكثر ما يمكن .

عمر المرأة الأولى ٣٥ عاماً ، المهنة حرة :

خجل — إقعاء — مادة — يعاني — يختبيء — بشع — طمث .

عمر المرأة الثانية ١٩ عاماً ، طالبة :

مرئية — تتعرّى — مبتلة — تقعي — تتغوّط — واقفة .

عمر المرأة الثالثة ٤٣ عاماً ، دونما مهنة في الخارج :

(*) مارك توين : كاتب أمريكي ، مولود في فلوريدا (١٨٣٥ — ١٩١٠) . إنه الكاتب المشهور الأول ، الذي كتب عن الغرب الأمريكي ، وكان معلم الروائيين الذين أرادوا اكتشاف أمريكا من خلال مناظرها وفولكلورها . والمغامرات هي عنوان رواياته «م»

أرت نفسها – أسفل الجسم – غدّارة – خَفَر – تنشّفت خفية .

عمر المرأة الرابعة ٢٨ عاماً ، دونما مهنة في الخارج :

غيرة – سلبية – مراحيض – أن لا تكون مرئية .

ماذا نجد ؟ نجد الأفكار التالية وهي :

خجل : خجل ، تختبىء ، بشع ، تنشّفت خفية ، أسفل الجسم .

دونية : إقعاء ، تقعي (هذه المرأة قالت لي : « في كلمة تقعي (الفرنسية) ، ثمة كلمة « ردف ») .

مادة : مادة ، مبتلة ، طمث ، أسفل الجسم ، مراحيض ، يتبول .

عجز : سلبية ، يعاني ، واقفة (= تمرد ضد وجوب الإقعاء ، غيرة من الصبيان) .

خَفَر : خفر ، يختبىء ، مرئية ، تتعرّى ، أن لا تكون مرئية .

وليس ثمة ، في هذه الأفكار ، أي انطباع إيجابي ولا انطباع مجيد ، على أي حال . وهناك ثلاثة ارتباطات تبدو غريبة للوهلة الأولى : طمث ، يتغوّط ، غدّارة .

٢ – «الاستطاعة» البولية

كانت المرأة الثالثة المذكورة أعلاه قد قالت لي :

– عندما كنت مراهقة ، رغبت في أن أبول واقفة في أنبوب . ومع ذلك كنت أتظاهر .

ولو أني سألتها عن الباعث لهذا التصرف ، لأجابت بالتأكيد :

— لأفعل كما يفعل الصبيان .

ولكن لماذا ؟

هو ذا حلم رأته المرأة الرابعة المذكورة أعلاه :

— حلمت بأنني كنت أبول بعيداً إلى حد كبير ، حتى ما وراء الأفق . وجدت نفسي واقفة . كنت أبول دونما جهد ، ومع ضرب من الشعور بالقوة والحرية . ثم تلاشى حلمي ، ورأيت صاروخاً كان يصعد في السماء الصافية .

هنا ، يوجد شعور بـ « الاستطاعة » البولية ، يعقبها رؤية صاروخ. ولكن **لماذا** ؟

وقالت لي امرأة أخرى بلغت الثالثة والعشرين من عمرها :

— إن البول ، بالنسبة إلي ، يمثل الخجل والدونية دائماً ، وعلى وجه الخصوص عندما أكون في زيارة ، وأعلم أن الموجودين يعلمون . يا لحظ الرجال !

لماذا ؟ وماذا يمثّل ذلك ؟

وقالت لي امرأة أخرى أيضاً ، عمرها ٥٤ سنة :

— يبول الرجال أحياناً في وسط الشارع ، ولا يكادون يحتجبون . فلماذا ، في الواقع ، يُمنع ذلك على النساء ؟

ولماذا ، في الواقع ، يوجّه الشرطي (ولا يزال) مجرد توبيخ إلى مراهق يبول بصورة مكشوفة ، في حين أنه يقود إلى السجن صبية تقوم

بالوظيفة ذاتها جهاراً ؟ لماذا هذا الاختلاف ؟ وإلى أي شيء ترمز هذه الوظيفة ؟

كلّ يعلم أن الصبيان الصغار يجرون مسابقات لمعرفة من يبول **الأبعد والأعلى** (وسنرى أن هاتين الكلمتين المكتوبتين بالحرف الأسود تنطويان على أهمية كبيرة) . ومن المعلوم أيضاً أن البنات ، تحت ضحكاتهن المكتومة ، يحسدنهم . وفي هذا المجال أيضاً ، لو سألناهن ، لأجبن معاً : «**لأننا لا نستطيع أن نفعل مثلهم** » .

هل هذا هو الجواب المناسب بصورة واقعية ؟ ماذا يحسدن في الواقع ؟ هل هي « حرية » الصبيان ؟ أم هو شيء آخر ؟ ومن أي شيء هن غيورات (كالمرأة ذات الثماني والعشرين ، المذكورة أعلاه) ؟

٣ – الخجل من أعضاء النساء

لن تبول بنت سوية على مرأى من الغير إطلاقاً . إنه لأمر غير منطقي إذا قارنّا مع الصبي .

فلنصوّب الآن : لا تشعر البنت الصغيرة بالخجل ، مع ذلك ، إلاّ **ابتداء من عمر معين** . وثمة عدة عوامل أولية تتدخل في هذا المجال :

– **العامل الثقافي** . تسمع البنت الصغيرة يقال « هذا وسخ ، هذا أمر لا يُفعل ، خبّي هذا ، الخ » . وهي تقارن وضعها بوضع الصبيان الذين يبدون حرية تكاد تكون كلية ودونما انزعاج واضح . وتكتسب البنية – دون أن تعلم السبب – ضرباً من مفهوم الخجل ، مرتبط بوظيفتها البولية .

خجل الأمهات . ثمة عدد من النساء ، كبير جداً ، ينظرن إلى

أعضائهن التناسلية على أنها تسبب الذل والخوف ، وعلى أنها ملوّثة بالخطيئة والإثم . وينقلن هذا الإحساس بالخزي إلى بنياتهن بكلام أو بمواقف تظهر خجلهن من الوظيفة البولية . ولكنهن ، في الوقت نفسه ، ينقلن الانطباع إلى البنت بأن « أسفل الجسم » لا يمكن أن يُرى بأي حال.

البنت محرومة من الحظوة بفعل طبيعتها ذاتها. فلماذا ؟ ما هي الوظيفة البولية بالنسبة إلى الصبي ؟ إن الوظيفة البولية تتم بعضو **خارجي**، متميز عن الجسم بعض الشيء ، عضو يمكنه أن يتناوله باليد وكأنه شيء . ويبدو عضو الذكر لدى الصبي دونما علاقة بداخل الجسم . إنه عضو يمكن **أن يُرى** . يضاف إلى هذا أن الصبي يستطيع أن يبول واقفاً.

ولكن ما الوضع بالنسبة إلى البنت ؟ جميع الأعضاء التناسلية مجتمعة معاً داخل الجسم . لقد قال لي بعض النساء :

– لو أن الناس نظروا « في ذاتي » بصورة كلية ، لرأوا جسمي السري ، المخبأ ، غير المرئي .

– الإقعاء حركة مهينة .

– **سيرى الناس أني بنت** (شعور بالدونية بالنسبة الصبي) .

٤ – تجاور الوظيفة البولية والوظيفة الشرجية ، أو المِقْذَرة *

هو ذا ما هو مهم فيما أعتقد .

قالت لي إحدى النساء :

(*) فتحة مشتركة للدروب البولية والمعوية والتناسلية لدى بعض الفقريات ، وعلى وجه الخصوص لدى العصافير « م ».

– لدي انطباع مخجل بأن الفتحة البولية والشرج ليسا سوى شيء واحد .

وقالت المرأة الأخرى ، المذكورة أعلاه :

– في كلمة « تقعي »(الفرنسية) ، **توجد كلمة « ردف »**.

وقالت امرأة أخرى :

الرجال يُحسدون . عضوهم متمايز . أما نحن ، فاننا نحس بأن البول والطمث يتمان بعضو واحد . . . وهذا انما هو ، على ما أعتقد ، ما يضفي علينا الشعور الهائل بالدونية .

يضاف إلى هذا أن كثيراً من النساء لا يميزن في الذهن بين الوظيفة البولية والوظيفة الشرجية . فهن يخلطن ، في الذهن دائماً ، هاتين الوظيفتين في ضرب من « المقذرة » الواحدة . وهل ينبغي أن أذكّر بارتباطين سابقين : الطمث والتغوط ؟ إن الفتحتين (البولية والشرجية) غير مفصولتين ، لدى البنت ، إلاّ بفاصل بسيط . ويفهم المرء فهماً جيداً هذه المهانة التي تشعر بها المرأة .

وليس هذا كل شيء .

ففي بعض الأرياف ولدى بعض الأقوام ، ثمة نساء يبلن واقفات . وبعضهن يفعلن ذلك على نحو مرئي ، بادئات ضرباً من « المنافسة » مع الرجال. ولكن أي منافسة ؟

٥ – تجاور المادة

ماذا يعني ، **من الناحية الرمزية** ، تقعي ؟ لنقارن ، مرة أخرى كذلك ، بين البنت والصبي .

عندما يبول الصبي ، **يطرح** المادة . إنه يقذفها بعيداً عنه. إنه **سيدها**.
ولكن ثمة ما هو أكثر .

وإذ تكون البنت ملزمة بالإقعاء ، فانها تكون **قريبة** من المادة التي تخرج منها . وهي تظل ، من الناحية الرمزية ، « على أربعة أرجل » ، وقريباً من الأرض . بولها يسيل **تحتها** . وتبقى ، من الناحية الرمزية أيضاً ، « في سائلها » فلا تستطيع أن تطرحه بعيداً عنها كالصبي ، ولا تستطيع أن ترسم له مساراً ارادياً ، ولا أن توجّه قذفه . إنها **تخضع** له .

انظروا مرة ثانية إلى ارتباطات كلمة « يبول » . ثمة امرأة تجيب **غدّارة** ، أي آلة تتيح أن تقذف مقذوفاً ، وتطرحه بعيداً ، وتقهر الثقالة ، كما يفعل صبي يقذف بوله . فالغدّارة تقهر المادة ، ويبدو أن الرصاصة تفلت من الثقالة فترة .

هذه المرأة الصبية قالت لي فيما بعد ، إضافة إلى ذلك :

– كنت أريد أن أجيب « يبول بقوة » ، فلم أجرؤ . إن لدي انطباعاً بأن ذلك وقف على الرجال .

واستمرت في حديثها :

– أحب أن أرمي بالغدّارة ، وخصوصاً إذا كانت الدريئة بعيدة. وأستطيع ، على هذا النحو ، أن أحدّد بالحساب مساراً مائلاً . فكلمة « يبول » أثارت لدي هذه الغدارة. ذلك أنني آسفة – وجميع النساء ينبغي أن يكنّ في حالتي – لأننا لا نستطيع . . . ! (ترددت وضحكت) **أن نبول ، إذن ، بقوة ، في اتجاه شجرة أو حائط ، راسمات للسائل مساراً وحركة .**

وهذه هي الفتاة معوق مجدّداً . إنها لا تشعر بأي إحساس بالقوة. ولا تستطيع أن « ترفض » هذة المادة التي تسيل . أما الصبي ، إياه ،فانه يقذفها بعيداً كما لو أنه يقذفها تحدياً .

٦ — الأهل يلعبون اللعبة

نعلم أن كثيراً من الأمهات ، إذ يشعرن بالإحباط كونهن نساء ، ينقلن إلى أبنائهن الطموح الذي لم يستطعن تحقيقه . ويصبح الابن «صنوهن » الذكر : وكل هذا يحدث بصورة لاشعورية . إنهن يحملن الصبي عارياً . وهنّ ، إذ يفعلن ذلك ، يتباهين بأنفسهن دون علم منهن ، ومع كل ما يفترض ذلك من أضرار .

الصبي حامل عضوالذكر . وهذا العضو ، في هذه الحال ، يصبح ، بالنسبة إلى الأم ، « علامة » ما كانت ترغب في أن تكون : رجل .

ماذا نلاحظ ؟ تعامل الأم عضو ابنها **وكأنه شيء محبوب** . ألا تعرفون هؤلاء النسوة اللواتي يسمين عضو صبيهن الصغير أسماء تدل على الحنانبصورة مضحكة؟ويكتسبالذكر الصغير انطباعاًمفاده أن لعضوه الذكر **قيمةفي ذاته** ، وأنه يمثّل شيئاً موضع إعجاب ويستحق الإعجاب، وأن الأمر ليس ، على الاطلاق ، أمر عضو كغيره من الأعضاء ، بل أمر شيء ما يتصف بأنه « عظيم » ، و « نبيل » ، وموضع حسد ، ومدلّل ، وثمين ، الخ .

وما وضع الآباء ؟ اللازمة معروفة : « قفي منتصبة كالرجل ! » ، أو « بولي واقفة كما يبول الرجال ! » ، أو كذلك « البنات ، **هذه** تقعي ، وليس الصبيان ! » ، الخ .

وبالاختصار ، يجعل الأهل من عضو من الأعضاء ضرباً من الرمز.

والطريق ممهدة لكي « يقع الصبي الصغير في الفخ » . فهل يملك إذن « شيئاً ما » يتصف إلى هذا الحد من الاعتبار والتقدير والاحترام ؟ إنه يتوحّد بعضوه الذكر . ويعتقد بأن « استطاعته البولية » تمثل استطاعته الشخصية . وهو ، من جهة أخرى ، يتوحّد باستطاعته التناسلية ، أو بعدد أحصنة سيارته .

وما الوضع بالنسبة إلى البنيّة ؟ لن تكون أعضاؤها التناسلية ابداً موضع تسمية بأسماء تدلّ على الحنان ، تطلقها أمها عليها ، ولا ، بالطبع ، أبوها كذلك .

تصوروا بنيّة لها أخ صغير . فهي تسمع أمها « تدلّل » عضو الصبي الصغير كما لو كانت ازاء موجود حي ، ولكنها تسمع ، فيما يخصها ، يُقال إن عضوها لا يمكن إظهاره ، ويتصف بأنه مخلّ بالحياء ، وقذر ، الخ .

وتسقط البنيّة في الدونية . وأي امرأة لا تتذكر ذلك ؟ إن البنت الصغيرة تصبح تلك التي ليس لها عضو مجيد ، وتلك التي ليس لها غير « ثقب » ، وتلك التي لا تتسم بالجدارة الملكية ، جدارة أن تبول ، واقفة ، إلى بعيد وبقوة ، بل تلك التي ليس مباحاً لها إلا أن تقعي ، سراً ، لكي تنشّف فيما بعد ، خجلة .

وإذا توحّدت البنت ، هي أيضاً ، بأعضائها التناسلية ، فانني أدعكم تفكرون بالإحساس اللاشعوري ، غير القابل للشفاء ، الذي ينجم عن ذلك خلال حياة كاملة برمتها .

٧ — الخلاصة

وقبل أن نتابع حديثنا ، أعتقد أنه لا بد من أن نكثّف كل ذلك على صورة تخطيطية :

الوظيفة البولية

صبي	بنت
واقف	مقعية
بصورة مرئية	وهي محتجبة
يقذف ببوله	ترى بولها يسيل تحتها
عمل سريع	عمل بطيء (التعري واللباس ثانية)
عمل يُنظر إليه على أنه طبيعي	عمل يُنظر إليه وكأنه مهين ، قذر
فاعلية إرادية	سلبية ، خضوع للمادة
ظاهرة خارجية بالنسبة إلى الجسم	ظاهرة تحدث داخل الجسم
يميز الفتحة البولية من الفتحة الشرجية	يمكن لها أن تخلط ، في خيالها ، فتحتي البول والشرج
عضو ذكر يرفع من شأنه الأهل	فرج لا يبالي به الأهل ويحتقره الصبيان
إحساس بالاستطاعة و « النبالة »	إحساس بالعجز والخجل
يتوحّد بعضوه التناسلي مفتخراً	لا تستطيع التوحّد على نحو إيجابي بعضوها التناسلي
منتصب على نحو مرئي كمنتصر فوقية	تقعي على نحو خفي كمغلوب دونية

تلك إنما هي بداية خدعة جديدة تسوّل النفس لبعضهم أن يسميها على نحو مضحك ، العظمة . وتجعلنا هذه الخدعة نفهم الكماشة التي تنغلق على المرأة فهماً جيداً .

ذلك أن الوضع يتصف بأنه مرعب إلى حد كبير بالنسبة للمرأة . فقد تحملت حتى الآن نتائجه الشاقة ، ولا نرى نهاية لهذه الظاهرة التي تتسم بأنها شديدة الخطر بمقدار ما هي لاشعورية .

والخوف ، (والكلام عليها دائماً) ، هو المسؤول عن ذلك . فهو ينشد سمفونية من حركتين : الأولى ، سأصفها في الصفحات التالية ، والثانية ، سأصفها فيما بعد . ومن هو قائد الأوركسترا ؟ إنه اللاشعور الإنساني . والعازفون ؟ إنهم جميع النساء وكل الرجال في العالم ، المتشبثين بالتجزئة منذ الأزل .

والمظاهر الخارجية لوضع النساء،في هذا المجال أيضاً ، لا تغير شيئاً في أساس المشكلة .

ثانياً ــ الحاجة إلى الخلود والاستطاعة

١ ــ الخوف من الموت

المعاينة الشعبية واضحة : نحن شيء زهيد ، ولكل شيء نهاية . وهذه الحقيقة البسيطة زيّنتها الفلسفة والشعر والأخلاق . وفكرة الموت نواة الديانات جميعها ، والأساطير كلها . وليس ثمة موجود إنساني لا يلاحقه اليقين ، بصورة شعورية أو لاشعورية ، بحتمية الموت ، مع ما يرافقه من شعور بالضعف والعجز ، ينجم عنه . وتدور حول هذا المحور الوحيد جميع الأفكار والأعمال الإنسانية ، سواء كان ذلك على نحو مباشر أو ملتو ، رديء أو رائع .

ثمة مفهوم مرتبط بهذا اليقين بالموت : مفهوم **الزمن الذي ينقضي ويتلاشى** . أما الموجود الإنساني ، فانه يرفض . ذلك أن مفهوماته للموت ، وضروب التجلي « البطولي » ، وتحدياته ، هي ضروب من الرفض الخفي.

ولا بد من ترياق لهذا اليقين وهذا الخوف . والترياق ، في بساطته الأولية ، متوافر . وحسبنا أن نجد أضداداً من النوع التالي :

اليقين	الترياق
ضعف	قوة
دونية	تفوق
قابلية الانجراح	مناعة
زمني	دائم
زوال	استمرار
أرضي	سماوي
موت	بعث
فان	خالد

إيجاد الأمن أمر يسير إذن ، وكذلك استعماله . وما على المرء إلا أن يكشف عن ضروب من السلوك الذي يحمي من هذا الحصر . ولكن ، ماذا تفعل المرأة في كل هذا ؟ فلننتظر : إنها ستمثل على الفور.

٢ ــ الترياق الديني

إنني أستعرض استعراضاً سريعاً جداً : قد يكون تاريخ الأديان أمراً ضرورياً في هذا المجال . ولنقل ببساطة إن الرعب من الزمني يفضي إلى الحاجة إلى الاعتقاد بخلود يتجلى بصور ممكنة شتى ، بحسب الشعوب

والعصور . وعندئذ ، تتلاحق موضوعات خلود الروح والجسم ، والبعث بعد الموت ، والصعود نحو الأبدية ، والمجد للفانين الذين أصبحوا خالدين ، مجد يشتركون فيه مع الآلهة .

ويقود الخوف من الزمن الذي ينصرم إلى موضوعات الديمومة . وعلى هذا النحو يعارض المرء ما يسبّب الخوف : وهذا أمر سوي . وها هي ، مع ذلك ، بديلة تثير اهتمامنا : اذا كانت السيادة في الدين لاله ، وجدنا فيه الرموز التالية :

مجد قوة خلق

رموزاً هي خصائص **الذكر** التقليدية . وإذا كانت السيادة في الدين لإلهة ، وجدنا الرموز التالية :

خصوبة غبطة وفرة

رموزاً هي خصائص **الأنثى** .

٢ — بدائل الأبدية

وهنا أيضاً ، كانت المرأة دائماً في وضع بين الشجرة والقشر ، لدواع عديدة .

ولا بد من إيجاد بدائل « أبدية » أرضية لمقاومة الرعب من الزمن الذي ينقضي . فيكلف الموجود الإنساني شيئاً ما (أو شخصاً) يجعله يمتد لكي يكون ، في حال موته ، « غير ميت كل الموت ».

هل عُهد إلى المرأة أحياناً بهذه المهمة ؟ **أبداً**، وقد رأينا ذلك من قبل : فالمرأة منبوذة ، وليس لها الحق بـ« عبادة الأبدية » . لماذا ؟

الأبديات اليومية الصغيرة لامتناهية . وهي موجودة في جميع ما

يحاول محو الزمن باشادة الأشياء التي تدوم . ولكن كم هي زهيدة هذه الصور المنقوشة على الرمل ، التي تذكّر الموجودات ، على نحو قاس، بما هم عليه : مصيرهم أن يتلاشوا سريعاً في الهواء !

ويبحث الموجود الإنساني ، بوصفه مصاباً بالحصر ، عن هذه البدائل ، بدائل الأبدية ، من خلال أي شيء . تلك هي الأقوال الرسمية التي تؤكد أن فكر الزائل سيظل خالداً (= غير فان) ، وأن عمله يجعله يمتد بين الناس (= غير زمني) . والخوف من الزمن الذي ينصرم يبني شعلات الذكرى ، والكاتدرائيات المنتصبة ، والدلمنات * المجيدة ، والرسوم على الأحجار . والخوف موجود في الشغف بشجرات النسب والحفريات الأثرية . وهكذا ، فان الموجودات الانسانية تحسب بأنها وضعت نفسها خارج الضفة العابرة ، وأنها تتسلق الزمن وتعبر القرون ، كما يفعل الآلهة .

٣ – البنت محرومة من المنيّ

« إنهم يمضون دون ذرية : ليس لهم غير البنات ! »

والعائلة ، التي يتصف **اسمها** بأن مصيره الفناء ، تخفض رأسها . ويرى المرء ، عندئذ ، أن الآباء يعاملون بناتهن وكأنهن **نوافل تلد** . والبنات ، ألا يجعلن الاسم يمتّد ؟ يا للشيطان ! أيتبدّد الاسم هكذا ليغرق في العدم ؟ ويصعد الخوف : لن يكون للعائلة قطعة صغيرة من الأبدية الأرضية .

أتقولون هذا غير صحيح ، وإن ذلك لا يحدث لو كانت البنت

(*) Dolmen : نصب ما قبل التاريخ قوامه حجر كبير مسطح موضوع فوق عدد من الحجارة المنصوبة .

تحتفظ باسم عائلتها ؟ حسن ، فليس الأمر على هذا النحو . ذلك أن الوضع يظل دون تغيير حتى ولو أن الأولاد يحملون اسم أمهم . **وستكون المرأة حاملة الاسم** ، **ولكن لن تكون حاملة المني** . فالمرأة ، من الناحيتين الرمزية والثقافية ، لا تمثّل التناسل . وهي لا تملك في ذاتها إمكانات تستطيع أن تؤمّن للنوع قفزات متتالية من جيل إلى جيل .

وكونها محرومة من المني ، لا تستطيع أن تناضل ضد الزمن . فهي تموت معه . وترى نفسها ، في الوقت ذاته ، منبوذة في عداد التوابع ، صغيرة وخاملة الذكر ودون مجد .

٤ ـ عقيدة الصعود

ثمة مثال نقدّمه بصورة عابرة . إن مريم ، في الديانة الكاثوليكية ، لم تكن قد نزلت من « أعلى » كابنها . فهي أرضية صرف ، امرأة ـ مادة . وكان لها ابن ـ إله ، ولكن كان عليها أن تخضع ، على الرغم من كل شيء ، إلى تطهير الاقتبال . وخرج ابنها الاله من الأرض وقد بُعث ، فانفلت على هذا النحو من المادة والأرض (موضوع صعود الجسم نحو الأبدية) .

أما مريم ، فانهم منحوها **روحاً** طوباوية . ولكنهم تركوا جسمها بصورة رسمية في الأرض . وهكذا كانت قد بقيت امرأة ـ مادة . وكان لا بد من أن ينقضي حوالي ٢٠٠٠ عام حتى ينص أحد البابوات (١٩٥٠) على عقيدة الصعود ، التي كان جسم مريم بحسبها ، هو أيضاً ، قد صعد إلى السماء . فرُسم إذن أن مريم كانت قد قهرت المادة أيضاً ، بالرغم من أنها امرأة ، وقهرت الموت والزمن الذي ينقضي .

والاعتقاد بالصعود ، الذي لم يكن غير اعتقاد شعبي ، أصبح على

هذا النحو إلزامياً بالنسبة لجميع الكاثوليك . **ثمةامرأة كانت قددخلت الجنة الموقوفة على الآلهة الذكور** . ولكن مع عدم المساواة مع هذا : ذلك أن العقيدة كانت ترفض أن تقرّ لمريم « وضع » الإلهة الخلاّقة ، غير مانحة لها غير دور الوسيطة بين ابنها وسكان الأرض .

أليس أمراً ذا دلالة أن تنطلق العقيدة الكاثوليكية خلال الفترة التي كان يتصاعد فيها تحرر المرأة ، ولكن دون أن يُعترف لها بالمساواة **السيكولوجية** بالرجال ؟ (١)

ثالثاً – الانفلات من الزمنية

١ – الرجل رمز الأبدية الأرضية

ولنعد إلى ما يشغلنا . النساء العازبات موضع شبهة ، وكذلك العاقرات والنساء دون ولد . والعانسات أكثرهن وضعاً موضع الشبهة . يُقال عنهن غالباً : « إنهن لا يقمن بدورهن النسائي ! » وعلى هذا النحو ، يعلن الناس ، وهم يروّجون لهذه النقمة الفاضلة ، أنهن لا يؤمّن تجديد النوع .

ولكن جميع هؤلاء الناس يسخرون تماماً من تجديد النوع ! فما يقلقهم يتسم بأنه لاشعوري ورمزي . ذلك أن هؤلاء النساء دون ولد لم يتحدوا الزمن ، بل لم يساعدوا على أن يجعلوه يمتد . فهن يثرن الخوف ، لأن الموجود الإنساني يحس ، من خلالهن ، إلى أي مدى يتصف بأنه فان وعابر .

يقال : إن الأعزب العفيف لا يتناسل كذلك . هذا أمر صحيح ، ولكنه يظل **منتجاً كامناً ودائماً** . فرمز الأبدية الأرضية سليم .

---

(١) أنصحكم بقراءة جواب إلى جوب ، ليونغ ، ترجمة الدكتور رونالد كاهن ، منشورات بوشه – شاستل .

ولنتصور الأرض مسكونة بالنساء على سبيل الحصر . ذلك سيكون من الناحية الموضوعية ، فناء الكوكب . والحال أن المصير ذاته ينتظر الأرض التي يسكنها الرجال وحدهم . ولكن صوت الجرس سيكون ، في رأي الكثيرين ، مختلفاً ، لأن الحياة ، من الناحية الرمزية أيضاً ، ستظل كامنة.

هاكم ثلاثة أسئلة تبدو سخيفة

إذا كانت المرأة تشعر بأنها
غير كاملة لأنها لا تملك عضو
الذكر . . . . . .

فلماذا لا يشعر الرجل بأنه
غير كامل لأنه محروم من العضو
الأنثوي ؟

إذا كان القضيب دائماً رمز
المجد . . .

فلماذا كان عضو الأنثى
دائماً موضوع حذر أو رعب من
جانب الرجال والنساء ؟

إذا كان لا بد للعالم ، غداً
وإلى الأبد ، أن تحكمه النساء ،
مستأثرات بجميع الحقوق . . .

فهل يرغب الرجال ، وقد
أضفيت عليهم الدونية ، في أن
يصبحوا نساء ؟

أليست أسئلة مضحكة؟ كلا ، إنها ليست كذلك ! فهي تنفتح على ماسيأتي من حديثنا ، وتتصف بأنها ذات أهمية كبرى في فهم « الحرب بين الجنسين » .

٢ ـ عبادة القضيب

ليست المرأة اذن « مستخدمة» من حيث كونها علاجاً ضد الخوف. ويبقى الرجل رمز الرجولة والقوة التي لا تُدمّر . إنه لفخ جميل جداً يقع فيه النساء والرجال منذ الأزل .

لنتذكر الحلم الذي ذكرناه أعلاه . إن المرأة رأت نفسها تبول **واقفة وبعيداً** . فتعاني الإحساس **بالقوة** . ثم ترى **صاروخاً** .

هل هذا حلم غير سوي ؟ على الاطلاق . وملايين النساء يمكن أن يرين هذا المنام ذاته ، بالرموز ذاتها على صور مختلفة . فماذا نرى في هذا المنام ؟

واقفة : أي منتصبة ، وفي وضع عمودي ، وفي موقف التحدي. و « الجسم » في حالة انتصاب .

بعيد : أي إطلاق المقذوف ، والانفلات من الثقالة (كرصاصة الغدّارة ، ص ٨٢) ، وسيدة المسار والحركة .

قوة : أي الانفلات من الإحساس بالعجز الإنساني .

صاروخ : آلة تتيح تحدّي المادة (مغادرة الأرض) ، وازدراء الثقالة (الطيران) ، وثقب الغلاف الجوي (الصاروخ يرمز إلى عضو مذكر قوي) .

ويمكن القول إذن إن هذه المرأة تظن نفسها رجلاً .

ولكن الرجل من يظن نفسه ؟ وهنا إنما ننفذ إلى الخدعة .

نحن نعلم أن الإنسانية سعت دائماً إلى الانفلات ، **بأي ثمن** ، من خوفها من الضعف والزمنية . فما العلاج الرائج ؟ العلاج هو إنتاج الذكور ، إذ أن المرأة ليست منتجة في ذاتها . ذلك إذن إنما هي نقطة أولى تؤكد « أولية » كل ما يتصف بالذكورة .

ثم يحدث ضرب من الانزلاق . انزلاق ينطلق من الرجل الصغير

اليومي لكي يؤول إلى الرجل — الرمز ، مع تواطؤ المرأة الكامل . فلماذا هذا التواطؤ ؟ وسبب هذا التواطؤ أن الأمر المطروح هو خوف الموجود الإنساني ، أياً كان جنسه . وعلى هذا النحو ، يخضع الموجود الإنساني . محاولاً نسيان خوفه ، إلى بعض الشعارات :

— رفض المادة والزمني .

— بغض الضعف والعطالة ، رمز الموت .

— وبناءً عليه ، تمجيد كل ما يتحرك ويتصرف بقوة . وكل ما يمضي سريعاً وينقضّ ويصادم . وذلك ما يمتدّ من الكاوبوي إلى سيارة السباق ، مروراً بأبطال العضلات أو الفكر ، الذين لا يصيبهم الفساد ، والذين نلاحظ أن المرأة ليس لها في عدادهم أي مكان ، إن لم يكن مكان المعجبة .

— بحث عن كل ما « يضيء » ، ويتيح تبديد الظلام ، رمز الموت. إذن : عبادة النور (الشمس ، والعقل ، والقوة ، الخ) ، وحب كل ما « يلمع » (المجد ، والمآثر الرياضية ، والمال ، والمظهر ، الخ) .

— تحدّي الخطر (الموت الممكن) : المآثر التي تنذر بالخطر ، وتسلق الجبال العالية ، الخ .

— إجلال كل ما هو منتصب (رمز التحدي) في الطبيعة ولدى الموجود الانساني ، وعمودي (يعلو فوق المادة) ، وكل ما هو دائم ومنيع ، وكل ما يسود ، ويثقب ، ويخترق ، ويقصف ، وينبجس ، ويتفجر . ولنفكر بالإعجاب بالعروض العسكرية ، وعلى رأسها العربات والمدافع ، رمز المناعة ، وبالتالي ، رمز الأبدية . فهؤلاء الرجال

أنفسهم ، وهؤلاء النساء أنفسهن ؛ يتظاهرون ، والحالة هذه ، ضد الحرب في اليوم التالي . ذلك أن العرض العسكري يمثّل القضيب لبلد من البلدان ، وذلك رمز يستسلم له كل امرىء بحماسة .

– وبعبارة واحدة ، إجلال كل ما يرمز إلى عضو الذكر .

ويمكن أن نتساءل كذلك عما يلي : ألا يمجّد القضيب كثير من النساء لأنهن يرفضن بصورة لاشعورية أعضاءهن التناسلية التي لا ترمز ، في أعينهن ، إلى أي شيء على الاطلاق . هذا إذا لم تذكّرهن بأنهن خرجن من بطون أمهاتهن ، أي خرجن من العدم ؟

وعلى أي حال ، كان القضيب ، طوال عصور الإنسانية ، « علامة » الانتصار على الزمن والمادة . وثمة انزلاق منطقي حدث في اللاشعور الإنساني :

١

عضو الذكر

أصبح

القضيب ، رمز القوة والمجد

٢

عضو الذكر ، عضو الامتداد في المكان

أصبح

القضيب ، رمز انبجاس للحياة لا ينضب

٣

الرجل ، موجود إنساني منتج النسل

أصبح

الرجل ، بطلاً سامياً ومتحدّياً

والحقيقة أن النساء استسلمن لـ « الحركة » مثلما استسلم الرجال .

٣ — التنافس بين الرجل والمرأة

يعتقد الرجال أن مجرد كون المرء رجلاً (= له عضو الذكر) يمنحه المجد **بصورة آلية** ، والقوة ، والمنطق ، والذكاء ، والإبداعية ، والسيطرة .

أما فيما يخص النساء ، فينقسمن إلى قسمين :

١ — اللواتي يهاجمن الذكر ، وقد غمهن العجز عن الادعاء بالرمز « المجيد » ، رمز الرجل ، ولكنهن يلعبن اللعبة نفسها ، مسرعات نحو عبادة القوة .

٢ — اللواتي يسقطن في الفخ وقد أصابهن الإحباط للسبب المذكور أعلاه . ويعتقدن في أنفسهن أنهن محرومات من قدرات الذكاء وقدرات العمل ، ومن السمو . وينتهي بعضهن إلى الإعجاب مغتبطات بـ«عقل » الذكر ، دون أن يدركن إلى أي حد يتصف هذا العقل ذاته بأنه بارد ، ولا إنساني ، ومحروم من الجذور الداخلية .

ومع ذلك ثمة عدد من النساء متفقات على أمر مفاده أن على الرجل أن يطابق صورة القوة التي صنعها النساء للرجل . وحذار من أن يكون خائفاً ، ومتخاذلاً ، ومقهوراً . ذلك أنه ، من الناحية الرمزية ، ليس له قضيب. وهو يتصف عندئذ بأنه موطوء بالقدمين ، وممزق ، ومحتقر ، وبقايا حطام تذروه الرياح في جميع الاتجاهات .

وما « عبادة » القضيب ؟ إنها تمجيد الاستطاعة الأولية والقوة و «التفوق » **التي تقهر تهديد** الموت . تمجيداً لاشعورياً . فهؤلاء النساء هن ، على هذا النحو ، معاديات للرجال بوصفهم موجودات واقعية ، مظهرات في الوقت نفسه إعجاباً شديداً بالرجل على أنه الممثل الكامل لرمز أبدي.

فهل تندهشون عندئذ من أن المنافسة تدور دوراناً دائرياً ؟ إن التخطيطية التالية (التي تكمل التخطيطية السابقة) تلخّص الاحساسات الراسية في اللاشعور :

رجل	امرأة
رجل واقعي : منتج	امرأة واقعية : غير منتجة
رجل رمزي : خلاّق يتحدى الزمن	امرأة رمزية : غير خلاّقة ، تابعة للزمن
رجل رمزي : أبدية	امرأة رمزية : زمن يتقهقر ، مع عودة إلى العدم .

الاله التقليدي ، ذكر خلاّق مطلق ، ورمز مطلق للقضيب.

وعليه، فليس ثمة من شيء يدعو إلى الضحك عندما يكون الموجود الانساني امرأة واقعة بصورة آلية في شباك هذه الخدعة .

٤ – وكل ذلك سيستمر . . .

– ما دام الموجود الانساني ، بوصفه ليس غير موجود إنساني زمني ، يسعى ليصبح إلها أبدياً .

– وما دام الموجود الإنساني يتوّحد بديانة القوة ، أياً كانت صورتها.

– وما دامت المرأة تقتضي أن يكون الرجل غير ما هو عليه : منيعاً .

– وما دام التعبير الشائع « هذا ، إنما هو رجل ! » يطابق الديمومة دون مرونة ، والسلطة دون رجوع فيها ، والديكتاتورية دون رحمة ؛

وما دام هذا التعبير يكسو المغامرين ، وأبطال السينما ، وأبطال الرياضة ، والملاكمين ، والأقوياء ، ولا يتوّجه إلى أمثال أنشتاين ، وبتهوفن ، وشويتزر ، ولوكوربوزيه ، وسترافنسكي .

– وما دامت القوة الأولية لا تنزلق نحو ذكاء القلب والعمل الذي ينجم عنه .

– وما دامت المرأة متواطئة في هذه الحالة من الأمور .

ولكي يكون المرء متشائماً :

ما دام شعور الموجود الإنساني بالضعف والعجز مستمراً ، أي دائماً . . . أو على الأقل ما دام هذا الموجود الإنساني يرفض أن يكون محروماً وسريع الزوال كالفراشة .

كانت إحدى النساء قد قالت لي : « الرجال يقتل بعضهم بعضاً ، والنساء ينهش بعضهن بعضاً » .

مليارات من الرجال سادوا مليارات من النساء خلال القرون .

إنه لضرب من إبادة الجنس الوجدانية .

ذلك يعني أن ثمة كثيراً من المجرمين وكثيراً من الضحايا ، الأمر الذي يتصف بأنه عبث .

ما الباعث العميق إذن ، الذي استطاع أن يغذّي مثل هذا الوضع؟

المرأة قادرة ، بفعل خصائصها الأنثوية ، على ارتكاب فظاظات شرسة ترعب الرجل الأكثر إثارة للخوف . وهذا هو السبب ، على الأرجح ، في أن كثيراً من النساء يتبادلن الكره : فمجتمع الغاب يعيش في أعماقهن ، دون شفقة ولا رحمة .

على الرجل أن يصنع آلهة مصطنعة وخارجية تطمئنه وتحميه . أما بالنسبة إلى المرأة ، المتصلة بالأشياء ، يتصف دائماً أي إله بأنه طبيعي وداخلي ، أو أنه ليس باله .



الفصل الخامس

المجازر وضروب التآخي

> لو لم تكن المرأة موجودة لاخترعها الرجال .
> سيمون دو بوفوار .

١ ـ الرجل المذعور امام المرأة

تابعت بانتباه عدداً من المناظرات حول المرأة ، واعتراني منها ضرب من الذهول . ذلك أن أسس **الحرب بين الجنسين** لم تُعرض **أبداً** . بل من المرجح أن الناس لا يحسّون بها . ولا ينصب الحديث إلاّ على حوادث اجتماعية وحقوقية تتصف ، مهما كانت صحيحة وأساسية ، بأنها ثانوية بالقياس إلى البواعث التي أوجدتها .

وخلال هذه المناظرات ، لم أسمع أبداً ذكر السبب الواحد الوحيد لهذا الصراع الماضي والحالي ، والمستقبلي ، صدّقوا ذلك .

وفي أحد الأيام ، كشف الباعث مع ذلك عن قصده . قال أحد الرجال :

ـ ولكن ، لا بد ، أخيراً ، من أن يكون ثمة ضرب من اللامعقول في جهة ما .

لقد كان ذلك كل شيء . وأي شخص من الحاضرين لم يلفت الأنظار إلى هذا الكلام . واستأنف المتناظرون ، على نحو أشد ، حديثهم في جو تسوده الانفعالات ، والتهكم اللاذع ، والمبارزات اللطيفة بصورة مزيّفة ، والأزهار التي يحفّ بها الشوك ،وضروب التظارف الأخرى .

والمفتاح بسيط مع ذلك :

كل رجل يخاف المرأة . فهو يعاني رهاباً عميقاً مما تمثّله المرأة بالنسبة إليه .

يُقال ، في الغالب ، إن المرأة دمّرت الأسطورة القديمة ، أسطورة الأنوثة ، حين نالت الاستقلال ، وإن الرجل « الحديث » لم يعد ينظر إلى المرأة على أنها موجود مثالي ، وحلم بعيد المنال ، وشيطان حبيب ، الخ .

والواقع أن هذه الأساطير ، إياها ، هي على أحسن حال . فالمرأة لم تُجرّد من صفة القداسة : إنها ، على سبيل الحصر ، سجينة عالم الذكر ، الأمر الذي يتصف بأنه أجمل صورة من صور العبودية التي أدّخرت لها . أما بالنسبة إلى مخلوقات « الحلم » ، فالصناعة كفيلة بصنعها .

والعالم الراهن حديث في مظهره الخارجي لا في جوهره ، لأن لاشعور الرجال والنساء يتصف بأنه قديم قدم النوع الانساني. فأكثر ضروب الانتقال شدة في حديقة من الحدائق لا يعني إطلاقاً أن الأرض تتحرك على بعد مائة متر عمقاً . وإذا لم يطرأ أي تغيّر على السبب ، فلماذا يكون المفعول مختلفاً ؟

وعندما يكون الأمر ذا علاقة بالمرأة ، فليس ثمة من مكيال وسط. إن تاريخها هو تاريخ الأفاعي والهررة : فهي من جهة مكروهة ، محتقرة ومنبوذة ، ومن جهة ثانية موضع التقريظ والإعجاب والدلال .

والمرأة ، منذ بلوغها ، مسحوقة في ظل رمزية ذات وجهين : فهي معاً ، تمثّل الحياة والموت ، والنور الظلام ، والإنبات والتعفن ، والبركة والرعب .

والمرأة ، من جهة أخرى ، لا تضحك . هذه الذاتية الهائلة ، ألم تسد الطريق عليها منذ الأزل ؟ ويمكن التساؤل كم مرة كانت إحدى النساء ، خلال حياتها ، موضع اعتبار حقاً وحب أو كره ، **لما هي عليه بصورة موضوعية** .

وتبدلت الحضارات وانقلبت القوانين وتطورت الأزياء ، ولكن أسلوب إحساس الرجل العادي بـ « المرأة » لم يطرأ عليه أي تبديل .

وعلى وجه العموم ، فالمرأة ، والحالة هذه ، موضوع نوعين أساسيين من الخوف الذي يحس به الرجل على وجه الخصوص .

أ — **خوف حيواني** يتصف بأنه لاشعوري ، ولكنه يتجلى بضروب عديدة من السلوك . ويقع هذا الخوف على مستوى **النوع** . فالرجل لا يخاف « المرأة » ، ولكنه يخاف ما ترمز إليه بالنسبة له .

ب — **خوف سيكولوجي** : فالمرأة تُخشى لبعض المواقف ، كالنظرات وضروب السكوت والكلام . الخ .

من أي طرف نمسك بالصعوبة ؟ إن العواطف التي يشعر بها **النوع**

المذكر هي من التنوع والتناقض بحيث ينبغي البحث عنها قبل البحث عن جميع شاخصات اللاشعور الانساني الثابتة . ولهذا السبب ، أقترح عليكم أن نسلك بعض الدروب الثانوية قبل أن نعالج المحور الرئيس .

٢ ـ هل خوف الرجال خوف شعوري ؟

الرجال ، على وجه العموم ، يدركون على سبيل الحصر أن بعض النساء يذللنهم ويجعلنهم في حرج . فهم يحسون بضرب من « الضيق » المبهم ازاء بعض نظرات النساء ، وبعض مواقفهن التهكمية أو المتعالية ، والمتغطرسة أو اللامبالية . ويختلف الخوف بحسب عمر المرأة ، وجمالها ، وذكائها ، ولون شعرها أو عينيها . ويزول الخوف لدى كثير من الرجال إذا كانت المرأة ميّالة إلى الوداعة ، بلهاء أو « رفيقة طيبة » .

كان أحد الرجال قد قال لي :

ـ عليّ بالتأكد أن أخشى النساء . ولكن أي النساء ؟ جميعهن على وجه الاحتمال . عندما تقترب مني امرأة ، أغيرّ موقفي بصورة آلية ، وأصبح عدوانياً ، أو محتقراً ، أو متباهياً ، أو فتاناً ، أو مرحا ، أو أنيساً . ولكنني أحس بأن جميع ضروب السلوك هذه مزيّفة . إنني لا أستطيع أن أحدّد النساء اللواتي يثرن خوفي على نحو أشد : هل هن الأكثر فتوة ؟ الأكثر جمالاً ؟ هل هن المثقفات ؟ كل ما بوسعي أن أقوله هو أني لا أخشى النساء الطاعنات في السن ، فأنا أظل أمامهن طبيعياً . والحقيقة أني أعتقد أن خوفي يبدو أمام النساء اللواتي يتصفن بأنهن فتيّات جداً ، جميلات ، واللواتي يظهر أنهن حصينات ، أو لامباليات بشخصي. ويبدو خوفي كذلك أمام اللواتي يتسمن بالبرود . . .

كان هذا الرجل يحيط بصعوبته العميقة كل الإحاطة .

فالخوف ، والحال هذه ، يثير دائماً ، لدى الرجل ، ضرباً من الحذر والتراجع « الغريزي » ، وحالة من التيقظ ، وأسلوباً معيناً من الاحتراس . وبعبارة أخرى ، يولّد هذا الخوف ردود فعل .

ولكي نقارب الصعوبة على نحو أفضل ، إليكم بعض الارتباطات بين كلمات ، ارتباطات صنعها رجال ونساء طلبت إليهم غض النظر عن كل سياق اجتماعي ، والإجابة على نحو يتصف بأكثر ما يمكن من التلقائية .

الكلمة المقترحة : امرأة

أجابت امرأة عمرها ثلاثون عاماً :

– في أمريكا ، تحمل الأعاصير والزوابع والقنابل أسماء نساء . فهل نحن على هذه الدرجة من الخطر والتخريب ؟ صحيح أنني لا أحب المرأة وكثيرات منهن يستطعن إنجاز شناعات تجعل شر الرجال يتراجعون. فعندما تصبح المرأة متحجرة العاطفة ، فانها إنما هي حيوان أصابه الغيظ. وهي غضبة عمياء .

وأجاب رجل في الأربعين من عمره :

– المرأة ؟ ياه ! ذلك أمر يترجّح في نفسي . هل هو جيد أم رديء ؟ الحذر ، الحذر ! المرأة ؟ هائلة، ومدهشة، وشديدة الخطر ، وخؤون، ورائعة . . . إنها كل ما لا يتصف بالواقعية على وجه التأكيد. ولكن ما العمل ضد هذا الاحساس ؟ إنها نهمة . إنها الضباب المخدّر ، والأرض الزلِقة التي تضم ثقباً كبيراً من الماء .

وأجابت امرأة في الخامسة والعشرين :

— أنا ، يوماً من الأيام ، آمل . وبانتظار . . . أمي . إن المرأة هي من تراقب ، ومن تـقـْدر الناس ، ومن تنسج شركها ، ومن تفترس.

وأجاب رجل في الخامسة والعشرين :

— فراغ ، الفراغ . إن النساء يجذبنني كالماء ، كالهوة . خوف . رغبة.مخنوق . محتقَر حتى القدمين . متهتكات . بستان فسيح ، ذو نور ذهبي ، سر غامض . طيبة هن أم شناعة ، لست أعلم . . .

وأجابت امرأة في الثانية والأربعين :

— نعم . . . نحن عجيبات . . . قادرات على أعظم التضحيات وأشد ضروب الدمار . . . النساء يكرهن الحرب . ولكن لماذا هن أول من يصيح عندما يمر الجنود الظافرون في عرضهم العسكري ؟ فكيف يفهمنا الناس ؟

وكانت إجابة امرأة في الثامنة والعشرين :

— الرجال يقتل بعضهم بعضاً ، أما النساء ، إياهن ، فينهش بعضهن بعضاً .

وأجابت امرأة عمرها واحد وعشرون عاماً :

— نحن نَقْدر بعضنا بعضاً بالدقة ، ونطلق كلاماً مسموماً .وذلك ما لا يشجعني على أن أكون امرأة .

وأجاب رجل في الثانية والأربعين :

— خطيئة طاهرة ، فارس ، محبة . روح . عذوبة.

رجل في الثالثة والثلاثين أجاب :

— تنزلق في الفترات العصبية . احترام عميق . ينبوع الحياة . إلهة .

رجل في الثانية والعشرين :

أصاب بالذعر عندما تكون خطيبتي ساخطة ، إنها تجعلني أفكر بالإعصار .

رجل في السادسة والثلاثين :

— حذر . سر غامض . ريبة . وأظافرهن كأنها المخالب ! تزييف. حاجة إليهن . حنان .

وأجاب رجل في الثامنة والثلاثين :

— تثير النساء أعصابي . شعور طويلة . يثرن أعصابي . جاهزات دائماً لالتهامك .

رجل في الخامسة والعشرين :

— حلم بعيد المنال . شَرَك وراحة . تناقض في ذاتي . تدفق الحياة والحب تدفقاً بطيئاً . قوة عمياء . إنهن يتقدمن ببطء ويبتلعن . أحتفظ بابتعادي عنهن . خطر . سعادة سامية .

وأجابت امرأة في الرابعة والثلاثين :

— نظرة باردة . لا أحب صحبة النساء . إنهن يعملن في الخفاء ، باستثناء اللواتي يتصفن بأنهن حنونات جداً كالأمهات . والفتيات منهن يخفنني .

رجل في السابعة والعشرين :

— بياض . قاعدة النور . تمثال في بستان . حب واسع . أبدية.

رجل في الثامنة والأربعين :

– قادرات على كل شيء . إنني أقود ثلاثمائة رجل ، ولكنني أخاف سكرتيراتي . غير محتملات . خطر .

رجل في الخامسة والعشرين :

– غير معروفة . قف ! رفيقة مثالية . مفارقة .

رجل في التاسعة والعشرين :

– بطن . عدم . سعادة ورعب . جمود . نظرة قاتمة . ثوب من النور . عذراء زرقاء . ظلام سحري . ساحرة .

ماذا ينجم عن هذه الارتباطات التي أخذناها جزافاً من بين المئات؟ إنها ، جميعها ، متشابهة . إنها الكلمات نفسها ، والصور ذاتها ، والإحساسات عينها .

ولكن من اليسير أن يلاحظ المرء أن المرأة محسوسة على نحو **إما مغال في الايجابية وإما مغال في السلبية** . ويصعد الميزان أو يهبط بطريقة مبالغ فيها بوضوح . ومن المؤكد أن هذه الارتباطات ، إياها ، انطباعات ذاتية جداً : وليس بوسع أي موجود إنساني أن يكون مطابقاً لها . ولكننا نستطيع الآن أن نأخذ بالحسبان أن « المرأة » تثير في وقت واحد :

أ – الحذر والخطر ؛

ب – البعيد المنال والحلم الفردوسي .

هذه الارتباطات ذاتها كان يمكن أن تتم في العصور الوسطى كما

تم في أيامنا هذه . إنها تنبعث من تيارات لاشعورية تقود الرجال والنساء، وتزيّف الحياة الاجتماعية بالتأكيد .

ويظلّ تحرر المرأة الحقيقي متعذراً ما استمرت هذه الذاتية وهذا الخوف .

٣ ــ كيف نسلك ؟

ولكي نفرز الميدان ، سنفحص كلاً بدوره :

ــ الاحساسات السلبية .

ــ الاحساسات الايجابية .

يضاف إلى هذا أنه لا بد لنا من التساؤل إلى أي مدى يخاف النساء ، هنّ أيضاً ، من النساء . وهل يخفن للسبب ذاته ، سبب خوف الرجال منهن ؟ وهل هذا الخوف ، خوف النساء من النساء ، هو بالدرجة نفسها من الاتساع والعمق ؟

أولاً ــ الاحساسات السلبية

١ ــ كيف يحس الرجل بالمرأة

لنطرح أول الأمر بعض الأسئلة :

لماذا كانت المسبّة ، « امرأة قذرة » ، شتيمة بالغة ، سواء نطق بها رجل أم نطقت بها امرأة ؟ ولماذا لا تنطوي الإهانة « ذكر قذر » ، على المظهر ذاته من الرعب . وإن أثارت ظلا من الوحشية الراشحة ؟

– لماذا تبدو امرأة سكرانة أكثر انحطاطاً من رجل سكران لا يثير ، بالرغم من هيئته المهملة ، غير ضرب من السخط المسلّي ؟

هو ذا سؤال آخر طرحته علي إحدى الصبايا :

– لماذا يُشعر المرء بالاستطاعة المراقبة **جيش من الرجال سائر ؟ إنه يخيف بقوته ذاتها التي تبدو مجيدة لا تُقهر . ولكنني إذا رأيت جماعة من النساء يمشين مشية عسكرية ، أحسست بضرب من الحَصَر . إنها استطاعة أكثر اتصافاً بأنها سر غامض وبأنها أكثر كموناً ، وهي ، في نهاية الأمر ، أكثر تهديداً . ولكنهن يشعرنك بأنهن قادرات على كل شيء ،** وأنهن قادرات على إفساد الضبط **في أية لحظة ، وعلى الاستحالة إلى جنيات عمياوات دون حدود . . .**

وسنرى أن في هذا الكلام شيئاً مهماً جداً . ولنشر من جهة أخرى إلى أننا وجدنا من قبل ، في هذه الارتباطات بين الكلمات ، التي كوّنتها النساء ، كلمتين من هذه الكلمات ، كلمتي **هياج وأعمى** .

وإذا كان صحيحاً أن **نوع** الذكور يحتمي من **النوع** الأنثوي ، فان بعض الارتباطات بين الكلمات يمكن أن ترشدنا إلى ذلك . والاجابات يقدمها النساء (ن) والرجال (ر) . ولنتذكر أننا لن ننظر ، حالياً ، إلا إلى الإجابات **السلبية** .

الكلمة المقترحة : أنثى

مجتمع الغاب (ن) — عينان نصف مفتوحتين وشعر طويل (ر)

تسحق (ر) — عنكبوت (ر)

تملك وتنبذ (ر) — قبر (ر)

تحيل إلى العبودية (ر) — موت (ر)

تبا لها ! (ن) — ثلج (ر)

افتراس (ن) — ثوب ديني (ر)

هياج (مرة أخرى !) (ر) — بقرة سمينة (ن)

وجبة (ر) — مفترَس (ر)

أخطبوط (ر) — نظرة دون رحمة (ر)

ممزّق (ر) — شريرة (ن)

كلا ، شكراً ! (ن) — يبيض (ن)

رعب (ر) — مستنقع (ر)

فظاظة (تكرار) (ر) — تورط (ر)

هلامية (ر) — عاصفة (ر)

غضب أبيض (ر) — ذلك يلغوي (ر)

تلاطم أمواج البحر (ر) — صمت غير شهي (ر)

دِبْق (ر) — استطاعة خفية (ر)

آسف ، لأنني لم أفعل سوى أنني كررت . إليكم الآن بعض الارتباطات بين الأفكار ، ولكنها **سلبية** دائماً .

امرأة في الثلاثين :

أنثى ؟ . . . إنها . . . بالنسبة إلي . . . انتظر . . . ضرب من الهاوية المظلمة ، العميقة جداً . أريد أن أكون امرأة ، ولكنني أرفض أن

أكون أنثى . إن هذا لمحال ، إذ أنني أنثى. أنثى ؟ دوار ، امتصاص، دوامة يغرق فيها المرء دون رحمة . إنني جميلة جداً ، ولكنني ما أن أتخيل الأنثى في المرأة ، أو في المراهقة ، حتى أدوسها بقدمي . . .

رجل في الثامنة والعشرين :

– أنثى ؟ أسد أمريكي . لا بأس ، يمكن للمرء أن يقاتل، و يروّض ، ويزيل الخطر . . . بعض الفتيات الصبايا العصريات جداً ذوات الخاتم في كل اصبع والسوارات في كل مكان . . . فما يريعني ، إنما هو مظهرهن غير المعبّر . إنه الموت . فلست أخشى الأسد الأمريكي ، ولكنني أخشى كل ما هو ميت .

رجل في الرابعة والثلاثين :

– أنثى ؟ لا امرأة ؟ امرأة ، لا بأس . ولكن أنثى؟ إنها لحم مكتنز دونما ذهن . مادة خام لامتمايزة ، تنذر بالخطر ، برقية . متبهرجة ، ساكنة . هذه تترصدك . ضروب من الغضب المرعب . نزوات . خاضعة منذ الأزل ، عبدة ، أنثى ، عجباً ! مغوية الرجال ، امرأة لا تقاوم ، ملتهمة الرجال ، عجباً .

رجل في السابعة والثلاثين :

– هذه الكلمة تذكّرني بقول مأثور كوري : « يولد الرجل من المرأة كما يولد الملح من الماء . فعندما يقترب منها ، تمتصه ثانية ، كما يحدث للملح في الماء » . ثمة ما يدفع المرء إلى الابتعاد !

امرأة في الأربعين :

– ليس ثمة أشنع من امرأتين تتقاتلان ، جاهزتان لأن تمزق إحداهما الأخرى .

٤ ــ لنحلل هذا الحصر

آ ــ مقاربة اولى

كان قد تم اختيار الإجابات المذكورة أعلاه من بين عدة مئات من الإجابات . وكان غير ذي جدوى أن نكررها جميعها ، ذلك أن الكلمات نفسها ترجع بانتظام موقّع . ولا تثير الغبطة كلمة « أنثى » بالتأكيد .

ويلاحظ المرء مع ذلك فرقاً : فاذا **النساء** أبدت النفور ، فان إجابات **الرجال** تكشف عن الحَصَر على وجه الخصوص .

ما الموضوعات لدى الرجال ؟

العداوة القلقة ومشتقاتها : تسحق ، تستعبد ، رعب ، نظرة دون رحمة ، الخ .

الخطر (لا الخطر العنيف ، بل الخطر الذي يهدّد بصمت) : شريعة الغاب ، عنكبوت ، ساكنة ، عينان نصف مفتوحتين (تترصدان) ، صمت غير شهي ، استطاعة خفية ، الخ .

القسوة (قسوة غير واضحة ، ولكنها لا يمكن مراقبتها) : افتراس ، هياج ، غضب أبيض ، مفترس ، نظرة دون رحمة ، تلاطم الأمواج ، الخ .

الموت (موت غير عنيف وواضح ، ولكنه ضبابي ، صامت ، يغلّف) : شريعة الغاب ، دبق ، عنكبوت ، قبر ، مستنقع ، تورط ، ابتلاع ، ذلك يلتوي ، ممتص ، ثلج ، الخ .

ومن المؤكد أن هذه الانطباعات ، المغالية بصورة سلبية ، تنشأ من حَصَر عميق لم يتغيّر منذ الأزل ، **وليس للأنثى في ذاتها أي يد** .

ما هو هذا الحصر ؟

لنشر منذ البداية أن الرجل العادي **يحس** بأن المرأة تتصف بخصائص داخلية أقوى من خصائصه ، بالرغم من أنه يزعم العكس أو يعتقد العكس . إنه يتنبأ بأن للمرأة **استطاعة متضمّنة** ، وماكرة ، وهادئة ، وغير متوقعة أحياناً ، ومدّخرة ، ولكنها جاهزة دائماً .

ويشعر أيضاً بأن عليه أن يُعنى بأن لا يتجاوز بعض الحدود ، مهما كان صبر المرأة كبيراً . وعصرنا يبيّن ذلك على نحو تام : فالنوع المذكر «يرخي العنان» ، ويمنح المرأة حقوقاً ومسؤوليات وواجبات **إلى حد معيّن** ، إلى الفترة التي تستعيد فيها المرأة ، الراضية على وجه التقريب ، موقف الصبر . ومنذئذ ، يتوقّف الإحساس بالخطر لدى الرجل .

وعلى هذا النحو إذن . فالرجل يهب المرأة كثيراً من الأشياء ، ذلك أنه يحس بأنه إذا ذهب بعيداً في الاستعباد ، أمكن للاستطاعة الداخلية (القوة الأنثوية) أن تدمّر السدود وتجرف كل شيء دون رقابة .

وتبيّن الاجابات السابقة جيداً ما **ترمز** إليه الأنثى بمعناها الذي يتسم كثيراً بأنه « حيواني » : شيء ما « يصنع » المادة الحية ، شيء ما لا امتماير ، ولا صورة له ، ومتصف بالعطالة .

ومن جهة أخرى ، لماذا يُشتم موجودغبي بكلمة (في العامية) تشير إلى عضو الأنثى الجنسي ؟ ولا يُشتم **أبداً** بكلمة تدل على عضو الذكر ؟ هذا الاسم الذي يشير إلى الاحتقار يدل إذن على موجود لا قوام له ، وغبي إلى حد يثير الرثاء ، ومتصف بالعطالة ، ويرقي ، ولا صورة له .

ويرى المرء إلى أي حد تنفر الموجودات الانسانية من قبول أنها لم

تكن سوى مادة تمتزج بالدم وليست ذات صورة ، قبل أن تظهر في الحياة الشعورية . فالمسبة « أنثى قذرة » كانت تعني : « مادة لامتمايزة تذكّرني ، أنا أيضاً ، بأنني مادة » .

وجميعنا ، نساء ورجال ، بدأنا وجودنا في كهف أنثوي ، ولكننا من الاتحاد به بحيث كنا هذه الانثى قبل أن نتمايز . وجميعنا كنا ظلاما وعدما ، قبل أن نحوز على قنديلنا ، قنديل الشعور .

هنا إنما يكمن حذر المأساة الإنسانية ، وأساس الرهاب الغريزي الذي كانت المرأة ضحيته في كل العصور .

ب ـ الخوف من العدم

العدم أقدم عدو للنوع الإنساني .

من العسير جداً معرفة السبب لخوف الانسان من العدم ورفضه له رفضاً قوياً . في حين أن المرأة ، بدءاً من البلوغ على الأقل ، تنظر إليه على العموم بحصر أقل إلى حد كبير .

صحيح أنها تعلم إذن ما هي الحياة : إنها قادرة على أن تصنعها . والمادة لا ترهبها : فبطنها ينتجها . وهي لا تعاني الحاجة إلى النضال ضد الزمن : إنها الزمن . ولا تخشى الطبيعة : فهي ترتبط بالطبيعة بجميع أليافها الجسدية والسيكولوجية .

هذا في حين أن الرجل يجهل ما هي الحياة « الحية » ، ولا يعرفها إلا بعقله . ولم تخرج منه أبداً أي حياة مرئية . وليس للرجل « بطن » يصله بالطبيعة والمادة الحية . فالحصر من العودة إلى العدم ، الذي أتى منه ،

يلازمه . وعليه حساب للزمن الذي ينقضي ،لا بد من تسديده . إن حياته سباق ضد الساعة : وحكَم هذا السباق إضفاء العدم عليه في المستقبل.

الحياة والموت مرتبطان ، لدى **الذكر** ، ارتباطاً رحمانياً . والعدم خوف الذكر ، خوفه الأكثر اتصافاً بالحضور على نحو خفي ، والأكثر حيوانية ، والأكثر غريزية (والأكثر كذلك اتصافاً بأنه مكبوت) .

فأمه ، والحال هذه ، تسلّمه ، بصورة محتومة ، بطاقة الخروج من الحياة ، وهي تمدّ إليه يدها ببطاقة دخوله إليها .

وهنا إنما تتدخل المرأة . فلنبق حالياً في بحثنا عن الإحساسات **السلبية** العميقة ، إحساسات نوع الذكور ، ولنحاول أن نلخّصها .

لازمة نوع الذكور تتم في زمنين رئيسين : قبل أن أولد ، ذلك كان الرعب الكارثي ، رعب العدم . **وبعد** موتي ، سأنغمر في هذا العدم ذاته. ولهذا السبب :

١ ــ أعاني الرهاب من كل ما يذكّرني بعدمي الأصلي :

ــ كوني كنت مادة لامتمايزة (في امرأة) ؛

ــ كوني كنت جنيناً (في امرأة) ؛

ــ ولادتي (التي مصدرها العدم) ؛

ــ بطن المرأة ، وعلى وجه الشمول ، المرأة بصورة عامة ، الذي يذكرني بما كنت عليه .

٢ ــ أعاني الرهاب مما ينذرني بعدمي في المستقبل :

ـ الموت ؛

ـ المرأة التي تتصف بصورة آلية ، وهي الشاهدة على عدمي في الماضي ، بأنها المنذرة بعدمي في المستقبل .

٣ ـ أعاني الرهاب من كل ما يرمز إلى العدم :

ـ ما يتصف بالبرود والظلام والسكون ؛

ـ ما هو صامت ، وسر غامض ، ومجهول ؛

ـ اللاشعور ؛

ـ المرأة التي بطنها ، مغارة مظلمة ورطبة وسر غامض ، يذكّرني بسرعة العطب التي يتصف بها قدري الخاص .

ـ بعض ضروب سلوك النساء ومواقفهن ونظراتهن ، هؤلاء النساء اللواتي ينبئنني بضرب من المهانة ، والصغار ، وانتقاص القيمة ، ووضع موضع الشك ، والتهام شخصيتي .

وإذا كان كل ذلك يطابق الواقع اليومي ، فان لدى المرأة ما ترتعد منه ، بالنظر لما تمثّله بالنسبة إلى الرجل . والحال أن ذلك قائم ، والمفعولات الناجمة عنه ، وإن كانت متنوعة إلى ما لانهاية ، يسهل الكشف عنها في تاريخ الانسانية برمته .

وبالاختصار : **ترمز المرأة إلى المجال الأعلى لحصر الرجل الميتافيزيائي.** وهذا هو السبب في أن « عبادة الفرج » لن توجد أبداً ، وإن سادت عبادة القضيب دائماً .

ويفهم المرء ، الآن ، على نحو أفضل ، سلوك الذكور ، سلوكاً

يرتكز على الخوف الأكثر اتصافاً بأنه أساسي : الخوف من الموت . وعلى هذا النحو إنما تترجح المرأة بين **ما هي عليه** (موجود إنساني أنثوي) وبين **ما تمثّله** (إضفاء العدم على شخصية الذكر) .

ج – جزاء الخوف

نحن في قلب الحرب التي يشنّها نوع الذكور على نوع الإناث . ثمة نتيجتان مهمتان تنجمان عن الخوف الذي وصفناه أعلاه :

١ – إذا كانت المرأة مستعبدة ، فانها تعزو للرجل مقاصد سيئة . والحال أنه ليس لديه مثل هذه المقاصد **بصفة شخصية** . فالنوع هو الآمر لديه . وينبغي أن نفهم أن كثيراً من الرجال يسحقون المرأة ، لا رغبة بالسيطرة (كما هي مفهومة بمعناها الدارج)، بل بهدف **مراقبة النوع** الذي يسبّب له الحصر ، الأمر الذي يتصف بأنه مختلف كل الاختلاف.

٢ - إذا كانت المرأة « متحررة » ، فانها تعزو للرجل مقاصد شخصية خليقة جداً بالثناء . والحال أن نوع المذكر « يرخي العنان » ، في الأغلب ، بهدف عدم التعرض إلى خطر الغضب الأنثوي الذي يجعله، بصورة لاشعورية ، مذعوراً . يضاف إلى هذا أن المرأة المتحررة تظل في الواقع مستعبدة ، إذ أنها تعمل في عالم الذكر ومن أجل هذا العالم . الأمر الذي يتيح للرجال ، مرة أخرى أيضاً ، أن يحتفظوا بالرقابة .

ومن سوء الطالع أن الرجل يجهل حصره العميق ، ويجهل انعكاساته. إن ضرباً من احتياز الشعور (ولكن كم هو صعب !) ، وحده ، قد يتيح له أن يحس بالمرأة على نحو مختلف كل الاختلاف، وأعني أن يحس بها بصورة موضوعية .

كذلك تجهل المرأة إلى أي مدى هي « ركيزة » رهاب الذكر . وهذا

هو ، ولا ريب ، معنى عبارة سيمون دو بوفوار ، الّتي تتصدر هذا الفصل . فلو لم يكن النوع الأنثوي موجوداً ، لوجد النوع المذكر شيئاً آخر يُسقط عليه خوفه .

ء — النساء اللواتي لا ينذرن بالخطر

من الملاحظ أن البنات غير البالغات والنساء المعمّرات لا يخشاهن الرجال على وجه التقريب . والحال نفسها بالنسبة للقبيحات ، أو للنساء اللواتي هن من الاسترجال بحيث يظهرن « دون جنس » . فما السبب؟

البنات الصغيرات لم يبلغن سن الطمث ، والنساء المعمّرات تجاوزن هذه السن . فليس لهن (أو لم يعد لهن) « بطن » ، من الناحية الرمزية. ولا يمثّلن الأعضاء التناسلية (أي المغاور المظلمة التي يتم فيها إعداد المادة). وهنّ ، لهذا السبب ، لا يثرن رهاب الرجل .

فهل المرأة إذن ، من الناحية المنطقية ، أكثر إثارة للخوف كلما كانت أكثر « إثارة للغريزة الجنسية » ؟ هذا صحيح . فالإحساس بـ«الأنثى » يبدو بصورةمباشرة ، محدثاً لدى الرجل كثيراً من ردود الفعل السطحية . ومنطقي أيضاً أن لا تثير النساء القبيحات أو غير الأنثويات » شيئاً من القلق . ويشعر الرجل أمامهن ،على نحو تام ، بأنه في أحسن حال .

والرجل موزع بين رغبته الجسدية ونفورهالوجداني أمام امرأة جميلة و « أنثى » . فهو يتردد بين :

أن يحب وبين أن يروّض

أن « يقبل » وبين أن يرفض

أن يستسلم وبين أن يدافع عن نفسه

أن يجذب وبين أن ينبذ

أن يغزو ويفتن وبين أن يهرب

ولا تعلم المرأة ، مرة أخرى أيضاً ، بأي ملاك تلوذ .

ولا الرجل كذلك .

ولا يظهر الخوف أيضاً أمام النساء اللطيفات ، الوديعات (وبالتالي غير الأنثويات وغير المنذرات بالخطر) ، شريطة البقاء كذلك ! فاذا انقلبت مواقف هؤلاء النساء عاصفة ، بدا حصر الرجل ثانية ، يجرّ معه تصرفات شتى ، خاطئة جميعها .

وعلى الصعيد الاجتماعي ، عندما يتعلق الأمر بأعمال ثانوية ، فان كل شيء يجري رائعاً (من الناحية السطحية على الأقل) . ولا يعاني النساء والرجال صعوبات كبيرة في وجودهم معاً . ولكننا كلما صعدنا نحو الأعلى في الوظائف ذات المسؤولية العليا ، اختفت النساء ، مثلما يختفي النبات في الجبال العالية .

والرجل الراهن منهوك القوى ، وهو يعلن ذلك . فلماذا إذن لا يسلّم دفة القيادة إلى النساء الكفيئات منذ أن تتوافر الإمكانية له ؟

سأقدّم لكم مثالين :

الأول : **بطرس والشقراء الجميلة**

بطرس ، مدير مشروع ، قال لي في أحد الأيام :

– إنني متعب ، وأنوي أن أطلب إلى سكرتيرتي أن تحل محلي لبضعة أشهر .

– أيهما ؟ (كان لديه سكرتيرتان : الأولى ، ذات شعر فاحم ، ترتدي بنطلوناً وتنتعل حذاءين مسطحين ؛ والثانية ، جميلة وشقراء جداً ، كانت تبدو كفيئة كزميلتها) .

– أيهما ؟ ولكن هيا . . . إنها الآنسة س(« الفاحمة ») .

– لماذا هذه ال « هيا » ؟ والآنسة ع (« الشقراء ») ؟

– إنني أحذرها . إنها جميلة جداً ، ومثيرة للغريزة الجنسية .

– قلت لي إنها كانت أيضاً ذكية وجديرة .

– نعم ، ولكن . . . سأسميها مساعدة الآنسة س . . .

– لماذا ؟

– لست أنوي أن أترك لها الرسن في العنق . فهي تبدو لي أنها تطمع في أن تبتلع كل شيء .

– والحال أن ذلك كان غير صحيح ، وبطرس يعلمه . فالسكرتيرة الشقراء لم يسبق لها أن كانت قد أبدت مطمعاً في غير محله ، بعكس زميلتها .

المثال الثاني : **حالة جاك**

جاك مدير شاب ، يتصف بأنه يستبسل في النجاح بالرغم من كل العقبات ، وفي أن لا يرتكب أخطاء على الاطلاق ، وأن يربح أكثر ما يمكن من المال . إنه عاجز عن أن يحصل على إجازة ، لأنه يشعر بالإثم وعدم الراحة منذ أن يتوقف عن العمل .

ويتصف جاك أيضاً بالتصميم العنيد في أن يكون « دماغاً » ليس إلا ، وبضرب من كره المواد الجسمية (البول والغائط) ، ومن النفور إزاء سُرة النساء (لا تضحكوا : هذا مهم) .

قال لي :

– في دائرتي تعمل صبيّة بدينة . وهذه الصبية فعّالة ، وذكية ، ومخلصة . والحال أني أمقتها . وليس بوسعي أن أفعل غير ذلك . ووصل كرهي لها إلى حد أنني أعارض دائماً ترقيتها التي تستحقها استحقاقاً كبيراً . فأنا حانق من نفسي ، ولكنني لا أستطيع شيئاً إزاء ذلك . إنني ظالم . فهي بدينة ، وماذا بعد ذلك ؟ حجتي غير قوية . ولكنني أعاني في ذاتي ضرباً من القرف . فرؤيتها تدخل مكتبي عقوبة . وحوالي الساعة الثالثة، نأخذ قسطاً من الراحة . إنها هي التي تعدّ القهوة ، ولكنني لا أستطيع أن أتحملها تمس كوبي بالرغم من أنها النظافة ذاتها !

دعوت هذا الرجل إلى « أن يطلق لإحساساته العنان » حول موضوع هذه المرأة الصبيّة ، فقال :

– رجل بدين لا يضايقني في شيء ، فلماذا تضايقني امرأة بدينة؟ إنني أحس بها لدنة ، وهائلة ، ومسحوقة على الأرض ، ولزجة ، ودونما شكل ، نعم ، إن الأمر لكذلك ، دون صورة ، وكتلة كبيرة شحمية ... هذا حمق كل الحماقة : إنها ذات قيمة كبيرة ، هذه البنت ! . . . تتعرّق ، ساكنة . . . فلماذا هي ساكنة ، ألأنها تعمل بالسرعة التي

(*) Meduse : جنس حيوانات هلامية بحرية تضيء في الليل « م » .

أعمل بها ؟ . . . إنها مدوس* ثقيل . إنها بداية العالم ، وقاع البحر ، أعتقد أن الأمر كذلك ، قاع البحر ، وقرقرة الحياة البدئية .

فاذا حلّلنا إجابات هذين الرجلين ، وجدنا أنها متوازية .

حذر : نجد الخوف بالتأكيد أمام النوع الأنثوي . ويتيح الحذر للرجل أن يبقى بعيداً ، أن لا يترك لتلقائيته العنان أمام امرأة تمثّل خطر الضياع (الأنثى) .

مثيرة للغريزةالجنسية كثيراً : لقد رأينا ذلك : فالمرأة ذات الجاذبية الكبيرة من الناحية التناسلية هي ، بالنتيجة ، « تضفي العدم » من الناحية الرمزية .

الرسن فيالعنق : ذلك مهم جداً ، ويبيّن أن أي « أنثى » ، بالنسبة إلى هذا الرجل ، لا يمكن تركها حرة . ويبدو ، كما قلنا ، أنها تثير هيجانات تتصف بأنها لا يمكن السيطرة عليها إلا كما يمكن السيطرة على أمواج البحر المتلاطمة . فلا بد إذن من « الاحتراس » ، و« استعباد الأنثى » ، الذي يتجلى ، في هذا المجال ، بمنعها من تسنم السلطات المطلقة .

الطمع في ابتلاع كل شيء : أشرت إلى أن طموح هذه المرأة الصبية لم يكنيتصف بأي شيء غير سوي . فماذا يعني هذا التعبير إذن؟ لنأخذ بعض مترادفات كلمة « يبتلع » ، ويصبح كل شيء واضحاً . إن هذا المدير يحس بهذه المرأة « الأنثوية » أنها مفترسة ، وملتهمة ، وتضفي العدم (وهي كلمات نجدها كل خطوة ، لأنها تشير إلى الأساسي من خوف الذكر) .

---

* مدوس : جنس حيوانات هلامية بحرية تضيء في الليل « م » .

وماذا كان يقول جاك ؟ لنتذكّر نفوره من سُرة النساء . فهي تذكّره ، بالتأكيد ، بحبل السرة الذي يذكّر ، بدوره ، أن الرجل كان جنيناً هلامياً في بطن امرأة . من هنا منشأ حصر لاشعوري .

ويكره جاك المادة الجسدية . ولهذا السبب يحاول أن لا يكون « غير دماغ » . وسكرتيرته ترمز ، بالتأكيد ، إلى « المادة الأنثوية » ، البرقية واللامتمايزة ، التي تمتص كل ما يقترب منها .

تلك هي إبانة شبه كاريكاتورية لكل ما قلناه . وبصفته المدير الأول، فانه « يستعبد الأنثى » بمنعها من الترقي .

ثمة كلمة أخيرة : كان يقول جاك إنه لا يحتمل أن تلمس الصبيّة البدينة كوبه ، كوب القهوة . ونجد هنا تذكيراً بالمعتقدات التي كانت منتشرة انتشاراً على نحو شامل : المرأة في حالة الطمث (إذن أنثوية) تفسد ما تقترب منه أو تجعله عفناً .

وكما كان ممكناً توقعه ، هجر جاك امرأته ومنزله ، ذات يوم ، مع صاحبة شعر أشقر ، غبيّة بعض الشيء . ومن حسن الحظ أنه قرر، بعد بضعة أشهر ، أن يباشر تحليلاً نفسياً أتاح له وعي صعوباته السيكولوجية . فانسجم ثانية مع أسرته وتخلّص من « رعبه من الإناث ». وتسلّقت البنت البدينة ، دون أن تعلم السبب ، سلّم المراتب في المشروع. وكانت المرأة « المقادة » قد أصبحت امرأة ذكاؤها لم يعد يعاكسه ممثّل نوع الذكر ، بل يعترف به رجل من الرجال .

و ــ نساء الليل . . .

إليكم مستخلصات من بعض أحلام الرجال . وفيها نجد الحصر نفسه : حصر السقوط ثانية في العدم . وعليه ، فان هذه الأحلام ترمز إلى الخوف الذي يعانيه الذكر من أن « تستعيده أمه » ، ومن أن « يعود إلى بطن الأم » ، نحو لا وجوده البدني . وبعبارة أخرى ، ترمز إلى الخوف من الموت .

قال رجل أعمال عمره ٤٠ سنة :

ــ حلمت أن قاربي ، ذا المحرك القوي ، كانت قد جذبته دوّامة كبيرة سوداء . . .

معلم في الثامنة والعشرين :

ــ تحطم مقود سيارتي إلى قطع عديدة ، ثم اتجهت، بأقصى سرعة ، نحو درب مهجور تملؤه المياه . . .

موظف في الرابعة والثلاثين :

ــ حلمت أنني كنت أتقدم في غابة كثيفة ، وأشق طريقي بضربات الفأس . ولكن النبات المتسلّق كان يحيط بي ، ويتلوّى حولي كأنه أذرع أخطبوط. وكنت أختنق . ولما كنت مرعوباً في الحلم ، فقد استيقظت مذعوراً .

عامل في صناعة السينما عمره واحد وأربعون عاماً :

ــ كنت أتسلق ، ومعي آلة التصوير السينمائية ، جبلاً صخرياً أملس . وكنت أنظر ، والحصر الشديد يستولي عليّ ، إلى بحيرة كان يبدو ، وهي على بعد مائة متر تحتي ، أنها تنتظر سقوطي . . .

كاهن في السابعة والعشرين :

– حلمت أن طوفاناً كانت مياهه ترتفع في منزلي . وكنت أصلي وقد التجأت إلى السقيفة . . .

صناعي في الثانية والخمسين :

– حلمت أنني كنت أبني مصنعاً داخل حفرة هائلة طينية ، لم يفلحوا في نزح الماء منها .

يمكن لكل عالم في علم نفس الأعماق أن يعيد نشر مئات من الأحلام من هذا النوع . ويتعرّف المرء في الأحلام التي ذكرت ، دون دخول في التفصيلات ، على ما يلي :

رموز « أنا » الذكر ، التي تقود الحياة وتبنيها وتغزوها :

– محرّك قوي ؛

– مقود السيارة ؛

– فأس ؛

– يتسلق جبلاً صخرياً ؛

«الأنا » يائسة . فهي تتجه نحو العدم

– قارب تجذبه دوّامة سوداء (= ظلام = موت) ؛

– سيارة تسير على غير هدى ، متجهة نحو طريق (= ثقب في الأرض = قبر) ؛

– بحيرة يبدو أنها تنتظر السقوط (لـ « تبتلع » المتسلّق) ؛

– حفرة هائلة طينية (كذلك « ثقب في الأرض = قبر ») ؛

– طوفان يجتاح منزلاً (خطر الاختناق بالماء ؛ يضاف إلى ذلك أن هذا الرجل التجأ إلى الغرفة العليا = أناي ، وعقلي ، ورأسي ، وفرديتي ، تغرق إلى الأبد في هذا الماء الذي يعلو بصورة تنذر بالخطر) .

رموز المرأة :

– دوّامة واسعة (رمز الماء) ؛

– طريق مملوءة بالماء (الرمز نفسه) ؛

– نبات متسلّق يلتفّ (رمز « الأنثى » التي تخنق) ؛

– بحيرة تنتظر السقوط (رمز الماء) ؛

– طوفان (الرمز نفسه) .

– الماء الذي لا يمكن نزحه من الحفرة (الرمز نفسه) .

لاحظوا أن هذا الرجل يحاول أن يبني مصنعه في الحفرة : فنهمه إلى الحياة وحصر الموت لديه مرتبطان ارتباطاً وثيقاً .

فاذا تذكّرنا أن الماء هو الرمز الأكثر أولية والأقوى من رموز المرأة ، فهمنا على نحو أفضل حصر نوع الذكر ، حصره الدائم ، وخوفه من النساء .

إليكم بعض الأمثلة الأخرى كذلك :

قالت لي امرأة صبية :

– أذهلني رد فعل زوجي في الشهر السادس من حملي . كان يبدو

سعيداً في أنه سيكون أباً . سألني يوماً من الأيام ، بين الجد والهزل، وهو يضع يده على بطني : « هل هذا يتحرك ؟ هل تحسين به ؟ ماذا يحدث هنا في الداخل ؟ »

(لنلاحظ الآن هذا ال « هنا في الداخل » بما يوحيه من سر غامض ، وظلام ، وغير مرئي) .

واستأنفت المرأة الصبية حديثها :

– كان يبدو أنه يعاني ضرباً من التقزز . ولكن لماذا ؟ لقد أجبته بلطف : « هنا في الداخل ، كما تقول ؟ ثمة أمور تجري ، يا عزيزي! » ثم أضفت وأنا أضحك : « إنك كنت هناك يوماً من الأيام ، أنت أيضاً ، وأنت تعلم ! » . فأجابني بقسوة : « آه ، أرجوك » ! ثم ابتعد . كان قريباً من حدود الغضب . . . وكان يبدو أنه يكرهني فجأة .

هل رد الفعل هذا ، رد فعل « الذكر » ، شائع ؟ نعم ، فبعضهم يعبّر عنه ، وبعضهم يكبته . وهو رد فعل لاشعوري إذن ، ولكنه قد يتجلى على الأقل بمواقف شتى .

وقال لي أحد الرجال :

– أفعل كما يفعل الناس جميعاً ، فأتظاهر بأنني أنتشي أمام وليد جديد ، في حين أنني أجد هذا الشيء الرطب المتغضن مرعباً .

سألته عما كان يحس به :

– إنني أجهل ما كنت أحس به . فليس قبح الوليد الجديد هو الذي يثيرني . إنني أعاني الاحساس نفسه ، مع ذلك ، إزاء عصفور صغير أو

أي حيوان آخر حديث الولادة . فما الذي يضايقني ؟ إنه قلق غامض أشعر عندئذ أن كل ما أصنع لا يجدي شيئاً . . . فأصبح غاضباً ، ولكن دون أن أُظهر غضبي ، ذلك أنني أبتسم ابتسامة عريضة عندما أرى النساء تثغين أمام هذا الشيء .

ينطوي هذان المثالان على تشابه عميق . وأعتقد أن من المفيد أن نستعيد بعض الكلمات :

شيء : تظهر هذه الكلمة مرتين.مضمونها : « أحتقر هذا الشيء المصاب بالعطالة ، الذي كنت ، هذه المادة اللاشعورية (= الميتة) التي سأصيرها ذات يوم » .

رطب : ويذكّر هذا الوصف ، على نحو مؤكد ، بـ « الرطوبة » التي يتصف الجنين بأنه مغمور بها . وهو يذكّر ، بالتشابه ، ببطن الأم ، ويذكّر إذن بالعدم مرة أخرى .

قلق : هذا الرجل يشرحه هو ذاته : « ما فائدة أن يتصرف المرء ويعمل ما دام كل شيء سيزول يوماً من الأيام . هذا « الشيء » يزعجني (= يسبب لي الحَصَر) ، ما دام وجوده وحده يعني ، بالنسبة إلي ، النهاية المأساوية للجهود الانسانية » .

وكان يقول لي أحد الرجال ، وهو يمد يده لي بصورة رضيع :

ــ هذا ، كنته أنا . أمي تُري أحياناً هذه الصورة إلى صديقاتها مبتهجة بالرضيع الجميل ! سأجعل المنزل يتفجر من الغضب لفرط ما تجعل مني ما يثير الضحك !

لاحظوا أن هذا الرجل يقبل ، بالعكس ، أن تعرض أمه صوره التي تمثّله مراهقاً أو جندياً ، على سبيل المثال . فما السبب ؟ السبب أن « أنا»ه ، في هذه الفترات ، تشكّلت ، وكذلك شعوره . وكان قد أصبح غير هذا « الشيء اللاشعوري » الذي كان يتكلم عنه رجل ذكرناه فيما سبق. وعندما كانت أمه تعرض صورته رضيعاً (إلى نساء أخريات !) ، فذلك كان يعني ، بالنسبة له : « هوذا من خرج مني ، « ذلك » كان قد نشأ من العدم ، و « ذلك » سيصبح عدماً » .

هذه الآلية ذاتها تعمل لدى الصبي الذي يثور ضد أمه . يُقال إنه يريد أن يحصل على استقلاله ، وأن يطير بجناحيه الخاصين . هذا صحيح . ولكن هذه الضروب من القسوة الجارحة لدى هذا الصبي هي ، على نحو أكثر عمقاً ، محاولات للتحرر من الحَصَر الذي وصفناها أعلاه ، والذي يوقظه حضور الأم ، أو بصورة أكثر صحة ، حضور « بطن » أمه .

ويمكن لهذا الصبي أن يقول :

— أنت تذكّرينني بأني كنت مادة فيك ، في حين أني أصارع لأصنع « نفسي » !

يحق للمرء إذن أن يتهم الذكور الذين ينتشون فرحاً إزاء المواليد الجدد . فلاشعور معظمهم له رأي مخالف بوصفه يتعقبه دوار الهاويات ، دوار بدئي ومستقبلي .

٥ — أستعبد ما أخشاه

آ — استراتيجية عليا

لو سألنا الرجال بصورة عامة : « هل تخاف النساء ؟ هل تخشى

امرأتك ؟ » ، لأجابوا بالنفي وهم يستخفّون . هيا ، كيف يمكن لذكر أن يخشى هذا الشيء الضعيف الذي هو المرأة ؟

وربما يضحك بعضهم الآخر ، ويقولون إنه لا بد من« ترك الأمور تسير » ، ويكفي « قهرهن » . وقد يؤكد بعضهم أن ما يتصف به نساؤهم أو سلوكهن يبرّر هذا الخوف . ولكنهم يضربون صفحاً عن حَصَرهم إزاء النساء **بصورة عامة** .

وقد يجيب إجابة صادقة واحد من عشرة آلاف منهم . و « يعترف » بخشيته من النساء دون اكتشاف الباعث . ويبحث عن نموذج النساء الذي يثيره ويجعله يوليّ هارباً ، وعن أي موقف لدى امرأته يجعله يحس بالانزعاج .

ويكبت الرجل بقسوة كل إحساس بخوفه من النساء . وبما أنه ربي في عالم مذكر وفاق تقاليد « الرجولة التي لا تعرف الخوف أبداً » ، فانه ، من عل ، يسقط من عينيه الخاصتين إذا اعترف بهذا الخوف ، ويفضّل الاكتفاء بالمظاهر السطحية .

وليس بوسع الرجل ، ولو كان يشعر بخوفه ، أن يجعله يبدو أمام المرأة التي قد تفيد منه وتستعيد التفوق ، وذلك لعدة بواعث :

ـ أن تثأر لشعورها القديم العهد بالدونية .

ـ أن تحرر بعض النزعات الأمومية : الاحتفاظ بولدها لنفسها ، ومنعه من أن يكبر ويفلت . فهي تريد ، من الناحية الرمزية،أن تردّ «إلى بطنها » الولد الذكر الذي خرج منه . وكل هذا ، بالنسبة إلى الزوج ،

يتحول إلى سلطوية فظة أو ناعمة . والرجل واقع في الشَرَك حقاً ، مخنوق ومخصيّ .

وتستسلم للمفارقة كثير من النساء اللواتي يهلان لمعرفتهن أن الرجل يخشاهن ، ويحتقرنه في الوقت نفسه بسبب هذا الخوف .

فلا بد إذن من أن يخفي الرجل خوفه ويبقي المرأة بعيدة .

ومع ذاك ، فان من المؤكد ، ولو كان هذا الحصر قانوناً عاماً ، أن انعكاساته على الحياة اليومية تتغيّر وفاق نماذج الرجال والنساء ، ووفاق الظروف. وها هو ذا مثال نموذجي يتيح لنا أن نستشفّ مروحة الحالات الممكنة .

ب ــ البنت ذات العينين الخضراوين

هذا النموذج من النساء ــ وعلى الأخص إذا كانت المرأة شقراء ناصلة اللون (١) و « متحررة » كبعض الممثلات والمغنيات وعارضات الأزياء ــ هو المرأة التي **يرغبها** الرجال **من الناحية التناسلية** أشد رغبة ، والمرأة التي **يكرهونها** كرها شديداً **من الناحية الوجدانية** . فما السبب ؟ تلك هي بعض الارتباطات بين الكلمات حول التعبير التالي :

المرأة ذات العينين الخضراوين

قال رجل في الأربعين من عمره ، أستاذ :

ــ هرة ، مخالب ، يتملق ، يروّض .

وقالت امرأة شابة في الثانية والعشرين ، طالبة :

---

(١) انظر فصل « ناصلات اللون » .

– **ماء أخضر ، أخضر مزرق ، طحالب .**

وقال رجل في العشرين من عمره ، ميكانيكي :

– **حيوان مفترس ، مال ، حلي ، يخنق ، عينان نصف مغلقتين.**

وقال رجل في الثامنة والعشرين ، رئيس عمّال :

– **معتّم ، أنثى رائعة ، سر غامض دون روح ، دمار .**

وتبيّن هذه الكلمات – الاجابات ، التي وجدناها من قبل عدة مرات ، أن الرمز أقوى من الواقع .

وتذكّر العينان الخضراوان بـ : الترصد (هرة – مخالب – عينان نصف مغمضتين) . ولون العيون الخضراء كلون **المياه الراكدة** (أخضر مزرق – طحالب – معتّم) التي تصيد وتجذب نحو **الأعماق** ، نحو الموت . إنه رمز الماء ورمز جنية البحر . فها نحن نواجه مجدداً ما تمثّله «الأنثى » في معناها السلبي .

ولكن لماذا يبدو هذا النموذج من المرأة أنه ، في **وقت** واحد ، مرغوب إلى هذا الحد ، ومكروه إلى هذا الحد ، ويوحي بالتهديد ؟ إن امرأة **سوية** ، ذات عينين خضراوين ، لا تثير بالتأكيد أياً من ردود الفعل العنيفة هذه . بيد أن هذا النوع من الأنوثة مختلق على الغالب قطعة قطعة . فبعض الأزياء استخدمت ، دون أن تعلم ، رمز العيون الخضراء . ودُفعت المرأة إلى أن تغيّر لون شعرها ، وأن تلوّن حاجبيها ، وأن تتظاهر بأنها يصعب مقابلتها ، متعالية ، وصاحبة نزوات ، وملتهمة الثروة . ورُوّضت لتلبي بصورة مهنية ضرباً من طلب الغرب الذكر

المتأمرك . وانضمت السينما إلى ذلك ، ومشاهير مصممي الأزياء . ويشهد المرء أحياناً ، خلال بعض العروض المتلفزة ، مشهداً عبثاً : تبتعد عارضة الأزياء ، ذات العينين الخضراوين ، ببطء وقد أدارت ظهرها لكي تلتفت فجأة في مواجهة آلة التصوير السينمانية (ذات المنظور الواسع) كما لو أن عينيها الخضراوين نصف المغلقتين ، عيني المرأة التي لا تُقاوم ، كانتا جاهزتين لابتلاع عالم الذكور .

كيف يمكن للرجل أن يبعد « الخطر » الذي يمثله هذا النموذج من المرأة ؟ إنه يبعده بمنع هذا النوع من أن يكون حراً أو مستقلاً . وبترويضه ، واستعباده ، وتحييده .

ولنستأنف النظر في الارتباطات بين الكلمات .

يتملق : هذا الارتباط يعني أنني ، إذ أدلّل هذه المرأة وأغريها ، أجعلها أكثر اعتدالاً . وبوسعي كذلك أن أجعلها حيادية عندما أبدي لها لطفاً ساحراً . فاذا أكلت الطعم ، وتحوّلت إلى موجود أحس به على أنه محبوب ، يتبدّد شعوري بالخطر . إن مجرد كونها تبدي رضى في ظل التملق يحطم استقلالها ويخضعها لسلطتي ورقابتي . ويزول حَصَري.

حلي ، **مال** ، **دمار** : يحاول الرجل استعباد « الأنثى » بأن يغمرها بالهدايا ، أو بزقّها بالمال . وهو بهذا النحو يحوّلها إلى شيء .

وتقضي الاسطورة ، من جهة أخرى ، أن يكون هؤلاء النساء متقلبات ، ينتقلن بلا حشمة من محبوب إلى محبوب آخر بعد أن يحلنهم إلى حطام . وإذ يقع الذكر في الفخ ، فانه ينتحر أو يضيّق الخناق على المرأة . وتشير الحركة الأخيرة إلى عبودية المرأة عبودية نهائية . وتلك

هي ، من جهة أخرى، خاتمة نانا (*)، رواية زولا، المتقنة الصنع ، التي رآها الميكانيكي على الشاشة : من هنا منشأ هذا الارتباط بين الأفكار .

ويمكن التلخيص على النحو التالي :

المرأة العبد = امرأة مستعبدة = امرأة اضفي عليها الحياد = خطر مستبعد .

المرأة الحرة = انثى خطرة = ضرورة تحييدها .

٦ ــ السدود

لكي يتخلص الرجل من خوفه من المرأة (بما في ذلك خوفه) ، فانه يبني مجموعة كاملة من السدود . ذلك أن الرجل لا يرغب إطلاقاً في أن « يسيطر » على المرأة بالمعنى المألوف لهذا الفعل . ولكنه يشعر ، بوصفه ذكراً ، بالحاجة الغريزية إلى أن يجعل المرأة بعيدة عنه ، خوفاً من أن « ترهقه » . فالذكر سيتصرف إذن بحيث لا يكون بوسع الاستطاعة الأنثوية أن تتجلّى على نحو حر .

آ ــ تحييد المرأة

أفضل وسيلة لمنع المرأة من أن تعبّر عن نفسها تعبيراً حراً ، كانت إبقاءها تحت نير العبودية . وهذه الطريقة كانت ، حتّى عهد قريب ، قاسية ، وواضحة ، وقاطعة ، وتنطبق على جميع المجالات .

والسد قائم في وقتنا الراهن ، ولكنه أشد مكراً ودقة . ولاسيما أن نوع الذكور يفلح على الغالب في أن يضفي على نفسه مظهر الحواري

(*) نانا : عنوان رواية زولا الشهيرة ، التي تسجل تاريخ مومس تفسد مجتمعاً في حالة الانهيار « م » .

الطيب عندما يحرّر المرأة بصورة مزيّفة . ومع ذلك فكل شيء مما قلناه يتصف بأنه لاشعوري .

فما هي الوسائل الرئيسة المستخدمة في الحياة لمنع النوع الأنثوي من أن ينطلق ، ولتحييده مع تأمين نعمه الممتازة ، في الوقت نفسه ؟

وإذا كان الرجل يخشى المرأة بعمق ، فمن المؤكد أنه يشعر أمامها بالدونيةشعوراً قوياً . ولا بد له من أن يحتال على هذا الشعور بالدونية أو يحاول التعويض عنه . ولهذا السبب ، فان المواقف الموما إليها أدناه مزيّفة ومصطنعة ، وهي كذلك لاشعورية على وجه التقريب .

مواقف الذكور ذات المظهر السلبي

(هدفها سحق المرأة)

احتقار .
إذلال .
تجاهل بكبرياء .
هجوم .
سيطرة بقسوة .
تهكم .
جعلها مضحكة .
تعنيف .
تعداد الزوجات (أولئك الذين « يملكون » عدداً كبيراً من الزوجات يبحثون ، في الواقع ، عن جعلهن قذرات ، ونبذهن كأنهن أشياء لا قيمة لها) .

مواقف الذكور ذات المظهر الإيجابي

(هدفها ملاطفة المرأة)

إغواء . .
اتخاذ مواقف الصبي «المحبوب» (كالمواقف إزاء أم مرهوبة الجانب) .
تدليل ومديح وتملق ، وتسليم برأيها ، وإذعان .
نيل إعجابها بجميع الوسائل الممكنة ، بدءاً من العضلة إلى الذكاء ، ومن التفاخر إلى الغنى .
ظهور بمظهر المرح (بديل موقف الاحتقار) .
اتصاف باللطف الساحر ، وتوقع أقل رغبة من رغباتها ، وزقّها بالثناء والهدايا والحلي والثروة .

فما هو رد فعل المرأة ؟ إنها ، فيما يخص العمود الأيمن ، تتدبر أمرها بمقدار ما في وسعها . وهي ، فيما يخص العمود الأيسر ، لا تميّز بين القنديل والعيد ، وتعدّ أمراً متحققاً ما هو ليس إلاّ محاولة الذكر للتخلص من خوفه .

ب – سد الشعور بالدونية

تركيز الطريقة كان قد تم على نحو مثالي طيلة قرون . **وكان لا بد** لنوع الذكور من أن يقنع نفسه بأن خوفه من المرأة كان مضحكاً ، ولاسيما أنه لا يعرف منشأه . فخير الوسائل كانت أن يقتنع بأن موضوع خوفه لم يكن يستحق حقاً هذه المخاوف الكثيرة . وتم القرار إذن بأن المرأة عاجزة ، ومتصفة بالعطالة ، ودون عقل حقيقي . وانتهت المرأة ، وهي مدفونه تحت ركام من الاحتقار ، إلى أن تعتقد ، هي أيضاً ، بقرارات الذكور . وتوصلت إلى أن تؤمن أنها كانت عاجزة فعلاً ، واستمرت ساكنة في زاويتها المظلمة ، غير مرئية وصامتة .

وتراجع في الوقت نفسه خوف الذكر . وساد الهدوء في أقاليم الذكور.وكان المناخ قد أصبح مدعاة للطمأنينة ما دامت المرأة لم تكن تتجلى .

وكانت الأمور تسير على نحو أكثر يسراً بقدر ما كانت المرأة تعبد القوة العنيفة ، عبادة لاشعورية ، وتحتقر نفسها بوصفها محرومة من القضيب .

ويستمر ذلك على نحو أقوى مما كان عليه من قبل ، ولو أنه يتم بصور أخرى . **والمرأة – الماء** ، في أيامنا هذه أيضاً ، تجري تقنيتها بعناية ، وهي تسيل بين حافتين محدّدتين تحديداً متيناً .

جـ ــ سد الحذر

رسم نوع الذكور ــ ويرسم ــ أنه « لا يمكن الوثوق بامرأة » (١).
وحتى عندما يعمل الرجل العادي مع امرأة كفيئة ، فانه يحتفظ بالموقف اللاشعوري ذاته . وعلى وجه الخصوص إذا كانت هذه المرأة جذابة من الناحية التناسلية (رأينا ذلك منذ قليل) .

والظاهرة مفهومة بسهولة . فالوثوق بامرأة ، ما دامت الأعضاء التناسلية للمرأة ترمز إلى « الدخول في العدم » ، يعني إذن : « إذا تركت نفسي تنقاد نحو امرأة ، فانني أجازف بأن يُضفى عليّ العدم ، وأن ابتلع وأُفترس ، وأقع في الفخ » .

وليس ثمة ما يدهشنا أن نجد هذا المفهوم نفسه في كل منعطف : إذ أنه هو الأساس .

ء ــ سد السر الغامض

لنتصور شخصاً متنزهاً يعتمد المحاكمة التالية :

ــ هذا الحيوان الذي أراه من بعيد يخيفني . والحال أني لا أعرفه . فأنا أخشاه دون أن أعرف السبب . إذن هذا الحيوان سر غامض .

ومن الواضح أن هذه المحاكمة غير منطقية . فهي تمتدّ على نحو معكوس . وأبسط الأمور أن يقترب الرجل من الحيوان ليتعرّف عليه ، ويفحص إذا كان لخوفه مبرر ، ويتصرّف بناء على ذلك .

ويزعم الرجل ، بسبب خوفه ، أن ثمة سراً غامضاً ، دون تحقّق ولا دواع موضوعية . وهو يفكر على النحو التالي :

---

(١) من المفيد أن نذكر بأننا نفحص هنا ، على سبيل الحصر ، الاحساسات السلبية للرجل .

– إنني أخاف النساء .

– ولا أعرفهن .

– إذن النساء سر غامض .

ويستخلص من ذلك ، فضلاً عن هذا : « ليس بوسعي ، بناء عليه ، أن أثق بها » . والواقع أن هذه المحاكمة المزعومة تبرّر كونه يبقي النساء منعزلات ، دون أي باعث حقيقي .

أو أن الرجل يقول في نفسه :

– الكيمياء المظلمة وغير المرئية ، كيمياء بطِن النساء ،يذكّرني بحصري ، حَصَر العدم . أفضل أن أبقى حذراً . إن بطن النساء سر غريب ، إذن فالمرأة سر غامض كذلك .

ثم يحاول أن يبرّر هذا الحذر قائلاً :

– المرأة تابعة وينبغي أن تبقى كذلك .

ويزول حصر الرجل على هذا النحو ، الأمر الذي يتصف بأنه أسهل من البحث عن منشأ هذا الخوف .

هـ – سد المكر

يزعم كثير من الرجال أن معظم النساء ماكرات . وعند التحليل ، نلاحظ أنهم يقصدون – مرة أخرى أيضاً ! – النساء « الأنثويات » ، والنساء « المثيرات » ، والنساء الفتيّات جداً . ونجد الآلية القديمة هنا : الإحساس بأن الأنثى تترصّد ، وأنه مهدّد باضفاء العدم عليه وبالدمار ، كما استطعنا ملاحظته في الفقرة المخصّصة لـ « البنت ذات العينين الخضراوين » .

ويعزّز الرجل مواقع دفاعه بفعل هذا « اليقين » بمكر النساء . وتجد النساء أنفسهن في وضع يتعذر عليهن شن الهجوم المعاكس صراحة . فلا بد لهن ، وقد جردن من السلاح أمام قسوة الذكر الغازي ، من المراوغة والتثعلب والانسلال . وتلك هي إمكانيتهن الوحيدة في إنقاذ ضرب من مظهر الاستقلال .

وبما أنهن عاجزات عن تفجير صخرة مواقع الذكور ، فهن يلغمنها ويقوّضنها . ولكي يفعلن ذلك ، يستثمرن خصائصهن الطبيعية إلى حد المغالاة : الصحو الداخلي ، والسهولة لديهن في اكتشاف عيوب الدرع ، وإمكانية محاصرة الخصم بصبر ، كما يفعل الماء الذي يتصف بأنه رمزها الرئيس (انظر الفصل المخصّص لرموز النساء) .

ومثل هذه المواقف تفضي ، على نحو يسير ، إلى المقاصد المبطّنة وإلى ، بالطبع ، ضروب من السلوك « الماكر ».ولكن هذه التصرفات لا يسعها ، من جهة أخرى ، إلا أن تعزّز حذر الرجال ودفاعاتهم في الوقت ذاته.

والبحث عن حل لهذه الحلقة المفرغة يعادل محاولة تربيع الدائرة .

و — سد المادة

المقصود من ذلك صورة أخرى من صور الحماية لدى الذكر ، قاعدتها ، هي أيضاً ، محاكمة لاشعورية :

— أرفض أن أكون مادة . وبطن المرأة ، والحال هذه ، يكوّن المادة . فالمرأة إذن مادة . إذن ، فأنا أرفضها .

ولا يميّز الرجل على هذا النحو بين الجزء والكل ، الأمر الذي يناسبه كثيراً ، ذلك أنه ، على هذا النحو ، يصبح الحائز الوحيد على الفضائل

الفكرية ، في حين تركد المرأة في وضع أدنى منه بكثير . وهكذا يشعر الرجل أنه في مأمن . وهو بوصفه مطمئناً ، فانه يقول في نفسه إن « المرأة المادة » تبقى غير مؤذية بمقدار ما تكون موجودة تحت رقابته .

وليس ثمة ما يوجب اوم الرجل على هذا الموقف ، وليس ثمة ما ما يوجب أن يتشدّد فيه .

فلا أحد مسؤول عن لاشعوره العميق . والرجل العادي يعتقد بذلك كله ويريده . لأنه بحاجة إلى هذا الاعتقاد وهذه الإرادة لكي يحمي نفسه .

٧ – المرأة الشيء

آ – لنذكّر بالقانون العام :

يبدو الخوف لدى الذكر منذ أن تكون المرأة **ذاتاً حرة** . ويزول الخوف لدى الذكر منذ أن تصبح المرأة **شيئاً مستعبداً .**

والحيلة اللاشعورية بسيطة: لا بد من أن تستحيل المرأة إلى شيء ، وبعبارة أخرى : « **كوني أجمل شيء في العالم ، متزيّن وشبعان . فستبقين هادئة ، ولن أشعر بأي خوف منك** ».

كيف يتحقق « اشباع » المرأة ؟ الصناعة زاخرة بالامكانات : « أشياء عملية مسلّية » ،وحلي زهيدة القيمة، وأدوات الزينة ، وأجهزة منزلية كهربائية . والتصرف مع المرأة ، والمقارنة هنا ليست مغالية، شبيه بمناورات المستعمرين الغابرين مع « المتوحشين » . فالعقود ، والأساور الزجاجية ، وبعض الهدايا الأخرى ، كانت تزيل مفعول

الرجوم المعاكس . وكان البدائيون ، وقد فعل التملق والملاطفة والابتسامات الساحرة فعله فيهم ، يفتحون الطريق إلى أعدائهم الجدد .

وصناعتا الحلى والأزياء قدمت نتاجاً رائعاً . ولم يسبق للمرأة أن كانت إلى هذا الحد من الزينة ، وإرضاء الرغبات ، والإشباع . وهي ، من الناحية الرمزية، « مثقلة » بالزينة التي تتغيّر باستمرار حسب مشيئة الزي . ويُقال حقاً إن ثمة محاولة لإرغامها على العودة إلى حالة « الأنثى » المصابة بالعطالة ، والساكنة ، والمشغولة بنفسها قبل كل شيء . **فثمة استبعاد لها عن طريق النرجسية .**

ويبينون للمرأة بوساطة عارضات الأزياء البشريات ، المصنوعات قطعة قطعة ، كيف تقف ، وكيف تمشي ، وكيف تحمل بطنها في هذا الفصل . ويحدّدون لها محيط الخصر وحجم النهدين . بل ثمة مصطلح مرعب إلى حد كبير : إن الزّي جعل من المرأة « مجموعة من قطع التبديل» شأنها شأن السيارة أو الغسّالة .

كان أحد الرجال قد قال لي مشيراً إلى امرأة صبية تساير آخر ما نتجته دور الأزياء :

– « إنهن » على هذا النحو مسرورات ويتركننا « نحن » بسلام .

كان ينبغي أن يكون هذا الرجل مصمّم أزياء . ذلك أن « مشاهير مصممي الأزياء»يصيبون عصفورين بحجر واحد : إنهم يحيلون المرأة إلى عبدة وهم يجلبون إليها السعادة ، فتحس بأن ثمة اهتماماً بها لم يسبق له أن كان على هذه الدرجة .

بل إن على النساء ، اللواتي يتصفن داخلياً بأنهن راشدات ، أن يتبعن

الزي . ذلك أن ثمة تيارات من الأزياء هي من القوة بحيث تجد المرأة الصاحية نفسها في ضرب من شبه الاستحالة في أن تلبس بحسب رغباتها الشخصية . والتصنيع يضع الجمهور الكبير من النساء ـ الأشياء نصب عينيه ، ويهمل الباقيات .

والمظاهر خدّاعة . فرجال الأعمال ، من جهة ، يعرضون على المرأة تشكيلة واسعة من الأقمشة والألوان والنماذج ، الأمر الذي يمنح ضرباً من الانطباع بالحرية والاختيار . ولكن الزي يفرض في كل فصل من الفصول ، ومن طرف العالم إلى طرفه الآخر ، ضرباً من إضفاء التماثل على النساء .

ويمكن للمرء أن يتساءل عما إذا كان بعض مصممي الأزياء من الرجال لا يشعرون بضرب من الكره القوي واللاشعوري إزاء النساء ، لكي يحيلوهن ، على هذا النحو ، إلى دمى مطيعة ، وبالتالي **إلى أشياء غير مؤذية** .

ومن الملاحظ أن « الزي » يتخم النساء الفتيّات جداً على وجه الخصوص (النساء اللواتي يتصفن ، من الناحية الرمزية ، أنهن أكثر «إثارة لخوف الرجال »)،وقلّما يهتم مصممو الأزياء بالنساء اللواتي بلغن عمراً جسدياً راشداً . صحيح أن النساء الفتيات جداً يمثّلن ،من حيث كونهن موضوعات استهلاك ، قدرة شرائية هائلة . ولكن جمهور النساء الأخريات جمهور كبير أيضاً ، وقدرتهن الشرائية أكبر كذلك . فهل ينبغي أن نستنتج من ذلك أن مصممي الأزياء يطبقون القانون العام بصورة لاشعورية : « المرأة « الجذابة من الناحية الجنسية » ، وحدها ، تخيف

الرجل ، وهؤلاء النساء ، وحدهن ، هن اللواتي ينبغي استعبادهن » ؟ كل شيء يحمل إلى الاعتقاد بذلك .

ويستخدم الزي سلاحاً آخر : إنه يعتمد على الطفالة * . والواقع أن كثيراً من النساء يتعرضن ، أكثر من الرجال بكثير ، إلى أن ينحصرن بعقدة أوديب (انظر فصل « البنت المحصورة ») . فحاجتهن الأساسية إذن أن يكنّ موضع الملاحظة والنظر بأي ثمن ، ولو ثمن الظهور بمظهر المضحك . وكونهن موضع « اهتمام » يمنحهن الانطباع بأنهن محبوبات . فمن المنطقي إذن أن يُطعن وصفات الذكور في تصميم الأزياء المصنّع.

وبحسب ما يظهر ، جميع الناس مسرورون . والأعمال تسير إلى الأفضل . وثمة عدد من النساء لا يميّزن بين العبودية والحرية ، ونوع الذكور مطمئن .

ويمضي إضفاء الشكل الوحيد على المرأة أبعد ما يعتقد بعضهم . وطلب الذكور ينصب ، منذ بعض الزمن ، على المرأة « الضاربة إلى الوداعة بمغالاة » ، على المرأة الشبيهة بالماء الراكد الحالم . واستجابت النساء ، هنا أيضاً ، بموجات واسعة . فكيمياء الزينة ، سواء تمت في صالون متخصص أو في وعاء منزلي ؛ ومنتجات الجمال ، تقوم بعملية جعل المرأة وديعة . فاذا ترجمنا ذلك قلنا : كلما بدت المرأة وديعة ، وشفافة ، وبالتالي « باهتة » ، أحس بها نوع الذكور أنها لا تنذر بالخطر.

إن التصنيع أحدث ظاهرة جماعية . فكل امرأة ملزمة بأن تمر بعملية إزالةاللون ، لون الشعر أو اون الشخصية . ذلك أن بالإمكان قيادة موجود تتصف شخصيته بأنها غيرمعبّرة ، دون التعرضإلى خطر العض.

(*) انظر : الانتصارات المذهلة لعلم النفس الحديث ،وشرحنا السابقلهذا المصطلح« م » .

نحن إزاء « نوع » جديد من المرأة ، نتاج محض من نتاجات التكنوقراطيات والنزعات الفكرية . وتلك هي ظاهرة من الظاهرات الأكثر غرابة في عصرنا . وسأحلّلها فيما بعد . فجدير بنا أن نركّز عليها ، إذ أن ثمة بعض الدول تجعل منها تميمتها . . .

٨ – الخوف السيكولوجي إزاء المرأة

أذكّر ، مرة أخرى أيضاً ، أنني لا أنظر حالياً إلا في الجانب السلبي من الأمور .

ما هي المواقف لدى المرأة ، التي تثير « الخوف الكبير »،خوف الرجل ؟ ذلك أن عدد الرجال النشيطين ، والأذكياء ، والمحترمين من الناحية المهنية أو المرهوبي الجانب ، الذين يصبحون ثانية صبياناً صغاراً أمام نسائهم منذ دخولهم المنزل ، مرتفع جداً . و« حرجهم » واضح، وأمام شاهد على وجه الخصوص . فهم يحسون بصمت زوجاتهم وكأنه محقّق . ويتراجعون أمام حرد ولو كان غير مؤذ . وثمة مجموعات من الذكور يرتجفون أمام أضعف نظرة « عدائية » من طرف نسائهن . هذا إذا لم يتصرفوا تصرف الأطفال الودودين ، أو لم يغالوا بكيل الثناء المدلّه. وأحياناً تتبدّل اللوحة ، ويصبح الرجل متبجحاً ، ومهذاراً ، ومدعي الشجاعة . ولكن هؤلاء الرجال عاجزون دائماً عن أن يكونوا « عفويين» في حضور غالبية النساء ، بما فيهن زوجاتهن .

وإذا كانت خشية الرجل من المرأة قانوناً كلياً ، فهذا كله منطقي . وذلك يعني أن سيادة المرأة في أكثر الأسر هي سيادة الخوف .

– عندما تصمت امرأتي ، أشعر بأنها تنتظرني على المنعطف . . .

ـ لا أعرف أين أندسّ ، عندما تنظر إليّ بصورة تهكمية . . .

هوذا بعض مواقف المرأة ، التي يخشاها الرجل على وجه الخصوص :

نظرة المرأة

السابرة الغور	النافذة
الباردة	المتعالية
المتكبرة	المثيرة
الصاعقة	الغاضبة
اللامبالية	الغامضة
المحتقرة	المتهكمة

صمت المرأة

الحَرِد	المهدّد
المتسم بالشك	المتهكم

الغاضب (غضب ثائر وغضب صامت)

كلام المرأة

الغضب العنيف المتفجر

القصد المبطن الذي ينتقص من القدر

الهجوم المغلّف باللطف

الاستهزاء

النقد الملح

الكلمة المحتقرة

وبالاختصار ، إن ما يخيف الرجل خوفاً عميقاً هو :

كل ما يبدو ، في موقف المرأة ، أنه يُذل وينتقص من القدر (وهذا انما هو موضوع الخصاء ، و « إلغاء » شخصية الذكر) .

كل ما يبدو أنه يضع موضع الشك قوة الرجل وشجاعته ومظهره . فالرجل يحس به وكأنه إثارة يستجيب إليها ، على نحو عام ، بضرب من « تعديل » في الشخصية (عدوانية ، واحتقار ، وتفاخر ، ولامبالاة متعالية) .

كل ما يضع ذكاء الرجل موضع الشك . « إذا بدت أكثر ذكاء مني ، فانها تغمرني » (وهذا هو موضوع « الأنثى الملتهمة ») .

كل موقف ، وكل كلام ، يبدو أنهما يخلعانقناع الرجل ويعرّيان هذا الرجل الذييلاحظ أن مظهره لا يطابق ماهيته (موضوع الخصاء).

كل موقف يبدو أنه يمهّد لثورة « غضبة الأنثى » ، غضبة يحس بها الرجل أنها لا رحمة فيها ولا ملاذ (موضوع « الأنثى الملتهمة ») .

كل موقف يُشعر الرجل بأنه موضع ترصّد ومراقبة وملاحظة ونقد (موضوع « الأنثى » المدمّرة) .

هل هذه المواقف ذاتها تخيف امرأة أخرى ؟ إنها تخيفها دونما ريب ، ولكنها تخيفها على مستوى أقل عمقاً بكثير . ذلك أن المرأة الأخرى تنتمي أيضاً إلى النوع الأنثوي ، وفي حوزتها أسلحة الهجوم ذاتها والدفاع . ولاشعورها العميق مماثل .

فحينما تحتار امرأة مؤقتاً أمام امرأة أخرى ، يفقد الرجل وسائله أمام هذه الضروب من السلوك التي تثير نشاط رهابه الأساسي .

ويقدّر المرء إلى أي مدى يمكن أن يكون أساسياً موقف الأمهات التربوي ، سواء كان ذلك بصدد البنين أو البنات .

وسنجد ثانية ، فيما بعد ، بعض خصائص المرأة ، مع ما تتضمنه من إيجابي وسلبي على حد سواء . ذلك أن من الواجب أن نتساءل : **من هي المرأة** ، عندما تتحرّر من الذاتيات التي نلبسها إياها ؟

ثانياً : الإحساسات الإيجابية

١ ــ المرأة المدلّلة

لم نفحص حتى الآن سوى الاحساسات التي تثيرها المرأة لدى الرجل. وكان نوع الذكر يضفي السواد والظلام على المرأة . وكان ذلك هو التراجع الغريزي والحذر الذي يتجاوز الحدود .

ومع ذلك فان تاريخ الانسانية يبيّن أن هذه المرأة ، إياها ، كانت ، **في الوقت ذاته** ، قد رُفعت إلى الأوج ، إلى حد لم يسبق أن كان لآلهة إمكانية أن تحلم به . إن نوع الذكور جعل المرأة تدور حول نفسها من السواد الكتيم إلى البياض الساطع ، دون أن تمر بمرحلة انتقال ، ودون وسط عدل . وتصبح المرأة ، وهي المحتقرة ، موضع الدلال .

وإذا لم يكن ثمة من داع موضوعي يدعو الذكر إلى الخوف من «نوع» النساء وإلى كرهه ، فليس ثمة كذلك من باعث **معقول** لديه لكي يحوّلها إلى ضرب من مظلة اليهود وإلى قارورة ، ومبالغات أخرى تتصف بأنها ، مهما كانت شاعرية ، لا تطابق الواقع بالتأكيد .

كذلك ليس ثمة من دافع واقعي لأن تكون الأم والأمومة مشحونتين بالرعب . لكن « العبادة » التي يحيطونهما بها ، في بعض الأحيان ،

ليست أكثر اتصافاً بأن لها ما يسوّغها . **أوليس الخوف كذلك ، عندما تكون المرأة معبودة ، هو الذي يدعم هذهالواجهة الأخرى من البناء؟**

ها هي ذي بعض الارتباطات بين الكلمات ، **ارتباطات إيجابية** ، صنعها بعض الرجال . والمبالغة تسود فيها ، وهي مبالغة تتصف بأنها موضع الظن كذلك .

الكلمة المقترحة : امرأة

أجاب رجل في الثامنة والعشرين :

– **تجلّ ، هدوء ، وعاء ، حرارة عذبة .**

وأجاب رجل في الأربعين من عمره :

– **عديمة الشكل ، بركة ، بزوغ ، مقدسة .**

وأجاب رجل في التاسعة عشرة :

– **راحة فائقة الوصف ، إنبات ، معجزة .**

وأجاب رجل في الرابعة والثلاثين :

– **نبع مخصب ، مظلة ، أبدية ، وعاء نور .**

وأجاب رجل في الثانية والخمسين :

– **الهة ، بياض ، قاعدة الطيبة .**

وأجاب رجل في الخامسة والعشرين :

– **عذراء السماء ، ينبوع الفتوة .**

ثلاثةموضوعات يمكن استخلاصها من هذه الارتباطات التي اخترناها من بين المئات منها :

الموت والبعث : تجل ــ راحة فائقة الوصف ــ وعاء نور ــ عذراء السماء ــ معجزة ــ ينبوع الفتوة ــ أبدية .

الأم (مرموز إليها بالبطن) : وعاء ــ قارورة ــ مظلة ــ حرارة عذبة ــ نبع مخصب .

تمجيد المرأة : بركة ــ مقدسة ــ بياض ــ قاعدة الطيبة ــ إلهة.

٢ ــ الحَصر ذو الوجهين

لا نرى أي جدوى في متابعة عرض الارتباطات . فالتباين واضح للعيان . وعندما كان بحثنا منصباً على الاحساسات السلبية ، كان التفاوت سهل الفهم . والحجة كانت بسيطة : **المرأة رمز** العدم الذي ننبعث منه . **والحال أن** العدم مخيف ، **إذن** فالمرأة مخيفة .

ولكن ما هي الحال بالنسبة إلى الاحساسات الايجابية ؟ ولماذا هذا الانقلاب في الوضع ، المغالي بالايجابية ؟ ولماذا هذه العبادة ؟ ويمكن أن نتساءل فضلاً عن ذلك : وهل ثمة رجل واحد ، من بين هؤلاء الرجال ، يعتقد اعتقاداً عميقاً بما يقول ؟ أو هل يحاول أن يقنع نفسه به ؟

ويمكن أن يتسع السؤال : من آلاف القصائد الشعرية ، والأغاني ، والأعمال الفنية الرعوية ، التي تعظّم المرأة ، ما العدد الذي يترجم منها باخلاص لاشعور مؤلفها ؟ والمبالغة والغلو واضحان في جميع هذه الأعمال الفنية الكبيرة والصغيرة ، التي كان يقدمها الشعراء الجوالون في

الماضي ، ويقدمها المغنون على التلفزيون في أيامنا هذه (١) .

فلنتصور رجلاً ، غير مزوّد بأي نور ، يجد نفسه غارقاً في الظلام . ولنفرض أيضاً أن هذا الظلام ، وهذا « العدم » ، يخيفانه . فأفضل طريقة لإزالة الخوف إيجاد باعث يجمّل الظلام : « **كيف يمكنني أن أخشى الظلام مع أنه يتيح لي أن أتأمل ، أن أكون وحيداً ، وأن هذا الظلام يجعلني أحلم بالنور ؟** »

أوليس هذا هو الذي يحدث مع المرأة ؟ يقول الرجل لنفسه بصورة لاشعورية : « **إنني أخاف المرأة . وعليّ أن أجد الدواعي القوية حتى لا أعود إلى الخوف منها. ولهذا السبب ، أحوّلها إلى موجود رائع أبيض، كالثلج ، وأحوّل ظلامها إلى نور . وأقنع نفسي بذلك وأنا أمجدّها بأغانيّ وقصائدي . وفضلاً عن ذلك ، لماذا أخاف من موجود جميل إلى هذا الحد ، ومريح للنظر بهذا المقدار ، ولا غنى عنه لاستمرار الحياة؟** »

وهذا يؤكد ما قلته وكرّرته : الهدف اللاشعوري الوحيد لعدد من ضروب « لطف » الذكور هو تدليل المرأة ، وبالتالي ، يتوقّف خوفهم منها .

وهكذا تبدو لازمة أخرى من لازمات نوع الذكور ، تتصف بأنها عكس الأولى كلياً :

---

(١) يمكن الرد أن القصائد التي تعبر عن حذر نوع الذكور واحتقارهم نادرة نسبياً . ومن المؤكد أنها « لا تنقل » . ولكن تاريخ النساء يبرهن لنا يوميا عن رهاب الذكور .

– قبل ولادتي في الحياة الشعورية ، كان ذلك هو السلام المطلق السعيد ، سلام العدم .

– وبعد موتي ، سأجد نفسي في هذا العدم السلمي ذاته . سأكون ذائباً في هذا الكل الكبير من أجل الأبدية .

– إنني أبارك المرأة التي انتشلني بطنها من العدم ، والتي ترمز إلى عدمي المستقبلي السعيد .

يمكن الاعتقاد بأن المسألة مسألة عملية « إنقاذ » ! فلكي يتخلص نوع الذكور من حصره ، يعظّم العدم ورمز هذا العدم : المرأة . ومع ذلك ، فان الجذر ما فتىء هو الخوف : سواء أزهر على نحو إيجابي أو سلبي .

ولهذا السبب أيضاً ، والحال هذه ، **يعمم** نوع الذكور . فالرجل لا يغنّي نبل هذه المرأة أو تلك ولا عظمتها ، ولا يغني نبل هذه الأم أو تلك ولا عظمتها ، بل يغني نبل « ال » مرأة و « ال » أم وعظمتهما .(إنه كان يعمم حتى وهو يفضح المرأة أو يحتقرها) . ولهذا السبب ، فاننا لا يمكن أن نكرر كثيراً أن الأمر أمر خوف **في ذاته** ، لا علاقة للمرأة الواقعية به . . . مع أنها تعاني نتائجه .

والمرأة كانت دائماً موضوع تناقضات عميقة ، تناقضات نوع الذكور . وسواء كانت أنثى هدّامة أو محبوبة أبدية ،فان الرجل يثقلها بالعار أو يغمرها بالأمجاد . والسبب هو الخوف .

٣ – هل ثمة بداية حل ؟

من المؤكد أن أي أخوة صحيحة بين الجنسين لن تكون ما بقي

الذكر يخشى الأنثى ، وما دامت هذه الحشية الصماء تثير ضروباً مزيفة من السلوك (الإيجابي والسلبي) . ولن يقبل الذكر « أن تصعد المرأة إلى مستواه » ما دام خائفاً . ولا يمكن أن نغالي في تكرار القول إن المسألة ليست على الإطلاق مسألة حاجة سطحية إلى التفوق .

على الرجل أن يغيّر ويكتشف جذوره وروابطه بالأرض والمادة، وبالحياة والموت (ولكن كيف ومتى ؟) وعندئذ ، على سبيل الحصر ، يتوقّف خوفه من العدم وخوفه من المرأة في الوقت نفسه .

وعلى النساء أن لا ينادين بالنصر : إن عليهن ، هنّ أيضاً ، أن يغيّرن الاتجاه ، وإلا استمرت الأنوثاث الطفولية أو العدوانية في تغذية حَصَر الذكر وعدائه .

ودور الأمهات المتوازنات سيكون ، في هذا المجال ، ذا أهمية عظيمة جداً . ذلك أن الأم هي الأولى التي تنشىء صورة المرأة التي يحملها الذكر معه طيلة حياته .

وهذا هو السبب الذي من أجله أيضاً لا بد لنا الآن من معرفة رموز المرأة . والواقع أن الرموز تتغلب على العقل لأنها تدوين الإحساسات اللاشعورية .



المرأة هي التي تصنع الرجل ، وتجعله على وفاق مع الديمومة ، والمادة ، والحيوانية العميقة ، والحياة والموت .

المرأة وطن الرجل الأم ، إليها يرجع دائماً بين سفرين ، وبدونها يضيع .

والمرأة نجت من مصايرها العجيبة بفضل حسناتها وعيوبها : مرونتها الساحرة ، وصبرها اللامحدود ، وتكيفها المرن ، وحاجتها إلى أن تكون محبوبة ، وشهيتها إلى السعادة بأي ثمن ، ونرجسيتها ، ومازوخيتها* بل ومكرها .

لقد نجت حيث كان الرجل لا محالة هالك .

إذا بدت إحدى النساء ذكية ونشيطة ، رأت نفسها وقد جمّدها الرجل سريعاً ، ذلك الرجل الذي يخشى أن يُرفع القناع عن رجولاته المزيفة والمتفاخرة .

ولكي ينجو الرجل من هذا الخطر ، صقل المرأة حتّى حوّلها إلى شيء أو إلى أنثى صرف .

أما وقد حدث ذلك ، فقد احتقرها وكرهها .

فمتى إذن يعرفها معرفة حقيقية خارج الرموز التي يُلبسها إياها ؟

(*) انظر « الانتصارات المذهلة لعلم النفس الحديث » ، القسم الثاني ، ص ١٥٣ ، وانظر كذلك الفصل العاشر من هذا الكتاب « م » .



الفصل السادس

رموز المرأة

> الماء والمرآة ليس لهما الصفاء ذاته .
> سعدي مشرف الدين(*) .

أولاً – المرأة من خلال الصور

١ – كيف تنشأ الرموز

ثمة مشهد سينمائي : مركب شراعي يغرق ، ويترجّح في اتجاه شاقولي ، ويغرق شاقولياً . وفي اللحظة التي يغمره الماء ، يُصدر الفيلم في الجزء الذي سجلت عليه الأصوات **أغاني نسائية** . وتحوم هذه الأغاني ، غمغمة ، بصوت حاد جعلته غرفة الصدى غريباً . فلماذا ترافق السفينة ، وهي تهوي إلى أعماق البحر ، أصوات نساء لا أصوات رجال ؟

ويعرض التلفزيون مناظر لجبل عال ، صامت ، ومغطى بالثلج الذي لا حركة فيه . ويرافق المناظر ، هنا أيضاً ، ضروب من تعزيم النساء .

(*) نعتقد أن ثمة خطأ في الاسم « م » .

وثمة بعض المشاهد من فيلم مخصّص للبعد الرابع تعرض مركبة فضائية تنزلق في الكون . وهناك ، مجدّداً ، نساء يغمغمن بلحن لا يعرف المرء إن كان لحن أمل أم لحن وعيد . فلماذا ؟

لقد أصبحت المرأة « رمزاً متنقلاً » بحيث تصعب معرفتها إلاّ من خلال زجاج ضبابي من الإحساسات الإنسانية .

ذلك أن رموز المرأة لم تنشأ بدءاً **مما هي عليه** ، بل بدءاً مما **يبدو أنها عليه** . ولهذا ، فلا بدّ لنا من أن نفحص بعض الأمثلة المبتذلة جداً ، لكي ندرك جمال هذه الرموز (وخطرها !) .

المرأة « خصيب » . والماء يُخصب والحال هذه . والأرض تخصب بها . فالانفعال الذي تولّده المرأة انتقل إلى الماء والأرض . فكان من الطبيعي إذن أن يصبح هذان العنصران رمزين قويين للمرأة .

هل يحسّ نوع الذكور بالمرأة على أنها تهديد صامت ؟ فمن المنطقي ، منذئذ ، أن يصبح كل عنصر طبيعي ، شديد الخطر أو يهدّد بالخطر **واقعياً** ، رمزاً من رموز المرأة . من هنا منشأ هذه الأغاني ، أغاني النساء ، التي تغلّف السفينة الهالكة ، أو تبرز الجبل الذي يتصف بأنه يهدّد بالخطر بصورة صامتة وكامنة .

والمرأة كذلك رمز لكل ما يبدو أنه **يمتصّ** (يبتلع) لحساب الأبدية : الكون حيث تغوص المركبة الفضائية ، والبعد الرابع (خارج الزمن) ، والجبل ذو السر الغامض ، والآفاق المفقودة ، واللامرئي : كل هذا يعززّه « صدى رنّان » (يبدو وكأنه آت من الأبدية) ، وغمغمة (نقص الكلام الواضح يزيد من انطباع اللا واقعي واللاامتمايز) .

وفي السينما أيضاً ، كنا نشاهد شفنينا * بحرياً هائلاً (صورة «الموت ») يحوّم فوق أعماق البحر (رمز المرأة) . فهمس أحد طلابي قائلاً : « **أوليس لنا الحق بالاستماع إلى صوت النساء ؟** » . وكان لنا الحق في ذلك بعدخمس ثوان .

هل يعلم هؤلاء المخرجون السينمائيون لماذا يستخدمون هذه الصور وهذه الأصوات ؟ يمكن الشك في ذلك . غير أن تواتر الظاهرة يدل على دوام الرمز .

وعلى هذا النحو إذن ولّدت الإحساسات العميقة الّتي تثيرها المرأة رموزاً لا حصر لها . ويلزمنا آلاف الصفحات حتّى نصفها . فها هي أكثرها تواتراً .

إذا كان يبدو أنالمرأة سر غامض ومجهولة، فيُرمز إليها بالعناصر الطبيعية كالماء ، والضباب ، والمدن الراقدة في الليل ، والغابات الغسقية، والفضاء الكوني .

وإذا كان يبدو أن المرأة عسيرة المنال ، فيُرمز إليها بقصور الأحلام وسيدات قصور الأحلام ، والالهات البعيدة ، والآفاق اللامتناهية ، والأدغال ذات الفرجات الضبابية ، والقمم المائلة إلى الزرقة . ولا يخطر ببال أي‌شخص أن هذه العناصر يمكن أن ترمز إلى الرجل :

إذا كانت المرأة متماثلة مع بطنها ، كانت رموزها سلبية أو إيجابية . فالسلبية هي ما يتصف بأنه مظلم ، وخانق ، وكهفي ، وأسود ،

(*) ضرب من السمك « م » .

وفوضوي . والإيجابية ما يُشعر بحرارة الاستقبال : الحدائق المعطّرة ، والكهوف المضيئة ، والمدن المتلألئة ، والمحيطات التي ننغمر فيها بهدف رقاد سعيد . وما رموز البطن ؟ إنها حرارة المنزل العائلي ، والبيت المزهر بالأيدي النسائية ، وتجديد الحفاوة ، و « الوطن » ، والأرض المغذّية . فهل يمكن للمرء أن يتصور نفسه قائلاً : « إنني أعود إلى وطني الأب ؟» أو « إلى الأرض الأب ؟ »

إذا كانت«الأنثى» تثير الحَصَر ، فان ما يبدو في الطبيعة أنه يتصف بخصائص أنثوية يفجّر القلق ، أي كل ما هو استطاعة خفيّة وغير متوقّعة (الصاعقة التي تتجمع دون أن تنفجر ، والماء الذي يصعد وهو يغلي وراء السد ، والبركان الذي يزمجر في « جنباته » ، الخ) .

وبما أن المرأة « تصنع » الحياة، فان الرمز رفعها إلى درجة الجنية أو الساحرة التي يتصف نفاذ بصيرتها أنه دون حدود ، والتي تعرف أسرار الحياة والموت ، هذا إذا لم تكن سيدة المصاير الانسانية . إن **الولكيريز** * هن اللواتي يمنحن المصير ، ويساعدن القادة على الانتصار ، ويعيّن المقاتلين الذين ينبغي أن يموتوا . إنهن فارسات ساحرات . ويُمثّلن أحياناً بعذراوات ذات ريش البجع . ويطرن في الفضاء . ويحططن أحياناً في **المستنقعات** ، قريباً من **الغابات** . ويصبحن عبيد الرجل الذي يفلح في أن ينزع عنهن ريشهن (هنا يبدو إحساس الذكر ، الإحساس الذي نعرفه جيداً : **الانفلات من الأنثى** — **أو الانفلات من الأم** — لكي يحقق

(*) Les walkyries : الهات سكاندينافية كانت ترافق المحاربين إلى ميدان المعركة وتحدد من ينبغي أن يموت بحسب أوامر الاله أودن « م » .

مصيره الخاص ولا يكون مدمّراً بفعلها (إن صدى هذا الاعتقاد موجود في أغنية **نيبيلنجن** ، قصيدة ملحمية في ألمانيا القرون الوسطى . وما هو أكثر أهمية أن هؤلاء النساء هن **القدر** (ولنتذكر الارتباطات بين الكلمات حول موضوع كلمة « أنثى ») : **وكانت الالهات اللاتينية الثلاثة** * مكلفة بالدور نفسه ، وليس من قبيل المصادفة أنهن كن « إناثاً » .

٢ — كل رمز ذو فاعلية

لئن أصبحت خصائص المرأة العديدة رموزاً ، فان هذه الرموز تفجرت عليها ثانية . إنها تشكل جزءاً منها إلى درجة أننا إذا فكرنا ببيت في السحاب الكثيف ، فاننا لا نعلم أين البيت ولا أين السحاب .

ويظل ذلك صحيحاً في أيامنا هذه . فالناس لا يعتقدون بـ **الولكيريز** ، ولكن الرجل العادي ما فتئ يحسّ بالمرأة على النحو ذاته . والإحساسات اللاشعورية ، الخاصة بالحياة والموت ، باقية .

كل رمز ذو فاعلية : والعقل يقف أمامه عاجزاً . ولكن الرمز شيء ، وما نفعله بالرمز شيء آخر .والرمز ، **في أيامنا هذه ، يتجلى لمجتمعات الاستهلاك بصور مضى عليها الزمن**. فالسينما ، والاعلانات على الحيطان ، والاعلانات المتلفزة أو المكتوبة ، تعتمد ، دون علم منها بذلك ، على الرموز . ولكنها توزّع على هذا النحو للمستهلكين **إحساسات فقدت قيمتها** ، إحساسات تتعهد بالرعاية ، دون كلل ، بعض الانطباعات حول المرأة . لقد أصبحت المرأة ضبابية ، لا يمكن ادراكها ، وسر غامض أعلى

(*) Les parques : الهات جهنمية في الميتولوجيا اللاتينية ، مهمتها أن تنسج خيوط حياة الناس وتقطعها . وكان عددها ثلاث : كلوثو ، لا شيسس ، وأتروبوس « م » .

كالشهرة ، مع تشكيل مصوَّر يعزّز ذلك . فالأغنيات النسائية في السينما ، التي تكلمنا عليها فيما سبق ، والتي يسمعها الناس بصورة لاشعورية على وجه التقريب ، تغذي الاحساسات الموجودة لديهم منذ الأزل . وأمامي عدة صور يرى فيها المرء نساء ذات شعور تنسدل حتى الوركين ، مبحرات في قارب على بحيرة يغطيها السحاب ، ويحفّ بهن الضباب (الوطب !) ، تائهات وحمقاوات بصورة مبهمة : كل ذلك من أجل تمجيد جودة نتاج مخصّص لـ نصول الشعر (١) .

وعلى هذا النحو إذن يقود الرمز رجل الاعلان الذي يشدّد بدوره على المظهر « السري الغامض » (مرهوب الجانب إذن) للمرأة ، التي تصبح شبحاً لا قوام له ، يخرج من الضباب ليعود إليه .

وتتم اللعبة ذاتها فيما يخص الأغنية التي أصبحت نتاجاً صناعياً يتم فيه تمجيد نساء يتصفن بأن ابيضاض الدم لديهن يتزايد . وتجعل الاسطوانة ، التي تباع بالأطنان ، ملايين « المستهلكين » عبر العالم يحلمون .

وهكذا إنما ينتهي الناس إلى عدم التمييز بين النتاج الاستهلاكي وبين المرأة ذاتها ، كما لو أن مسيحياً كان يعتقد بأن التمثال من الجص الضارب إلى الزرقة ، الذي اشتراه من سوق من الأسواق ، هو السيدة مريم بالفعل .

إن قدر المرأة المستقبلي منوط إلى حد كبير بالأسلوب الذي نفصلها به عن صورها التي ينتقص العالم الحديث من قدرها . وعندئذ يمكن للرموز أن تستعيد مكانها في اللاشعور الانساني . ومع ذلك ، فعلينا أن لا نتخيل أن ذلك سيكون قريب العهد ، لأن الرمز العميق ضرب من النجم اللاشعوري.

---

(١) انظر فصل « ناصلات اللون » .

ثانياً – رمز المـــاء

١ – ثلاثة عشر ارتباطاً بين الأفكار

الماء هو رمز المرأة الذي يتصف بأنه أكثر كلاسيكية ، وأكثر اصوقاً ، وأكثر واقعية على الغالب . فثمة خصائص أنثوية عديدة ، إيجابية أو سلبية ، تجعل المرء يفكر مباشرة بالماء .

ها هي بعض الارتباطات بين الأفكار ، صنعتها بعض النساء . فهل تتفضلون بأن تروا كذلك ثانية أحلام الرجال التي عرضناها في الفصل السابق ، والتي يبدو فيها الماء بصورة منتظمة ؟

الكلمة المقترحة : الماء

أ – أجابت سكرتيرة في الثامنة والعشرين :

– الماء ؟ آه . . . إنه أنا في أسعد أيامي ! أنا ، مرنة ، أنا ، أتكيّف جيداً ، سيّالة وطيّبة . الماء سيّال ونسوي . والماء نسوي على نحو رائع. ينساب على الأرض.سعادة الماء . نهر يحمل القوارب . لا شكل له . . . نعم لا شكل له ، وله جميع الأشكال . تلاؤم يسير وعذب . الماء ، إنه المرأة ، إنه الحياة التي تغني بين حافتين . . . . والرجل يموت قبلنا.

ب – وقالت مديرة في الثالثة والأربعين :

– غير مستقر ، غير مستقر إلى حد كبير . متدفق . زخّات . الماء يقتل النار .

ج – وقالت بائعة في الأربعين :

– الماء ، ولكنه هو المرأة ! بكل ما فيها من خير وشر . هل تعرف هذه البحيرات المتجمدة التي تتكسر تحت الأرجل ؟ أرض قاحلة تحيا مجدّداً . والصحراء تغطيها الأزهار . كل شيء خرج من المحيطات ، وذلك ما يسرني .

د – وأجابت امرأة ربة منزل في الثانية والثلاثين :

– إنني أتخيل ينبوعاً . إنه يفور أكثر فأكثر ، ويصعد بطريقة عمودية . ويهبط ثانية ، وينبسط ، ويصبح جدولاً صغيراً ، فنهراً ، فدلتا ، فمحيطاً . . . ويغطي الأرض التي تحتاج إليه .

هـ – وقالت طالبة حقوق في الثالثة والعشرين :

– ينبغي أن ألغي الاجتهاد القضائي ! الماء ، الماء ؟ الينابيع بين يدي ، وصورتي في الماء ، انعكاس ، مجرد انعكاس ، مرآة متغيّرة كوجه امرأة . إنني جافّة إلى حد المغالاة ، ينبغي أن أصبح أكثر ماء . . . ولي مرونة الماء اللامتناهية .

و – وأجابت امرأة لا مهنة خارجية لها ، في الخامسة والثلاثين :

– هدوء . طوفان . يغطي الأرض ، كل الأرض تقريباً . . . منبسط ، أفقي ، لا تجعيد فيه ، ماكر ، ماكر ؟ ولكن النساء ماكرات ، على وجه العموم ! فهل أرواحنا هي كذلك ؟ والماء مع ذلك يتبع طريقاً . إنه ينزل دون أن يكون بوسعه الصعود أبداً . فهل هو مثلي ، ربما ؟

ز – وقالت امرأة في السابعة والخمسين ، دون مهنة خارجية :

– آه ، ياسيدي ، الماء ! إنني أفكر بفيضانات هولاندا ، وجداول الجبال . إن الماء مرعب وفاتن . فلا أجرؤ أبداً على السير بمحاذاة نهر ،

أشعر إزاءه بضرب من الانجذاب الغريب ، السعيد على وجه التقريب . . . عليّ أن أنتبه . فالماء شبيه بالفراغ . والماء ، يا سيدي ، هو ، بالنسبة إلي ، أنوثة العالم ، والطبيعة الداخلية . . .

ح — وأجابت طالبة في التاسعة عشرة :

— الماء ؟ في كل مكان وليس في أي مكان ، متقلب ، ملتف ، ساحر . ساحر ، ولكنه يحتاج ك . . . إيه . . . ولكن كالماء . هيا ! إن خطيبي يعرف عنه بعض الشيء !

ط — وأجابت امرأة في الثامنة والثلاثين ، دون مهنة خارجية :

— أمير ساحر ، فرجة ، ينبوع . عدم اكتراث . مرح الجري ونبعه يغذيه . يقفذ من حجر إلى حجر . لذة داخلية .

ي — وأجابت امرأة في الرابعة والعشرين ، دون مهنة خارجية :

— أُنقذت من المياه ، خارجة من مياه أمها . . . تسبح ، تسبح دونما توقف ، حتى الراحة الكبرى . أين الشاطىء الآخر ؟ إنها لا تنظر إلى الوراء ، ولا تذهب إلى المحيط . . .

ك — وقالت موظفة في السابعة والثلاثين :

— الماء هو الطبيعة . إنه ينساب إذا لم نأخذ احتياطاً له . خطر ، تغيرات في اللون والشكل ، سرعة . غير متوقع ، ولكن الرجال ساهرون .

ل — وقالت طالبة في العشرين من عمرها :

— آه كلا ! لا الماء ! إنني أكره البحر . الناس يثقون به إلى حد ينتفخ في الأفق لكي يهدم البيوت . وكذلك الأنهار . إنها تبدو ساذجة ، حتى التجمد والأمطار . فهي أيضاً دون رحمة ! الماء ، إني أحبه وأكرهه.

م — وأجابت موظفة في الثالثة والثلاثين :

— إعصارات ، ممتصّة ، منجذبة حتى الأعماق . أسماك لزجة ، باردة . لقد أفرغتني أمي من نخاعي . . .

٢ — ماذا تعني هذه الارتباطات ؟

في كل ارتباط من هذه الارتباطات التي صنعها **النساء** ، يلاحظ المرء ، دونما صعوبة ، أن الماء يذكّرهن بالأنوثة التي هو مع ذلك رمزها الكامل . ولن أتحدث هنا عن الرمزية الخاصة بالولادة ، والإخصاب ، والشباب الأبدي ، والأساطير الزراعية ، وعبادات الماء الأم أو الماء الحي ، الخ .

فلننصرف ، على سبيل الحصر ، إلى هذه الارتباطات . إن الماء **يتوجّه** بفعل الاختلافات في سوية التربة . وهو **عاجز عن الحركة الفاعلة** (ليس بوسعه أن يصعد منحدراً ، رقم و) . ويجري ، وينساب ، ويتسلّل ، ويتفجر ، ويُخصب ، ويدمّر . إنه مهدّد وفرح ، ومتحرّك ، ومتموّج ، ومتقلّب . والسطح الهادىء يخفي أعماقاً شديدة الخطر . إنه ساحر ومرعب . إنه لا متمايز ، وراكد ، وذو **استطاعة كامنة** هائلة .

ونجد هنا إذن ما قلناه فيما سبق . ولنلاحظ ، فضلاً عن ذلك ، أن العلامة القديمة للماء هي ▽ ، **متماثلة مع علامة العضو التناسلي**

النسوي ، علامة هي تمثيله الهندسي . وهذا هو السبب الذي من أجله قدّرت أن من المفيد عرض هذا الرمز الأساسي للمرأة . وسنعود إليه ، مع ذلك ، ونحن نحدّد بعض خصائص الأنوثة .

لنتناول الارتباطات الثلاثة عشرة السابقة بالبحث . كيف يحسّ هؤلاء النسوة بالماء الذي يربطنه مباشرة بالأنوثة ؟

أ ــ تحسّ هذه السكرتيرة بالأنوثة على أنها مرونة مرحة ، وقادرة على التلاؤم مع جميع الظروف . والأنوثة ، بالنسبة إليها ، قدرة داخلية على السعادة . إنها مفيدة ، ويمكن الاعتماد عليها . ويجد الرجال فيها سندهم وأمنهم **(إنها تحمل القوارب)** .

ثمة ارتباط غير متوقّع يظهر فجأة : « **يموت الرجال قبلنا**» . وهذه المرأة تقصد بعبارتها هذه أن الأنوثة مستقرة ودائمة بفعل تلاؤمها مع الظروف وعفويتها **(ليس له شكل وله كل الأشكال)** . وتبدو الأنوثة ، بالنسبة إلى هذه السكرتيرة ، أنها لا تُغلب وسعيدة ، ولكنها يتعذّر إدراكها ، وهي غير فاعلة .

ب ــ ليست مؤيدة للماء إلا قليلاً . ونحن من جهة أخرى إزاء شخص جعلته الحياة « متصلّباً » إلى حد بعيد . فهي ترتاب من الماء ، غير المستقر والمتقلّب ، وتخشى اللاتوقع الهدّام للماء **(زخّات ، متدفق)** . ومن الواضح أنها تربط بين الماء والإحساس السلبي بالأنوثة المكبوتة لديها . ونحن نجد موضوع « الأنثى التي تدمّر الذكر » **(الماء يقتل النار)** ، أو أن الأنوثة غير المستقرة تمنع من الفعل ، إذا ترجمنا على نحو آخر . ولا تُظهر هذه الإجابة ، شأنها شأن الاجابة أ ، توازناً بين الإيجابية والسلبية .

جـ — الارتباط بين المرأة والماء ارتباط مباشر . والأنوثة محسوس بها أنها مرهوبة الجانب بالرغم من المظاهر (**الجليد يتقصّف تحت الأرجل**). إنه كذلك لموضوع نعرفه مسبقاً : موضوع **الابتلاع** . والأنوثة تخصب الأرض وتزكيها (**أرض قاحلة تحيا مجدداً ، أزهار في الصحراء بعد المطر**) . ويمكن أن نترجم : الأنوثة الأصيلة تسقي عالم الرجال القاحل وتحييه . إن هذه المرأة تتناول موضوع الأمومة (**كل حياة تخرج من المحيط**) . ولكن الجملة قد تعني أيضاً : الأنوثة الحقيقية أساسية لاستمرار العالم، باستثناء ما إذا كنت هنا لا أميّز بين مقاصدها وما أفكر فيه أنا نفسي .

وعلى أي حال ، فالأنوثة ، بالنسبة إلى هذه المرأة ، تنطوي على وجهين : الخطر والعظمة .

د — ليس ثمة من إشارة مباشرة إلى الأنوثة . ومع ذلك تُظهر هذه الارتباطات صورة مثالية للمرأة إلى حد كبير : أنوثة قوية (**نبع فوّار**) تنفذ إلى فاعلية خلاّقة (**يصعد عمودياً**) . ثم إنه ، مجدّداً ، موضوع الأنوثة المفيدة بصورة أساسية والمخصبة (**الأرض بحاجة إليه**) .

هـ — تأمل هذه المرأة الشابة أن تنمي أنوثتها العميقة أو أن تحجبها . ونجد في إجابتها « المرأة المتقلّبة » . وهي تنظر مع ذلك إلى الأنوثة نظرة محابية (**مرونه الماء اللامتناهية**) .

و — ثمة توحيد سلبي بين المرأة والماء ، وبين الأنوثة والمكر. وتأسف هذه المرأة أن أنوثتها مصابة بالعطالة بعض الشيء (**إنها تنزل دون قدرة على الصعود**). وليس ثمة أية إشارة إلى طاقة الابداعية التي توجد لدى كل امرأة .

ز – ها هي ذي ثانية خصائص نصادفها على الغالب : **الأنثى** الهدّامة التي تجذب الموجودات ، في الوقت نفسه ، نحو أبدية الراحة . وثمة الخوف من « البطن » والعدم ، وانجذاب « سري وغامض » نحو هذا العدم ذاته . ولكن الأنوثة فيما بعد تتعزّز في عظمتها العميقة (**الطبيعة الداخلية**) .

ح – تماثل مباشر مع ذاتها . فالأنوثة تحاصر وتغزو ، ولكن مع احتفاظها هنا بمظهر من العفوية النزوية بصورة مرحة .

ط – إنه موضوع الأمير الساحر والحسناء النائمة . ثم نجد لدى هذه المرأة ارتباطات أخرى حول الأنوثة العميقة (**تجري ، يغذيها نبعها**).

ي – إنه الموضوع الكبير ، موضوع الماء والولادة . فهل هذه المرأة تريد أن تقول إنه كان عليها أن تبتعد عن أمها لكي تعيش ؟ وإنها تشعر أنها ملزمة بأن لا تنظر إلى الوراء أبداً ، تحت طائلة أن « تستعيدها » أمها ؟

وموضوع الولادة موجود على الأغلب في الأحلام الليلية . وقد كانت عادة تغطيس الوليد في الماء الجاري سائدة في الزمن الغابر . وكان المقصود مجرد ممارسة وقاية صحية واختبار للمقاومة الجسدية في الوقت نفسه . فاذا خرج الطفل سليماً من هذه « المعمودية » ، فانه كان يُعلن «أُنقذ من المياه » ، وبعبارة أخرى : صالح للخدمة (خدمة الحياة بالطبع).

فلنعد إلى هذه المرأة . إن ارتباطاتها تبيّن خوفها من العودة إلى العدم (أمها !) ولكن المرء يرى فيها أيضاً « راحة الماء الكبرى » ، التي صادفناها عند بحثنا في الإحساسات الإيجابية نحو المرأة .

ك ــ ويبدو « خطر » الأنوثة غير المتوقع ، لدى هذه المرأة ، مرة أخرى أيضاً ، ثم ينبعث موضوع مهم : «**الرجال يقظون** » . والمقصود : يحس الرجال بأن عليهم الحذر من الاستطاعة الكامنة للمرأة . ولا تشير هذه المرأة ، مع الأسف ، أي إشارة إلى فاعليتها الخاصة . فهي تبقى «محصورة » في الجانب السلبي من أنوثتها .

ل ــ قد يعتقد المرء أنه يستمع إلى رجل . فنحن نجد فعلاً في ارتباطات هذه المرأة ، نقطة فنقطة ، إحساسات نوع الذكور السلبية إزاء النوع الأنثوي . إن هجوم الماء يتم دون إنذار ، بعد بعض المظاهر الهادئة التي لا يسع المرء أن يثق بها (كما هو الأمر بالنسبة للرقم « ه » ، حيث يتقصّف الجليد تحت الرجل). ثمة كذلك إحساس بالمكر ، كما هو الأمر لدى الرقم « و » .

م ــ وها هو الخوف من أن يجذبنا العدم ، يظهر ثانية . وهذا أمر منطقي ، والحالة هذه ، نظراً لما كانت عليه أم هذه المرأة الشابة .

٣ ــ الرمز الإيجابي والرمز السلبي

الرمز السلبي والاتجاهات السلبية

الماء محسوس به على نحو سلبي	الاتجاهات السلبية لدى بعض النساء
ــ ينساب ويتسلل في أصغر الشقوق .	ــ يُسلّلن بمهارة كلاماً وأفعالاً ، ويسرّبن « السم » بصورة ماكرة (المقصود : افتراءات) .

— يحفر الحجارة القاسية ببطء وصبر . .	— يتغلبن على جميع العقبات بصبرهن المزعج ، ويقوّضن طاقة أولئك الذين يقاومونهن .
— يشكّل جيوباً تحت الأرض بصورة غير مرئية .	— يتصرفن على نحو خفي ، ومراء ، وغير مرئي .
— يحاصر ويحيط ويغلّف.	— يمارسن حرب الغوار . وينتهين إلى محاصرة الآخر والإحاطة به ، قبل أن يضربن في النقطة الضعيفة .
— يغرق بالاختناق ويجذب في دوّاماته .	— يخنقن شخصية الآخر ، و « يمتصصن » أطفالهن إذ يمنعنهن من النمو . ويلتهمن من الناحية الوجدانية .
— ساحر في سطحه ، ويظل يثير القلق في الأعماق .	— يفتنّ الرجال لكي يجذبنهم على أحسن وجه إلى الدمار والإفلاس .
— سر غريب ، لا يبدي غير سطح يدعو إلى الاطمئنان .	— إنهن مهدّدات بصورة كامنة ، و« مياه راقدة » ، ونرجسيات تحت قناع من العذوبة. إنهن أحياناً كالمستنقعات التي تمتص فريستها ببطء (زوجها وأولادها) تحت مظهر من الانقياد والحياد الظاهرين .

– يجمع قوته قبل أن يتدفق	– يراكمـن الضغائـن ومشروعات الثأر بصورة صامتة حتى ينفجر الغضب الأعمى الذي لا رحمة فيه .

الرمز الإيجابي والاتجاهات الإيجابية

المــاء محسوس به على نحو إيجابي	الاتجاهات الإيجابية لبعض النساء
– استطاعة كامنة مستقرة ومرنة	– لا يمكن انجاز شيء يتصف بالدوام دون دعم الأنوثة ، المرنة والتي تتلاءم مع الظروف . حدسهن وحسهن السليم يقودان أعمال الرجال ويصلحانها .
– يزكي ويخصب .	– إنهن ملهمات بحضورهن وحده ، ويصبحن ينبوع الحياة الداخلية .
– يتصف بأنه وثاب بصورة مرحة وعفوي .	– يستقبلن بعفوية أصيلة ، ويدفعن إلى العمل بمرح . إنهن وسيطات ، وعطوفات ، وفهيمات.

— يغسل ويطهّر .	— فهمهن الأمومي يطهّر من الخجل . وبوسعهن إجراء بعث وجداني حقيقي . ويبعثن الحياة في أعمال الرجال التي أصابها الجفاف .

وها هما ايضاً رمزان آخران من رموز الأنوثة ، كلاسيكيان كذلك. ونحن سنربطهما بعض الجوانب المعروفة .

ثالثاً — رمز الجبل

الرمز السلبي والاتجاهات السلبية

الجبـــل محسوس به على نحو سلبي	الإتجاهات السلبية لبعض النساء
— ساكن ومهدّد قبل الانهيار (موضوع الماء) .	— سكونهن وصبرهن ينبئان بانفجار الغضب .
— يبدو منيعاًوبعيداً . ولا بد من قهره واستعباده وغزوه وجعله حيادياً .	— متكبرات ، يتحدين الرجال الذين يستجيبون بالبحث عن استعبادهن ، وقهرهن ، وردهن إلى وضع السبية أو الشيء.
— الصمت الأبيض بعد الانهيار (موضوع الماء الذي يغطي ويخنق بصمت) .	— يحطن الغير ويغلفنه بصورة ماكرة إلى حد اختناق شخصيته.

الرمز الإيجابي والاتجاهات الإيجابية

الجبـــل محسوس به على نحو إيجابي	الاتجاهات الإيجابية لبعض النساء
– الصمت الأبيض بعد الانهيار .	– الأم والمرأة ، الرائعتان والهادئتان ، تحميان راحة الرجال (موضوع الأنوثة الإيجابي) .

رابعاً – رمز الأرض

الرمز السلبي والاتجاهات السلبية

الأرض محسوس بها على نحو سلبي	إحساسات سلبية إزاء بعض النساء
– تتضمن العفونة التي تهيء حمل الطبيعة وولادتها مجدّداً .	– الفوضى الدامية للبطن التي تعدّ الحمل والولادة .
– إنها بلا زرع ولاحصاد. فلم تكن سكة العربة قد شقتها (رمز عضو الذكر) .	– «العانسات » موضع سخرية لأن عضو الذكر لم يحرثهن ويبذرهن .
– تزمجر بصورة خفية قبل الهزة الأرضية .	– يبدو أن النساء يزمجرن داخلياً قبل الانفجار المدمّر (موضوع « الأنثى المفترسة »).

– القبر .	– أعماق بطن المرأة الذي يسود فيه الموت قبل الحمل والذي ينذر ، قياساً على ذلك ، بالموت في المستقبل (موضوع صادفناه غالباً فيما سبق) .
– المغاور الرطبة .	– بطن المرأة الذي يذكّر بالعدم الرطب قبل الولادة .
– الأرض التي تنشق (الهزة الأرضية) .	– النساء اللواتي « يبتلعن » أقاربهن (موضوع العودة إلى العدم) .

الرمز الإيجابي والاتجاهات الإيجابية

الأرض	الإحساسات الإيجابية
محسوس بها على نحو إيجابي	إزاء بعض النساء
– تخصب بالسكة والبذار	– تخصب المرأة بعضو الذكر وتمنح الحصاد للحياة والمستقبل .
– القبر (موضوع الماء أو الجبل) .	– الأم الخالدة التي تنغلق إلى الأبد على الموجودات التي تعود إلى الكل الكبير .

— البلاد التي يولد فيها المرء ، والتي إليها يعود دائماً بفكره أو بالفعل . الوطن الأم .	— المرأة والأم « وطننا الرجل » ، إليهما يعود بعد المعارك، معارك الحياة . عذوبة الأسرة ، والبيت ، « محور » شخصية الرجل.

ويلزمنا مئات الصفحات لنستعرض رمزية المرأة . ويمكن إضافة النساء الأزهار ، والنساء الثمار ، والحارسات الأبديات السوداوات والبيضاوات ، وجنيات البحر ذات الشعور الطويلة ، والنساء اللواتي يقتلن الذكور الضالين * ، ونبيات الفرجات في الغابات ، والعصافير المسحورة ، وجميع الأقمار ذات الضوء الباهت ، والنساء اللواتي يأخذن بالثأر ** ، وجميع نساء الحياة أو الموت ، ونساء الاخفاق أو تجاوز الذات ، والنساء المرعبات أو المهدّئات ، وغضبات المحاربين أو راحتهم .

ومع ذلك ، فاذا كان كل ما سبق ضرورياً ، فاننا لم نجد بعد «المرأة » كما هي ، بعظامها ولحمها وحياتها الداخلية .

خامساً — الرموز رواسب فاعلة

١ — ضرورة احتياز الشعور

الرموز لن تزول أبداً . وهي تزهر ما دام للرجال والنساء لاشعور . فهل هذا خير أم هو شر ؟ أمن الأفضل لأفعالنا أن تغذيها وجدانيتنا اللاشعورية أم أن تصبح باردة برودة ناظمة آلية ؟

(*) Les Anténéas
(**) Les Erynnies

الشيء الوحيد الذي يمكن للإنسان أن يفعله هو أن يجعل الرمز شعورياً ، لكي يكفّ على هذا النحو عن أن يكون منقاداً به ، ويستطيع عندئذ أن يحس به على أنه حلية داخلية . وما دام الموجود الإنساني يرفض أن يكون ما هو عليه ، ضعيفاً عابراً ، فانه يغني نفسه بصور الأبدية ، وبالأبطال والبطلات الخالدين الذي لا يُقهرون ، وبالالهات والآلهة التي لا تقبل الفساد ، وبراكبي الدراجات العدّائين الذين لا يُغلبون ، والذين «يطيرون ، مجنحين كالآلهة ، نحو قمم أبدية لم تطأها قدم الانسان بعد» (مأخوذة من مجلة واسعة الانتشار !) .

وما دام الرجل يخشى صغره ، فانه سيرعى رموزاً للمرأة ، رموزاً بيضاء وسوداء . وما دام يحتفظ بالحنين إلى فردوس مفقود حيث كانت الأبدية تسود ، والعذوبة التي لا توصف ، والتفاهم مع الحيوانات ، فانه سيذهب نحو بلاد يسميها تجار الأسفار بلاد « الحلم» . وإذ يهرب من منزله حيث يرتجف من عزلة الاجازات ، فانه يستمر في الذهاب ، مع ملايين الأشخاص الآخرين ، نحو أماكن « مباركة » لكي يشكو فيها من الناموس والحرارة والضجر العام ، بل ومن قبح النساء اللواتي كان يأمل أن يكنّ رائعات .

ولا يهم : إنه بذلك يكون قد أفاد من حصته في الجنة الأرضية قبل أن يذهب إلى جحيمه .

وما دام الناس يعيشون على ضروب الحنين والقلق، فانهم ، من باريس إلى بودابست ، ومن هانوي إلى لندن ، ومن لابرادور إلى فرنسا، سيحلمون أحلاماً ليلية تبدو فيها الرموز ذاتها . وسينقلون هذه الرموز في أغنيات تحت مظاهر مختلفة في الظاهر . وسيعتقد ملايين الشعراء أنهم

ا كتشفوا صوراً جديدة ، في حين أن فقاعة ، عمرها خمسة آلاف سنة ومنبعثة من لاشعورهم ، تكون قد انفجرت في النص .

الرموز هي الرواسب الفاعلة للانسانية. وحاجة الموجود الإنساني إليها كحاجته إلى الخبز .

ولو اختفت هذه الرموز غداً ، لسكت المغنون ، وجفّت عبقرية الشعراء ، وأغلقت دور السينما أبوابها ، وأفلست شركة دورة فرنسا لـ« الأبطال المجنحين » ، وتخفّف * الأبطال الرياضيون الذين لا يقهرون ، وغطى العشب البريّ ملاعب الرياضة ، وفرغت جزر الأحلام من روادها ، وارتدّت الروايات التي تدور حول الولايات الغربية من الولايات المتحدة إلى أمور ثانوية ، وركد غزو الفضاء في ورق مقوى يعلوه الغبار .

ولاختفت ضروب الخوف والقلق ، ومعها الرموز . وسيكون ، على الأرض ، طوف من جليد الموضوعية والعقل المحض اللذين يتصفان بأنهما مع ذلك مفقودان فقدان الدخان بلا نار .

وتصبح المرأة ثانية ما هي عليه . ولكن ماذا يعني هذا ؟

٢ – صعوبة احتياز الشعور

يبيّن تاريخ المرأة ، المكروهة أو المدلّلة بصورة ذاتية ، خطر الرموز . فكل موجود إنساني ، والرجل على وجه الخصوص ، يحمل في ذاته رمز «المرأة المثالية » ، رمز الأم العظيمة . ولكنه يحمل أيضاً رمز المرأة التي تفترس ، والتي تحيل إلى العدم .

(*) تخفف : لبس الخف « م » .

وشرح الكيفية التي توضّعت فيها هذه الرموز في اللاشعور الجمعي ، المتماثل لدى كل الأفراد ، عبر القرون جميعها وفي أجزاء العالم ، أمر يطول جداً (١) .

ولكننا نعلم أن هذه الرموز ، رموز المرأة ، مولودة بدءاً من خوف الانسان من العدم . فالمرأة (الأم) ، التي تهب الحياة ، أصبحت ممثل الحياة ورمزها ، وممثل الموت ورمزه قياساً على ذلك . وكان لهذا الموت وجهان : إحالة إلى العدم إحالة مطلقة أو السعادة الأبدية . والمرأة، بصفتها ترمز إلى هذه الوجهين من العدم ، كانت محسوسة في الوقت نفسه بصورة مغالية في الايجابية أو السلبية .

ولئن كان اللاشعور الجمعي متماثلاً بالنسبة إلى كل فرد ، فاللاشعور الشخصي يختلف بالتأكيد من فرد إلى آخر . ويبقى الرمز الأساسي ، ولكن « ترجماته » تتباين بحسب ما إذا كان قد مرّ في مصفاة التجارب التي يعيشها كل فرد في طفولته وفي مراهقته ، مصفاة عقدنا أو ضروب كبتنا ، مصفاة أخلاقنا الشخصية .

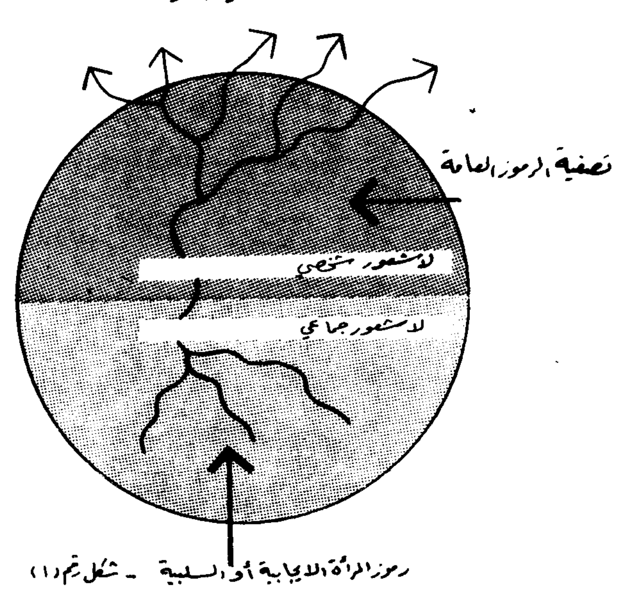
كذلك « المرأة » ، الرمز العام ، فانها تجتاز غربال ضروب اللاشعور الشخصي ، ويجري إسقاطها إلى الخارج على نمط معيّن من المرأة التي تصبح الممثل الخاص للرمز العام .

فكلما كان اللاشعور صدئاً ، ومكبوحاً ، وطفالياً ، وقذراً ، كانت تعبيرات الرمز **منحطة ، دنسة** .

---

(١) انظر حول هذا الموضوع كتابنا : « الانتصارات المذهلة لعلم النفس الحديث » (نشر وزارة الثقافة ، دمشق ، ترجمة وجيه أسعد) .

ذلك إنما هو ما يحدث حالياً . فقد أصبحت العديدات من النساء ، اللواتي تتصف شخصيتهن بأنها مصابة بالعطالة كالماء الراكد ، رموزاً ، فاقدة الاعتبار ، بالنسبة لكثير من الرجال . والحال أن لهؤلاء النسوة قيمة كبيرة . إنهن جزء من النساء الأشياء ، وهن من جهة أخرى متواطئات مع الرجال بصورة غير إرادية .



شكل رقم (١)

٣ – المرأة الشيء

يعود موضوع المرأة الشيء بانتظام ذي باعث فاغنزي * . إن المرأة شيء « جنسي » : ذلك هو اتهام الوزارة العامة للمرأة ، الاتهام الأكثر

(*) فاغنر (Wagner) : الموسيقي الالماني الشهير (١٨١٣ – ١٨٨٣) . موسيقاه كانت مليئة بالرموز « م » .

ما يتردد . ويبدو أن الصورة التي يعرضها العديد من المجلات ، وصور الإعلان وغيرها ، والأفلام ، تبرهن على ذلك .

ولكننا **نرتكب خطأ فادحاً** إذا تكلمنا على هذا النحو . ولا نميّز بين الجنسية والتناسلية . ذلك أن التناسلية إذا كانت **فعلاً آلياً** ، فان الجنسية **حالة من حالات النفس** . والجنسية والوجدانية شيء واحد . فكل علاقة وجدانية بأي شيء أو بأي كائن كان — بالطبيعة ، والحيوانات ، والموجودات الإنسانية الأخرى ، — هي علاقة « جنسية » (وجدانية).

ولا بد إذن من التساؤل إزاء موجود إنساني : في أي حالة من حالات الصحة أو المرض توجد وجدانيته ؟ نحو أي نمط من النساء تدفعه وجدانيته بصورة لاشعورية ؟

ولنفرض صبياً صغيراً : شخصيته مزوّدة ، كما هو معلوم ، بطبقتين : الشعور واللاشعور . واللاشعور صفيحة فوتوغرافية فائقة الحساسية ، غاطسة في الظلام وفتحة نورها تصل حدها الأعلى .

فاذا الصبي ، منذ فترة المراهقة ، غمس الصفيحة الفوتوغرافية في كاشف ، ماذا يرى فيها ؟ يرى فيها عدداً لا حصر له من إحساساته ، إحساسات الحياة ، ولكن ثمة وجه يغزو الصفيحة : وجه أمه . فكيف أحسّ بها **لا شعورياً** ؟ هل أحس بها على أنها ذات تأثير ملائم ؟ غير ملائم ؟ تدعو إلى الاطمئنان ؟ مخيفة ؟ إلهة ، ساحرة ؟ كأم من نور أم كأم من ظلام ؟

ولكن هذه الصور تظل كامنة . وتبقى الصفيحة في الغرفة المظلمة من اللاشعور .

وتمرّ نساء أخريات في مجال العدسة ، راسخات إلى الأبد . والرجحان للواتي منهن ينيرهن انفعال الصبي إنارة شديدة . فثمة موكب كامل يرتسم : وجوه ممثلات ، نساء « الأحلام » اللواتي يلمحهن في الاعلانات ، بطلات الروايات وقصص الرسوم ، وصبايا صادفهن في الشارع .

وتصبح الصفيحة الحساسة مزيجاً معقّداً . **فنفس الصبي محصلة إحساساته ، وعواطفه ، ووجوه النساء التي لمحها ، وضروب كبته ، وعقده ، ومخاوفه .**

أو لنفرض أيضا أننا وضعنا بالقرب منك ، مدة خمسة عشر عاماً ، مسجلا للصوت وآلة تصوير سينمائي يعملان . فعندما تعرض هذا الفيلم وتصغي إليه ، ماذا تكون قد سمعت ورأيت قياساً على ماسجلته الآلتان ؟

٤ ـ الرجل في بحثه عن النساء الاشياء

يشعر الرجل في بعض الأحيان وكأنه مجزأ الى اثنين . إنه يحس إحساساً داخليا بأن وحدته مفقودة ، وأن نفسه ضائعة ، ومهملة ، ومريضة ، وبلا عناية .

ويسعى عندئذ الى أن يجد وحدته ونفسه **بأي وسيلة كانت** . ويتعرّض الى خطر أن ينفذ الى عالم النساء اللواتي يُطلق عليهن اسم النساء « الأشياء » . وهؤلاء النساء يمثّلن ، بالنسبة إليه ، ترجمة حرفية لوجدانية مشوّهة ، ولنصيب الحلم الذي أصابه الانحطاط كما أصاب وجدانيته .

ويرعى الرجال في كل يوم عدداً لا يحصى من الأشباح « الشبقية » أو « العاشقة » وهم لا يتكلمون عليها شيئاً لأي أحد . إن ذلك إنما هو

نصيبهم من الأحلام ، والانطباع باكتشاف زاوية تركن إليها النفس .
وعبر هؤلاء النساء الأشياء ، يبحث الرجال في نهاية المطاف ، بحثا يائساً ، عن ظل من الحياة . إنهم في بحث عن طبيعتهم العميقة في نطاق ما بقي منها . والمومسات يعرفن ذلك جيداً .

وعلى هذا النحو ، فان كل تهتك ، وكل شبقية ، وكل إباحية ، بحث عن روحية مهما كانت غضة ويائسة . وعندئذ يقول الرجل لنفسه : **إنني أصبح ثانية مع هذه** المرأة ما نسيت أن أكون : مرتبطاً بالطبيعة .

هل هؤلاء الرجال يعلمون ماذا يحدث لهم عندما يطوفون في معابد الإباحية ؟ هل يعلمون أنهم في بحث عن نفوسهم الفاسدة ؟

وللنساء، في فهم ذلك ، فائدة عظمى . ذلك أن الأمهات إذا كنّ يكوّن الوجدانية أو يشوّهنها ، فان قسوة الكثير من النساء تدمّر الجزء القليل المتبقي منها .

ويكمن عمل علم النفس – **والنساء اللواتي حققن ذواتهن** – في تنمية نفس رجال العصر الحديث وبعثها . ولكن على الرجال كذلك أن يحملوا **محمل الجد كثيراً** أشباحهم وأحلام اليقظة لديهم ، بدلاً من أن ينبذوها خجلاً . فلكل حلم من أحلام اليقظة مدلول . إنه يفتح الطريق إلى اللاشعور .

بحث عن النساء الأشياء ؟ عن الشبقية ؟ الطلب كبير ، لأن نفوس الرجال لم يسبق أن كانت بمثل ما هي عليه الآن من المرض والانفصال عن الحياة . إن هذه الشبقية تمثّل ضرباً من التأمين ضد الموت الوجداني ،

لأن الكثيرين يجدون فيها ضرباً من التوحّد ، وإن كان توحداً يثير القرف .

بحث عن النساء الأشياء ؟ لحمهن شاهد على السقوط ، وعلى ملل الرجال القاتل . ولهذا السبب ، ولا ريب ، لم يسبق للحم الانساني ، عبر الشبقية ، أن بيع ، وسُحق ، وقطّع ، وكان ، في نهاية المطاف ، كريهاً ، بمقدار ما هو عليه الآن .

سادساً — الرموز في المحكمة العرفية

هل ينبغي أن نحكم بالإدانة على الرموز وترجماتها ؟ وهل يجب أن نحاول استئصالها ؟ المشروع مستحيل . فالرموز تستمر في الإزهار ما دام للنساء والرجال لاشعور .

أيمكن أن تصبح هذه الرموز شعورية ؟ بالتأكيد . ولكن المسألة هي مسألة عمل طويل في العمق ، لا يمكن أن يتم إلا بالتحليل النفسي . فهل يعني أن كل رجل ينبغي أن يُحلّل تحليلاً نفسياً ؟ ربما كان ممكناً لو أن التحليل النفسي الالزامي يحل محل الخدمة العسكرية . ولكن عدد المحللين النفسيين أقل بكثير من عدد العقداء في الجيش . فاللعبة ستستمر إذن ، لأن معظم الموجودات الإنسانية لن يكون بمقدورهم وعي الرموز التي تقودهم بصورة مبهمة .

ويمكن للرجل ، مع ذلك ، أن تكون لديه فكرة واضحة ، على ما يبدو لي ، عن ضعف طبيعته ، وأن يفهم أن **كل** حاجة للقوة أو الأبدية تعويض عن حَصَر . وتختفي عبادة المرأة (عبادة سوداء أو بيضاء) عندما يفلح الرجل في مواجهة حصره : **والسبب في ذلك ،على**

وجهالحصر ، أن المرأةليست هي المعنيّة . وخطأها الوحيد أنها صورة جاهزة وفي متناول اليد .

كذلك لا وجود لغير إمكانيتين :

الأولى : أن نعتقد بأننا « نعزو صفة مقدسة »للمرأة» ، أو نحتقرها . ونحن نجهل أن المسألة مسألة التعبير عن رمز بسيط جداً . ولكنه لاشعوري. **إنه إنما هو الحل الخاطيء** الذي يتم تطبيقه منذ الأزل .

الثانية : أن نبارك المرأة (أو ننبذها) من خلال الحب (أو الكره) الذي نحمله لها : شريطة أن تكون المسألة مسألة عواطف صحيحة ، ناجمة عن لاشعور أزيلت أوساخه . وعندئذ ، على سبيل الحصر ، يمكن أن تكون « صفة القداسة قد أضفيت » على الثنائي فعلياً : لا لأن تكوّن الثنائي تمّ بدءاً من رمز ، بل لأنه أصبح بالتدريج ضرباً من الطقسي بفعل انصهار موجودين . **وذلك إنما هو الحل الصحيح .**



ينبغي أن لا نغضب إزاء هذا أو ذاك ، بل من المناسب أن نبحث إن كان صحيحاً .

يصبح البوليتكنيكي المحض ، على الغالب ، مقياس الإنسانية في الغرب .

هل ستكون السبيتزبرغ * المكان الأسمى لضروب الوفرة الأرضية؟

لا ينبغي أن نخشى علماء الفيزياء ولا علماء الرياضيات . إن معظمهم احتفظ باتصاله مع نفسه . ولكن ينبغي أن نخشى أنصار التكنولوجيا ، ورجال الأعمال العالميين الذين لا حياة داخلية لهم ، وأنصار الرجال السياسيين الذين ليسوا إلا أفكاراً تسير .

وليس من الضروري مطلقاً أن نقول : « سأبصق على تقنياتكم وعقلناتكم » . وسيكون ذلك عبثاً بمقدار ما هو عبث بالنسبة إلى المرء أن يرفض الفادن والكوس في بناء منزله . ولكن ينبغي أن نستبعد ، بوصفهم خطرين ، أولئك الذين ، من الذكور، تاهوا وقد انقطعوا عن جذورهم، في تجريدات غير ملائمة وغير إنسانية . والخطر الأكبر أنهم لا يشعرون بأنهم لا يشعرون .

(*) Spitzberg : أكبر جزيرة في الأرخبيل النورويجي (سفالبارد) ، يغطي الجليد أكثر من نصفها . ثروتها الأساسية هي الفحم الحجري . كانت عام ١٩٥١ موضع نزاع بين الاتحاد السوفيتي والنورويج « م »

الفصل السّابعُ

ناصلات اللون*

> بالقرب من شقرائي ...
> (أغنية محارب .)

١ – ظاهرة جماعية

أود أن أعرض في هذا المجال نموذجاً من المرأة المصنوعة ، التي جُمعت أجزاؤها جزءاً فجزءاً ، والتي تمثّل ، بالعنوان ، الغرب المتأمرك. والمقصود من ذلك ظاهرة جماعية ، ذات أهمية ومثيرة . . . تدعو بقوة إلى اليأس .

هذه المرأة امرأة **ناصلة اللون** ، بالمعنى الواسع للمصطلح . وأقصد

(*) نصل اللون : خرج ، ونصول الشعر : خروج الخضاب ، ونصول الشخصية (بالتعميم) خروج لونها ، أي الشخصية التي لا لون لها . وناصلات اللون : النساء اللواتي لا لون طبيعياً لهن ، والتقينات الحديثة هي التي تضفي عليهن اللون : Les décolorées « م » .

بذلك أنها اصيبت بنصول اللون : في شعرها ، معظم الأحيان ، وفي شخصيتها .

هذا الموجود المتمفصل وُلد مع التقنية الغازية . وقد اقتصر الانتاج ، في البدء ، على قليل من النسخ . فبعض النساء ، الشهيرات ، بدأن يجسّدن بالرمز حالات مرضية من الناحية الوجدانية ، كمرلين مونرو على سبيل المثال . وأخذت المرأة الناصلة اللون تتكاثر فيما بعد بحسب تجرد عدد كبير من الرجال من إنسانيتهم تجرداً تدريجياً .

هذه المرأة هي البغي اللاإرادية لهذه الحقبة ، نهاية القرن العشرين ، التي تشكل هذه المرأة جزءاً لا يتجزأ منها ، شأنها شأن الاحتشاء ، والجرّافات ، والطرق ذات الاتجاهين المنفصلين، والناظمات الآلية ، والنفط ، والأعمال .

إنها ، دون أن تعلم ، امرأة قصر الحريم الحديث . إنها « شبيهة بأولئك الذين يتصفون، وقد ماتت أنفسهم، بأنهم في جحيم أبدي. إنها ليست سوى ضرب من النسخة الثانية . فلا بد لي إذن من أن أتكلم على الرجل الذي كان صانعها السيكولوجي .

والمذهل أن ملايين الأشخاص ، من ذكور وإناث ، ينقادون على هذا النحو بمطول * لا يشعرون به .

٢ — البطاقة البيانية لناصلة اللون

أسماؤها المستعارة : لعبة جميلة ، حيوان أصيل ، يمامة عذبة ،

(*) مطول : جمع مطاول ، الرسن والمقود « م » .

نزوة مساء ، امرأة الحلم ، مخلوق بخاري ، تمثال يتعذر وصفه ، سر غامض ذابل ، حيوان جميل ، راحة المحارب ، الخ .

مواطنها : الغرب وأمريكا ، على وجه الخصوص .

نسخها : في الأفلام ، والروايات ، والمجلات ، وهي موجودة بين المغنيّات ، والعارضات ، والممثلات . وموجودة في الشـــارع ، والصالونات ، والأعمال . ويستهلك الشعر الشعبي منها استهلاكاً لا حدود له . ويكتشفها المرء كذلك على صورة سكرتيرة ضاربة على الآلة الكاتبة لدى رجال الأعمال ، أو على صورة « صديقة صغيرة » . وهي في الروايات عن الغرب الامريكي ، تتكىء بشهوانية على مكاتب الصالونات . وهي ، على الغالب ، جاسوسة مفضّلة لدى المشاهدين . ويراها المرء في بعض الأحيان على صورة رئيسة عصابة ، في التلفزيون ، تحيل الذكور إلى حالة ما يشبه النوم المغناطيسي .

خاصيتها : بعض الممثلات من هذه الفئة الناصلة اللون أصبحن أسطورات حية . وكثيرات منهن ، وقد كان لهن شخصياتهن وشعورهن السوداء ، « صُنعن ثانية » إلى حد النصول الكامل والغباوة الحقيقية أو الظاهرة . وهي ، في بعض الأحيان ، امرأة طنمل ، شفّافة وسريعة العطب ، وفي بعض الأحيان الأخرى ، امرأة تمثال ، نرجسية ومتخثّرة .

عيناها : زرقاوان أو خضراوان ، على وجه العموم . وهما ، في بعض الأحيان ، مائلتان بصورة اصطناعية على النمط الشرقي . والعينان الخضراوان مطلوبتان كثيراً . وهما تتخذان ، بوصفهما سراً غامضاً على نحو إلزامي ، مظهر الأخضر المزرق . وتجميل الجفون يمرّ في جميع اللوينات بحسب الطلب اليومي .

ابتسامتها : إما أنها ابتسامة طفلية ، أو أنها ابتسامة تخثّرت في منتصف شوطها .

إيماءاتها وكلامها : ليس لها لون ولا رنين . وهي ، على وجه العموم ، تتصف بفقر يتجاوز الحدود . وتجعلك هذه المرأة تفكر بالطحلب الذي لا تكاد الحياة ، في بعض الأحيان ، تدب فيه حتى يسقط ثانية ، على نحو سريع ، في العطالة والجمود التمثالي . وعفويتها ، إما عفوية طفل ، وإما عفوية أصيبت بالتوقّف . إنها **تبدو** ، على الغالب ، شديدة الشحوب . إنها تشارك في المأساة ، وهي لا تعلم . إنها إنما هي ظل وضباب ، وهي موجود لامتمايز .

فئاتها الفرعية : المرأة الناصلة اللون موجودة بالملايين في جميع المدن وعلى شواطىء البحار . هؤلاء النساء فتيّات جداً على وجه العموم ، شبحيّات ، متسكعات بفتور.وجوههن ، لا بهجة فيها ، ولا حياة ، ولا تعبير . ومظهرهن مظهر اللامبالاة المطلقة ، وانعدام الألفة على نحو كلي . والاتصال بهن متعذر . فهن يزرعن الخوف في نفوس الرجال والنساء الذين يتصفون بالعفوية ، ويذكّرن بالفتيات المصابات بانفصام الشخصية .

٣ ــ الرجال المفتونون

ثمة أربع إمارات

أ ــ في كل يوم من الأيام ، ثمة رجال يهربون مع هذا النوع من النساء . فقد يكون الهرب فعلياً : أزواج يتركون زوجاتهم ، وأولادهم ، وبيوتهم ، بل ومركزهم . ولا يفهم أحد سبب ذلك ، ولا الزوج أيضاً .

وقد يكون الهرب بالأفكار : يجتر الرجال أضغاث أحلام لا نهاية لها، ويؤلفون روايات داخلية ، ويتخيلون سيناريوهات طوباوية تدور حول العبارة التالية : « آه ! لو كانت لي هذه المرأة ، إياها » .

ب -- ليست المسألة مطلقاً مسألة حب فعلي ، ولا تعلق واقعي ، ولا ود حقيقي ، ولا حنان صحيح . فهؤلاء الرجال يتكلمون عن«**الفتنة**». إن هذا النموذج من المرأة يتسلّط عليهم . وغالبية الرجال **يحلمون بها دون أن يعلموا أنهم يحلمون بها** . وفي بعض الأحيان ، مع ذلك ، « يصنعون حياتهم ثانية » معها ، مختبئين في مكان ما ، غير معروفين كالليل .

ج -- ليس ثمة من حماقة ، ولا جبن ، ولا خسة ، أكثر من أن يكون بوسع هذا النوع من النساء أن يأمر بعض الرجال . فما أن يقعوا في الفخ حتى يكنّ قادرات على أن يطلبن كل شيء : المال والخراب والإفلاس والفضيحة . ويشهد المرء عندئذ مشهداً لا يصدّق ، مشهد رجل أعمال ، غني مثل كروزوس ، راحل مع امرأة « ناصلة اللون » ، تظهر سريعاً أنها قاضمة الماس والشخصية . ذلك أن الرجل كان قد نسي أن النصول العام للون المرأة ليس غير مظهر لا يمنعها من أن تحتفظ بصفة شخصية ، شديدة الخطر لأنها مخفيّة . ولكن الرجل يستسلم لتجريده من ماله ومن أناه . بل يُقال إنه يبحث عن ذلك . . . والتاريخ أقل مأساوية في بعض الأحيان . فيتكوّن ضرب من الثنائي يتشوّه الرجل من خلاله . وينسدل الستار ، مع ذلك ، على القطيعة غالباً ، قطيعة يخرج منها الرجل بشخصية أكثر تضرراً في النهاية منها في البداية .

د ــ ثمة نموذج معين من الرجال **يتملّق** هذا النوع من المرأة ويكرهه في الوقت نفسه . ولكن هذا النموذج من الرجال لا يتملق غير ذاته ــ بسبب من فعاليته ــ ، **ويكره ذاته** بسبب الفقر المخيف ، فقر حياته الداخلية . فلا بد من التساؤل إذن : **أليست ناصلة اللون هذه هي الصورة الخفيّة لهذا الرجل اياه ؟**

٤ ــ البطاقة البيانية لهذا النوع من الرجال

موطنه : أوروبا وأمريكا ، على وجه الخصوص .

خصائصه : لا يمنح قيمة إلا للأشياء المادية ، وللمظهر ، وللنجاح الخارجي . ولا يؤمن إلا بالنجوع ، والمردود ، والعمل الذي لا تتخلله الراحة ، والذي يهرب من نفسه فيه . لقد أقسم يمين المردودية . إنه الرجل الذي تقول عنه أمريكا : « يساوي كثيراً من الدولارات » . إنه رجل تعفّن فيه رمز البطل لكي يصبح رمز الغني القادر على كل شيء . وينبغي أن نضيف إلى هذه القائمة أولئك الذين اصيب عقلهم ومنطقهم بالتضخم ، والمماحكين البارعين ، والمتعصبين للفكر ، والتكنوقراطيين الأقحاح .

البرهان في ثلاثة أعمدة

أصبح هذا الرجل (أو يبدو من الناحية الخارجية)	**وجدانيته تتصف بأنها**	**المرأة التي يبحث عنها ينبغي أن تكون (أو تبدو)**
عصبياً	مصابة بالعطالة	لمفاوية المزاج ، مصابة بالعطالة

صرّاخاً	دون صدى	دونما تعبير ، وخرساء ، وطيّعة
ذَرِباً (*)	رخوة	رخوة ، وذابلة
له صفة المتقف بافراط	خدِرة	خدرة ، ودونما عفوية
في حالة تأهب	دون رنين	مريحة غاية الراحة ، وطيّعة
نشيطاً بافراط	لا شكل لها	شفافة
واثقاً من نفسه	ذات نزوة ، وغضبية	ذات نزوة ، واندفاعية
إنساناً آلياً	لامتمايزة	لامتمايزة
متأمركاً	عطشى للعذوبة	تتصف بصفات المرأة الشرقية (أحياناً)
متفرداً بافراط	يرقية	يرقية ، وضبابية ، ومحددة تحديداً سيئاً ، ولا شخصية

(*) رجل ذرب : سليط اللسان ، حاد .

في حركة	متخثرة	متخثرة
لامعاً	باهتة	باهتة (بمظهر جذّاب)
ذا عقل مصاب بالتضخم	ضامرة	دون شخصية ، وهرة ، وعفوية جداً
ناشفاً ، وقاسياً	ضعيفة	ضعيفة ، وضبابية ، وغير واضحة الحدود
«ذا ألوان فاقعة» ، ذكراً مزيّفاً	لا لون لها ، وضعيفة	ناصلة اللون أو شقراء ، وأنثى مزيّفة . وامرأة طفل
مصاباً بفصام الشخصية الهائج	دون اتصال مع الحياة	مصابة بفصام الشخصية الخامل

النتيجة هي أن هؤلاء الرجال يتصفون داخلياً بأنهم **عكس** ما يبدون خارجياً . والحال أن **أي رجل يساوي على وجه الدقة ما تساوي وجدانيته.** وهي ، بالمناسبة ، تساوي شيئاً هزيلاً هنا .

والمرأة « الناصلة اللون » تمثّل ، من جهة أخرى ، نفس هؤلاء الرجال نقطة نقطة . فهي إذن عكس ما يبدون خارجياً ، ونسخة دقيقة لما هم عليه واقعياً .

٥ – تصنيع المرأة الناصلة اللون

كيف أفلح بعض الرجال في أن يضعوا كثيراً من النساء « في مشغل» لكي يحوّلوهن الى نساء ناصلات اللون ؟ من اليسير أن نفهم ذلك . فهؤلاء الرجال المصنّعون . والتكنولوجيون . والأقوياء ماليا . والنشيطون بفعل عقلهم المتضخم ، يؤلّفون الجزء الديكتاتوري من السكان المتأمركين . إن الصناعة . من جهة ، قذفت إلى السوق بمنتجات الجمال ، وبالمنتجات الكيميائية غير المحدودة . ثم إن الاعلان ، من جهة أخرى ، والسينما، والمجلات ، نشرت صورة المرأة المزعومة أنها « أنثى جداً » وهي في الواقع ليست إلا امرأة يرقة . إنها صورة المرأة الطحلب .

ثمة كذلك صيادو البنات وصيادات البنات ، ذوات الأحلام . ويبحث هؤلاء الناس ، خلال العالم ، عن البنات اللواتي يتصفن بموهبة أن يكن عارضات أزياء نجمات . ومن المعلوم أن هذه الصناعة تجمع ثروات ضخمة . ويساهم الإعلان في ذلك الى حد واسع ، لأن هؤلاء الفتيات ، وقد تحوّلن إلى « ملائكة أحلام » ، يصبحن البرهان«الحي » على جودة المنتج . إنهن يؤكدن أن هذه السلعة أو تلك لها قيمة . وذلك إنما هو انعكاس من الانعكاسات المباشرة والتي تثير الاشمئزاز ، لظاهرة نصول المرأة ، وإنما هو بغاء فائق الحداثة ، حيث العرض الذي تقدّمه الفتيات يتجاوز الطلب .

وما على المرء إلا أن ينظر حواليه ، وفي الشارع ، وعلى الشاشات ، وفي كل مكان : تلك امرأة ذات شعر أسود ، استحالت فجأة إلى شقراء مزيّفة (وتشكيلة اللونيات تمضي حتى البياض) .

فلماذا ؟ هل ذلك إنما يحدث بسبب الزي (الموضة) ؟ لا . إن الكثيرات منهن أجبن آلياً بأن السبب هو أن ثمة خوفاً يركد في أعماق أنفسهن ، خوفاً من أن لا يلفتن الأنظار ، ومن أن يكنّ وحيدات ومهملات . فهن يعلمن أن امرأة وحيدة ، أو امرأة لا تلفت الأنظار ، محسوبة ، في شكل مجتمعنا ، كأنها لم تكن . وثمة أخريات يتبنين النصول بفعل الطّفالة . ذلك أن الطفالة لا عمر لها ، شأنها شأن الحاجة إلى الاعجاب بأي ثمن .

وهكذا فان طلب الذكور يتحقّق بصورة طيّعة لاشعورياً .

٦ — وما شأن النساء ذوات الشعر الأسود ؟

لماذا كانت غالبية النساء « النشيطات » (موجّهات المناظرات ، والقائدات ، والوزيرات ، الخ) ذوات شعر أسود ؟ فاذا ما اقتصرنا في تتبعنا على المناظرات العامة أو المتلفزة ، وجدنا أن ٦٨٦ امرأة من ٧٠٠ كن ذوات شعر أسود ، أي ٩٨ بالمئة .

فما السبب ؟ لا أدري . ويبدو أنهن أقوى ، وأقل خوفاً وعدوانية من الشقراوات (وأنا أتكلم هنا على الشقراوات **بصورة طبيعية** ، لا عن الشقزلوات « الناصلات اللون » المصنوعات صنعاً صرفاً) . ويبدو أن نصيب النساء ذوات الشعور السوداء من الهرمونات المذكرة أكثر من نصيب غيرهن من النساء الأخريات ، وهن ، من جراء ذلك ، أقل نزوعاً نحو ردود فعل تغلب عليها الصفة الأنثوية . ومن المؤكد أنهن يظهرن أكثر لطفاً وعطفاً بصورة أصيلة ، وأقل مماحكة وهجوماً .

وما أصل النساء ذوات الشعور السوداء ؟ إنهن ، على وجه الاحتمال ،

سليلات هذه العائلات الجنوبية التي كان يسود فيها نظام الأمومة . فهؤلاء النساء ، إياهن ، ملكات وسيدات في منازلهن ، كن يستقبلن الرجل لدى عودته ، بعد أن يكون قد « صاد » في الخارج غذاء الأسرة .

ولا تبدو النساء ذوات الشعور السوداء قاسيات كما هن عليه كثير من الشقراوات . ففي أعينهن يلمع بريق ماكر . ويقال إنهن ، وهن في لهوهن ، يفكرن بالرجال . « أحبك جداً بالرغم من ضروب طيشك وهذرك ، وبالرغم من أخطائك » . ويؤكد بعضهم أنهن جاهزات لأن يضفن : « أيها الصبيان القذرون » .

وعندما نلاحظ الرجل خلال المناقشات مع النساء ذوات الشعور السوداء ، نراه ، على الأغلب ، يتصرف تصرف الصبي الصغير وقد وقع تحت تأثير نظرة أم صارمة وعطوف في وقت واحد .

ولكن المناخ يتغير كلياً مع الشقراوات . فالصوت أكثر حدة. إنهن يظهرن قليلات الثقة بأنفسهن ، ويهاجمن ، ويراوغن ، ويعضضن مع الابتسامة. فهل تكوينهن أقل ضعفاً ، ويحسن سريعاً ، وبالتالي ، أنهن في خطر ؟ وبما أنهن أقل اتصافاً بصفات الأمومة ، فهل هن أشد إغواء بوصفهن يرغبن في أن يلفتن أنظار الرجل إليهن ؟

يقال دائماً ، في المناقشات ، إن الرجال يحسون بهن أنهن أشد خطراً . فيشنون هجوماً معاكساً بسرعة ، هذا إذا لم يحاولوا « تحييدهن » باللطف المتملق والمريب إلى حد كبير .

وأعتقد أن من المفيد ذكر بعض الارتباطات بين الأفكار ، ارتباطات

أنجزها رجال دعوناهم إلى الإجابة عن الكلمات المقترحة بأكبر ما يمكن من العفوية :

المرأة ذات الشعر الأسود والمرأة ذات الشعر الأشــقر

أجاب رجل في الثامنة والعشرين من عمره :

المرأة ذات الشعر الأسود : وضوح – عمل – نجوع – قسوة – صرامة – منافسة .

المرأة ذات الشعر الأشقر : عذوبة – نيلفور * – حلم – هدوء – اسم ممثلة .

أجاب رجل في الخامسة والأربعين :

المرأة ذات الشعر الأسود: أم نشيطة وصارمة – قسوة – قوة – حزم – قادرة .

المرأةذات الشعر الأشقر : سهولة الحياة – منفعلة – راحة – خدَر – حيوانة - رخوة .

أجاب رجل في الثامنة والثلاثين :

المرأة ذات الشعر الأسود : لها صفة الذكر – منافسة – محتقرة – مشاجرة – أعمال .

المرأة ذات الشعر الأشقر : ماء هادىء – راحة – دون حياة – حلم – روح .

(*) نيلفور : نبات مائي ذو أوراق عريضة وأزهار ذات بتلة بيضاء ، حمراء أو صفراء « م » .

أجاب رجل في الخامسة والأربعين :

المرأة ذات الشعر الأسود : هجوم — وقورة — قائدة — جمر — حامية — شديدة .

المرأة ذات الشعر الأشقر : خامدة — فاتنة — لحم دون ذهن — حلية .

أجاب رجل في الثامنة والعشرين :

المرأةذات الشعر الأسود : قوة - نضال — طاقة — حازمة — روحية .

المرأة ذات الشعرالأشقر : فتنة — طيّعة — عذبة — مريحة — سريعة العطب — حماية .

أجاب رجل في التاسعة والأربعين :

المرأة ذات الشعرالأسود : حازمة — ثورة — من النار — صخرة — قائدة — زميلة .

المرأة ذات الشعر الأشقر : إغواء — هدوء — تجدّد — راحة — لعبة — استرخاء — أحلام يقظة — هادئة — خامدة — سهلة .

ماذا ينجم عن هذه الارتباطات ؟

المرأة ذات الشعرالأسود ترمز ؛ بالنسبة لهؤلاء الرجال ، إلى العمل ، والقسوة والنار . وفي حسبانهم أنها تتصف بصفات الذكر أكثر من صفات الأنثى .

والمرأة **ذات الشعر الأشقر** تذكّر ، بالنسبة إلى هؤلاء الرجال ، بالعطالة ، والعذوبة ، والراحة ، والحلم ، والماء . وقد أجاب أحد

الرجال : روح ، الأمر الذي يعدّ شديد الأهمية . ويربط رجل آخر بين المرأة الشقراء وإحدى الممثلات. والحال أن هذه المرأة الممثلة كانت ذات أشعر أسود ، فأصبحت ، كغيرها من ملايين النساء في الوقت نفسه ، «ناصلة اللون» ، لا لكي تستجيب إلى الزي (الموضة) ، كما يمكن الاعتقاد ، وإنما لكي تمثّل ، على نحو لاشعوري ، « روح » البلدان الحديثة . فروح شعب من الشعوب تتمثل بامرأة دائماً . **وإذا كانت روح البلدان التكنولوجية « ناصلة اللون » ودون طعم ، فان بامكان المرء أن يتوقّع أن تكون النساء اللواتي يرمزن إلى هذه الروح على الشاكلة نفسها.**

وهذا إنما هو ما حدث . إننا في قلب ظاهرة النساء « الناصلات اللون » ، اللواتي يشبهن ، على الغالب ، مياهاً راكدة .

٧ — شعار حديث

التوقّع حتمي ورياضي :

آ — اذا كانت روح شعب من الشعوب مرموزاً إليها دائماً بامرأة ،

ب — وإذا كانت المرأة الناصلة اللون هي علامة الشعوب الناصلة اللون ،

ج — فمن المحتم أن تكون رمز الدول التكنولوجية ، يوماً من الأيام ، امرأة ناصلة اللون .

هل نمضي إلى حد ننحت ثانية تمثال الحرية وتمثال ماريان * ؟ هل سننزع عنهما وجهيهما الحيويين ، وجه مينرفا ، لكي نسوّي ثانية ، مكانهما ، الوجه غير المعبّر لامرأة ناصلة اللون ؟

(*) Marianne : لقب جمهورية فرنسا « م » .

في الأزمنة القديمة ، كانت تزدهر بعض الأسماء التي أصابها الزوال في أيامنا هذه ، ولكنها تحدّد وحدها المرأة العميقة الغور والفاعلة : وفاء ، محبة ، صبر ، حكمة ، اعتدال .

هذه الأسماء ذهبت مع الزمن . وصفاتها ينبغي استرجاعها .

هذه الأسماء تثير السخرية بالنساء اللواتي لسن نساء ، النساء اللواتي تم تجنيدهن بالقوة في عوالم الذكور لكي يتركّز فيها وجودهن الأساسي ، واللواتي فقدن كل شيء حتى تعبير الوجه ، واللواتي ما أن يبلغن الثامنة عشرة من عمرهن حتى يتسكعن كالأشباح اللامبالية ، واللواتي أصبحت القوة الداخلية لديهن ، والصبر الأريب ، والصراخ في المناسبات ، أنيميا داخلية أو صرير عدواني .

يُقال : الرجل الأسمى ، ولا يُقال المرأة الأسمى أبداً . والسبب في ذلك أن المرأة وجود منذ أن تولد . ولكن الرجل يحاول أن يبني نفسه قطعة قطعة .

تعلم المرأة أن الحياة الفعلية ليست الحياة الآنية ، وحياة الرقم والهياج ، ولكنها حياة الديمومة والصمت والخلق .



الفصل الثامن

الأنوثة والذكورة

(١ = ٢)

> **الكل في الكل ، قال الفيلسوف .**
> **وردد الكاتب الهزلي ، والعكس بالعكس .**

أرغب في أن أبيّن لكم أن النساء والرجال غريبون ، بعضهم عن بعض ، أقل مما يعتقدون . وسنرى كذلك أن غالبيتهم يحجلون ، غير مستخدمين سوى رقعة ضيقة من الأرض ، جاهلين ميادينهم الواسعة.

ما المكان الذي تحتله المرأة « التقليدية » في هذا الفصل ؟ مكان صغير جداً . والرجل العادي ؟ ليس المكان الذي يحتله أكبر . فما فائدة هذه السطور ؟ لا شيء ، بالنسبة إلى النساء والرجال الذين لا يرون فيها غير نظرية مغرية على وجه التقريب .

يقال إن حضارتنا بحاجة إلى إعادة نظر ملحة . هذا أمر مؤكد .

ولكن بماذا يبدأ الإنسان ، إن لم يبدأ بذاته ؟ ما الذي ينقصنا ، وهو مع ذلك موجود فينا ، ولكننا قطعنا الصلة به ؟ يناقش الناس بحزم لمعرفة «من ينبغي أن يبدأ » . فيختلس النساء نظرة نحو الرجال ، ويختلس الرجال نظرة نحو النساء .

تريد النساء أن يصبحن موجودات إنسانية لهن جميع الحقوق : ذلكم هو شعارهن . فاذا استثنينا حقوقهن الخارجية ، ماذا تعني هذه الكلمات في أذهانهن ؟ هل تردن القول ، إن الرجال نجحوا في حقوقهم الخارجية... فيما أنهم يعيشون في ثمانين بالمئة من حياتهم وكأنهم مشوّهون سيكولوجيون ؟

ضروب الالتباس

ومع ذلك ، يظهر كل شيء في البداية على أنه بسيط بساطة الطفل:

- الصبي الصغير ينبغي أن يصبح رجلاً .

- والبنت الصغيرة ينبغي أن تصبح امرأة .

وتعكف الأسرة ، منفعلة ، على المستقبل وتتوقعه . وسيكون الطفل ، ذكراً كان أم أنثى ، مشروطاً بحسب صورتي « المرأة » و « الرجل » الضبابيتين ، وغير الواضحتين ، وذواتي القوالب الجامدة . ولكن أي شخص عاجز عن توضيح ما يعني أن يكون الإنسان رجلاً ، أو أن يكون امرأة .

لاحظوا الوجوه . قلّبوا صفحات المجلات ، وانزعوا من صورها العلامات الخارجية الخاصة بالمرأة أو بالرجل (الشعر والمساحيق، الخ).

فكم مرة تستطيعون أن تحدّدوا تحديداً يقينياً أنكم إزاء وجه « امرأة » أم وجه « رجل » ؟

الحياة اليومية حولنا تضج بالرجال « الذين يشبهون الأنثى » ، وبالنساء « اللواتي يشبهن الرجال » . فمن يقوم بالدور الفاعل في هذه الأسرة أو تلك ؟ المرأة ؟ الرجل ؟ ومن يُقاد ؟ من هو « القوي » ؟ ومن هو الضعيف ؟ وإذا أصغينا إلى الأصوات دون أن نرى الوجوه ، كم مرة لا يقول فيها المرء أيها السيد لامرأة ، وسيدتي لرجل ؟

أولاً — نقطة البـــدء

١ — المسألة الرئيسة

لنلاحظ هذه المرأة القوية الشعبية ، الفاعلة والنشيطة ، المحبة والمعطاءة ، المؤنثة والمذكّرة في وقت واحد وعلى نحو منسجم . ولنشر ، دون توقّف ، إلى أن الحواجز بين الرجال والنساء تتصلّب كلما «ارتفع» المستوى الاجتماعي ، انطلاقاً ولا ريب من تنظيم اجتماعي ذي قوالب جامدة ، ومن سيكولوجية داخلية مشوّهة .

في ظرف معيّن . تتصرف تلك المرأة الأخرى بطريقة يُقال إنها طريقة « الذكر » . فماذا يعني هذا القول ؟ وفي ظرف آخر ، تسلك بطريقة « نسوية جداً » . فماذا يعني هذا القول ؟ هل هي طريقة نسوية في حين كان ينبغي أن تكون ذكرية ، أو العكس ؟ وهل تستخدم المرأة أنوثتها وهي تدري ؟ وهل هي سيدة أنوثتها وذكورتها ؟ وهل يمكنها أن تنتقل من الواحدة إلى الأخرى دونما صعوبة ، ووفاقاً لمقتضى الأحداث ؟

ها هي ذي امرأة طفل ، واقعة في ضرب من العطالة الرطبة ، تصنع الفتنة بفعل شعر طويل وأهداب مزيّفة . وينتشي الرجال : « كم أنت أنثوية ! » والحال أنها ليست أنثوية ولا ذكرية . وما شأن هذه المرأة الأخرى المتنصبة بعدوانية ، وتنطلق بقذائف متقطّعة ؟ يقال عنها إنها امرأة« مسترجلة » أو ذكرية . والواقع أنها ليست أنثوية ولا ذكرية . فماذا إذن ؟

ويجري تصنيف الموجودات كما يجري صف الأرقام في المحاسبة : على عمودين . الرجال من جهة ، والنساء من جهة أخرى . وتجمع الفروق بين الجنسين .

وليس ثمة ما يقال لو كانت هذه الفروق حاسمة . ولا ريب في أن الاتصال بين الجنسين سيكون عندئذ متعذراً . ولكن الأبيض سيكون ، على الأقل ، ساطعاً ، والأسود دامساً . فنستسلم لذلك ، وهذا هو كل شيء . ونقرر أن أي امرأة لا تفهم رجلاً على الإطلاق ، والعكس بالعكس . الأمر الذي يتصف مع ذلك بأنه السائد في تسع حالات من عشر ، للأسباب التي سنراها . والحقيقة ، بالإضافة إلى ذلك ، أن :

الهرمونات الأنثوية تهيء سلفاً لـ :	**الهرمونات الذكرية تهيء سلفاً لـ :**
الثبات	التقلقل
السلبية (١)	الفاعلية
قابلية الاستقبال	المحاكمة ، المنطق
الاستقرار	الترحال
الحمل	التعبير الخارجي عن الذات
الماهية	المظهر

(١) سنشرح هذا المصطلح الشديد « الخطر » فيما بعد .

ولن نمضي بعيداً إذا كانت النساء غير قادرات على أن يشغلن غير العمود الأيمن ، والرجال غير العمود الأيسر . وإذا كان الأمر كذلك، **فالرجال والنساء ، الأضداد بصورة كلية، متناقضون نهائياً**، ومتخثرون، كل في النوع الذي ينتمي إليه ، وقائلون للتفاهم المتبادل : إلى الوداع بصورة نهائية .

والحال أن الحياة اليومية تبيّن لنا أن لكل من الرجال والنساء موقعاً في كل من العمودين . فالذكر المحض معدوم كالأنثى الصرف .

والذكر المحض سيكون ضرباً من الغول المتفجر ، على نحو مستمر ، بضروب العدوانية والنزو والغضب ، وموجوداً في منتهى الرعونة ، لا يتصرف إلا بالهجوم واللدغ .

والأنثى الصرف ستكون يرقة هائلة ولا متمايزة ، وآلة تكاثر ، كمملكة نمل .

فلكي يصبح الذكر رجلاً والأنثى امرأة ، لا بد اذن من أن يتصف كل منهما « بشيء من الآخر » . والحال أننا نعلم منذ زمن بعيد أن كلاً منهما يحمل في ذاته بعض خصائص (وبعض هرمونات) « الجنس الآخر ». وهنا إنما تبدأ الصعوبة ، ذلك أن التحديدات تتعثر بتخطيطيات جاهزة.

— ها هي ذي امرأة فاترة . يُقال إنها « أنثوية جداً » . إنها ليست كذلك إطلاقاً . فهي فاترة ، والأنوثة شيء مختلف كل الاختلاف.

— وها هوذا رجل يتصرف تصرف « الصبي اللطيف » ، ليّن العريكة ، وفاتن ، وذو حركات متموّجة . يُقال عنه إنه أنثوي . إنه ليس كذلك على الإطلاق . فهو « صبي لطيف » ، وليّن العريكة ، وفاتن . ولكن الأنوثة شيء يختلف كل الاختلاف .

ــ وها هي ذي امرأة عدوانية بافراط ، قادرة على المنافسة . ويُقال إنها تسلك سلوك الذكر . إنها ليست كذلك أبداً . بل هي عدوانية بافراط ، قادرة على المنافسة . والذكورة شيء يختلف كل الاختلاف .

ــ وها هي ذي امرأة ذات نزوة . وبنت صغيرة . يُقال إنها أنثوية بطريقة ساحرة . فهي ليست كذلك مطلقاً . إنها ذات نزوة وبنت صغيرة . والأنوثة في جهة أخرى .

ماذا يريدون بقولهم عندما يؤكدون أن امرأة معينة تتصرف تصرف الأنثى أو تصرف الذكر ؟

و « الأنوثة » ، بالنسبة إلى الغالبية من الناس ، ضرب من الضعف ، والامحاء ، والعاطفية المخنوقة ، والطاعة الضاربة إلى الوداعة . إنها شيء يتصف باللطف ، ولكن من الأجدر أن لا يكون لك منه شيء ، تحت طائلة إصابة الشخصية بالأنيميا العامة . فليس من المدهش إذن أن يرفض الرجال رفضاً صريحاً أن يكون فيهم شيء من الأنوثة ، وأن يحسب النساء أن أنوثتهن تحكم عليهن أن يعشن في المؤخرة ، حكماً نهائياً .

فاذا كان الناس يخلطون بين الأنوثة والضعف ، فذلك لأن غالبية الأنوثات تالفة بشناعة ، وضامرة . **وإذا كان الناس يخلطون بين الذكورة والعدوانية** ، فذلك لأن غالبية ضروب الذكورة مشوّهة .

فلا بد ، لهذا السبب ، من أن نختار إضاءة جديدة ، وأن نهمل بعض التصورات المتحجرة التي ما فتئت تزيد كثافة الحاجز الذي يفصل بين الرجال والنساء ، ويفصل بين المرأة ونفسها .

٢ — الحياة الداخلية

قليل من الناس يعرفون أن الحياة الداخلية (الوجدانية ، بكلمة أخرى) تمثل استطاعة هائلة . وغالبيتهم يشبهونها بـ « الحساسية المرتعشة » ، حساسية شاعر السقيفة . فهم يتصورون الحياة الداخلية عندئذ وكأنها زهرة مصابة بآفة ، يتركونها للبنيّات ، والفاشلين في العمل ، ولفناني يوم الأحد .

فما الحياة الداخلية ؟ لقد بحث بعضهم عنها حتى في الشرق حيث أن عدداً من الناس ، على ما يبدو ، يعرفون ماذا تعني . ولكن كثيراً من الذين عادوا من « هناك » يتكلمون على الحياة الداخلية بكثير من الاشتباه في مواقف المطلعين على الأسرار . إنهم يشعرونك بأن الحياة الداخلية تقتضي أن يبقى المرء ساكناً ، وعود من البخور ينفث دخانه تحت أنفه .

والواقع أن الحياة الداخلية ذات الحالة الجيدة تكوّن احتياطي الطاقة، الذي لولاه لما كان ممكناً أي تحقيق للذات .

مستبعدة بالنسبة إلي فكرة أن « أمارس الاستشراق » . وحسب المرء مع ذلك أن يلاحظ أطفالاً أو راشدين يابانيين يمارسون التأمل الساكن الزيني * قبل الانتقال إلى أعمالهم ، وحياتهم اليومية ، أو إلى فنونهم الحربية ، لكي يفهم أن الحياة الداخلية ليست مزاحاً .

والحال أنه قد يحدث أن تكون المرأة موهوبة ، بصورة حقيقية ،

(*) الزيني : نسبة إلى زن ، احدى الطوائف البوذية اليابانية ، التي توصي بالتأمل ، والتي ساهمت في تطور الفنون ، إذ بشرت بالمفعولات الطيبة التي يتركها الجمال على التأمل «م».

لهذه الاستطاعة الكامنة التي تمثلها الحياة الداخلية . ومن يقول بقوة داخلية ، يقول بامكانية إظهارها في فاعليات خلاّقة .
ماذا فعلت المرأة بهذه الثروة ؟

٣ ـ الجنسية الثنائية

المساواة الماثلة في عنوان هذا الفصل تغطّي الواقع الأكثر أساسية من الموجود الانساني . والتفاهم (أو الأخـوّة) بين الجنسين منوط بها . وهذه الحقيقة ، شأنها شأن جميع الحقائق الأولية ، غاصت ، وطفت على السطح ، واختفت ، ثم ظهرت ثانية ، خلال القرون . وتعيشها بعض الحضارات وكأنها بدهية : وهو ما هو قائم من جهة أخرى . ولكن أجمل ما في الأمر أن كل إنسان يطبقها على وجه التقريب ، دون أن يعلم ذلك ، ويطبقها تطبيقاً سيئاً على الغالب .

وبرزت هذه الحقيقة من الظل ، في ثقافتنا ، منذ زمن قليل ، وعلى صورة علمية هذه المرة . وقد أوضحها فرويد ويونغ إيضاحاً جيداً . فالأول يؤكد أن الموجود الإنساني ثنائي الجنسية . ويقول الثاني إن في الرجل جزءاً من الأنوثة ، وفي المرأة جزءاً من الذكورة . ويتكلم عليها الطب منافساً . إنه لموضوع أساسي من موضوعات علم النفس التحليلي . وبالاختصار ، إن ذلك حقيقة لا غنى عنها كالخبز : كل رجل ذكر وأنثى معاً ، وكل امرأة أنثى وذكر معاً .

ولنلاحظ أن هذه التصريحات لم تغيّر شيئاً . فالحقيقة المعلنة ، والثابتة بالبرهان ، ليست لهذا السبب حقيقة معاشة . ويكفي مع ذلك أن تُعاش لكي تصبح ما نحن عليه . ولهذا السبب لا بد من أن نهجر دروبنا المألوفة .

ثانياً – وجهة نظر جديدة

١ – لنعاود التفكير في أنفسنا بمصطلحات الطاقة

لنقل أول الأمر ، مقاربة للصعوبة ، إن الأنوثة والذكورة **سلوكان واتجاهان** ، وأسلوبان في التصرف إزاء الظروف . ويقال ، من جهة أخرى ، على نحو مألوف : اتجاه مذكّر وأسلوب مذكر ، واتجاه نسوي وسلوك نسوي .

ولكننا لكي نفهم (ونطبّق) ما تعنيه هذه العبارات ، **لا بد لنا من أن نفكر في أنفسنا ثانية بمصطلحات الطاقة** .

لدى كل موجود إنساني ، في كل لحظة ، كمية معينة من **الطاقة**. وينبغي عليه أن يسوسها ويستخدمها كما يفعل ذلك مع رأس مال مالي. ورأس المال هذا سيخلق التوازن أو عدم التوازن ، والعطالة أو الفاعلية ، والصحة أو المرض ، وتحقيق الشخصية أو تشوّهها ، وفقاً لكونه استخدم استخداماً جيداً أو رديئاً ، وأُدير إدارة حسنة أو سيئة ، وجُمع أو شُتت .

والموجود الإنساني عاجز ، في أي لحظة ، عن أن يصرف من الطاقة أكثر مما لديه. ولا يمكن لأي شخص أن يصرف ألف فرنك وفرنكاً إذا لم يكن لديه غير ألف . ولن يستولي أي شخص على ألف وواحد من الغرامات إذا وزن له صاحب بقالة الطاقة ألفاً .

وعندما يفلح موجود من الموجودات في أن « يتجاوز ذاته » (كما يقولون !) ، فانه لا يفتأ يجمع الطاقات المبدّدة فيه ، وغير المنتظرة على الغالب . **فثمة ضرب من الدافعية تقوم لديه مقام الصاعق** . إنه يتصرف تصرف المالي الذي يجمع رساميله المبعثرة لكي يواجه وضعاً غير متوقّع .

والتعبيرات التالية معروفة : **طاقة اليأس** ، نفخ فيه الخوف طاقة هائلة ، وجّه جميع طاقاته صوب الهدف ، الخ .

ولنشر مع ذلك إلى أن « تجاوز الذات » ، الشهير هذا ، معزوّ إلى الرجل بصورة عامة ، **وقلّما ينسب إلى المرأة** . والحال أن **على المرأة** ، **أكثر بكثير مما هو على الرجل غالباً** ، أن تقرّر التعبئة العامة لجميع طاقاتها ، نظراً للحواجز المنصوبة أمامها ، التي تزيد من أعمالها المألوفة . وكون الوسام منسوباً إلى الذكر وحده أمر مفهوم إذا أخذنا بالحسبان « عبادة القضيب » (١) المستمرة في سيادتها ، بالتواطؤ مع العديد مع النساء .

إنه لغير منطقي ، في نسق آخر من الأفكار ، أن يكون لدى المرء طاقة دون أن يستخدمها ، بقدر ما هو غير منطقي أن يترك رأسماله غير منتج . إنه ، مع ذلك ، إنما هو ما تفعله غالبية النساء ، لأن إبداعيتهن موقوفة .

والتربية ، للأسف ، **ليست، إذا صح القول، قائمة أبداً على كيفية استخدام طاقتنا ، وإنما هي قائمة على السفساف من الأخلاق ، والأخلاق القبلية**. فبدلاً من النظر إلى « الآلة الانسانية » **أول الأمر**، ثم إلى قواعد سلوكها، يحدث العكس . ويُقتضى أن تعمل الآلة على نحو أو على آخر حتى قبل معرفة ما إذا كان ذلك بمقدورها ، أو ما إذا كانت مصنوعة لصورة أخرى من استخدام الطاقة . ثم إن العجز ، عندما تبقى الطاقة «موقوفة » لدى الشخصية ، **يُعاقب عليه أخلاقياً** . إن تربياتنا ترتكز على أوامر يمكن أن ترتد إلى : « يجب عليك ! » **ولكن الطاقة تجيب: « إذا كان باستطاعتي ! »**

---

(١) انظر فصل « عضو الخديعة » .

إننا نطلق الصفة الأخلاقية على الطاقة ، ونعجب بها أو نحتقرها، الأمر الذي يتصف بأنه غير معقول ، لا معقولية أن نعجب باليورانيوم والفحم أو نحتقرهما .

ومفروض أن يتعرّض الموجود الإنساني إلى اللوم إذا كَبَتَ الطاقة. وإذا سأل لأي شيء يستحق اللوم ، فلن تكون الإجابة على الإطلاق أنه ساس طاقته سياسة سيئة . ولا يتم البحث عن سبب هذا القصور في الطاقة إلا بعد إطلاق الصفة الأخلاقية ، بدءاً من قوانين ذات قوالب جامدة ، وبدءاً من مجردات طنّانة .

٢ – الطاقة ليس لها جنس

الطاقة ، من الناحية التقليدية ، من ماهية الذكر . والحال أن ذلك خطأ بصورة مطلقة . ومع هذا ، فان كل شيء يجعلنا مستمرين في هذا الاعتقاد . والصدارة في ذلك للسينما ، بأبطالها الذين لا يُقهرون . وحذت حذوها الرياضة . وعندما ينحت الفنانون تماثيل النساء – انظر الأضرحة الأوابد ، والنساء اللواتي يقدن الرجال إلى النصر ، والنساء اللواتي يمثّلن العمل والحصاد والخطط الخمسية والعشرية – فانهم يعتقدون في أنفسهم أنهم ملزمون بأن يضفوا عليهن قامة ضخمة كقامة الجندي الذي يعمل في التحصينات .

إننا ، على هذا النحو ، لا نميز الشكل من المضمون ، والعضلة من الحياة الداخلية ، **كما لو أننا نحسب أن كأساً من الماء يزن أكثر من قدح من الزئبق ، بسبب كونه أكبر منه .**

وإذا اعتقدنا ، من جهة أخرى ، أن الطاقة ذكرية ، استنتجنا من ذلك أن الأنوثة دون استطاعة ، أو دون استطاعة على وجه التقريب .

كل هذا غير معقول . **فالطاقة هي ما هي عليه: ليس لها جنس .**
وها هوذا مثال واحد : من المؤكد أن لدى ربة أسرة ، فاعلة ، من الطاقة أكثر مما لدى مستخدم عاجز عن أن يقوم بأي شيء آخر غير العمل المكتبي . والوسيلة الوحيدة — الطوباوية — للحصول على ضرب من المقارنة هي تقييم كميات الطاقة التي يحتوي عليها نساء العالم بأسره ورجاله.

والنتيجة ليس لها مع ذلك أي أهمية. **ذلك أن الطاقة التي لدينا شيء ، وطريقتنا في استخدامها شيء آخر** .. وهذا الاستخدام ، سيئاً كان أم جيداً ، غير منوط بتربيتنا فحسب ، بل هو منوط بالاسلوب الذي نتصرف بحسبه إزاء تربيتنا .

ويمكن القول ، **بصورة عامة** ، إن ثمة اتجاهين إزاء الطاقة :

الاتجاه الأول : **أن نحتجز الطاقة فينا** .

الاتجاه الثاني : **أن نحرّر الطاقة خارجنا** .

كيف تستخدم المرأة طاقتها في كل ظرف من ظروف حياتها ؟ هل تستخدمها بطريقة مناسبة ؟ أفي غير محلها ؟ بطريقة غير معقولة ؟ هل تغالي المرأة في الصرف بالنظر إلى ما لديها من رأس مال من الطاقة ؟ وهل تستخدم منها كمية زهيدة في حين أن الاحتياطي ممتاز ؟

لماذا ملايين النساء ، اللواتي يملكن طاقة تتيح لهن إبداعية فكرية عظيمة ، يجمدنها في الداخل ، دون أن ينتقلن أبداً إلى تحقيق هذه الأفكار؟ ما السد بين الطاقة الداخلية وبين التعبير عنها في الخارج ؟ وما منشأ هذا السد ؟

من الجوهري ، أول الأمر ، أن نفهم جيداً أن الأنوثة والذكورة

مصطلحان **ليس لهما علاقة** ، على الاطلاق ، بكون الموجود الانساني رجلاً أو امرأة . والمسألة ، كما سأبيّن لكم ، هي مسألة اتجاهين إزاء طاقتنا . ولكن الناس أضفوا الصفة الجنسية على الطاقة . فيقال إن المرأة تتصرف مثل هذا التصرف ، والرجل يتصرف مثل ذاك . والمرأة تفكر على هذا النحو ، والرجل يفكر على نحو آخر .

لماذا يتصرف ويفكر رجل وامرأة ، لديهما كمية واحدة من الطاقة ، بصورة مختلفة ؟ إن فرقاً قدره ١/٤٦ بالمئة ، على مستوى الصبغيات ، لا يمكن أن يشرح مثل هذا التفاوت . ولحل هذه الصعوبة ، لا بد من محاولة تحديد ماهية الأنوثة وماهية الذكورة ، **أيا كان الجنس** .

فنحن دائماً إزاء حركة دائرية من ثلاث مراحل ، سواء كان الأمر ذا علاقة بالطبيعة ، بآلة من الآلات ، أو بموجود من الموجودات الإنسانية :

كمية الطاقة   صرف الطاقة   شحن جديد للطاقة

ولسوء الحظ أن الناس أضفوا الصفة الجنسية على الطاقة . فنحن ننفذ على هذا النحو إلى تصور للمرأة خاطىء أعظم الخطأ ، تصور سبّب «إخفاقات» عديدة في الشخصية .

٣ – «السلبية» والفاعلية

يقال : **الأنوثة = سلبية   والذكورة = فاعلية**

ولكن الناس **لا يميّزون بين السلبية والعطالة** في أذهانهم . وذلك إنما هو الخطأ الأساسي المرتكب منذ زمن طويل . وعندما يُقال إن المرأة مهيأة سلفاً للسلبية بفعل هرموناتها الأنثوية ، فثمة ترجمة فورية تتم في

أدمغتهم الانسانية : المرأة مهيأة سلفاً للعطالة . الأمر الذي يتصف بأنه خاطىء كل الخطأ .

ويندهش غالبية الناس إذا أكدنا لهم أن اللبوة الموجودة هناك ، الساكنة ، وذات العضلات المتوترة جميعها ، والمتجمعة حول نفسها في انتظار فريستها ، **هي في حالةمنالسلبية** . والحال أنها ، في هذه اللحظة المحدّدة ، سلبية .

والسلبية الحقيقية حالة من الراحة والانتظار ، ومن التوتر التدريجي المتناغم ، حيث يجمع الموجود طاقاته بغية القيام بحركة من الحركات ، بغية وضع هذه الطاقة موضع الفاعلية .

وتقتضي السلبية القوية ضرباً من الحالة الداخلية المتناغمة . فاذا كانت السلبية صحيحة ، أتاحت حالة « التنصت » ، وأتاحت التقاط الاحساسات والمعلومات وتخزينها . فالسلبية مصدر رئيس لكل تجميع في الطاقة .

ويمكن إذن أن نستنتج أن المرأة ذات استعداد مسبق لاستطاعة داخلية،وكذلك الأنوثة ، إذا كانت ذات استعداد مسبق للسلبية . ولكن الطريقة التي تُستخدم بها هذه الاستطاعة الداخلية حكاية مختلفة كل الاختلاف ، كما سنرى فيما بعد .

وعلى هذا النحو إذن :

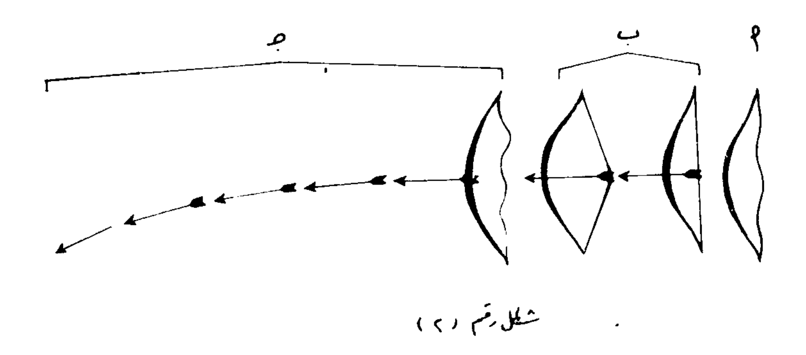
السلبية = شحن الطاقة ، أو الطاقة الكامنة

الفاعلية = تفريغ الطاقة ، أو الطاقة الحركية

ومن المؤكد أن لدى كل موجود إنساني هذا الايقاع في داخله.

لماذا يفلت الشيطان من القوانين التي تحكم الكون والطبيعة والفصول ؟ وكون هذا الايقاع قد يختل عقب الأمراض ، واضطرابات الشخصية ، لا يغيّر من الأمر شيئاً .

وقد يكون مثل القوس والسهم مثلاً رائعاً .



شكل رقم (٢)

ففي الحالة الأولى ، يكون القوس في حالة استرخاء بصورة كلية، في حالة من انتظار غائيته ، وغائيته أن يُوتر لكي يقدر على قذف السهم.

وفي الحالة الثانية، يُوتّر القوس فجأة على نحو تدريجي . إنه يجمّع الطاقة .

وفي الحالة الثالثة ، تتحرر الطاقة المخزونة وتظهر إلى الخارج . فالسهم مقذوف لكي يفقد الطاقة المجموعة تدريجياً فيما بعد .

كذلك فان كل ما هو أنثوي ، في الطبيعة ، هو في حالة من الانتظار ، والكمون ، والسكون والتجميع .

٤ — القطبان

ويمكن أن نرسم على هذا النحو تخطيطية لما سبق :

القطب المؤنث (الأنوثة) يشتمل فينا على كل ما هو	القطب المذكر (الذكورة) يشتمل فينا على كل ما هو
– في حال من الاسترخاء ، ومن الراحة ؛	– في حالة الحركة ؛
– ساكن ، وفي حال من الانتظار ؛	
– سلبي ؛	– فاعل ؛ أو بالحري ، في حال من بذل الفاعلية ؛
– « بالقوة » ؛ *	– « بالفعل » ؛
– يجمّع الطاقة الكامنة ؛	– يفرّغ من الطاقة المجموعة ؛
– يعدّ لعمل خارجي معيّن .	– يتصرف خارجياً على نحومعين .

إن رجحان أحد هذين الاتجاهين هو الذي يجعل منا ذوي صفات نسوية أو ذكرية إزاء الظروف .

ولنتخيل ساعة من ساعات حياتنا . هذه الساعة يمكن أن تتجزأ إلى عدد كبير من الظروف التي نتصرف إزاءها بصورة شعورية أو لاشعورية.فكل جزء من الثانية يقابله فينا رد فعل – جسمي أو نفسي – من الانتظار أو من الحركة . إذن ، رد فعل مؤنث أو مذكر .

ومن المتعذر إثارة هذين الاتجاهين في لحظة واحدة . **فلا يمكن أن يكون المرء ، في وقت واحد** ، سلبياً وفاعلاً ، يجمّع الطاقة ويفرّغها ، في حالة من الراحة والحركة . ففي أثناء هذه الساعة من الحياة ، كنا إذن أكثر اتصافاً بالصفات الأنثوية من اتصافنا بصفات الذكورة ، أو أكثر

(*) ما هو بالقوة عكس ما هو بالفعل ، أي كامن « م » .

اتصافاً بصفات الذكورة من اتصافنا بصفات الأنوثة ، وذلك بحسب ما كنا قد وصلنا التيار بنشيبة هذا القطب أو ذاك .

كل هذا غير مرئي « بالعين المجردة » ، طبعاً . ونحن لا نرى غير الاتجاه الراجح ، ولا شيء أكثر . ويمكن القول إن فيلماً سينمائياً يتصف بأنه من القطب المذكر ، إذ **يبدو** أنه في حركة دائمة . ولكن العين لا ترى الانغلاقات الأربعة والعشرين التي تحدث في الثانية (منها **٢٤** توقفا في الفيلم ، **٢٤** « انتظاراً » . . . أي **٢٤** **قطباً** مؤنثاً) .

فكل موجود إنساني يمكن إذن أن يتّخذ الاتجاهين إزاء طاقته ، كما يتخذ الاتجاهين إزاء رأس مال مالي ، على وجه الدقة .

الاتجاه الأول

يقوم (كالقوس) على :

– أن يجمع الطاقة ، ويحتفظ بها في ذاته ، ويخزنها ، **الأمر الذي يستلزم** :

أ – أن يكون في حالة الانتظار ، والراحة ، والسكون .

ب – أن لا يتسرع ، وأن يراقب ويتأمل ، وأن يكون في حال من « التنصت » لاحساساته وعواطفه وحدوسه .

جـ – أن يجمّع إحساساته ، وعواطفه ، وحدوسه ، ومعلوماته، التي تدخل بفضل هذه الاستقبالية .

هذا الاتجاه ينتمي إلى القطب المؤنث .

ونقول بعبارة أخرى : إننا إزاء اتجاه من اتجاهات الأنوثة ، ولكنه غير ذي صلة ، بحصر المعنى ، بالمفهوم المألوف لـ « الأنوثة » .

الاتجاه الثاني

ويشتمل هذا الاتجاه (شأنه شأن السهم) على :

— تحرير الطاقة المجموعة وصرفها . **الأمر الذي يستلزم :**

أ — الوجود في حال من الحركة ، حركة الجسم أو حركة الفكر.

ب — المحاكمة والتصرف الخارجي ، وتنفيذ قرار اتضح خلال الاتجاه الأول ، وتنفيذ عمل تجمّع الهامه خلال الاتجاه الأول .

هذا الاتجاه ينتمي إلى القطب المذكّر .

ونقول بعبارة أخرى : إننا إزاء اتجاه من اتجاهات الذكورة ، ولكنه غير ذي صلة ، بحصر المعنى ، بالمفهوم المألوف لـ « الذكورة » .

٥ — بعض الأمثلة

هذان الاتجاهان ، هذان « القطبان » ، هاتان الطريقتان في استخدام الطاقة ، موجودتان في الطبيعة برمتها .

هو ذا حيوان مفترس

أ — إنه في حالة توقف . جميع عضلاته تتوتّر تدريجياً . إنه يعدّ عمله . إنه لا يجمّع الطاقة العضوية فحسب ، بل يجمع كذلك آلافاً من المعلومات (سرعة الريح واتجاهه ، واقتراب فريسته ، وحساب القفزة التي عليه إنجازها ، وتقدير المسافة ، الخ) . هذا الحيوان المفترس

«موصول» بقطبه المؤنث . واتجاهه اتجاه يتصف بصفات المؤنث . وهو سلبي أيضاً ، بالمعنى الذي حدّدناه فيما سبق .

ب — يقفز الحيوان . فالطاقة المجموعة تتحوّل إلى حركة . إنه، في هذه اللحظة ، « موصول » بقطبه المذكر . واتجاهه اتجاه مذكر .

ها هو ذا بركان

أ — إنه يهدر بصوت غير مسموع . ويجمّع حجماً من الغاز يمثّل طاقة كامنة هائلة : إن هذا البركان ، في هذه اللحظة ، « يعيش » على قطبه المؤنث . واتجاهه ، إذا صح قولي ، اتجاه مؤنث .

ب — وينفجر البركان ، وتنبعث الحمم . وتصبح الطاقة الكامنة طاقة حركية . إنه القطب المذكّر ، أو « ذكورة » البركان .

ها هو ذا نحّات

أ — هو ساكن داخلياً . إنه يتأمل في الصورة التي سيعطيها لصلصاله. ويجمّع إلهامه وإحساساته . ويهيء « استخدامه » المقبل . فهذا النحات «موصول» بقطبه المؤنث . واتجاهه اتجاه مؤنث .

ب — يمسك النحات بأدواته ، ويعمل على صلصاله . فهو ينتقل إلى حالة الحركة ، ويفرّغ إلهامه المتجمع . ويتخذ الصلصال صورة . إن النحّات أدار المحوّل إلى قطبه المذكّر . فاتجاهه اتجاه مذكر .

قد يلومني بعضهم على أنني أكرر نفسي . ولكن ذلك يبدو لي أمراً لا غنى عنه ، نظراً لأن هذه الضروب من الأنوثة و الذكورة هي عكس ما يعتقده الناس بصورة عامة .

٦ – الاتجاهات المذكرة والاتجاهات المؤنثة

يمكن للمرأة إذن ، شأنها شأن كل كائن حي ، أن تتبنى اتجاهين أمام الظروف :

أ – الاحتفاظ (تجميع) بالطاقة . وسيكون اتجاهها هذا اتجاه الأنوثة .

ب – تحرير (تفريغ) الطاقة . وسيكون اتجاهها هذا اتجاه الذكورة.

وهذان الاتجاهان مشوّهان على الغالب لدى المرأة . فالأنوثة غير متميزة عن الضعف ، والتبعية ، والخضوع ، الخ . أما فيما يخص ذكورتها ، فانها لا تعرف ماذا تفعل بها ، هذا إذا لم تستخدمها استخداماً سيئاً جداً .

وواضح ، عندما نلاحظ القوس والسهم ، أن المقذوف (السهم) أكثر **عطوبة** من القوس بما لا يقاس . فحركته تجعله يتعرّض إلى خطر أن يصادف عثرات يمكن أن تفسده أو تتلفه ، أو تحرفه عن مساره . يضاف إلى ذلك أن هذا المسار ، الممتد والنافذ ، لا يبقى غير لحظات ، حتى استنفاد الطاقة الحركية .

أما القوس ، فانه **غير عطوب** من الناحية العملية ، بفعل سكون طاقته .

من هنا منشأ هذه التخطيطية التي تُطبق على كل موجود إنساني :

القطب المؤنث = استقرار ، لا عطوبة ، ديمومة .

القطب المذكر = عدم استقرار ، عطوبة ، آن .

فاذا نقلنا مثال القوس ، لاحظنا في الحياة اليومية :

ــ أن ثمة نساءطاقتهنالداخلية (القطب المؤنث) ضامرة أو موقوفة. إنهن لا يستطعن توتير القوس ولو أن لديهن سهماً جيداً .

ــ أن ثمة نساء طاقتهن الداخلية جيدة ، ولكنهن يخشين إظهارها إلى الخارج ، ويخشين التصرف ، والتقرير ، وفرض ذواتهن . فالقوس في حالة جيدة ، غير أن السهم يبقى رهين كنانته .

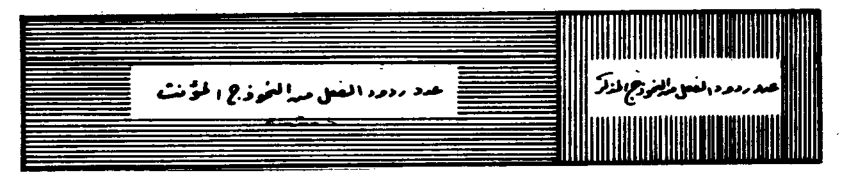
ــ أن ثمة نساء لديهن قدرة ممتازة على العمل ، ولكن طاقتهن الوجدانية « مسدودة » . إن لديهن سهماً جيداً ، ولكن القوس قوس طفل .

وتكشف **المرأة السوية** ، بالتأكيد ، عن رجحان في الاتجاهات الأنثوية . إنها أكثر اتصافاً بأنها « تحتفظ » بطاقتها . وهي ذات استعداد مسبق للاستقبالية ، والداخلية ، اللتين تتغلبان على الإظهار إلى الخارج .

والرجل السوي يُظهر طاقته إلى الخارج كثيراً . فعدد مواقفه المذكرة يتجاوز عدد مواقفه المؤنثة .

امــرأة ســوية

خلال فترة معينة

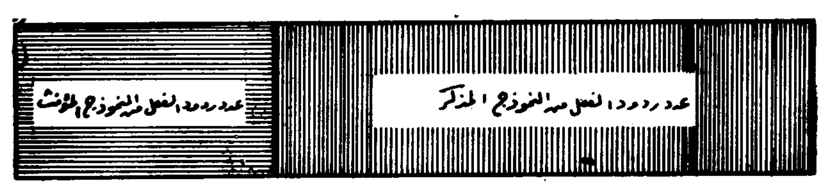


شكل رقم (٣)

(القطب المؤنث اكثر استعمالا من القطب المذكر)

رجـل سـوي

خلال فترة معينة



شكل رقم (٤)

(القطب المذكر اكثر استعمالا من القطب المؤنث)

ثالثاً : دور الأنوثة والذكورة

١ — الأنوثة

تنجم خصائص الأنوثة عما سبق. ويمكن تحديدها من جهة أخرى بما لا تتصف به . إن الأنوثة **ليست** ضعفاً ، إنها **ليست** عجزاً ، وهي **ليست** . . . كل ما حُكي حول موضوعها .

وما علينا أن نبحث عن الطوباوية . ان ٩٩ بالمئة من الأنوثات بعيدات عن الأنوثة بمقدار ما يمكن أن يكون عليه الفرق بين بيل كهربائي ومركز ذري . ومع ذلك ، فان **الأنوثة استطاعة** في حد ذاتها . والأنوثة تمثّل **مدّخرة** الشخصية . وإذا أصبحت هذه القوة ، على الغالب ، ثقلاً مصاباً بالعطالة ، أو بخاراً دون قوام ، فان ذلك ناجم عن أسباب عديدة لابد لنا من أن نخوض في تفصيلاتها .

والأنوثة هادئة بصورة آلية ، لأنها سلبية على نحو قوي . فهي موصولة بالواقع مباشرة . إنها في حالة التنصت على الأشياء والموجودات ، ومرتبطة بالزمن .

وذلك **أمر رئيس** : فلا يمكن لامرأة أن يكون لديها ذكورة ذات نوع جيد إذا كانت أنوثتها تالفة . شأنها في ذلك شأن فنان يتعذر عليه أن يعبّر في الخارج عن عمل فني ذي شأن إذا كان إلهامه فقيراً .

بل يمكن القول إن الذكورة ليستمبدعة على الإطلاق . ذلك أن كل إبداعية تحدث في داخل الشخصية : وإذن ، في دائرة القطب المؤنث. ولا يتصور المرء مثل مدام كوري أو مثل بيتهوفن يعبّران في الخارج عن عمليهما دون أن يتركا أولا للالهام أن يتجمّع . أو كذلك، هل يتصور المرء أن ثمة إمكاناً لوضع سطح بيت من البيوت على الفراغ ؟

والفاعلية المبدعة ، التي برزت إلى الخارج ، منوطة بالاستقبالية التي تهيّئها . ونوعية الفاعلية التي تبرز إلى الخارج **منوطة** باستطاعة الاستقبالية. ذلك إنما هو القانون الأساسي . وعندما يبدع خارجياً رجل أو امرأة ، فانهما لا يفعلان سوى « استخدام » إبداعيتيهما الداخليتين .

ومن الجوهري أن نضيف أن **الأنوثة استطاعة لامتمايزة** . يقول لاباليس* : لا بد لأي شيء من الأشياء أن يكون دونما صورة قبل أن يتّخذ صورة . ويقول أيضاً : من المتعذر أن يكون التمثال تمثالاً قبل أن يكون مادة لا صورة لها : صلصالاً أو رخاماً .

ذلك يعني أن أي امرأة لا يمكن أن تكون مذكّرة (صورة) **على نحو واقعي** ، إلاّ إذا كانت أول الأمر مؤنّثة (من غير صورة) **على نحو واقعي** .

(*) لاباليس ، Lapalice : مارشال فرنسا (نحو ١٤٧٠ - ١٥٢٥) « م » .

والحياة الداخلية لامتمايزة . فهي تلتقط . إنها شبيهة بالرادار الذي يجمّع المعلومات ، ويعكس **جميع** الأصداء ، سواء كانت نديفة ثلج أو طائرة طائرة . والعامل المحلل هو الذي ينبغي أن يقوم بعملية الاصطفاء وتمييز الأصداء .

والأنوثة لامتمايزة ، لا صورة لها ، مثل الحياة الداخلية ، لأنها لا تتميز منها .

ولكن أي صورة تخرج من المادة التي هي غير ذات صورة ؟ من هذا الصلصال ، المادة التي لا صورة لها ، هل يخرج تمثال ، أو مزهرية ، أو صحن ، أو حوض متدفق ، أو بيت مزهر ؟

من هذه المادة ، دونما صورة ، التي تثوي في بطن امرأة ، أي صورة تنبعث ؟ صبي ؟ بنت ؟ هل هذه الصورة سوية ؟ أم غير سوية ؟

والصمت ، هو أيضاً ، لا صورة له . أي « صورة » ستخرج منه؟ محاكمة ؟ صراخ ؟ غضب ؟

ومن هذه السلبية التي تجمّع الاحساسات ، أي صورة ستتفجر ؟ عمل فني ؟ موسيقى ؟ فكرة ؟ عمل بنّاء أم هدّام ؟

ولهذا السبب ، **يتعذر أن توجد امرأة مؤنثة على سبيل الحصر** . فهي تظلّ من غير صورة كالماء . ولا تدير أبداً محوّل التيار إلى التعبير عن نفسها خارجياً . وتقضي حياتها في « تجميع » إشارات العالم ، دون أن يحدث أي استخدام لها . إنها تكون شبيهة برسام يجلس بصورة دائمة يتأمل في لوحة لن ترى النور أبداً .

وسنرى أن مثل هذا النوع من المرأة ، المجرّدة من كل ذكورة ، موجود مع ذلك .

وأخيراً ، فان **الأنوثة استطاعة مستقرة** . ومثال القوس والسهم يبيّن جيداً ما يلي :

إذا كانت الأنوثة = استطاعة كامنة = سكوناً ،

فالأنوثة **عندئذ** هي استقرار .

ولهذا السبب ، تظلّ الأنوثة الحقيقية مساوية لذاتها مع تكيّفها ، في الوقت نفسه ، مع تقلبات الوجود . إنها ذات حس سليم لا يُطعن به ، وذات مقاومة كبيرة للألم . ولهذا السبب كذلك ، كانت المرأة «الحقيقية» شاهداً على الهياجات المذكّرة .

٢ ـ الذكورة

إنها شيء زهيد **في حد ذاتها** . فهي لا تفعل سوى أنها تستخدم الطاقة المتجمّعة مسبقاً . وكل إظهار إلى الخارج ـ جسمي أو فكري ـ ليس غير محصلة . والرصاصة ليست شيئاً **في حد ذاتها** . فنجوعها منوط بشحنة البارود ونوعيته ، ومنوط بكمال السلاح وتصويبه .

والذكورة لا تفعل سوى « التصنيع » ، سواء كان الأمر بصدد عمل فني رائع أم عمل فني هزيل . فليست الذكورة متصفة بالعبقرية على الإطلاق . إنها مجرد العامل المنفّذ للأنوثة (أو للحياة الداخلية) .

والنساء اللواتي يعتقدن ، بوصفهن عاجزات عن الإبداع بصورة خارجية ، أن ذكورتهن في حالة سيئة ، عديدات . وهذا أمر صحيح في

بعض الأحيان ، ولكن الأغلب أن أنوثتهن هي المشوّهة أو « المصابة بالعقد » ، وهي ، من جراء ذلك ، لم تعد تقدّم الطاقة الضرورية للفاعلية الخلاّقة المدعومة .

وكثير من النساء قلن لي ، في بداية تحليل نفسي ، ما يلي على وجه التقريب :

– إنني لا أفلح في التعبير عن نفسي ، ولا أن « أفعل » شيئاً

– أتمنى أن أصبح أكثر ذكورة.

وهن في أغلب الأحيان كنّ مخدوعات ، وكان عليهن أن يقلن :

– أتمنى أن تعود أنوثتي ، الموقوفة في جهة من الجهات ، لتصبح ما هي عليه بصورة واقعية . وعلى هذا النحو ، فان ذكورتي يمكن أن تتفتح وقد تمت تغذيتها بصورة سوية .

وهؤلاء النساء فهمن تدريجاً ، من خلال التحليل النفسي ، أن صعوبتهن الحقيقية كانت تكمن هناك .

والذكورة تمثّل المرحلة النهائية ، والصورة الأخيرة. إنها هي «التمثال» الذي ينبعث من الصلصال . ولهذا السبب ، تتصف أيضاً بأنها **الأمن** الذي يطمح إليه النساء والرجال .

إذا قلت لامرأة أو لرجل : « أنتِ (أنتَ) تملكين موهبة مذكّرة جداً » ، فانك تمدحهما بذلك . أما إذا صرخت لأحدهما : إن أفكارك وموهبتك مؤنثة جداً ، فانه يلمّ رأسه إلى الداخل كما تفعل القنافذ .

وقد يُقال إن هذا إنما هو رد فعل « ثقافي » ، إذ أن « الأنوثة »

كانت ، ولا تزال ، غير مفهومة وفاقدة الحظوة . ولكن ألا يوجد شيء آخر ، بصورة أكثر عمقاً ؟

٣ – طبقتا البناء الإنساني

لاحظوا الرسم المعروض في الصفحة التالية ، وادرسوه . فأنا أعتقد أن مدلوله ذو أهمية كبيرة .

عندما **يَظهر إلى الخارج** موجود إنساني شيئاً من الأشياء ، أو فكرة تتّخذ **صورة** على الورق ، أو أثاثاً يجمع أجزاءه في **صورته** النهائية ، أو جملة يلفظها وهو يضعها في **صورة** ، الخ ، يمكن أن نميّز في هذه الظاهرة ثلاث مراحل :

أ – مرحلة **الفوضى** التي تعوم خلالها الأفكار بصورة مبهمة ، دونما قوام ولا اتجاه .

ب – مرحلة **الاعداد** : **تظل الفكرة داخلية ، ولكنها تنفصل عن** السياق . وثمة هدف يبدأ بالارتسام انطلاقاً من هذه الفكرة . وحول هذه الفكرة والهدف ، تتجمّع إحساسات ، ومشروعات ، **وتوقّعات** ، وملاحظات . وذلك صحيح بالنسبة إلى (المحرتق) الذي « يعدّ داخلياً» رفّه الجداري ، مثلما هو صحيح بالنسبة إلى الرياضي الذي يجمع في ذاته جميع المعطيات الممكنة قبل المعادلة النهائية . هذه المرحلة تقابل الطابق رقم ١ من اللوحة . **ذلك إنما هو طابق الأنوثة .**

ج – مرحلة المآل ، مرحلة **الانجاز** النهائي والمعبّر عنه خارجياً . فالموجود الانساني ينتقل إلى التأليف . **ذلك هو الطابق رقم ٢ ، طابق الذكورة .**

والحال أن ما هو صحيح بالنسبة إلى الفكرة ، صحيح كذلك بالنسبة إلى جميع ظروف الحياة . فاللوحة تبيّن ، **من الناحية الرمزية** ، أننا «نصعد » من الفوضى نحو الذكورة ، كما نصعد على وجه الضبط من اللاشعور نحو الشعور ، ومن المادة نحو الصورة ، ومن كتلة الرخام نحو التمثال ، ومن اللاتمايز نحو الوجود الفردي .

فطابق الأنوثة موجود في منتصف الطريق بين الفوضى والذكورة . ويكوّن طابق الذكورة قمة اللوحة .

ويظلّ هذا صحيحاً بالنسبة إلى المرأة . فطابق الذكورة يمثّل المرحلة الأخيرة ، **يمثّل قمة تراتبها الخاص** . والمسألة هنا ليست مسألة قيم ، بل هي مسألة « راقات جيولوجية » للشخصية الانسانية .

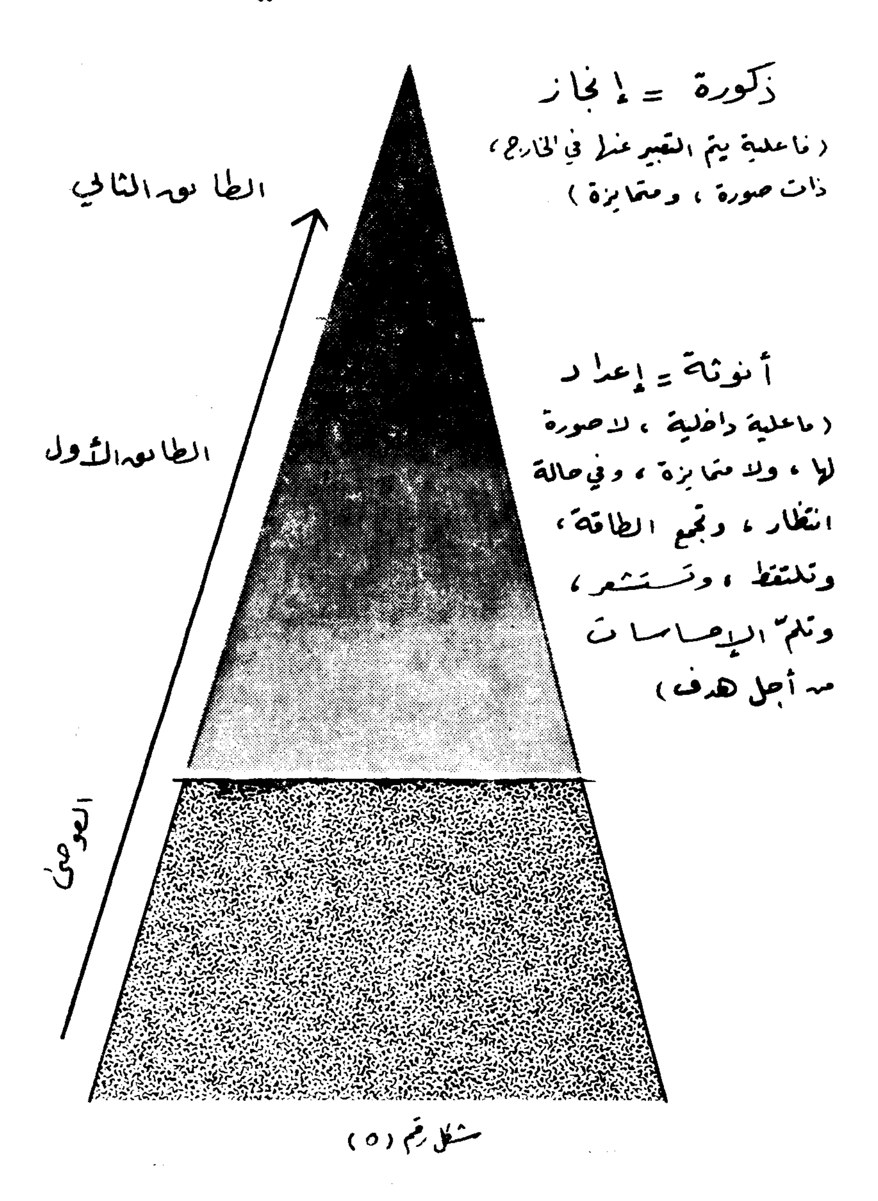
وإذا كان طابق الذكورة يجلب الأمن ، فذلك لأن أي موجود إنساني يشعر فبه بأنه متمايز ، وشخصي ، وناجح .

من الواضح أن بناء الشخصية منوط بمتانة الطابق رقم ١ وباستطاعته.

والحال أن هذا الطابق ، لدى غالبية الناس ، لا يتصف إلا بالقليل من القوام . وحياتهم الداخلية رخوة .

ماذا يعني القول المجامل في هذه الحال : « إن لك موهبة مذكّرة جداً » ؟ لاحظ الرسم . فليس هذا إطراء للشخص ، كما يمكن أن يعتقد بعضهم ، بل هو اطمئنان . وبالنظر إلى أن أنوثتة (طابق رقم ١) ضعيفة المتانة ، فانها لا تقدّم أي نقطة ارتكاز. وتحتها توجد الفوضى ، والفراغ . ونفهم أن الفرد يرغب في أن يفلت من هذا الطابق رقم ١ ، لكي يبلغ القمة على وجه السرعة (الذكورة) ، حيث يزول الإحساس بالخطر .

لدى كل موجود انساني



شكل رقم (٥)

ذلك أن المرء إذا كان بامكانه أن يصعد من الأنوثة إلى الذكورة ، فانه يتعرّض إلى خطر أن ينزل ثانية نحو الفوضى والعدم ، انطلاقاً من أنوثة قليلة المتانة .

وهذا هو السبب الذي من أجله تتمسك الموجودات الانسانية بفكرة الذكورة كما يتمسكون بعوّامة النجاة .

ونحن ننتهي إلى اكتشاف معرفة قديمة : خوف الموجود الإنساني (والرجل على وجه الخصوص) من العدم .

وليس لدى الصبي الصغير ، منذ طفولته ، شيء أكثر استعجالاً من أن يغادر طابق الأنوثة لكي يبلغ طابق الذكورة . وفي هذا المجال إنما يرتكب ، على الغالب ، أخطاء فادحة . فهو شبيه بمتسلق جبال لا يتأنّى في التحقق من رباطاته ، وفي غرز كلاّباته ، وفي سبر الحواجز ، وفي مراقبة الطقس . **إنه يهمل أن يمتّن أنوثته** . وهو يبدأ في التسلق دون ارتكاز كاف . وينتهي ، على الغالب ، من ذلك إلى أن يصبح هذا الذي نكلمت عليه أحياناً : الرجل الحديث ، المحروم من أنوثة متينة ، وليس لديه غير طاقات داخلية هزيلة .

عمره الوجداني ثماني سنوات ، على الرغم من مظاهر الرجولة المفرطة . والطابق رقم ١ ملغوم بالعقد والمخاوف . وهو غير ذي قوام كالضباب. فكيف لا يصبح هذا الرجل اندفاعياً ، ومشدوداً ، ومشوّشاً ، ومهتاجاً ، وذا نزوة ، وغضبياً ، وقليل المرونة ، ومتسلّطاً ؟ إنه يتمسك بأي شيء لكي **يبرهن** على ذكورته ، ذكورة مشوّهة مثل شخصيته كلها. **ويتقدم بتوازن غير مستقر على حرف ذلاّق من ذكورة فاشلة** ،

ويتصف بأنه أكثر حصراً بقدر ما يتعذر عليه أن يكون تلقائياً : إن الطابق الأسفل عجينة ضبابية لا توقفه في سقوطه بالتأكيد .

ومن جهة أخرى ، ألغ الطابق الأول وانظر ماذا يبقى : فراغ ، يسبّب الدّوار ، بين القمة والفوضى .

٤ – لنصحح

من الضروري أن نضع موضع التساؤل ، وأن نصحّح ، بعض الأفكار التي تلقيناها (والخاطئة جداً) ، والتي تفصل الرجال والنساء إلى معسكرين متميزين كثيراً جداً .

يقال : المرأة حدسية ، والرجل منطقي .

ينبغي القول : الأنوثة ، أيا كان الجنس ، حدسية ، لأنها تحس بالأشياء على نحو لامتمايز . والأنوثة تلتقط جملةً ، من خلال الاحساسات. والذكورة منطقية ، لأنها تصطفي الاحساسات التي نتلقاها ، ثم تلجأ إلى المحاكمة منتقلة من نقطة إلى أخرى بصورة شعورية .

يقال : المرأة تستشعر ، والرجل يحاكم .

ينبغي القول : الأنوثة تستشعر ، والذكورة تحاكم ، وذلك أمر صحيح بالنسبة إلى كل موجود إنساني ، أيا كان جنسه .

يقال : المرأة تنظر إلى الحياة بصورة تختلف عن الرجل .

ينبغي القول : الأنوثة مستقرة وساكنة . وهي شبيهة بالماء العميق . إنها تكوّن حياتنا الداخلية كلها . وتحسّ بالحياة كما هي ، بطريقة مشخصة ، ومباشرة ، وعملية ، ودون مواربة . والذكورة ، التي

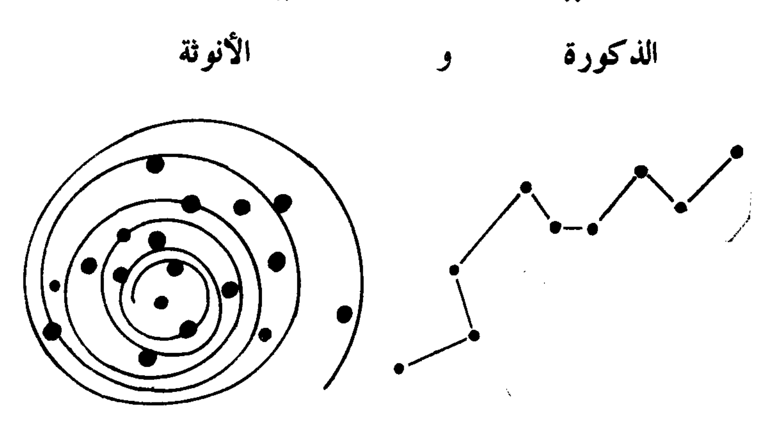
تتصف بأنها في حركة غير مستقرة كسهم ، تشعر بالحاجة إلى أن تجهّز نظريات وضروباً من الأخلاق ، تستخدمها صوى لتعلّم طريقها ، وأمناً حتى لا تسقط ثانية في الفوضى . وبما أن الأنوثة لدى المرأة أكثر اتساعاً، فان من المؤكد أنها تحس بالحياة على نحو يختلف عن الرجل .

يقال : المرأة تحسن التمثيل أكثر من الرجل ، أو هي أكثر مراءاة من الرجل .

وينبغي القول : الأنوثة ، أياً كان جنس الموجود الانساني ، لامتمايزة،شأنها شأن رمزها الماء ، الذي يمكن أن يتخذ شكل أي وعاء دون أن يكفّ عن أن يكون ذاته .ويمكن للأنوثة ، بوصفها مرنة وسيّالة ، أن تتكيّف مع أي ظرف . ويمكنها كذلك أن تتقمص كل شخصية ، وأي دور ، بل وأي أكذوبة . أما الذكورة ، فانها ، على العكس ، خارجية ، ومتحركة . وهي ، بالإضافة إلى ذلك ، تمثّل «صورة » مكتملة ، أقل تكيّفاً ، وأكثر تصلّباً ، ودون مرونة .ونحن نفهم ذلك ، على نحو أفضل ، إذا فكرنا بكثير من الرجال والنساء الحديثين الذين يعيشون على ذكورة ضامرة بافراط ، ويعجزون عن التكيف مع الظروف . فهم لا يسيرون علىدرب ،بل هم مثبّتون على خط حديدي . ويمثّلون ، هم أيضاً ، ملهاة دون أن يعلموا ، ولكنها ملهاة وحيدة ، ذات قوالب جامدة . وكلمة « ملهاة » ينبغي أن تؤخذ هنا ، بالطبع ، بمعنى عريض جداً ، مع مجموعة تدرجات تمضي من السوي (الأنوثة تتكيّف) إلى جميع ضروب الشذوذ : ذلك أن أنوثة مريضة ، أو طفالية ، قادرة على أن تمثّل أي « ملهاة » ، وقادرة على جميع ضروب الخداع ، والأكاذيب ، دون أن ننسى — وذلك برهان

جديد على المرونة ـ قدرتها على أن تقع ، بصورة محتومة ، واقفة على رجليها .

في كل موجود انساني ...



شكل رقم (٦)

تمثل النقاط ظروف الحياة . ويمكن أن تكون هذه الظروف حوادث ، وإحساسات مشتتة ، وملاحظات ، الخ .

اتجاه الذكورة يقوم على أن يمضي من حادث إلى اخر بطريقة منطقية ، وذات شكل ، ومتمايزة . وتجري الذكورة اصطفاء . إنها خطية. إقليدية .

اتجاه الأنوثة يقوم على التأثر بصورة إجمالية ، وبصورة غير ذات شكل ، ولامتمايزة. ولا تجري الأنوثة أي اصطفاء. وهي تجمع الانطباعات قبل أن تظهرها إلى الخارج في كلام أو فعل واضحين(ذكورة). والأنوثة خط مائل وغير إقليدية .

والأمر هنا لا يختلف عما هو عليه في السياسة : لا يمكن لليمين أن يستغني عن اليسار .

يقال : الرجال لن يفهموا النساء أبداً (أليس من المستغرب أن الناس قلّما يؤكدون العكس ؟)

وينبغي أن يقال : لا يمكن فهم الأنوثة بصورة عقلانية ، إذ أنها لامتمايزة ، وبالتالي لاعقلانية . وليس بالإمكان سوى أن تستشعرها من خلال الاحساس والحدس، ولكن لا من خلال العقل والمنطق أبداً . ولن يستشعر الرجل امرأة على الاطلاق ما دام لم يحقق أنوثته الخاصة. كذلك فان المرأة لا يمكنها أن تفهم ذكورة الرجل ما دامت لم تنجز ذكورتها الخاصة . وذلك يثير صعوبة من الصعوبات . ذلك أن النساء السويات (أنوثتهن وذكورتهن سويتان) يفهمن بصعوبة معظم الرجال الحديثين الذين ينهمكون في الصراع من أجل أفكار مجردة ، أكثر مما ينهمكون في الصراع من أجل وقائع إنسانية ومشخّصة .

يقال : المرأة ذات نزوة واندفاعية .

ينبغي أن يقال : كل موجود إنساني ذي حياة داخلية مشوّهة يصبح ذا نزوة واندفاعياً ، سواء كان امرأة أو رجلاً .

ومن العبث أن يزعم المرء أن « المرأة » تتصرف على نحو معيّن ، ويتصرف « الرجل » ، على نحو آخر . فذلك يعني أن كل جنس يتصرف جملة على الدوام ، وبطريقة لا تنتمي إلا إليه وحده .

والواقع أن أي رجل ، أو أي امرأة ، يتصرفان بحسب « القطب » الذي يعيشان عليه في لحظة معينة . ولكن **المرأة ذات استعدادمسبق** لبعض الاتجاهات ازاء الحياة ، ولبعض الأساليب فيالاحساسبالوجود وتصوره، ولبعض أنماط التفكير ، والمحاكمة ، والتصرف ، لأن ضروب سلوك

الانوثة ، لدى امرأة سوية ، أكثر عدداً من ضروب سلوك الذكورة .
إن المرأة ، بمعنى آخر ، ذات استعداد مسبق لخصائص الأنوثة كما حددتها .

٥ – وبالاختصار ، لابد من ثورة . . .

– كون الموجود الانساني امرأة نتيجة بنية غدّية بالتأكيد . ولكن الأنوثة و الذكورة هما ، لدى امرأة أو رجل ، طريقتان في استخدام الطاقة التي هي في حوزة كل منهما .

– ينبغي أن لا نفكر بالنساء والرجال ، أول الأمر ، على أنهم جندان ، بل على أنهم مستقبلو الطاقة أو مرسلوها .

– المصطلحات القديمة ، مصطلحات التفوق أو الدونية ، والمساواة واللامساواة ، تفقد معناها كلياً .

– تتصرف امرأة سوية بفعل عدد من اتجاهات الأنوثة يتجاوز عدد اتجاهات الذكورة . فهي إذن مستقبلة للطاقة أكثر مما هي مرسلة .

– وهذا هو السبب في أن أي امرأة تتصف بجملة من الخصائص العميقة ، والمستقرة ، والداخلية ، والمرنة .

– ينبغي أن تكون أي امرأة سوية قادرة على الانتقال ، دونما صعوبة ، من استقبال الطاقة إلى إرسالها ، ومن إضفاء الداخلية إلى إضفاء الخارجية ؛ ومن الابداعية الداخلية إلى الابداعية التي تتفجر في الخارج .

– ثمة الكثيرون الذين لا يفهمون إلاّ بشق النفس أن الأنوثة استطاعة ، بالرغم من أن دورها تجميع الطاقة . وينشأ سوء الفهم هذا

من الالتباس بين الأنوثة و « الأنوثات التقليديات » ، اللواتي لسن غير نسخ هزيلة من الواقع .

— وهذا هو السبب الذي من أجله لا يفهم الرجل والمرأة إلاّ بشق النفس أنه لا بد من أن يكون الموجود الانساني مؤنثاً ، **أول الأمر** ، **قبل** أن يكون مذكراً . ولكنهما يقبلان قبولاً حسناً جداً أنه لا بد، أول الأمر ، من طاقة قبل أن يكون بوسع العنفة أن تدور .

— النساء مخدوعات ، شأنهن شأن الرجال . إنهن مخدوعات لأن الابداعية وُصفت لهن على أنها نزعة الذكر . والرجال مخدوعون ، لأن كل تلقائية لديهم أُضفيت عليها الاثمية ، إذ يحول ذلك بينهم وبين التخلي عن الصورة العبثية للذكر ، ذي الرجولة المفرطة .

— كل شيء ينقلب إذا كان صحيحاً أن الأنوثة (طاقة أساسية) ينبغي أن تنتقل إلى المستوى الأول ، وأن الذكورة هي مجرد تفريغ هذه الطاقة .

فهل نقول إن كل هذا مثالي وطوباوي ، وإنه لابد من ثورة ؟ حسن، نعم : لا بد من ثورة في الأفكار ، وفي التصور الذي يكوّنه كل موجود إنساني عن ذاته . وحتى لو أن هذه الثورة لن تحدث في المستقبل القريب، وأنه لا بد موقتا من رفع رايتها ، فان ذلك لا يعني أن ننكّس هذه الراية .

إن كون كثير من النساء والرجال يقرفون من الدور الذي يُقسرون على تمثيله ، أمر يمثّل عامل نجاح مهم . فالأنوثة كانت قد فقدت حظوتها استجابة لحاجات الثقافات ، وضروب الأخلاق ، والأديان ، واستجابة

لحاجات التكنولوجيات في أيامنا هذه . وأفرغت الحياة الداخلية من مضمونها ، وأصبحت عطالة . والقاسم المشترك بين النساء الحديثات ضرب من اللاأمن الداخلي الفظيع . ومنذ أن تفقد الأنوثة استطاعتها ، فان الطاقة الأساسية هي التي تزول . وأنتم تعرفون النتيجة المترتبة على ذلك .

رابعاً : مثالان

١ ـ قصة نيللي

ـ بلغت من العمر خمسة وثلاثين عاماً ، إنني عزباء لأنه كان عليّ أن أعنى بوالدي بعد وفاة أمي . . . فما استطعت أن أجد زوجاً . . . ولكن لي صديقاً ، متزوجاً ، يخدع امرأته معي . بيد أنه يخدعني أيضاً مع أخرى .

ـ هل تعملين في الخارج ؟

ـ إنني ضاربة على الآلة الكاتبة .

ـ . . .

ـ أنت ترى ، يا سيدي ، أنني حاولت أن أجد «نفسي » من خلال صديقي . . . حاولت أن أعرف ما كنت عليه ، وما كنت قادرة على فعله . . . إنه كان رجلاً . أكان من المحتمل أن يكون بوسعه أن يقودني ، وأن يكشفني أمام ذاتي ؟ ولكنه يتصف بعدم الاستقرار مثلي ، ولا أستطيع إلاّ أن أتمسك بما أتمنى أن أكون . وعندما لا يأتي إلى الموعد المضروب ، أذهب إلى السينما . إنها ملجأي .

– هل كنت قد قلت لي إنك درست الرسم ؟

– نعم ، أتمنى أن أرسم ، ولكنني لا أستطيع أن أفعل ذلك . أقول لنفسي كل يوم : سأشتري المواد غداً . وأخطط كثيراً من المشروعات دون أن أنجز على الاطلاق أي شيء . إنني أعتمد على صديقي في مساعدتي على أن أخرج من ذاتي . ولكن دون أمل ، وأنا أعرف ذلك . فهو يخدعني على جميع المستويات ، وعلى المستوى المعنوي خاصة . إنه يخدعني . والمجتمع يخدعني . حاولت خلال شهور أن أتزوج ، فأنا جميلة بما فيه الكفاية ، مع ذلك ! إذن فأنا أتمنى أن يقال لي لماذا لا أفلح في تحقيق ما ينتفخ في ذاتي ، لماذا لا أفلح في تحقيق جميع ضروب الابداع الفني التي أتصورها دون أن أمضي إلى ما هو أبعد . أتمنى أن يقال لي لماذا أنا منبوذة . . .

كانت نيللي تقول لي ذلك خلال الاتصال الأول ، قبل مباشرة التحليل النفسي . لقد كانت فريسة ضرب من اللا أمن الوجداني الحَصِر . وكان المستقبل يبدو لها مسدود النوافذ ، وكانت تشعر بأنها محكوم عليها بالعزلة الداخلية . ومع ذلك ، ففي فرنسا وحدها ، ثمة حظ لامرأة من أربعة نساء ، **تجاوزن الخامسة والعشرين** ، في أن تتزوج . الأمر الذي يجعل، في كل مرة ، ثلاث نساء متروكات في الدكان الخلفي لضروب الحب الإنساني .

وحالة هؤلاء النساء قلّما تكون اللا أمن المادي . وأملهن الكبير أن يجدن زوجاً . والحال ، من الناحية الإحصائية ، أن تسعة رجال من عشر ، في هذا العمر ، متزوجون .

تقول نيللي إن هذا الرجل خدعها . هذا صحيح ، ولكنها ، على وجه الخصوص ، خدعت نفسها بنفسها .

كان بوسعي أن أقول لها :

– ذكورتك ، وعملك المعبّر عنه في الخارج، موقوفان . فأنت تجمّعين في نفسك أفكاراً ومشروعات . ولكن في أي حالة هي أنوثتك؟ ولماذا لا تتفجر إلى الخارج جميع هذه الطاقة ؟ إنك تتصرفين كما تصرفت قبلك ملايين النساء : **وبدلاً من أن تبحثي عن هويتك في نفسك، تطلبينها من إنسان آخر:** وفي هذه الحال ، من رجل يسبّب لك الاحباط ويهملك. فليس ثمة فيه أي نجدة لك ، لأنه يفعل ما تفعلينه بالضبط : إنه يبحث فيك عما ينقصه . وبدلاً من أن تجمعا قوتين ، يحاول ثنائيك أن يمزج ضعفين . **وكل منكما يجعل الآخر حيادياً** . إنكما تبحثان في الخارج عما هو موقوف في الداخل . **إنك لا تطلبين أن يحبك، بل تطلبين أن لا يهملك** . وأنت لن يكون بوسعك ، ولو كان هذا الرجل زوجك ، ولو كان متيناً ، أن تعيشي إلا به ، في حين أن عليك أن تكوني موجودة وجوداً مستقلاً ، وأن تعيشي داخلياً **مع** الآخر ، **لا بفضل** الآخر . وستبقين ، ولو أنك متزوجة ، في حالة مختلة من اللا أمن . وستظلّين ، بسبب ما أصاب أنوثتك من التشوه إصابة قوية ، غيورة ، ونزّاعة إلى الملك ، وتحتانية .وستراكمين الضغائن . وستكونين مترصّدة أدنى علامة قد يبدو أنها « تبرهن » لك أن زوجك « يخدعك » ، ولو لم يكن إلاّ مع عمله أو سيارته . إنك ستكونين ماء يبتلع ، ولن تكوني النار أبداً . وستكون أقل حرية للآخر ، بالنسبة إليك ، علامة إهمال . فلا بد

لأنوثتك ، التي فقدت استطاعتها ، من أن تمتص طاقة الآخر لكي تستمر في بقائها . أما ذكورتك ، فلن يكون بوسعها أبداً ، في هذه الظروف ، أن تفلح في أبسط إنجاز شخصي .

وكان بوسعي أن أقول لها أيضاً :

- هل تعتقدين في نفسك محرومة ؟ إنك لست كذلك . طاقاتك في حالة من الانتظار في جهة ما . إنها في دارة صغيرة . ومن الضروري أن تكتشفي **في ذاتك** ما تطلبينه من الآخر . وإذا استمريت على هذا النحو ، أصبحت أكثر تبعية للآخر ، مع كل العداوة الخفية التي يفرضها ذلك.

وثمة كثيرات من اللواتي هنّ في مثل هذه الحال .

ها هي ذي امرأة لا تفلح في أن تعبّر عن ذاتها في الخارج ، ولا أن تتصرف وتقرّر وتبدع . والأسباب يمكن أن تكون كثيرة . فمن المحتمل أن يكون التعبير عن الذات في الخارج ممنوع عليها خلال مراهقتها . فأُوقف البخار ، حائلين بينه وبين أن يمضي نحو العنفة . ومن الممكن أيضاً أن تكون بعض العقد قد غزت اللاشعور ، والتهمت طاقة كبيرة ، فأضعفت الأنوثة . وكذلك ربما بقيت الأنوثة في حالة جيدة ، ولكن الخوف من العالم الخارجي يقيم سداً بين الأنوثة والذكورة .

حالة الأنوثة لدى هذه المرأة	حالة الذكورة لدى هذه المرأة
- طاقة مجمّعة ، ولكنها مستخدمة استخداماً سيئاً .	- صرف للطاقة يتجاوز الاحتياطيات .
- انحطاط تدريجي في الشخصية .	- متاعب .
	- اضطرابات جسدية شتى .

- ضغائن .
- ضروب حَصَر .
- عدوانية مكبوتة
- عناد .
- تخل
- أعمال ضعيفة الارادة ، ولا مستقبل لها .

ها هي ذي امرأة أخرى يسبّب رأي الغير حَصراً لها. وقد يكون هذا الحصر شعوري بصورة غامضة ، ولكن الجزء الأكبر منه منطمر في اللاشعور . وستتبنى هذه المرأة ، دون أن تعلم ، سلوكاً بوسعه أن يضرب قناعاً على حصرها . فهي تمثّل دوراً ، وتراقب (دون أن تفهم ذلك) كل موقف من مواقفها ، وكل حركة من حركاتها . وتصرف كميات كبيرة من الطاقة لكي تحمي نفسها . إنها شبيهة بشخص يدفع مبلغاً كبيراً من المال لفريق مثير من « المغاوير » في كل مرة ينبغي عليه أن يعبر الشارع .

فلدى هذه المرأة :

- تُستخدم الطاقة على نحو غير مناسب كلياً ، ومحض هدر .
- الطاقة الباقية لا تكفي للاعمال العادية .
- شحن جديد سيء ل « البطارية » . من هنا منشأ المتاعب . والاكتئابات ، والصداعات ، وتصلب الشخصية ، الخ .

حالة الأنوثة لدى هذه المرأة

- فقدان المرونة والتكيّف.
- نزح الطاقة .

حالة الذكورة لدى هذه المرأة

- تغذية سيئة .
- كل تعبير عن الذات في الخارج يمر بغربال الحصر .

– خضوع لاشعوري للغير .	– فاعلية تتم بقذف متقطع.
– مازوخية .	– عجز عن فرض الذات بصورة طبيعية .

ها هي ذي امرأة «حديثة» . كانت هذه المرأة مشروطة بأن لا تنظر إلا إلى النجوع والتنافس ، وبأن تهمل حياتها الداخلية . إنها تصرف من الطاقة أكثر مما تجمع .

حالة الأنوثة لدى هذه المرأة	**حالة الذكورة لدى هذة المرأة**
– تجميع للطاقة غير كاف	– عدوانيات يتم التعبير عنها في الخارج .
– فقدان الاتصال بالشخصية العميقة .	– قابلية للهيجان ، ونزوات ، وغضب .
	– آراء حاسمة .
	– هبوط عنيف في الفاعلية ترافقه الاكتئابات والأحزان دون باعث ظاهر ، وفقدان توتر العضلات ، وأرق ، الخ .

٢ – حالة آنيس

هذه الحالة توّضح الصعوبة التي كانت نيللي تعانيها ، ولكن في ظل إضاءة أخرى. كانت آنّيس ، المهجورة ، تقول لي :

– وهبت نفسي وجسدي إلى هؤلاء الرجال الأربعة . وكنت أثق بهم ثقة مطلقة ، وتركت نفسي تنقاد بهم انقياداً تاماً . وأمطروني

بالوعود ، ليهملوني فيما بعد ، لأنهم لم يكونوا يتحملون أن أظهر مشاعري التي تنطق عن الهوى . ومع ذلك ، يا سيدي ، لم يكن ممكناً قط لرجل أن يلقى من البراهين عن الحب أكثر مما لقيه هؤلاء الرجال .

ثمة ثلاثة أسئلة تطرح نفسها مباشرة :

أ — ما هي النقاط المشتركة التي كانت بين هؤلاء الرجال الأربعة؟

ب — ماذا كانت تمثّل ، بالنسبة لآنيس ، هذه النقاط المشتركة ؟

ج — لماذا كانوا يفرون أمام التعبيرات « العاطفية » لهذه المرأة الشابة ؟

وقالت لي آنيس أيضاً :

— ما كان يربطني بهم أنهم كانوا واثقين من أنفسهم . اثنان واثنان ، بالنسبة إليهم ، أربعة . وكانوا على حق دائماً . وكنت أشعر مثل ذاك الاعجاب ! وكانت لهم آراء واضحة جداً عن الحياة والناس .

ثمة سؤال رابع يطرح نفسه :

لماذا وضعت آنيس نفسها ، خلال أربع مناسبات ، في وضع مشابه؟ لماذا تركت نفسها يخطفها بسرعة أربعة رجال علامة صنعهم كان يبدو أنها ليست سوى : اثنان واثنان أربعة ؟

قالت آنيس :

— أنا ، لست ذكية ، أما هم فكانوا أذكياء .

— ماذا تقصدين بقولك هذا ؟

ـ حسن ، لم تكن أحكامهم قابلة للدحض . ولم يكن ثمة غير الانقياد والاصغاء .

ـ الإصغاء أم الاستسلام ؟

ـ نعم ، ربما الاستسلام . ولم تكن معارضتهم ، مع ذلك ، مطروحة.

ـ تتكلمين عليهم وكأنهم لم يكونوا يكوّنون غير رجل واحد .

ـ هذا صحيح . كان لهم أسلوب الحياة نفسه .

ـ ألم يكن يبدو أبداً أنهم يعانون ضرباً معيناً من الشك ؟

ـ أبداً . وكانوا يسخرون من العواطف التي لم تكن ، بالنسبة إليهم ، غير حماقات .

ـ وهل كانوا يبدون فخورين وهم يصرحون بذلك ؟

ـ نعم ، كانوا فخورين جداً . وهذا كان يصعقني ، ولكني . . .

كثير من المعلومات الأخرى جاءت ، خلال الجلسات ، لتكمل اللوحة . ولم تكن آنيس تجرؤ على أن تصدر رأياً عقلانياً . فعندما كان عليها أن تعطي رأيها ، كانت تقول : « **سأقول حماقة ولا ريب ، ولكن ألا تظنون أن...**» أو كانت تقول : « **ها هو ذا ما أستشعر ،ولكنه لا عقلاني ! . . .** » كانت هذه المرأة الشابة تعتقد في نفسها أنها عاجزة عن محاكمة منطقية . وهي ، في الوقت نفسه ، كانت تصاب بحالة من الغشيان أمام منطق « الذكر » . ولم تكن تدرك أن هؤلاء الرجال كانوا يعيشون على مبتذلات تافهة ، ولا أن « ذكاءهم » كان يرجع إلى واقعة أنهم محقون ، ولا أن « منطقهم » كان صورة من صور العجز .

ولكن لماذا كانوا ينفضّون من حول آنيس عندما كانت تبدي لهم غرامها ؟

كانوا يفرون لأنهم كانوا ، ربما ، خائفين . فالرجال الأربعة كانوا جميعاً « فرنسيين متوسطين » . وجميعهم كانوا من « الناجحين » . اثنان واثنان ، بالنسبة إليهم ، أربعة ، ولكنهم لم يكونوا يفهمون شيئاً من الحياة ولا من أنفسهم . ولم تكن حياتهم الداخلية سوى ضرب من الفراغ . كانوا « دهاة صغاراً » دون ذكاء إجمالي . وما وضع عواطفهم؟ عواطفهم مكبوتة. وإحساساتهم الداخلية؟ لقد فقدوا الاتصال بها. وحياتهم؟ كانت تدور حول النجوع والمال .

وكانت عواطف آنيس تدعوهم إلى الدخول في عالم مجهول ، وضبابي ، وشديد الخطر بالنسبة إليهم . وما كان بامكانهم أن يبيحوا لأنفسهم مثل هذه « العفوية » ، تحت طائلة الحصر ، وتحت طائلة وجوب الاعتراف بأنهم لم يكونوا في الواقع غير صبيان صغار . وكان غرام آنيس ضرباً من المحيط الذي كانت تتعرّض فيه ضروب أمنهم المتصلب إلى خطر الغرق .

ففروا بسرعة كبيرة صوب واقعيتهم التي يمثّلها ٢ + ٢ = ٤ .

أما فيما يخص آنيس ، فان ذكورتها تحوّلت إلى ضرب من الكاريكاتور : أن تبدو واثقة من ذاتها ، وأن تتبجح بكل شيء ، وأن تعقلن دون تمييز . **إنها لم تكن تميّز الذكورة من منطق هواة المنطق . وكان بوسعها أن تكون مغرمة بآلة من الآلات الحاسبة .**

وكان محتماً أن تسقط آنيس على رجال مشوّهين كانوا يمثّلون

المثال المزيّف لذكورتها الخاصة . وكانت قد تشبثت بهم ، على نحو يتصف بنزعة الملكية ، وعلى نحو متشنج .

خامساً — أهمية الوجدانية

١ — الوجدانية لدى عدد من النساء الناطقات بالفرنسية

كيف تبدو أنوثة المرأة في البلدان الناطقة بالفرنسية ، وكيف تبدو ذكورتها؟عندما يراقب الانسان هذه المرأة،وعلى وجه الخصوص المرأة التي تسكن مناطق لغة أويل * ، يشعر أنها نسيت فضيلة الابتسام ، والشكر ، والألفة العميقة . ويبدو أنها تحرّم على نفسها التعبير العفوي ، تعبير نظرة وعاطفة وانفعال . وهي تبدو أنها تريد أن تحتفظ ، بأي ثمن ، بموقف الفردانية المفرطة ، وأن تتسكّع حتى في دكاكين البقالة ، حيث تساوم ، إلى ما لا نهاية ، على ثمن الفاصوليا . إنها تتعسف في استعمال المحاكمة على الأمور الأشد اتصافاً بأنها ليست ذات معنى . وتبقى في حالة من الحذر ، ومزبئرة . وتؤكد « أنا » ها ، وهي تجادل في كل شيء وفي لا شيء ، كما لو أنها كانت تحاول بذلك أن تبرهن لنفسها عن وجودها .

وتبدو أنها فقدت هذه الاستطاعة الداخلية الهادئة التي تتيح ، وحدها، ضروب المنطق العظيمة . ولم تعد تفلح في أن تكيّف انفعالاتها مع الظروف ، وتتخبط في سلوكات متناقضة تحاول تبريرها وهي تتكلم .

(*) لغة أويل Langue d,oil : اللغة المحكية ، في القرن التاسع الميلادي ، جنوب خط يمضي من بواتيه إلى غرنوبل في فرنسا ، كانت تسمى لغة أوك (OC) ، واللغة المحكية شمال هذا الخط كانت تسمى لغة أويل « م » .

ومن المؤكد أنها أُجبرت ، منذ أيام ديكارت ، على عدم التمييز بين العقل والذكاء . وكانت مشروطة بالاعتقاد أن حسبها ، لكي تعيش عيشة جيدة ، أن تتظاهر بأنها تلجأ إلى المحاكمة . وأكد الناس لها أن استشعار الحياة بصورة عميقة – والآخرين – لا ينطوي على أي أهمية ، وأثبتوا لها أن المحاكمة هي كل شيء ، وأن اللاشعور شيء زهيد . ونحن نعلم في أيامنا هذه أن العكس هو الصحيح . فحياة اللاشعور مستمرة ، شبيهة دوماً بذاتها ، كالنهر القوي الذي ينقل القوارب والفضلات في الوقت نفسه . ونحن نعلم أنه ليس ثمة شيء أكثر تقطعاً من الحياة الشعورية التي تفصلها العادات ، والعقد ، وضروب الحصر ، والمنعكسات ، والموروثات .

ووُصفت لها حياة اللاشعور والتعبير عن الانفعالات على أنها مريبة. كان ذلك ، بالنسبة إلى المرأة ، عبادة العقل الالزامية **التي ارتبكت فيها** . وضعفت قوتها الداخلية بمقدار ما كان يسود التعسف في استعمال العقل.

وبوصفها عاجزة عن الابتسام – عن أن تبتسم **لنفسها** – ، لم تجد وسيلة أخرى غير **التهكم** من شريكها لتحمي نفسها . ذلك أن الدعابة تنقصها على نحو مرعب .

وحتى صوتها ، فقد فقد رنينة العميق . إنه نزّاع نحو الحدّة بمبالغة. فهو صوت صادر من « الرأس » ، محروم من « الخزنة الوجدانية » ، ومحروم من « البطن » ، ومحروم من النفس الهادئة .

وصنع لنا ديكارت سلوكات مناوئة للانسانية . لقد أجبر امرأة بلدان الأويل على أن ترفض أن تكون عفوية مع الآخر ، بالرغم من أنها

ممزّقة بين الانفعالات التي تدفعها نحو الآخر ، وبين العقلنة الفردية المزيّفة التي تبعدها عنه . وبعبارة أخرى : إنها تخشى أن تترك ، ولو للحظة ، أمن « المظاهر » العقلانية المزيّف .

وما كان بامكان الكاثوليكية القديمة إلا أن تستجيب لهذه الظاهرة الثقافية . وإن قصد ديكارت أن اللاشعور والحياة الداخلية ، وبالتالي الأنوثة العميقة ، كانت غير جديرة بالموجود الانساني ، فان الكاثوليكية حدّدت المرأة على أنها تلك « التي بفعلها تحدث الكارثة » . وبما أن المرأة **كانت متوحّدة بأنوثتها وحدها** ، فان الأنوثة ذاتها أصبحت معيبة . وحدث ، هنا كذلك ، عدم تمييز بين « الجنس » والطاقة الداخلية . فمن كان إذن ، في هذا العصر ، يجرؤ على الكلام عن استطاعة الأنوثة ، أو ينظر إلى ذكورة امرأة على أنها أمر سوي ؟

ومع هذا ، فالانفعالات العميقة ، بما أن « الأنوثة » هي محل الكارثة ، قد أصبحت كذلك (للسبب ذاته) ، ومثلها العواطف والإحساسات . والتديّن الحقيقي (الارتباط بالآخر وبالعالم) كان محكوماً عليه بالمنع .

عديدات من النساء الناطقات بالفرنسية كنّ قد وُضعن على هذا النحو في مشد مزدوج . فكان على أنوثتهن أن تجزّىء امتداداتها الواسعة. وذكورتهن تمخّضت ، بصورة مباشرة ، عن هوس المناقشة ، والسلوكات المتقلّبة أو ضروب الهزء .

ولا تعرف هؤلاء النساء ما يفعلن بهذه الوجدانية المحرّمة . وهن ، تحت المظاهر ، يسقن نفساً حنينية أصبحت العاطفة فيها عاطفية منكفئة.

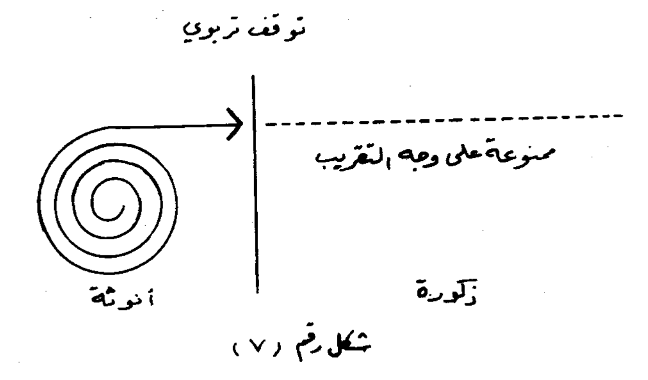
٢ – عندما التّربية تزيّف البنات . . .

كل ما يوقف الطاقة ، الداخلية ، أو يكبحها ، أو يحوّلها ، يرفع من الأنوثة جزءاً من استطاعتها . والحال أن الاشراطات الثقافية والعقد تكوّن ، بالنسبة إلى الطاقة ، أقنية تحويل حقيقية . **وضروب الكف ، من أي نوع كانت ، تصبح كذلك كميات كبيرة من الطاقة** . أما الحصر ، فانه يلتهم الطاقة الداخلية تماماً .

ولا ينبغي أن ننسى أن الذكورة ليست سوى محصلة الأنوثة (أو الطاقة الداخلية) .

ماذا يعلّمون ، والحال هذه ، للبنات عادة ؟ يعلّمون أن الطاقة من ماهية الذكر ، وأن الطاقة المرئية والمعبّر عنها في الخارج هي وحدها التي ينبغي أن تؤخذ بالحسبان ، وأنه ليس للأنوثة من هدف سوى أن تلفت إليها الأنظار وأن تكون محبوبة ، وأن **الأنوثة طُعم لا قوةٌ في حد ذاتها**، وأن الأنوثة كلما كان مستضعفة و « ساحرة » كان للفتاة نصيب في أن تكون محبوبة ، وأن الذكورة مريبة لدى الفتاة ، وأن ضروباً عديدة من التعبير في الخارج عن الطاقة مباحة للصبي ولكنها محرّمة على الفتاة .

إنهم يعلّمون الفتاة على هذا النحو أن تمسك طاقتها ، وأن تحتفظ بها في الداخل ، وأن تجمّعها ، وأن لا تظهرها . ويمكن رسم تخطيطية لهذه الظاهرة كما يلي :-



شكل رقم (٧)

والبنت ذات استعداد مسبق ، بفعل بنيتها الغدية إلى درجة كبيرة ، للحياة الداخلية . فبدلاً ، والحال هذه ، من تنمية الجناح الآخر من شخصيتها (ذكورتها) ، تُستثار مواهبها الطبيعية . وذلك شبيه على وجه الدقة بطالبة ، موهوبة في الفلسفة ، ترى نفسها مجبرة على أن تقتصر طيلة حياتها على الفلسفة وأن تهمل فروع المعرفة الأخرى ، مع احتمال أن تصبح فأرة مكتبة .

٣ ــ ما هي النتائج ؟

ونحن ، إذ نتصرف على هذا المنوال ، نبيح للبنت أن تجمّع كل الطاقة التي ترغب في أن تجمعها ،**ولكننا نضع سدادة بين المرجل والعنفة.** من هنا منشأ الحثّر الوجداني . فالبخار يظل تحت الضغط . بيد أنه لا ينبعث إلا قليلاً أو كثيراً بحسب السدادة التي وضعتها التربية . وتصبح البنت ، إذا كانت ذكورتها موقوفة ، شبيهة ببطارية سيارة مشحونة ، لكنها موضوعة بعيداً في زاوية من زوايا المرآب حيث تتلف ببطء وبالتأكيد .

وتتشوّه الأنوثة بمقدار ما تنخفض الطاقة الداخلية . **وتصبح البنت عاجزة بالتدريج عن أن تحب . فلا تبحث إلا عن أن تكون محبوبة . وليس بوسعها أن تكون معطاءة ، ولا تطلب إلا أن تكون متلقية . ويتعذر عليها أن تكون مستقلة . فهي تبحث عن العون والحماية .**

وحين تكفّ الأنوثة عن أن تكون قوة حيوية ، تصبح المرأة «مصيدة رجال» . وبما أن ذكورتها ، من جهة أخرى ، غير موجودة إذا صح القول ، فان المرأة تعاني الحاجة إلى البحث عن ذكورتها في الآخر . لدى رجل والحال هذه ، كما فعلت نيللي التي ذكرناها فيما سبق . وغني عن البيان أنها لن تجدها فيه أبداً ، **ما دامت هذه الذكورة ليست ذكورتها الخاصة** . فتبدأ عندئذ حياة « بالوكالة » . ويصبح نجاح زوجها نجاحها . وتنكّد عيش الرجل لكي يكون دائماً أكثر بريقاً في « المظهر » ولا تجني سوى الفتات .

وعندما تشعر هذه المرأة برغبة « الانبجاس نحو الخارج » ، وبرغبة في أن « تصعد » نحو الإبداعية والعقل ، فان ثمة شكا يعذبها : «إذا أبدعت وتصرفت ، هل أظل أنثوية بما فيه الكفاية ؟ » . إنها لا تفكر بأن تظل أنثوية بما فيه الكفاية لكي تغذّي إبداعيتها ، وتكون معطاءة ، وتحب ، بل « أنثوية بما يكفي للاغراء والطلب والتلقي » . **إنها تعكس قيم الأنوثة.** وذلك أمر مفهوم ، إذ أنهم علّموها أن الأنوثة لا تمثّل قوة الشخصية ، بل تمثل ضعفها .

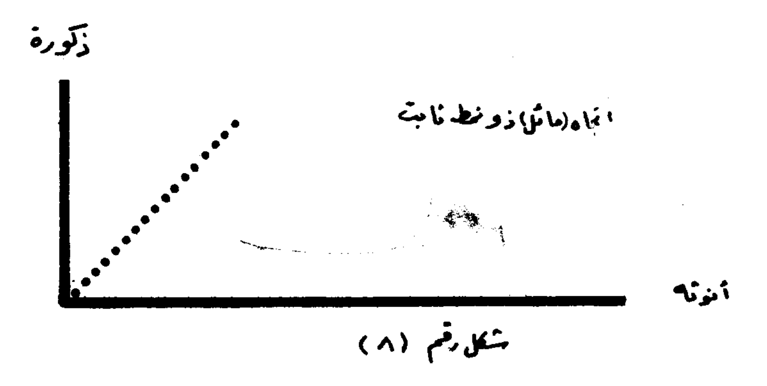
وفي كل مرة تنظر في بعد « عمودي » ، ثمة إثمية خفية تطفو على السطح : « إنني عاجزة عن ذلك . . . الرجال هم وحدهم الذي يستطيعون . . . هل أكون شبيهة بالرجال ؟ إنني سأكون فاقدة الحظوة... لن يحبوني أبداً » .

فهي تتردد إذن بين :

أ — **البعد الأفقي** (المتلقي ، والراكد ، واللاامتمايز ، والوجداني على نحو واسع ، والملتحم بالأشياء) الذي يميّز الأنوثة ،

ب — **والبعد العمودي** (المنبجس ، « والصاعد » ، والمنتصب ، وذو الشكل الواضح) الذي يميّز الذكورة .

والمرأة ، في أحسن الحالات ، تتخثّر في بعد « **مائل** » ، لا مستلق ولا واقف ، لا مؤنث ولا مذكر ، لا عنزة ولا ملفوف ، عاجز عن النوسان بصورة منسجمة من بعد إلى آخر .



شكل رقم (٨)

أو أنها تصبح امرأة — ليست — سوى — مؤنثة . فترتدّ إلى حالة يرقية ، لامتمايزة . وهي ، من الناحية الرمزية ، **ترقد أمام الحياة** ، دون أن يكون لديها القدرة على أن تنتصب .

ذكورة

أنوثة برقية

أنوثة

شكل رقم (٩)

التربية والثقافة تعلّمان المرأة حالياً أن عليها أن تعيش في بعد منتصب بمغالاة ، عمودي إلى حد الإفراط . ولهذا السبب ، فهي إما أنها تنسخ رجولة الرجال الحديثين المزيّفة ، والعبثية ، وإما أنها تقف ضدهم ، والأمران سيّان .

والمرأة مغلوبة سلفاً في هذا الصراع العصابي . فليس بامكانها إلا أن تعزّز الخوف الذي يعانيه الرجل إزاءها . وليس بامكانها ، بوصفها عاجزة عن الابداع ، إلا أن تتبنى إبداعات الرجال سواء كانت أصيلة أم لا . وليس بامكانها ،وقناعها عصبي مهيمن ،إلا أن تكون تابعة والحصر رفيقها .

وتنخرط المرأة على هذا النحو في وضع دون مخرج ، في ردْب حقيقي .

رابعاً : هل ثمة إمكان لثورة ؟

١ – المرأة حائزة على المنابع الضرورية

تذكروا : كل شيء في البداية كان يبدو بسيطاً . فعلى الصبي الصغير أن يصبح رجلاً ، وعلى البنية أن تصبح امرأة . ولكن كلا من هاتين

الشخصيتين أصبح مضاعفاً . **فالمرأة اتخذت وجهين** : الأنوثة والذكورة. وانتقل مركز الثقل بالإضافة إلى ذلك : **ذلك أن الأنوثة احتلت مركز الصدارة ، في حين أصبحت الذكورة محصّلة .**

ومنذئذ تغيّر كل شيء . فليست المسألة مسألة هرمونات ، وإنما هي مسألة أسلوب استخدام طاقة معطاة . واختفت المقاييس التقليدية المعزوّة إلى « الجنس المؤنث » ، في الوقت نفسه : فالمرأة مستقبلة للطاقة ومرسلة.

والحقيقة أن هذا الفصل يبدو ضرباً من السخرية في مقابل ما يجري حوالنا ، وفي مقابل الدرب الذي يبقى علينا أن نسلكه . وما علينا إلا أن نقوم بمحاولة : **اطلبوا من القادم الأول** أن يقول لكم الكلمة الأولى التي تخطر على باله جواباً لكلمة « أنوثة » . إنكم تحصلون على جميع الإجابات الممكنة ، سوى الاجابة الجيدة التي هي : **طاقة داخلية** ، طاقة كامنة ، طاقة أساسية . **قاعدة لا غنى عنها لأي إنجاز إنساني .**

والأنوثة استطاعة **في حد ذاتها** ، بالتأكيد . ولكن ماذا تفعل المرأه إذا كانوا يظهرون لها العكس في كل مناسبة ؟ وإذا كانوا يتعهدون بالرعاية صورة عدد من الأنوثات اللواتي يثرن الشفقة ، ويتعهدون بالرعاية استخدامهن وبيعهن ، وعدد من النساء النباتات ، والنساء اللواتي تحوّلن إلى تماثيل ، والنساء النرجسيات . والنساء عارضات الأزياء ، والنساء المغاليات في لبس الأطواق والخواتم والشعور المستعارة ، والنساء الدمى الناصلات اللون ، والصبايا اللواتي يجررن ضجرهن في الغبار كما يجررن سراويلهن في الوقت نفسه ؟

ونظراً لطاقاتهن الهزيلة ، كيف يمكنهن أن يصبحن مبدعات على

نحو مستقل وغير عدواني ؟ ولا يبقى لهن غير أن يلجأن إلى ابداعية خارجية تقوم لديهن مقام البديل : إبداعية الرجل.ولكن هؤلاء النساء ، إذ يتصرفن على هذا المنوال ، يراكمن ، في جميع الحالات ، كثيراً من ضروب المرارة اللاشعورية ، بحيث يفضين إلى ضرب من الخضوع الشرس ، الذي يتصف بأنه نموذج انحطاط الأنوثة . أما النساء الأخريات ، فمن المحتم أن يحتقرن وضعهن ، إذ أنهن سيكملن حياتهن وفاق المعادلة التالية : الأنوثة هي الضعف .

٢ ــ الفضائل الأساسية

وبالاختصار : إما أن تكون النساء ملزمات بالبقاء أنثويات بصورة مشوّهة ، بحسب المعايير القديمة ، أي ظليلات ، وبلون الأخضر المزرق ، ودون قوام . وإما أن يكنّ مجبرات على « ذكورة » مزيّفة كذلك ، منسوخة عن ذكورة الرجال الحديثين .

وتظهر بعض النساء الشهيرات على المسرح من وقت إلى آخر . فهل تعتقدون بأن وصف هؤلاء النساء يتم على صورة أنهن حقّقن أنوثتهن و ذكورتهن الأصيلتين ؛ ؟ على الاطلاق : بل يعزون إليهن ، بصورة قبلية ، ضرباً من العبقرية . وعلى هذا المنوال ، يُصنع منهن نماذج «استثنائية » ، ويعزّزون ، بنتيجة ذلك ، حالة الدونية لدى النساء الأخريات .

قالت لي إحدى الصبايا بهذه المناسبة :

ــ **إننا نشعر عندئذ بأننا بلهاوات** ، ذوات أسنان طويلة جداً ، **يُقال لهن : « النساء أيضاً قادرات على أن يفعلن شيئاً ! » فلماذا لا يقال ببساطة : « ها هي ذي المرأة الحقيقية ! »**

هذه الصبية كانت على صواب . إن تياراً واسعاً من الاعلام السيكولوجي ينبغي أن يحض النساء على مباشرة **ثورتهن الخاصة** . ولا بد من تنظيف كلمة « الأنوثة » من بقع الدونية ، والإثمية ، والحصر ، واللاأمن ، والعداوة .

ومن المؤكد أن ثورة شخصية تحتاج إلى زمن ، وصبر ، وثبات ، ووضوح. والأشخاص الذين يباشرون تحليلاً نفسياً (الثورة الشخصية الأعمق التي يمكن إجراؤها) يعرفون شيئاً عنها (١) .

والحال أن الزمن،والصبر ، والجرأة ،والوضوح ، من خصائص الأنوثة . فالنساء إذن ذوات استعداد مسبق لهذه الثورة الداخلية . ولكن سيكون من الضروري ، بالنسبة إليهن وإلى العالم ، أن يفهمن ذلك .

٣ ـ احتياز الشعور أمر غير يسير . . .

قد يجد المرء ، من مليون امرأة يختارهن مصادفة ، عدداً كبيراً من الأنوثات في حالة جيدة ، ولكنها في حالة الانتظار العقيم . فقد يجد إذن كثيراً من الذكورات الممكنة ، ولكنها تظل ساكنة .

بيد أن من المتعذر استرجاع هذه الطاقة الداخلية ، وفتح دروب الظهور لها نحو الخارج ، إلا إذا عادت المرأة إلى طفولتها لكي تستأنف مسارها من نقطة البدء . فمسار الحياة يصيبها التزييف خلال مرحلة عقدة أوديب ، على وجه الخصوص . والأسباب هي ذاتها دائماً : تربية ، ورد فعل أمام التربية ، ومناخ عائلي ، ومعايير أخلاقية ودينية واجتماعية ، الخ .

---

(١) انظر « انتصارات التحليل النفسي » ، بيير داكو ، مارابو . وقد كلفتني وزارة الثقافة والإرشاد القومي بترجمته إلى العربية « م » .

وتجري البنية، ثم المراهقة فالمرأة ، نحو آفاق لم تكن مخصصة لهن قط. انظر فصل : « البنت المحصورة » .

وتواجه البنيّة ، منذ بداية حياتها، شخصيةرئيسة : أمها . وهذه الأم تطبع علامتها (سلبية كانت أم إيجابية) على أنوثة ابنتها . فها هي ذي أنوثة البنية إذن تنطلق . ولكن الأم . بالرغم منها ، ولا بد من الاعتراف ، هي التي تسحب الخيوط . ثمة منذئذ سؤال يطرح نفسه : في أي حالة هي أنوثة الأم ؟**أية استطاعة هادئة ، أي وضوح** ، يمكنها أن تنقلهما إلى القطب المؤنث لدى ابنتها ؟ وتواصل البنت دربها وهي ، بالطبع ، تجهل جهلاً كاملاً ما يجري في داخلها . ومع ذلك ، فان أنوثتها الناشئة في حال « التنصت » . ذلك هو دورها . فالأنوثة تستشعر . وتلك هي وظيفتها . والأنوثة تلتقط : إنها لا يمكن أن تفعل على نحو آخر .

والسؤال الآخر : كيف تستخدم **الأم** طاقتها ؟ هل هذه **الطاقة** جيدة النوع ، أم أنها ليست ذات شذى ؟ هل أتاحت الحياة لهذه **الأم** تنمية أنوثتها الخاصة وذكورتها الخاصة ؟ فكون البنيّة تنسخ أنوثة أمها أو تنبذها ، خلال زمن معيّن على **الأقل** ، أمر واقع والحال هذه . ولكن من المؤكد أن بنيّة لها من العمر عشر سنوات تتروّى قبل أن تقلّد أنوثة **الأم** ، التي تطابق ما سمعت يقال في أغلب الأحيان ، أي : الأنوثة « **ليست إلا . . .** » وغير ممكن مع ذلك أن نطلب إلى طفلة عمرها عشر سنوات أن تصلح الوضع ، مدركة أن أمها تعثّرت بظروف مدمّرة !

فما هي أنوثة الأم إذن ؟ **وكيف تعبّر عن هذه الأنوثة في الخارج** ؟ هل تعبّر عنها بفاعلية صاحية ومستقلة ؟ أم بسلوكات عدوانية ؟ **مدققة**؟

خانقة ؟ هل تعبّر عنها باتجاه يتصف بنزعتي المطالبة والملكية ؟ بسلطوية لاذعة ؟ بسلوك الشهيد ؟

الحالة الأكثر شيوعاً أن البنيّة ترفض بصورة لاشعورية أن تكون «شبيهة بأمها ». ولا بد من أن نجعل لهذه العبارة مضموناً . ومضمونها : «إذا كان الأمر كذلك ، أي أن أكون امرأة ، فانني سأبحث في مكان آخر » . ولكن **أين** ، ما دامت ، وهي تقول ذلك ، تكون سلفاً **قد** شرعت في إيقاف أنوثتها الخاصة ؟

إن البنيّة تتبنى اتجاهاً « مناوئاً للأنوثة » إذن . فلنشرح المقصود : **إنها تنبذ أنوثة أمها .ولكنها ، بطريقة غير مباشرة ،ترفض أنوثتها الخاصة** ، **وبالتالي ترفض استطاعتها الداخلية الخاصة** . وستشرع عقد ، وضروب كف ، في الظهور وفي التهام الطاقة .

وإذا لم يكن بوسع البنيّة أن تجمّع الطاقة الكافية ، فان ذكورتها تنحط بصورة آلية . من هنا منشأ جميع **المراهقات** ذوات العيون الخالية من الحيوية ، اللواتي تتصف فاعليتهن بأنها ثقيلة كالرصاص ، واندفاعيتهن مغالية ، ونزواتهن غير متوقعة ، وغطرستهن لا تصدّق . إن بعضهن يركد في العطالة والخضوع والمازوخية ، وبعضهن الآخر ينطلق في تنافس حاد ، لأن أنوثتهن لم تعد تجمّع الطاقة . **وذكورتهن ، بوصفها سيئة التغذية ،هي في انتظار الرجل الذي سيصبحن ظله** .

ووظيفة **الأب** الرئيسة ،الذي يتصف تأثيره أنه مهم بالتأكيد ، أن يعلّم ابنته أن **تحسن التعبير عنطاقتها في الخارج** . إنه ضرب من المدرّب على الحياة الاجتماعية ، وعلى المعركة اليومية . ولكن ينبغي مع ذلك أن

تكون قد استطاعت تجميع الطاقة على نحو كاف : الأمر الذي يعيدنا إلى الدور الذي تؤديه الأم . فليس عمل الأب ممكناً إلا بقدر ما تكون أنوثة ابنته من نوع جيد . وإلا كانت محاولته شبيهة بمحاولة من يطلق رصاصة مسدس . مستخدماً كبسولة فارغة .

بعض اتجاهات للتفكير

ها هي ذي بعض الاسئلة التي يمكن لكل امرأة ، وينبغي عليها ، أن تطرحها :

- هل استطعت أن أسوس طاقتي الداخلية على نحو سوي ؟

- أي موقف كان لي ازاء والدتي ؟

- ماذا جمّعت في أنوثتي : إحساسات جيدة خاصة بالحياة ؟ ضروباً من المرارة ؟ ضروباً من الغضب الخفي ؟ ضروباً من الخضوع لـ « أظفر بالسلام » ؟

- هل كنت مرتاحة عندما كنت أطاق حركة ذكورتي . وأعبّر عن نفسي في الخارج ؟

- عندما كنت أبرز ، وألعب ، وأبدع ، وأعطي رأيي ، ألم أشعر بأني عاجزة ، وعدوانية ، وطفيلية ، وشديدة الوثوق بنفسي ، ومجرمة ، ودنيا ، ولا يكاد يقبلني الآخرون ؟

- كيف تعبّر طاقتي عن نفسها في الخارج ؟ بالعدوانية ؟ بالتهكم؟ بعفوية أصيلة توحي بالثقة ؟

- وهل طاقتي ، في الواقع ، تعبّر عن نفسها في الخارج ؟

- ألم تفسد الضغائن وضروب المرارة أنوثتي تدريجياً ؟

٤ ـ دور علم النفس الحديث

الدور الأول لعلم النفس الحديث ، ولكنه الدور الهائل ، أن يعيد لمفهومي الذكورة والأنوثة معنييهما الحقيقيين .

ودوره الثاني مشتق من الأول . فاذا كانت الأنوثة الحقيقية قوة حية لا غنى عنها ، ينبغي أن نثيرها خلال العالم . وأعني بذلك مساعدة الموجودات الانسانية على أن تكتشف في أعماق ذاتها قيم الرحمة والشفقة والانسانية والسلام . وأنا أعتقد أن الكثيرين يرغبون في ذلك ، لا بداعي ضرب من الأخلاق ، بل لأن التجرد من الانسانية تجرداً عاماً يخيفهم . ودافعية البدء ليست مهمة مع ذلك ، إذا كانت النتيجة الحاصلة جيدة .

لا بد من أنتعود للأنوثة مكانتها : ولكن ليست المسألة مسألة ضرب من تمرد النساء ضد « قانون الذكر » . بل الصعوبة أعمق بكثير : إنها خاصة بالحصر والخوف اللذين يشرحان هذا القانون المزعوم ، « قانون الذكر » . (انظر مرة ثانية فصل « المجازر وضروب التآخي ») .

ولا يعرف محض التكنوقراطيين إلى أي حد قطعوا صلتهم بالأنوثة والحياة ، إنهم يمضون ، مدفوعين بخوف مظلم ، من كوكب إلى كوكب ، ومن فكرة إلى فكرة ، ومن نظرية إلى نظرية ، ومن حرب إلى حرب : كيف يمكنهم التوقّف ما داموا لم يكتشفوا صحوهم وطاقتهم الداخلية ، وما دامت كلمة « إنسانية» تظلّ فارغة من المعنى لديهم ؟

أن نعيد الأنوثة إلى العالم ، ذلك يعني أن نمنحه ثانية حكمة عميقة وقوية ، تعبّر عن نفسها في الخارج مباشرة بفاعليات إنسانية ضرورية ، وذات حس سليم .

ذلك يستلزم أيضاً ضرباً من التحوّل الجذري في الفكر الذي يغذّي التكنوقراطية (١) . وإذا كانت التكنوقراطية قد اتخذت وجهاً غير إنساني ، فذلك لأن الخصائص الكبرى التي تتصف بها الأنوثة تنقصها: النظام ، والصحو العميق ، والحكمة ، والتفكير ، والزمن ، والسلم.

هل يفهم الناس إلى أي مدى يحتاج العالم إلى رجال ونساء « ذوي قطبين » ؟ وكم من الملح أن يكفّ الناس عن تغذية فاعليتهم ذات الأنوثة المريضة ، والطفالية ، والفوضوية ؟

وعندما الأنوثة تجد المكانة التي تستحقها – ولكن لا بد من انقضاء مئات السنين ، دون ريب – ستصبح الأمهات ، بفعل ذلك ذاته ، ركائز العالم . **ذلك أن المنشأ المباشر لكل قوة داخلية عند بنت أو صبي – شأنها شأن كل ضعف – هو الأم .**

ولهذا السبب ، فان علم النفس الحديث ينبغي أن يحدّد لنفسه هدفاً أول هو مساعدة المرأة على أن تكتشف نفسها بنفسها :

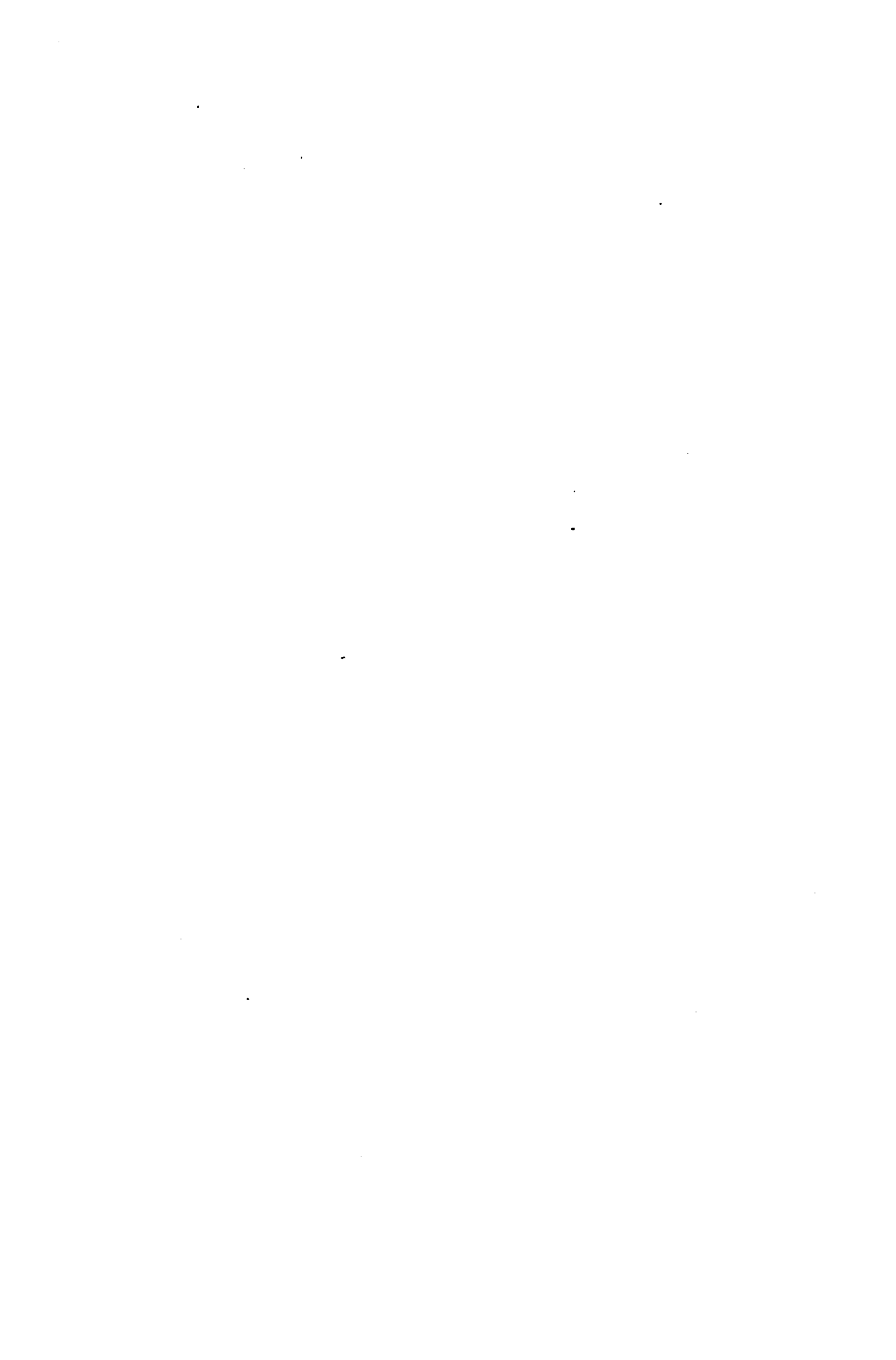
– أن تصبح ثانية مراقبة صاحية ، ومنتبهة ، وثاقبة النظر ، وهادئة.

– أن تصبح ثانية مشاهدة لذاتها وللعالم بدلاً من أن تكون « ممثلة» تطيع الأوامر القديمة أو الجديدة بفعل الاثمية .

– أن تعيد تنظيم أنوثتها بالمعنى الأقوى لهذا المصطلح .

– أن تتّخذ « بعداً » معيناً يتيح لها أن تكتشف الأخطاء الحالية وأن تصلحها . نعم ! قد يحدث ذلك في بضعة قرون . . .

(١) ينبغي أن نميز بين التكنوقراطية وبين التقنيات . فلو اكتشفت التكنوقراطية نفسها ، لاستخدمت تقنيات لن تكون مجردة ، بل مشخصة ، بمعنى أن تحسب هذه التقنيات حساب الموجودات الانسانية قبل كل شيء .



عندما تقول امرأة لرجل ، أو رجل لإمرأة : « أحبك » ، فان المضمون على الغالب : « أحب فيك ما ينقصني » .

وذلك يعني أنهما يحبان نفسيهما حباً شديداً .

ذكاء الأنوثة يمتدّ عرضاً ، وذكاء الذكورة يمتدّ عمودياً . أوليس ذلك ضرباً من التكاملية الرائعة التي ينبغي لكل رجل ولكل امرأة أن يحوز عليها ، كل في ذاته ؟

ولو أن بعض النساء ، ذوات الأنوثة الواسعة ، قدن العالم ، لكان من المحتمل أن يكون متخلّفاً ألف سنة عما هو عليه ، لأنه ظلّ مشخصاً ، إنسانياً ، منظماً .

ولكنه كان مستقراً .

المرأة ، من الناحية السيكولوجية ، بطن مغلق واسع الأرجاء . وهكذا ، فالعالم يصبح لها أبنا هائلاً يطلب يقظتها وحنوها . ولكنها إن لم تحرسه ، فان بطنها يستحيل إلى مخنق ضخم ، يبحث عن الاحتفاظ بمن ولد .



الفصل التّاسع

صوب الثنائي

> حبهما هو الطفل الوحيد الدائم للثنائي .
>
> هيلين تيبول يارت .

مئات العناوين الخاصة بالثنائي كانت قد صدمتك مثلي ، وأنت تتصفّح مجلات وكتباً وصحفاً. وها هي ذي بعض العناوين ، نسوقها دون ترتيب : « هل الثنائي — أسطورة ؟ — الثنائي موضوع موضع التساؤل. — الثنائي في خطر . — هل الزواج وهم ؟ هل الزواج مقضيّ عليه ؟ »

لماذا هذه الهجمة من الحمى ؟ لماذا اتخذ مفهوم « الثنائي » فجأة أهمية لم يكن يبدو أنه كان يتصف بها ، ولماذا كان الناس يرفضون وضعه موضع التساؤل ؟

ولكن من الضروري مع ذلك أن نعرف ما المقصود . فكثير من المؤلفين يقذفون بالثنائي ، بصورة قبلية ، إلى النجوم من خلال ضرب من أسلوب الشعر الغنائي الذي أُضفيت عليه المثالية ، ومن خلال لغة تزيّف المعطيات مهما كانت موضع إعجاب في بعض الأحيان .

وعلى هذا النحو يبدأ بعضهم من النهاية ويتكلمون عن المنثور في وسط فصل الشتاء . إن تأملاً أول ينبغي مع ذلك أن يحضّنا على مزيد من الحذر .

والثنائي ، من الناحية المنطقية ، = ٢ . ولكنه ماذا يساوي من الناحية الواقعية ؟

لكل فرد بعدان : شعوره ولاشعوره . قطبه المذكر (الاظهار إلى الخارج) وقطبه المؤنث (الحياة الداخلية) .

الأمر الذي يعطي الآن ما يلي : ثنائي = ٤ .

أربعة شخصيات في شخصين . ولكن هذا ليس كل شيء على الإطلاق . فاللاشعور ، إذا كان في حالة من الفوضى ، ملجأ لجمهور من الشخصيات المختلفة والمتناقضة . التي نجهلها نحن أنفسنا . ولكنها تسحب بمهارة خيوط سلوكنا . ذلك أن كلا من هذه الشخصيات ستتدخل بحسب مخاوفنا ، وضروب كفّنا ، وعقدنا ، وعاداتنا ، وضروب طفالتنا وتعويضنا ، وعدوانياتنا ، وانفعالاتنا ، ومحاكما تنا ، وإحساساتنا الآنية.

وهذا يعني أن كل عنصر من عنصري الثنائي يمكن أن يتشظّى ، في يوم واحد ، إلى فيض حقيقي من الأفراد المشتتين ، ولكنهم فاعلون . ونرى أن عدد الشخصيات ، التي ستكون مهمتها تكوين الثنائي ، يرتفع ارتفاعاً مدهشاً ، هذا الثنائي الذي ينبغي لهأن يكون ، مبدئياً ، مقتصراً على اثنين .

أولاً : ما هـــو الثنائي ؟

إنني أنقل بأمانة عن أحد المعاجم * :

(*) نقل من أحد المعاجم القرنسية بالطبع : والمقصود معاني كلمة « ثنائي » : Couple

ثنائي : شيئان من نوع واحد ، منظور إليهما معاً أو موضوعان معاً ، ولكنهما مقترنان اقتراناً عرضياً ، ثنائي من البيض ، ثنائي مشوي من السمانيات . على سبيل المثال .

فاذا فحصنا الأمر من كل وجوهه ، فاننا لم نصبه بعد .

ثم . من المعجم ذاته :

ثنائي : موجودان توحّدهما الارادة ، أو العاطفة ، أو أي سبب آخر يجعلهما قادرين على أن يتصرفا باتفاق وتعاون . مثلاً : ثنائي من العشاق ، ثنائي من الأصدقاء .

وفي ميكانيك العصر :

ثنائي * : منظومة من القوى المتساوية ، المتوازية ، ولكنها ذات الاتجاه المعاكس .

إننا نقترب . فالمسألة هنا مسألة عنصرين متشابهين بعض التشابه (العشاق ، الأصدقاء) . هذا العنصران يجتمعان ويكوّنان « مجموعاً » يحصل بفعل الخصائص الخاصة ذاته . ما هي هذه الخصائص ؟

١ — من الآن إلى الديمومة

لنتصور رجلاً ومومساً . هل يؤلفان ثنائياً ؟ قد يقال ليس بينهما سوى صلات تناسلية آلية . ولكن هذا أمر متعذر . ذلك أن أي عمل إنساني ، أيا كان ، ينبع من الوجدانية (انفعالات فظة أو مهذبة ، شعورية أو لاشعورية ، وعواطف وإحساسات سلبية أو إيجابية) .

(*) المقصود هنا « مزدوجة » ، في الميكانيك « م » .

بين هذا الرجل وهذه المومس إذن صلات وجدانية . سواء علما بذلك أم لا . والمألوف أن الرجل يبحث عن وهم ضرب من المحبة ، وتشعر المرأة بحنو أمومي مبهم . ووجدانيتهما يمكن أن تدور حول السادية أو المازوخية ، حول « الحب » أو « الكره » ، الخ .

هذا الرجل وهذه المرأة يكوّنان ثنائياً ، ولكن رابطتهما موسومة بسمة **قصر المدة** . فهي ، دائماً على وجه التقريب ، ما أن تتكوّن حتى تنحلّ .

والثنائي الحقيقي يفترض ديمومة . ذلك هو القانون الأول. **فليس ثمة من ثنائي حقيقي رابطته آنية .**

ولكن كم مرة في اليوم ، لدى العديد من ضروب الثنائي ، لا تفقد المرأة والرجل اتصالهما لأن هذه الشخصية أو تلك ، التي انبعثت من اللاشعور ، أخذت تقود الرقص ؟ ويكفي لذلك ذكرى ، أو حلم من أحلام يقظة في خلوة ، أو حنين ، أو خوف من الآخر . ويكفي أن يستشعر الرجل امرأته كأم ، ليكفّ عن أن يكون زوجاً وليصبح «ابنا». فثمة الكثير من المناسبات التي يمكن لكل عنصر من عنصري الثنائي أن يصبح شبيهاً بعامل على الراديو يطلب عبثاً زميلاً له ، موصولاً بطول آخر من أطوال الموجات !

في هذه البرهات إياها ، يكفّ الثنائي عن أن يكون موجوداً من الناحية الوجدانية . فالديمومة تنقطع ويحتل الثنائي مجدّداً مكانه في الآن. وليس ثمة غير مجرد رابطة اجتماعية بين فردين منفصلين .

وهكذا تصبح الحياة على صورة تناوب بين ثنائي حقيقي (في الديمومة) ، وبين ثنائي منفصل الرابطة (في الآن) .

فما الملاط ، إذن ، الذي يمكن أن يؤمّن **استمرار** الثنائي ؟ هل هي **العادة** ، هذه « الديمومة » التفهة والمتحجرة ؟ كلا ، بالتأكيد . هل هو **الحب** إذن ؟ ولكن ماذا تعني هذه الكلمة ؟

٢ – الاتحاد الصعب بين وجدانيتين

يقول المعجم : الثنائي يتصرف تصرفاً « متناغماً » . ذلك يفترض أن للشريكين هدفاً مشتركاً . ومن المؤكد أن عدداً كبيراً من ضروب الثنائي ينزع نحو هدف واحد . وربما يدخل الرجل والمرأة معاً مخزناً من المخازن ، يكون أحدهما فيه قريباً من منضدة عرض البضائع ، والآخر يدفع الحساب . ويعمل بعضهم متعاونين من أجل قضاء إجازاتهم السنوية ، ويتابع آخرون معاً بحثاً واحداً لأن لهم مثالاً واحداً وينظرون إلى الحياة على النحو ذاته . ويبدو هنا بعد جديد وأساسي :

الثنائي = الديمومة + الوجدانية

والحال أن الوجدانية تمثّل كلية حياتنا السيكولوجية على وجه التقريب . فكأننا نقول إنها غير قابلة للوصف . لقد فعل علم النفس ما استطاع : إنه فرز الوجدانية إلى مناطق سُميت ، لعدم وجود تسميات أفضل ، إحساسات وعواطف وحدوس . ولهذه المناطق ضيوفها الطفيليون : عقد ، وضروب حَصَر وكف ، ونهّاشون كبار آخرون للطاقة الداخلية .

الثنائي **اتحاد ومزج بين وجدانيتين**. كذلك لا بد من أن ندرس كيف يمكن لوجدانيتين أن يجتمع شملهما ، لكي نحدّد ماهية الثنائي .

ولكن من يستطيع ، في يوم من الأيام ، أن يصف الوجدانية

يحللها ؟ دماغنا يتلقى بضعة مليارات من المعلومات في الثانية . فكيف يمكن وصف التموجات اللامتناهية لاحساساتنا العميقة والسطحية ؟ أما عواطفنا ، فليس بوسعنا أن نقدّم عنها سوى تخمينات غير محكمة الصنع تدور حول كلمات رئيسة ، كالحب ، والكره ، والتعاطف ، والتنافر ، والصداقة.

فكيف يمكن أن نحيط بعاطفة ما دامت هي فوح احساس يجرب الموجود الإنساني أن « يعبّر » عنه تعبيراً على نحو يكاد يكون مرضياً ، محاولاً على هذا النحو تعقيل اللامعقول ؟

والحال أن المرأة والرجل إنما يحاول كل منهما الاقتراب من الآخر ، انطلاقاً من احساساتهما وعواطفهما . فاعتماداً على **الاحساسات والعواطف إنما يؤمّن الثنائي ديمومة الرابطة واستمرارها وخلودها** . ويؤمّنان كذلك ، بالطبع ، أوهامها ، تلك الأوهام التي تصدر عن الاحساسات والعواطف المزيفة .

وبالإحساسات والعواطف كذلك إنما يتوصل موجود من الموجودات إلى الارتباط بكل ما يحيط به . ولكنه لا بد له أولاً ، مع ذلك ، أن يكون على صلة مع نفسه .

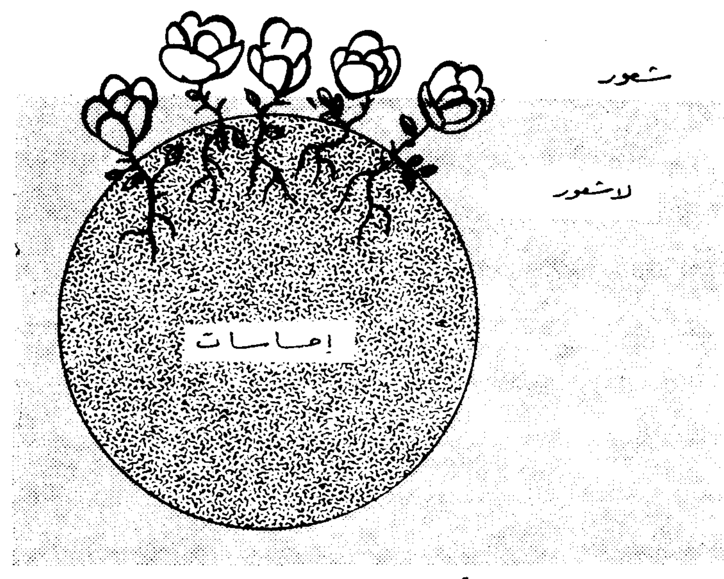
من هنا منشأ جميع الالتباسات التي تحيط بمفهوم الحوار . فالحوار أصبح أمراً مبتذلاً ، مثله مثل البيئة ، واحترام الطبيعة ، ومساوىء مجتمع الاستهلاك . ولم يسبق لأي عصر أن جرت فيه « مناظرات » بهذا العدد ، كما هي عليه الحال في أيامنا هذه : ويبدو أن عالمنا لم يعد يستطيع الاستغناء عنها . والواقع أن الحوار الذاتي الهادر هو السائد : فكل يقص « نفسه » للآخر الذي يفكر في نفسه خلال هذا الوقت .

إن أي تبادل حقيقي ، وأي حوار واقعي ، لا يمكن إقامتهما إلاّ

إذا كان المرء قادراً على أن يحاور ذاته . فكيف يمكن للمرء أن يستشعر الآخر إذا لم يكن من خلال وجدانيته ؟

وهذا هو السبب الذي من أجله يتكوّن الثنائي الأصيل بمقدار ما تتحرّر المناطق اللاشعورية تدريجاً من طفيلياتها وطفالاتها التي تُزيغ الإحساسات ، وتضلّل العواطف ، وتحوّل « الآخر » إلى سراب نعدّه واقعاً .

العواطف الإيجابية أو السلبية



شكل رقم (١٠)

ولهذا السبب فان الثنائي الناجح هو الميدان الأسمى للحوار الداخلي.

والأكثر إثارة للدهشة أن ثمة إمكان لحوار وجداني أن يتحقق بين المرأة والرجل.

فهذا الثنائي ، وهذا المزيج ، يكوّنان العلاقة الانسانية التي تتصف بأنها الأطول والأعمق ، والأصعب كذلك . ذلك أن النساء والرجال ، العاديين ، يستشعرون الوجود وينظرون إليه بأسلوبين هما من الاختلاف بحيث يبدو معجزاً أن يكون بوسعهما ، على نحو تدريجي ، أن يلتقيا .

ومع ذلك ، ثمة المليارات من ضروب الثنائي ، التي تكاثرت على سطح الأرض . ويمكن الاعتقاد بأن عدداً كبيراً منها لاقى « النجاح » ، وحقق المزج العميق ، **في الديمومة** ، بين الوجدانيات ، والانفعالات ، والأهداف .

ولكن كل ثنائي ناجز ، ضرب من « الأعجوبة » . إنه تحدّ ضد البعد المتعالي الذي يفرضه كل موجود انساني على موجود آخر خوفاً من أن يفقد فرديته الضعيفة . **فالخوف من الغير هو ، على الغالب ، الحصر من « الضياع » في الآخر ، أو من أن يكون محجوباً به** . والموجود الإنساني مصنوع على نحو يزكي في نفسه الخوفَ من أن « يتهدّم » **أقلُّ** تهديد ضد شرارة الشعور ، والخوف من أن يعود إلى هذا العدم الذي عانى كثيراً من المتاعب ليخرج منه (١) .

ومع ذلك ثمة ضروب من الثنائي ناجحة ، ومتينة ، ودائمة ، ومتحدة اتحاداً عميقاً ، ودون عواصف مخرّبة ، وليست ذات قابلية لأن تقوّض ، لا بالأخلاق بل بالحب ، لا بالعقد بل بصحو داخلي . فكل واحد من الزوجين أصبح الآخر ، مع أنه يبقى ذاته في الوقت نفسه . ألم تصادفوا نماذج من الثنائي بلغت من الكبر عتياً ، حيث يذوب الشريك في الشريك إلى درجة يبدوان أن لهما روحاً واحدة ؟

---

(١) انظر فصل « المجازر وضروب التآخي » .

في الصفحات التي تلي ، سأصف الموانع العميقة ، على وجه الخصوص ، التي يتعرض الثنائي إلى خطر الاصطدام بها . وأعني بذلك الصعوبات الرئيسة التي ينبغي أن يتجاوزها ثنائي يريد أن يتحقق .

ثانياً — دور المرأة في الثنائي

ولنعد إلى المرأة : ذلك أنها ، أخيراً ، إنما هي المقصودة في هذا الكتاب . ماذا تمثل المرأة في الثنائي ؟ ما هودورها ؟ إنني أفترض أن الرجل جيد التوازن بصورة نسبية ، وأن له قدرات من الذكورة والأنوثة من نوع جيد . وإلا فان من الضروري ، في كل مرة ، أن نحلّل ردود فعل الرجل تبعاً لما هو عليه ، راشد أو طفالي ، عفوي أو مذعور ، الخ .

١ — قانون العرض والطلب

في كل علاقة إنسانية ، يعرض كل فرد على الآخر ويطلب منه شيئاً ما ، بصورة سطحية أو عميقة ، بصورة مرئية أو غير مرئية . وكل امرأة ينبغي أن تتساءل :

— ماذا يمكن أن أعرض على الرجل الذي يعيش معي ؟

— ماذا أطلب منه ؟

هذان سؤالان يوميان ، إن لم يكونا سؤالي كل لحظة . ذلك أن العرض والطلب يتغيّران بحسب الحالة الداخلية ، والأمزجة ، والمتاعب ، وجاهزيات الفكر والقلب ، وضروب الوفاق أو عدم الوفاق .

ويتغيّر العرض والطلب بالتأكيد وفق العمر والنضج الداخليين .

والمرأة التي تملك الزهيد ، لا يمكنها أن تعرض غير الزهيد . وعندما لا تملك المرأة غير الزهيد ، تكون مطالبها في بعض الأحيان لامتناهية . إنها تعرض سحرها النزوي وحبها الطفولي ، لأن أنوثتها ضعيفة ، وذكورتها عدم من الناحية العملية . وهي ، من جهة أخرى ، تطلب أن تكون باستمرار مرفوعة على رؤوس الأصابع ، محاطة بالرعاية والاهتمام .

وماذا تقدم إلى رفيقها امرأة جعلتها الغيرة متصلبة ، إن لم يكن أغلالاً ؟ وماذا تطلب غير أن تكون المركز الوحيد (المرضي) لرجلها « هي » ؟

وما دامت مثل هذه الأوضاع مستمرة ، فان **الثنائي لا يمكن أن يؤكد ديمومته . إنه يمضي من آن إلى آن** ، تحطمه ، بصورة مستمرة ، ضروب اللوم والخصام ، والضغائن . ثم يستأنف ديمومته الهزيلة . ولا يكون هؤلاء الرجال والنساء ثنائياً ، بل **سلسلة من ضروب الثنائي** ، ضروب تختلف من يوم إلى آخر على الرغم من المظاهر الخارجية .

ها هي ذي امرأة « لها حنان الأم » . **ماذاتعرض** ؟ إذا كانت أنوثتها قوية ، أمكنها أن **تظهر** نزعاتها الدافئة ، والمتسامحة ، والمسؤولة ، والحفية ، والنشيطة ، والمشاركة . ولكنها إذا كانت ذات أنوثة مشوهة ، فليس بامكانها أن تعرض غير نزعة لها حنان الأم المشوه . وستصبح دبقة ، ونزاعة إلى الملك ، وسلطوية ، ومدققة ، و « مراقبة » .

وماذا تطلب ؟ إذا كانت أنوثتها متحققة ، طلبت ثقة الرجل و « عفويته » ، وأصبحت ، بالنسبة إليه ، زاد السفر الذي لا غنى عنه . أما إذا كانت أنوثة هذه المرأة مشوهة ، فانها **تقتضي** (بصورة لاشعورية)

أن يبقى الرجل طفلاً بوسعها السيطرة عليه . إنها تطلب أن يكون رفيقها بحاجة إليها ، بالمعنى السيء للكلمة . وتريد أن يقدّم إليها تقريراً بصدد كل شيء ولا شيء . ومن المؤكد أنها تتلقى الاجابة التي تطابق ما تعطيه، وسيتخلص أي رجل سوي ، بأي ثمن ، من هذه السلاسل التي تحول بينه وبين الحياة . وتمنحه إحساس السقوط مرة ثانية في عبوديات الطفولة

ويقودنا هذا البعض من الأمثلة إلى التساؤل حول ما يجري عادة لدى ثنائي ، حيث وقعت المرأة ، وقد فقدت استطاعة أنوثتها ، في حبائل نقائص صفاتها .

الأنوثة المتحققة والأنوثة المعطّلة

تتصف الأنوثة المتحققة بأنها :	الأنوثة لدى عدد من النساء اللواتي لم يحققن ذاتهن
مستقرة	— يكفّ الاستقرار عن أن يكون مرناً ، ولم يعد يتكيّف مع الظروف .إنه يصبح شبيهاً بماء يجمّد . ولا تفهم هذه المرأة إلى أي مدى تتصف الرجل بأنه « صيرورة » ، على عكس المرأة التي تتصف بأنها « وجود ».إنها نزّاعة إلى النظر إلى أن كل حماسة ، أو فكرة ، أو تسلية ، ليست ، لدى الرجل ، سوى صبيانيات . واستقرار المرأة عنصر من العناصر التي تجعل الرجل آمناً ، ولكنه يتحوّل إلى مصدّ إن تحجّر. فهذه المرأة لا تفرض شيئاً مهما ، إن لم يكن ضرباً

من القسوة في الحكم يحتمل أن تستنزف إبداعية الرجل وفاعليته في هذه الحاجة التي يشعر بها إلى أن يتخذ بعداً عن الأشياء كيما يفهمها .

جلود – يكفّ الجلد ، هنا أيضاً، عن أن يتصف بالمرح والمرونة. وتتحشّر المرأة من الناحية الوجدانية ، وتصبح باردة ، وقاسية ، ولوماً حياً .

– ويمكن أن يتشوه الجلد فيتحول الى رعايات مجاماة حاضنه ، إذ تحوّل الرجل المغامر تدريجياً إلى رخوية جبانة .

– ويصبح الجلد حضوراً أخرس ، صامتاً ، مفعماً باللوم . فيشعر الرجل بأنه مراقب ، ومطارد ، ومشلول ، كما لو أن المرأة كانت تدمدم بصوت خفيض : « مهما فعلت وقلت ، سأبقى حاضرة في بيت الأسرة ، أعاني دون أن أقول شيئاً ، ولكنني لن أكون أقل تفكيراً بذلك ، وسيلاحقك جلدي إلى القبر » .

حنون حنان الأم – المرأة نزّاعة إلى الابتلاع ، إلى أن تجعل من نفسها ذات حضور كلي ، مالكة ، عاجزة عن أن تترك مبادرة لرفيقها . وكل شيء يحدث كما لو كانت تريد أن « تأكل الرجل » أو تخنقه تحت ما تقدمه من عناية .

– تتحوّل خاصة الأمومة إلى مراقبة فظة . وتصبح المرأة أما « مرعبة » .

وقور — الوقار ينعطف نحو الكآبة ، ويصبح ضرباً من قابلية الاحترام ، الخارجية على نحو صرف . فلا تفكر هذه المرأة إلاّ بانقاذ ماء الوجه والمظاهر ، إذ تدفع الرجل إلى أن يصبح دمية اجتماعية .

— وعلى الرغم من السلوك المتصلب ، تحتفظ المرأة بقاع يتصف كثيراً بحنان الأمومة ، ويجعل استمرار الثنائي ممكناً . ولا يمكننا أن نتمنى للرجل هنا إلا أن تكون نزعته الخيالية غير نامية .

وفيّة — وفاء الأنوثة العميق يتحوّل إلى المطالبة . ويصبح الوفاء ضرباً من الواجب ، ومن الأخلاق المتصلبة والمطالبة . والوفاء ينضم إلى الجلد المشوّه : « مهما صنعت ، سأبقى أمينة ، وتأنيب ضميرك سيكون ثأري » .

منظمة — تنظيم الأنوثة العميق يصبح هوس النظام ، والنظافة ، والترتيب ، والجدول الزمني المحدد . والرجل موضع هجوم بضروب اللوم التهكمي ، والساخر ، التي تصل في بعض الأحيان إلى حد لا يجرؤ على أن (يحرتق) في زاوية من الزوايا ، ولا أن ينقل شيئاً من مكانه إلى مكان آخر .

نافذة البصيرة — يتقلّص الذكاء الداخلي ، الواسع ، البنّاء ، ويصبح صحواً بارداً ، جليدياً ، يبرز إلى الخارج على

صورة تهكم لاذع . ويختفي التفاهم ليحل محله نكد دائم ، ولا يفهم الرجل شيئاً مما يُلام عليه . وحذار إن كانت شخصيته تنطوي على بعض النقاط الضعيفة : فستمسها المرأة في المحل المناسب.والرجل ، في هذه المبارزة الهدّامة ، مغلوب سلفاً . ولن يكون في سلام إلا بالهرب .

ماذا تعرض النساء ذوات الأنوثة المتحقّقة ؟ كل شيء . وسيكون جواب الرجل إيجابياً ، موحياً بالثقة . ذلك أنه لا بد من أن يكون مريضاً مرضاً خطيراً ، أو قليل الأدب في الكلام على نحو شنيع ، حتى يكون عاجزاً عن تكوين ثنائي متناغم ، بصورة فرحة ، مع امرأة تمثّل،على هذا النحو، نبل عرقها !

ولكن ، ماذا يستطيع الرجل أن يفعل أمام امرأة ذات أنوثة مشوّهة غير أن يهرب، أو يخضع ، أو أن يكون عديم التيقظ ؟ فالعرض لا يطابق الطلب . ويموت الرجل موتاً بطيئاً من الخواء الوجداني ، إذ يُحرم من فيتامينات الأمن والسعادة والدفء .

ولنشر مع ذلك إلى أن النساء اللواتي تم تصنيفهن في العمود الأيسر يجدن ضرباً من الصدى . فهن قادرات على تكوين ثنائي **يبدو** منسجماً ، شريطة أن لا ينظر المرء إليه عن كثب . ثمة ، على هذا النحو ، كثير من ضروب الثنائي « المتكامل » ، كما سنرى مباشرة .

٢ ـ الثنائي المتكامل

هل ينبغي لتكوين ثنائي ، كما يُعتقد بصورة عامة ، أن يكمل الرجل والمرأة أحدهما الآخر ؟ وأن يجد كل منهما في الآخر ما يفتقده ؟

– الثنائي المتواطىء

ثمة بعض ضروب من الثنائي ، يتصف فيها الرجل بأنه « ذو رجولة قوية» ، وتتصف المرأة بأنها « أنثوية جدا » ، ويبدوان أنهما يحققان اتحاداً دائماً . ومن المؤكد أن الشريكين « يتكاملان » ، ومن المؤكد أيضاً أن كلا منهما يحتاج إلى الآخر . ولكن من المحتمل جداً أن يعيش كل منهما **بفضل** الآخر ، لا **مع** الآخر . فهما يكوّنان مجموعاً منسجماً بصورة نسبية ، ولكن كلا منهما ، إذا نُظر إليه على نحو منفصل ، لم يحقق كمال شخصيته .

إن أي فُرض في خشبة ، وأي لسان حديدي داخل فيها ، يكوّنان مجموعاً كاملاً . ولكنهما يلبثان فرضاً ولساناً عندما يُفصلان .

يمكن للمرء أن يشك في وجود تفاهم عميق في ثنائي من هذا النوع . فليس للشريكين غير جزء من شخصيتيهما . وواضح ، والحال هذه ، أننا لا نستطيع فهم الآخر إن لم يكن عبر جزء مطابق ، أو مشابه ، من شخصيتنا الخاصة .

وما يجعل ، على الأغلب ، من ثنائي « متكامل جداً » ثنائياً متلاحماً إنما هو **ضرب من التواطؤ اللاشعوري** ، وليس التفاهم . فكل منهما ينتظر من الآخر أن يطابق ما يتوقع منه.ويستمر المجموع ما دام الرجل يحتفظ بقناعه الرجولي بمغالاة ، والمرأة باتجاهها الأنثوي بافراط (أو المزعوم أنه كذلك) .

ومن المحتمل ، احتمالاً يبلغ التسعين بالمئة ، أن مثل هذا الثنائي قائم على الإعجاب (من جهة المرأة) وعلى اتجاهات تفوقية (لدى

الرجل) ، وبعبارة أخرى ، قائم على صلات سيطرة (لدى الرجل) وخضوع (لدى المرأة) .

هنا إنما يبدو « التواطؤ » على نحو واضح . فاذا غيّر أحد الشريكين ، المرأة أو الرجل ، من اتجاهه ، انهار التوازن المزيّف والبناء السريع العطب .

هذا النموذج من الصلات ، صلات التفوق والدونية ، والسيطرة والخضوع ، خدّاعة مع ذلك . فالرجل الذي يدلّ مظهره على رجولة مفرطة ذو وجدانية ضعيفة جداً . ولا يفهم شيئاً كثيراً عن الحياة العميقة ، في حين أن المرأة « الأنثوية جداً » مزوّدة بنفاذ بصيرة يتصف في بعض الأحيان بأنه حاد على نحو فريد ، بحيث أنها ، في نهاية الأمر وبالرغم من مظاهر خضوعها ، هي التي تقود المركب . إنها تتصرف تصرف «الذبابة الدقيقة » . إنها ضرب من الدماغ المبدع ، مع كل ما يفترض ذلك من تميز على الرجل .

وصدقوني أنها تتصرف دائماً بحيث يكون الرجل موجّهاً عن بعد إلى حد كبير ، وهو يعتقد في نفسه أنه المعلم والسيد .

كل شريك من الشريكين يعرج في هذا النوع من الثنائي الذي يبدو غالباً أنه« غير متوافق على نحو عجيب » .

ولكن الاثنين ، في آخر المطاف ، يتقدمان بالجري في خط مستقيم ، على الرغم من أن أحدهما يمشي في الساقية والآخر على الرصيف ، شريطة أن لا يتعثر أي منهما .

ب — بعض الأمثلة :

أمثلة الثنائي المتكامل ليست مفقودة . ويجد المرء دائماً ، في أحدهما ، ما يفقده الآخر .

إنه لرجل « قوي » ذلك الذي سيتزوج امرأة « ضعيفة » ، أو على العكس ، سينجذب الرجل الذي أنوثته تغلب على ذكورته (رجل شديد الانطواء على سبيل المثال) بامرأة اتجاهاتها مذكرة أكثر مما هي مؤنثة (امرأة شديدة الانبساط على سبيل المثال) .

وعديدات أيضاً هي ضروب الثنائي السادي — المازوخي ، وبصورة أقل خطورة ، الثنائي المتكوّن من سائد ومسود أو العكس . ومن النموذج نفسه . ضروب الثنائي القائمة على حاجة أحد الزوجين إلى أن يكون ساحقاً والآخر مسحوقاً ، وإلى أن يكون معجباً والآخر معجباً به ، وأن يكون محباً والآخر محبوباً .

وثمة مثال نموذجي آخر هو مثال الرجل المنطقي بمغالاة الذي يتزوج امرأة « غير منطقية على نحو ساحر » . وهما أيضاً يكوّنان ثنائياً « سيء التوافق على نحو عجيب » . وفي هذه الحال ، تشبه المرأة جهاز راديو دون انتقائية ، يلتقط عدة ارسالات معاً . إنها ، في الواقع ، امرأة مفسدة ، غير منظمة بصورة كلية . ولكنها ، في نظر الرجل الذي يحتاجها ، تبدو على أنها خيالية فاتنة . والمهم في الأمر أن تصادف ضدها . والمقصود بضدها ، على نحو عام ، رجل جاف ، وذو ذكاء بارد ، وواضح بمغالاة ، وعقلاني بصورة ممتازة . وتمثّل هذه المرأة ، بالنسبة إليه ، ما ينقصه وما يأسف لكونه لم يستطع تنميته : أي خياله ووجدانيته .

وستكون هذه المرأة هي الناشطة دون فائدة ، وستبدو متقلبة ، وزقة وفق المراد . وسيرسم الرجل الجاف نفسه حازماً ، وسيصيبه الغيظ ألف مرة في اليوم ، ولكن دون قدرة على الاستغناء عن هذه المرأة التي تصنع افتتانه ويأسه في الوقت نفسه ، لأنها ترمز إلى الجزء المكبوت من ذاته . والمثل الرائع على هذا النوع من الثنائي كان قد أعطاه أحد الأفلام ، المأخوذ من كتاب ستيمن ، **القاتل يسكن في الشقة ٢١** ، تمثيل بيير فرزنه وسوزي دولير .

قالت لي إحدى النساء :

– لو كنت تعلم كم يتقن فرض الطاعة زوجي بنظرة واحدة ! أحبه لأنني أشعر بلذة في خضوعي إلى سلطانه . . .

وقالت أخرى :

– الحقيقة أنني ألتذ عندما يرفع صديقي صوته . وأتظاهر أنني أتمرد ، ولكنني لا أعتقد بأي كلمة أقولها عن تمردي .

وقالت أخرى أيضاً :

– يوبخني زوجي غالباً ، وهو نصف جاد ونصف غاضب . ويصفني بالحمقاء والباردة كالصقيع . فأتحوّل عندئذ إلى بنت صغيرة كل الصغر . وأشعر أنني محبوبة كبنت صغيرة .

وقال رجل خلال التحليل النفسي :

– أدرك الآن أنني مارست الابتزاز خلال سنين . فعندما كنت أعود الى بيتي ، كنت أبالغ بتعبي وهمومي . وكنت احتاج إلى أن ترثي

امرأتي لحالي ، وأن تأخذني بين ذراعيها لكي تفرّج عني الهم . وهي لم تكن امرأتي ، بل كانت أمي !

وقالت امرأة :

– أشعر أنني إلى درجة من التعاسة والتفاهة بحيث أجد من غير السوي أن لا يحتقرني زوجي . فعندما يكون قاسياً معي ، أكون سعيدة بذلك .

هل الثنائي من هذا النمط « متلائم » ؟ نعم ، بمعنى ما ، وشريطة أن يتوافق العصابيان . وفي هذا المجال إنما **يمكن** أن ينطوي التحليل النفسي على ضرب من الخطر . والواقع أن أحد الزوجين ، إذا استعاد صحته الوجدانية ، لم يعد يشعر بالحاجة إل أن يكمّله الآخر . أما إذا شرع الشريكان في تحليل نفسي ، فجميع الفرص مهيأة لهما لكي يبنيا ثنائياً متيناً ، ولكنه جديد كل الجدة ، مختلف كل الاختلاف عن الثنائي الذي كوّناه في البدء .

صورة أخرى من صور الثنائي المتكامل ، صورة نادرة الوقوع ، هي صورة **الثنائي – الهلوسة** . فالرجل يسلك إزاء امرأته ، بصورة لاشعورية ، كما يسلك ازاء أمه ، أو أن المرأة ، بصورة لاشعورية أيضاً ، تنظر إلى الرجل كأبيها .

٢ – « إنني بحاجة إليك : إذن أحبك »

هذه الصيغة التي اكتشفها المحلّل النفسي **فروم** يمكن أن تحدّد ما يجمع بين شخصين في العديد من ضروب الثنائي . وحسبنا أن نعكس الوضع حتى نكتشف عبثه :

– إذا لم أعد أحتاج إليك ، في يوم من الأيام ، سأكفّ عن أن أحبك.

ويعني هذا الحب المزعوم أيضاً : **أحبك لأنك أنت أمني ، ولأنني عاجز عن أن « أكون »** . إنه التصريح بـ « حب » يمكن لمتسلّق جبال أن يوجّهه إلى رزّته .

قالت لي إحدى النساء :

– أشعر أنني ضائعة منذ أن يتغيب زوجي برهة . إنني أحتاج إلى حضوره الذي يوحي بالطمأنينة ، حاجة كبيرة .

تقول المرأة « حضور يوحي بالطمأنينة » . لا « حضور محبوب» : وهنا إنما يكمن كل الفرق .

وقالت أخرى :

– إنني بحاجة إلى أن يكون هناك باستمرار ، على بعد خطوتين مني ، وإلى أن يحكي لي ويحبني ، وإلى أن يكون بحاجة إلي ، وإلى أن يكون شقياً إذا لم أكن هناك .

اللعبة اللاشعورية هنا مزدوجة : أ) تطلب هذة المرأة قبل كل شيء أدلة مرئية على الاهتمام . ب) إنها تحتاج إلى أن يكون زوجها بحاجة إليها ، وهي تستلزم أن يكون زوجها « والدها » ، لأنه يتصف على هذا المنوال بأنه ضرب من الأمن بالنسبة إليها ضد الشعور بالدونية والتفاهة.

ويبدو لي مفيداً أن أقدّم في هذا المجال ضرباً من « سلّم قيم » . وغير مهم أن يشبه جدولاً إجماليا . إن بامكانه على الأقل أن يساعد الأزواج على التساؤل عن الدافعية الحقيقية لحبهم .

احبك ...

لأني أحُب نفسي

(أبحث فيك ما أفتقده في نفسي)

لأني بحاجة إليك

(حتى اليوم الذي تنتهي فيه حاجتي إليك)

لما أنت عليه

(شريطة أن تبقى كذلك)

لأني معجب بك (أو معجبة)

(شريطة أن لا تكفّ عن أن تكون موضع إعجاب في نظري)

كما أنت عليه

(ولكن ، إن كنت ضعيفاً ، سيصبح حبي حماية شفوقة ، بل احتقاراً خفياً)

لأنك أنت ما أنت عليه

(إنجازك الداخلي يتيح لي أن أكون ما أنا عليه ، بضروب قوتي وضعفي)

لأني أنا ما أنا عليه ، ولأنك أنت ما أنت عليه ، متحققين ومتحدين لتكوين كل بهيج ومتجدد كل يوم .

٣ – رواسب عقدة أوديب

عقدة أوديب تمثّل المرحلة الأكثر حسماً في حياة المرأة . فهي تستمر في التأثير بصورة خفية ، وعلى نحو لاشعوري كلياً في بعض الأحيان ، وطيلة الحياة ، في عدد كبيراً جداً من ضروب الثنائي ، وذلك بسبب كونها قلّما تنحلّ .

وتظهر هذه العقدة بوجوه كثيرة ، أذكر أربع حالات منها يصادفها المرء في أغلب الأحيان .

آ – **المرأة الطفل**

لم تكن ترغب هذه المرأة ، خلال فترة مراهقتها ، إلاّ في شيء واحد : أن تكون محط نظر أبيها ، وأن تروق له ، وأن يُعجب بها ، وأن تكون موضع تهنئة واطمئنان (وعلى وجه الخصوص إذا كانت للفتاة بعض الصعوبات مع أمها) . فالفتاة كانت تجعل مكانها « تحت » أبيها ، منتظرة أن يتفضل فيدع نظرة تسقط عليها .

وفي الثنائي ، يظل الوضع ذاته دون تغيير .

إنها تطلب	**إنها تعرض**
– أن تكون مطمئنة ، ممسوكة باليد في كل لحظة .	– إخلاصاً كلياً لزوجها ، ولكنه إخلاص طفل .
– أن تكون محط الأنظار باستمرار بين كل النساء .	– صورة السعادة منذ أن يظهر زوجها راضياً منها .
– أن تُذكر على أنها الأجمل ، والأكثر سحراً ، والأكثر « أنوثة » .	– سلوك ربة المنزل المكتملة ، بهدف أن تروق له وأن يهنئها .
– أن تكون (وأنها كانت) الوحيدة في حياة زوجها.	– دعماً معنوياً ، ولكنه سطحي : « إنك قوي ، وذكي ، ومدهش ! » .

— لا يسهى زوجها أبداً أن يكون يقظاً ، حتى في الظروف المبتذلة .

— وتطلب ، في نهاية الأمر ، كل شيء . ومن المحتمل أن تكون استبدادية ، بصورة عذبة ، في متطلباتها أن تكون متميزة ومدللة باستمرار ، وطيلة حياتها كلها .

— سلوكات ذات نزوة، وسلوك الحرد ، إذا « غاب عن بال » زوجها أن يعدها ملكة العالم.

— صورة سعادة مزيّفة ، تقتصر على ضروب الهيام الظاهر برفيقها .

إن مراهقة فاشلة جعلت من هذه المرأة امرأة لا زالت في مرحلة الرسم الأولي . وهي ، على الغالب ، تتزوج كيما « تسلب » من صديقاتها صبياً يُعجبن به جميعهن ، كما لو أنها تشتري شيئاً يشتهيه جميع الهواة في صالة من صالات البيع . وهي لا تفتأ تكرّر حالة مراهقتها ، عندما كانت تهلّل لأن لها ، وحدها ، أباً كان يتخاطفه الآخرون .

وإذا حدث أن كان الزوج طفاليا ، هو أيضاً ، فليس بامكان المرء إلا أن يرتعش إزاء المصير المدخر لأطفال هذا الثنائي ، حيث لا تستطيع المرأة إلا أن تلعب لعبة البنات الصغيرات ، في حين أن الرجل عاجز عن تأمين ضرب من الأمن الوجداني لمنزل الزوجية .

ب — المراهقة الأبدية :

إما أن المراهِقة الأبدية حسبت أباها « إلها معصوماً » ، وإما أنها ،

وقد عجزت عن أن تتصل به اتصالاً عَميقاً ، تستمر في البحث عن صورة أبيها المثالي عبر زوجها .

إنها تطلب

– أن يكون زوجها شهيراً، وأن ينجح ، وأن يلفت إليه الأنظار .

– أن لا يفشل زوجها أبداً .

– أن يسيطر عليها زوجها .

– مساحيق يتم تنقيحها باستمرار ، وأثواباً تتجدد دائماً .

– وبوصفها تمثّل دوراً بصورة لاشعورية ، فهي تقتضي أن يفعل رفيقها الشيء نفسه .

إنها تعـــرض

– « حباً » يمكن تلخيصه بالصيغة التالية : « أحبك لأنني معجبة بك » . ومع ذلك ، فاذا بقي زوجها منصرفاً إلى أعمال ثانوية ، اتهمت بذلك الظروف أكثر مما تتهمه . وهي ، إذ تفعل ذلك ، تُشعر الآخرين بأنها «تحمي» زوجها و « ترأف » بمصيره . والواقع أنها تبحث عن الاحتفاظ باعجابها سايماً .

– عدوانية خفية . فالمرأة تريد لنفسها أن تكون تابعة لزوجها، وتحتاج أن تكون السيد . ولكن كل تبعية لا تكون مقبولة قبولاً حراً تولّد العدوانية .

هذا الزوجان يعبران الحياة جنباً إلى جنب دون أن يعرف أحدهما الآخر أبداً . فالمرأة لا ترى الزوج الموجود إلى جانبها ، إذ أنها تبحث فيه عن أب .

ج – المرأة المنافسة

كانت ، وهي مراهقة ، في تنافس ضد أبيها : في تنافس إما فاعل (« الصبي الفاشل » الشهير) ، وإما فكري .

كيف تسلك في وسط الثنائي ؟ حسن ... إنها تثابر على سلوكها السابق . والرجل يغيّر وجهه فقط : فالزوج يحل محل الأب ، وتستمر المنافسة . وتتصف لعبة هذه المرأة ، على الغالب ، بأنها معقّدة . فهي ، من جهة ، ترغب في أن تهزم زوجها في ميدانه الخاص ، وهي من جهة أخرى تتمناه أن يظل الأقوى . وذلك كيما يكون بوسعها أن تعجب به ، وأن تحتفظ ، سليمة ، بهذه الصورة التي تحملها في نفسها لأب لا يُغلب. وليس من النادر أن تشرع في دراسة زوجها نفسها أو في مهنته ذاتها .

إنها تطلب	إنها تعرض
– زوجاً يقبل المنافسة ، وأن يكون « رفيقاً ممتازاً » ، وأن يكون له « روح الفريق » بالمعنى الرياضي للكلمة .	– « روح الفريق » ، وإخلاصاً على الغالب في كل اختبار .
	– سلوكاً يتصف بحنان الأم ، يجعلها تقبل عيوب زوجها وأخطاءه (الذي يصبح ثانية ، عندئذ ، «طفلها ») .
– أن يكون زوجها محط إعجاب الآخرين واحترامهم.	– عدوانية مستترة ، لأنها تريد أن تكون نداً لزوجها على جميع المستويات .

ويتصف الثنائي ، على وجه العموم ، بأنه منسجم ، متعاطف جداً في نضال الشريكين جنباً إلى جنب نحو هدف مشترك . بالرغم من وجود عناصر مراهقة سيئة الحل لديهما . وتذكّرنا فاعلية هذا الثنائي بضرب من سباق التتابع .

د ـ المرأة العقلانية

إنها صنف شديد الخطر على الثنائي ! شديد الخطر ، لأن هذه المرأة لا تميّز النزعة العقلانية من الذكاء . وكونها قاسية ، مثقفة جداً ولكنها « جافة » ، فلا يمكنها أن تسلّم بأي تفوق للذكر . وقطبها المؤنث مصاب بالجفاف ، في حين أن قطبها المذكر مصاب بالضمور الشديد .

ويتصف هذا النموذج من المرأة بأنه عطوب بصورة دائمة على وجه التقريب ، ذو جنسية مثلية خفية أو معلنة . إنها « ضد الرجال » .وعانت، في جميع الحالات على وجه التقريب ، صعوبات خطيرة مع أمها .

شعارها يمكن أن يكون : **حيث يسود العقل ، ينبغي أن تموت الغريزة** . ومن المؤكد أنها عاجزة عن تكوين ثنائي جدير بهذا الاسم .

إنها تطلب

ـ الاعتراف اللامشروط بتفوقها « العقلي » .

ـ أن تعترف النساء الأخريات بها ، اعترافاً بتواضع ، أنها القائد المعصوم .

إنها تعرض

ـ حماية مفرطة في الحلم لمن يطلب رأيها أو عونها من النساء والرجال . الأمر الذي يتيح لها الاحتفاظ بشعورها بالتفوق.

— أن ينحني جميع النساء — ضرباً من عاطفة «الأمومة»
وجميع الرجال أمام رغباتها . إزاء زوجها . فهي تحسبه طفلا
— أن يكون زوجها أدنى ستكون هي الملكة الأم . وتبدي
منها ، ضعيفاً وخاضعاً . له حسن التفات فيه ظل من الاحتقار .

هذه المرأة امرأة تمارس الخصاء ، بكل ما للمصطلح من مدى . وهي تشغل على الغالب مهنة حرة . أو أنها تزوجت رجلاً « عقلانياً » يتصف وضعه الاجتماعي بأنه مرموق . وبالنظر لنزعاتها المتصفة بالجنسية المثلية ، اللاشعورية أو الشعورية ، فانها تسود زوجها ، إذ تمطره بضروب من التهكم ، والسخرية ، والعطف المستعلي ، من خلال سلطوية مموّهة أو معلنة .

٤ — لكي تتوقف الهلوسة :

كل من الشريكين يصل إلى الحياة الزوجية بعد أن يسلك بصفة شخصية طريقاً طويلاً . وكلاهما ينشآن من طفولتيهما البعيدتين ومراهقتيهما . **وكلاهما يجلب ماضيه برمته ، ماضياً يتصف الوضع الراهن بأنه مجرد محصلته .**

إنهما يجهلان ذلك من الناحية الداخلية ، ولو كانا يعرفان ذلك عقلانياً . فالذكريات ، والرضوض ، والعقد ، والتربية ذاتها ، أُقصيت في سراديب اللاشعور . ولكن كلامنهما يقول في نفسه : « ها أنا ذا ، جديد كل الجدة ، دونما متاع » . لا ، بالتأكيد ! فلكل منهما حقائب مترعة ، مقفلة باحكام ، في معظم الأوقات .

ومن المهم أن يعلم كل من الشريكين أن اختياره الشعوري شيء

زهيد بالقياس إلى ما يُدبَّر في لاشعوره بالرغم منه . وتتبوأ الصدارة بين الدافعيات عقدة أوديب ، مسيطرة .وعلى وجه الخصوص لدى البنت ، التي قلما تعبر هذه المرحلة دون أن تمس النقطة الحساسة من نفسها (١) . أيُقال ، اختصاراً ، إنها تبحث عن أب في زوجها ؟ هذا أمر لا ريب فيه ، ولكن ثمة أكثر من ذلك . والواقع أنها ستطلب إلى زوجها ، وقد سبّبت لها أمها الضرر على الأغلب ، أن يكون « أماً طيبة» . مهما كان ممكناً أن يبدو ذلك عبثاً . إنها ستكون بحاجة إلى علامات مستمرة من المحبة الدافئة التي يمكن لها ، وحدها ، أن تعوّض فقدان الأمن لديها.

هنا إنما سيعمل الذكاء الداخلي للثنائي . فبعض المؤلفين يصرّحون : « لا بد من الوعي ! » هذا أمر مؤكد ، ولكن ذلك غير بسيط . فالوعي يتطلب الزمن ، والصبر ، والتفاهم ، والتسامح إزاء الآخر وإزاء الذات . وكل فرد نزّاع جداً إلى أن يكبت ما يؤثر أن لا يراه ، بدلاً من قبوله **لكي يدمجه بصورة تدريجية** . إن البنت التي استهلكتها أمها أو أبوها ، خلال عقدة أوديب ، ستحتاج إلى رفيق متوازن يساعدها ، شيئاً فشيئاً ، على أن تستعيد توطيد نفسها في معايير الراشدين .

ولكنهما سيستمران ، إذا كان كل منهما يخفي الواقع عن نفسه ، في البحث عن « حب مطلق » ، ومباشر ، ويتحقق فوراً ، دون أن يعلما أن تكوين الثنائي حَمْلٌ بطيء . ويريد كل منهما أن يكون الآخر هذا المطلق الذي افتقده خلال فتوته . ويبقى عاجزاً عن أن يرى ، بصورة موضوعية ، هذا الموجود من لحم ودم ، الموجود إلى جانبه ، **الذي ليس هو أباه ولا أمه** ،

(١) انظر فصل « البنت المحصورة » .

وإنما هو زوجة أو زوج يبحث كل منهماعن نفسه . وتتذبذب الأسرة بخطورة إلى أن يبيّن للزوجين شعاع من نور ، صادر من المرأة أو من الرجل أو من شخص خارجي ، أنهما كانا يحاولان أن يمدّدا ماضياً بائداً .

ولا جدوى من الانخداع : فجميع ضروب الثنائي تتكوّن ، من الناحية العملية ، على نحو تكاملي . هذا أمر محتّم . ولكن ذلك يعني أن على الثنائي مواجهة المخاطر التي تفترضها هذه التكاملية . وعليه أن يصوّب نحو **انسجام المجموع** ، أو ، إذا آثرنا ، نحو توازن بين الطرفين .

والرجل مزوّد ببعض الأنوثة (وإن كانت ضعيفة ، فهي موجودة مع ذلك) ، والمرأة مزوّدة بذكورة (ربما كانت كامنة كذلك) . **ولكنهما لا يستطيعان أن يفهم أحدهما الآخر إلا من خلال هذين التماثلين** . وبالرغم من ضروب « فقدان الاتصال » الكثيرة ، ينتقل الثنائي ، شيئاً فشيئاً ، من الآن إلى الديمومة .

فاذا كان **المجموع** متلاحماً بصورة نسبية ، ومتلائماً ، ومرناً ، وبهيجاً ، وخلاّقاً ، كوّن الثنائي طاقماً جيداً ، ولو أن أحد العنصرين عاجز عن مواجهة مخاطر الطريق إذا ما نُظر إليه منعزلاً عن الآخر .

٥ ــ حصر الرجل

آ ــ خوف قديم

ما منشأ أن الرجل ، في كثير من ضروب الثنائي ، يخشى كثيراً أن يترك نفسه على عفويتها ازاء زوجته ؟ تذكّروا هذه الواقعة التي ضغطت بثقلها على تاريخ جميع النساء ، والتي وصفتها في الفصل الخامس : إن

نوع الذكور ، الذي يرقد في كل رجل ، يصاب بالذعر ازاء النوع الأنثوي الذي يمثّل كل امرأة .

ثمة سؤال يطرح نفسه منذئذ : هل نجد هذا الخوف لدى جميع الأزواج من الرجال ؟

الجواب بسيط : من المؤكد أن الخوف موجود في جميع ضروب الثنائي إذا كان المقصود حصراً ذكريا ، وكليا ، وميتافيزيائيا . ولنعبّر بصورة أخرى : كل رجل عادي يخشى امرأته بعمق .

وليس لهذا أي صلة بالكاريكاتورات على نمط دوبو : إن موقع هذا الحصر هو في أعماق الشخصية . إنه يرقد أو يتجلى تبعاً للظروف ، وبصور شتى . وتتباين ردود الفعل بحسب التربية المتلقاة ، والثقافة الشخصية ، والذكاء ، وبحسب اتجاهات المرأة بالطبع .

وحسبنا هنا أن نضرب مثالين ، إذ أن الفصل الخامس كله يظل تطبيقاً في هذا المجال .

لنفرض رجلاً متزوجاً بامرأة « متواضعة جداً » وذات اعتدال في الطبع . فهذا الرجل يحتفظ في حقيقة نفسه ، بخوف حيواني وطبيعي إزاء النوع الأنثوي . ولكن هذا الخوف لن يظهر وسط الثنائي ، لأنه لن يحدث لأي قاطعة أن تضعه في الدارة . فالمرأة « المتواضعة » تعني امرأة لا تنذر بالخطر ، امرأة أضفي عليها الحياد . ولكن إذا اتفق أن أثارت المرأة عاصفة أسرية ، فان الرجل يستشعر ضيقاً لا حدود له . ذلك أن الرجال يعيشون بصورة عامة على مستويين :

أ ــ إنهم يعانون خوفاً عميقاً إزاء الأنثى .

ب – وثمة مخاوف خاصة شتى أمام نموذج معيّن من المرأة ، منشأها التربية والشعور بالدونية ، يُحتمل أن تبعث الخوف العميق الأول في أي لحظة .

أو أيضاً ، ها هو ذا رجل ، ككثير من الرجال الآخرين ، ربّته أم طاغية ، ذات حضور كلي ، **خنقت** شخصية ابنها و**امتصتها** (أكّدت على كلمتي « خنقت وامتصت » ، اللتين تمثّلان تماماً خوف نوع الذكور : أن تبتلعه وتذيبه الأنثى التي ترمز إلى العدم) .

فقد كان هذا الرجل إذن ، منذ طفولته ، في مواجهة مع أمه التي **كانت تجسّد** حصره العميق في كل لحظة .ومهما كانت امرأته تتصف ، هي أيضاً ، بأنها لا تجسّد بالرمز كثيراً نوع النساء « الملتهم » ، فان الزوجة المذكورة ستتعهد بالرعاية ، على نحو دائم ، مناخاً يعرفه زوجها منذ زمن بعيد .

ومن المحتمل جداً ، من جهة أخرى ، أن لا يدرك الزوج ذلك : فقد يقدّر أنّ « من غير اللائق به » جداً أن يكون في خوف من امرأته. وسيحاول عادة أن يضفي الحياد على خوفه بشتّى المناورات : بالعدوانية، والحزم الجاف ، والغضب ، والاحتقار . واختصاراً نقول : بكل ما يتيح له أن « يحتفظ بالتفوق » . هذا اذا لم يجتذب امرأته بوسائل اللطف .

ب – الحل

والحل غير يسير .

ثمة الحياة اليومية أول الأمر . فاذهب إذن وقل لهذا الرجل المشدود

في أعماله ، وهواجسه ، وريبه أمام الحياة ، وثقته المزيفة بنفسه : « إن لديك خوفاً من امرأتك » ، يجبْك بابتسامة ، وهزة كتفين ، ومظهر ساخر . وسيقول لك إن ذلك لمن قلة الأهمية بحيث لا يستحق أن يتوقّف عنده المرء ثانية واحدة . فما له الأهمية قبل كل شيء عنده إنما هو الدماغ وليس الوجدانية . هذا إذا لم تكن العضلات ذات الرأسين هي التي لها الأهمية قبل كل شيء .

وليس بوسع الرجل ، من جهة أخرى ، أن يستشعر بصورة حقيقية حصره إلاّ بصعوبة قصوى . وذلك لا لأن الحصر في منتهى العمق فحسب ، بل لأنه يفعل كل شيء لكي يخفيه عن نفسه . فالرجل يشعر أن هذا الخوف من المرأة يضع « رجولته » موضع الاتّهام . وهذا صحيح فيما يخص الرجولات المزيّفة ، رجولات من يدعون الشجاعة . وهذا خاطىء عندما نكون إزاء رجولة حقيقية ، رجولة ترتكز على حياة داخلية قوية .

إن زوال هذا الخوف يمكن أن يجدّد تفاهم الزوجين بصورة تامة . ولكن العمل ، ولنكرر ذلك أيضاً ، غير يسير . ذلك أن على الرجل أن ينزل درجة درجة قبل أن يصل إلى مغاور اللاشعور .

ولكي نساعد على التأمل ، ها هي ذي بعض الحالات المبتذلة. تلك حالة الرجل الذي يعنّف امرأته عندما تبدي له الحنان (الذي يسميه لطفاً متكلفاً) . وحالة الرجل الذي يصاب بتهييج الأعصاب عندما تصحّح زوجته هيئة ثيابه . وحالة الرجل الذي يشعر بغضبه يتصاعد إذا قالت له امرأته أمام ملأ من الناس « يا عزيزي » ، أو أي كلمة لطيفة أخرى ، لأن ذلك يُشعره بأنه يُعامل معاملة « الصبي الصغير » . وحالة الرجل الذي

يشعر بالانزعاج عندما تتكلم عليه زوجته إلى أشخاص آخرين . وحالة الرجل الذي يتذلل أمام غضب زوجته ، الخ .

ويمكن أن نرسم تخطيطية لردود الفعل الكثيرة هذه ، كما يلي :

موقف الزوجة

يذكّر

بحنان الأم (أو غضبها)

التي تذكّر

بتبعية الطفولة

التي تذكّر

بالعدم قبل الولادة

الذي يذكّر

بالحصر أمام الموت .

ولهذا السبب كان موقف المرأة الفهيم ذا شأن عظيم بالنسبةإلى الثنائي.

ثالثاً – الثنائي الذي « أضفيت عليه القداسة » .

ليس بوسع أي موجود إنساني أن يستغني عن إضفاء القداسة . فكلّ يبحث عن « الارتباط » بما يحيطه به ، بالموجودات والأشياء . وذلك صحيح على وجه الخصوص بالنسبة إلى المرأة التي تتصف بأنها ذات طبيعة متديّنة بعمق * .

(*) يأخذ المؤلف كلمة « تدين » بمعناها الاشتقاقي في اللغة الفرنسية : من كلمة Religare ، Relier ، أي يرتبط « م » .

والقول إن العالم الراهن لم يعد يفلح في إيجاد إضفاء القداسة هذا ، إضفاء يحتاجه مع ذلك حاجة حيوية ، قول أصبح على كل شفة ولسان . والانسان الحديث ، شأنه شأن كل إنسان ، نزّاع نحو شيء ما يتجاوزه : **فهو يبحث في الخارج عما هو ، في الواقع ، موجود فيه .**

والثنائي ، فيما يخصه ، يدفع بهوائياته في اتجاهين :

أ) **نحو الداخل** : وتلك هي العلاقة الداخلية في الثنائي .

ب) **نحو الخارج** : وتلك هي العلاقة الخارجية بالعالم الاجتماعي ، بما في ذلك الأطفال ،

١ ـ إضفاء القداسة الآتي من الخارج

ذلك هو الزواج المؤسسة ، والعقد في ظل القسم ، سواء كان علمانياً أم دينياً . فالالتزام أولاً ، ثم الانطلاق . ويبذل الثنائي جهداً في احترام العقد ، بالرغم من الصعوبات ، لأن الزوجين أقسما على أن يظلا معاً في السراء والضراء .

أعتقد أن ليس ثمة أشد شؤماً على الثنائي من مفهوم « الواجب الزوجي » ، مع ما ينجم عنه من ضروب الإثمية والرفض والكبت والعدوانية والكذب . هذا من غير أن نتكلم على « الجزاءات » ، سواء كانت مفروضة بالقانون أو من الله .

هذا الثنائي ، إياه، يلتزم إزاء سلطة خارجية، كالأطفال أمام والد قوي كل القوة . وعمر الزوجين الوجداني يجعلهما عاجزين عن **توظيف شخصيتيهما في** نجاحهما الداخلي الخاص ، وفي الثنائي . إنهما ينظران إلى

الثنائي على أنه شيء خارجي بالنسبة إليهما . وحتّى ليس لديهما فكرة أن بامكانهما أن يوظّفا نفسيهما في الثنائي ، كما يفعل ذلك في مهنته صانع ممتاز . أليس الثنائي ، والحال هذه ، هو « المهنة » الحياتية الّتي يتم تعلّمها وصقلها بالتدريج ؟

٢ — إضفاء القداسة الحقيقي

أي إضفاء للقداسة غير ممكن ، حتّى داخل دين من الأديان ، إذا لم يستند إلى القدرة الداخلية على ارتباط الانسان ارتباطاً كلياً بذاته وبالآخرين .

والثنائي لا يمكن أن يتحقق إلا بمقدار ما يحقق كل عنصر من عنصريه انسجامه الخاص . فالنزوع نحو هذه الانسجامية الذاتية ، إنما هو السير نحو تحقيق تدريجي للثنائي الذي التزما به . وبعبارة أخرى ، نقول ، بكل بساطة ، إن على العنصرين أن يصبحا راشدين على المستوى الوجداني .

فتكوين الثنائي **إنما هو إعداد الديمومة ، إنما هو عقد رهان ضد الزمن بل ومع الزمن أيضاً** ، إذ أن هذا التكوين هو افتراض أن العلاقة مع الآخر علاقة طويلة ، وأنه التسليم كذلك بأن الثنائي ينبغي أن يكون في امتداد دائم ، تحت طائلة الوقوع في الركود ، والتصلّب ، والموت الوجداني .

ها هي ذي جان ، ٢٦ سنة ، وها هو ذا بول ، ٢٨ سنة ، مثال في عداد مئة ألف مثال . عمر جان الوجداني — إذا صح لي أن أقول ذلك — خمسة عشر عاماً . وقد ظلت موقوفة في عقدة أوديب . وليس بول أكثر

نضجاً منها . إنه « ناجح » في الحياة ، ولكنه يجهل ما هي القوة الداخلية. وهو ، في نهاية المطاف ، كل ما نشاء بالنسبة إلى جان : أخوها الأكبر ، وأبوها. إنها بنت صغيرة شديدة الإعجاب لا به ، بل شديدة الإعجاب أمام « نجاحه » ، وأسلوبه في تدبر أمره ، وأفكاره ونظرياته . فهو يمثّل دعامتها الوجدانية (وبالعكس) ، إذ أنها تنظر إليه على أنه نصف إله . وأنتم تعتقدون تماماً أن من المحتمل أن يستمر الثنائي — أو بالحري هذ الاجتماع بين شخصين — زمناً طويلاً في متابعة هذه اللعبة المزدوجة ، لعبة التواطؤ ، وأن يجدا نفسيهما ، في الخمسين ، بالعمر الوجداني ذاته ، عمريهما يوم الزواج .

وذلك ما يسوقنا إلى السؤال المثير للحصر ، الذي طرحه علي عدد من المراهقات :

— متى أكون جاهزة للزواج ؟

ليس ثمة من جواب غير الجواب الداخلي للأسئلة التالية :

— هل أنا قادرة على الاتحاد وجدانياً وانفعالياً ؟ ماهو عمري الوجداني ؟ ماذا يمثّل الآخر بالنسبة لي ؟ ما هي ضروب حصري ومخاوفي ؟ هل أنا على صلة مع ذاتي ، أو ، هل أنا على الأقل نزّاعة نحو هذا الهدف ؟

سمعت في أحد الأيام « ناصحاً » يقول بخشونة إلى إحدى النساء :

— كيف ! أبعد اثني عشر عاماً من الزواج ، لا يزال لديك خوف من زوجك الذي يتصف مع ذلك ، بحسب ما تقولين ، أنه طيب وعطوف؟

ذلك كله صواب لو لم يكن قد رفع صوب السماء ذراعين حانقين. وكان الأبسط أن يدعو المرأة إلى البحث عن سبب خوفها الذي ربما لم يكن للزوج ، **في ذاته** ، أي يد فيه. وكان لدى هذه المرأة خوف من زوجها لأنها كانت دائماً تخاف الآخرين . وكان الزوج قد اتخذ مكانه في الدائرة . وكيف يكون بامكانها أن تتحد به ، وأن تكون عفوية إزاءه ، ما دام لم يكن بوسعها أن تفعل ذلك إزاء الحياة ؟ . . . وذهبت هذه المرأة وهي تشعر أنها غير جديرة ، وأنها آثمة بالإضافة إلى ذلك ! — لأن لديها خوفاً .

يبقى السؤال المقلق :

— متى أكون مهيأة للزواج ؟

لا بد من تعديل السؤال والتساؤل :

— ما الذي يحول بيني وبين أكون مهيأة ، جاهزة أمام نفسي ، وجاهزة إزاء « الزوج » ، في حال حدوث الأمر المحتمل ؟ هل أستسلم على نحو كاف حتى لا أحس به من خلال تشوهاتي ؟ هل أنا على درب الكمال لكي أبحث عن رفيق لا عن عكاز ؟ هل أنوثتي قوة أم هي ضعف؟

وثمة كثير من الأسئلة التي تدور حول : « هل ذاتي ، هل أناي ، مستقلة بما فيه الكفاية ؟ » والمرأة الفتية ستكون مهيأة للزواج منذ أن تباشر سيرها نحو حريتها الداخلية ، التي ينبغي تمييزها من ضروب العدوانية وضروب السلوك المناوىء للامتثالية بأي ثمن . وينبغي أن تنضاف إلى هذه القدرة الداخلية ، إلى هذه القوة ، قوة الأنوثة ، إمكانية

أن تعبّر المرأة عن إبداعيتها في الخارج ، بدلاً من أن تتكل على إبداعية زوجها .

وهكذا يمكن للنساء الفتيّات أن يقلن أيضاً :

— إننا ، أنا وهو ، نصل الحياة الزوجية مزوّدين بمتاع ذي شأن : ماضينا . وقد حدّد هذا الماضي ما نحن عليه — أو ما نبدو أننا عليه — الآن . . . كل منا نزّاع إلى أن يلوم الآخر لما هو عليه حالياً دون أن يتساءل لماذا هو كذلك ، بحيث أن توبيخ الآخر يعني انتقاد ماضيه ، حتى قبل معرفته . إنني لا أعرف من هو الآخر إذا كنت أجهل من أين يأتي ، وماذا كانت طفولته ، وتربيته ، وحياته الداخلية . وعندئذ ، حصراً ، أستطيع أن أقرّبه بعمق ، في كليته .

وتسأل فتيات أخريات :

— هل أنا قادرة على أن أحب ؟

إنه سؤال يكرر السؤال الأول على صورة أخرى . **فليس ثمة حب حقيقي للآخر إذا لم يكن الانسان يحبذاته.** والسؤال : « هل أنا قادرة على الحب ؟ » يعني السؤال التالي : « هل أنا قادرة على أن أكون ، أن أشعر بالاحترام لنفسي وللآخر ؟ »

من هنا منشأ الجواب التالي :

— ما دمت غير قادرة أن أكون على صلة مع نفسي ، فلنأستطيع أن ارتبط بالآخر. وما دمت أعد نفسي أنني شيء ، أعنيما دمت فريسة الشعور العنيف بالدونية ، والإثمية ، والخوف ، والحصر ، فلن يكون بوسعيبناء ثنائي جدير بهذا الاسم. أستطيع بالتأكيد أن أباشر البناء، أن أبدأه ، شريطة أن أعمل لتحرري الداخلي الخاص بمساعدة رفيقي .

رابعاً – ثنائي من أربع شخصيات

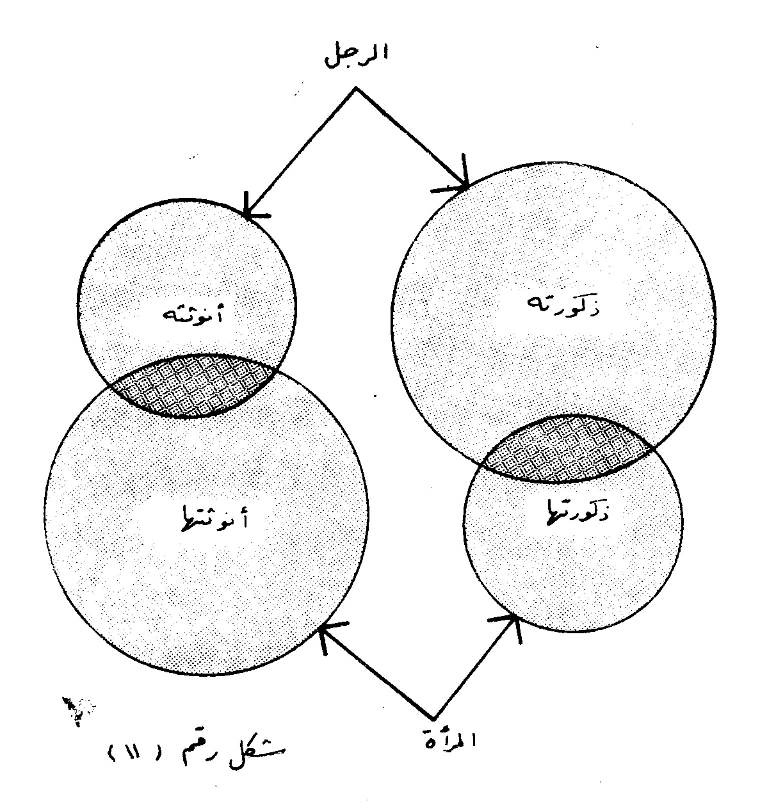
أعود إلى النقطة التي بدأنا منها . ومن حسن الحظ الكبير ، أن الطبيعة منحت كل موجود إنساني كمية معينة من هرمونات الجنس الآخر . لهذا كان لا بد لكل فرد من أن يعرف ذلك **من الناحية السيكولوجية**، وأن يقبله ، وأن يحققه ، بدلاً من أن يكبته .

ونعرف أيضاً أن الأنوثة والذكورة اتجاهان ازاء الحياة ، أسلوبان في إدارة الطاقة . ولا بد للرجل والمرأة ، لكي يحققا ثنائياً عميقاً ودائماً، من أن ينمّيا الأنوثة والذكورة الموجودتين لديهما . وسيكونان عندئذ موجودين كاملين في ذاتيهما. **فتمتد أنوثة الرجل في أنوثة المرأة ، وتمتد ذكورة المرأة في ذكورة زوجها** .

وهكذا ، فبمقدار ما يتحقق الثنائي ، بمقدار ما يكون متين الروابط ، خلاّقاً ، مسروراً ، ويتابع طريقه التي يغذّيها بالنشاط روح واحدة .

فانتم ترون أن الثنائي الحقيقي اتحاد بين خادم الحياة وخادمةالحياة.

انوثة زوجين وذكورتهما



شكل رقم (١١)

أنوثة الرجل ، لدى الزوجين المثاليين ، تمتد في أنوثة المرأة . فالقطب المؤنث لدى الزوجين ذو استقرار كبير ويمنحهما ذكاء داخلياً مفتوحاً على العالم . وتتيح هذه الأنوثة المشتركة « حملاً ثنائياً » للسعادة .

كذلك تمتد ذكورة المرأة بفعل ذكورة الرجل .

والزوجان فاعلان ، خلاّقان بسعادة ، قادران على أن يعبّرا في الخارج عن الطاقة المجمّعة وكأنهما موجود واحد .

كثيرات من « المتحزبات لحقوق المرأة » يعتقدن بأنهن يصارعن ضد الرجال . والواقع أنهن يناضلن ضد أنوثة مصابة بالعطالة ، لاحظوها لدى عدد من النساء ، بدءاً من أمهاتهن .

إنهن يردن ، وقد أعماهن الماضي وجهلن الأنوثة الحقيقية من جراء ذلك ، أن يسحقن أنوثات زميلاتهن اللواتي يرغبن أن يصبحن ثانية نساء.

إنها ضرب من الحرب الأهلية إذا صح القول .

من المحتمل أن يكون ذلك قد قيل ألف مرة ، ولكن « الأنوثة ، كما تعهدها بالرعاية كثيرات من النساء ، أصبحت ورق صر ، صناعياً ومصطنعاً ، مخصصاً للاستجابة إلى الطلب العصابي للرجل .

وهذا يعني أن الأنوثة ستكفّ عن أن تكون استطاعة ، لكي تصبح الجزء الأفقر ، والأكثر مرضاً ، من شخصية المرأة .

يُقال : امرأتان أخويتان * . فمؤنث « أخوي » يبقى ، على هذا النحو ، ذا جذر مذكر . وكأننا نقول : هذه الكلمة لا تنطوي على مؤنث . فهل هذا هو التأكيد بأن الأخوة ما وجدت أبداً بين النساء ؟

(*) ترجمنا هنا حرفياً . وكلام المؤلف منصب على اللغة الفرنسية « م » .



الفصل العاشر

ما يحدث لهن في بعض الأحيان...

ماما ، هل الأمس لم ينته ؟ (لويس السابع عشر إلى ماري انطوانيت)

أولاً – المرأة المسماة باردة جنسياً

١ – البرودة الجنسية حالة نفسية

آ – مقاربة أولى

اشتقاق لغوي : المصطلح الفرنسي المقابل لـ « البرودة الجنسية » هو Frigidité ، آت من الكلمة اللاتينية Frigidus ، ويعني بارد :Froid.

اعتقاد : لا يمكن لامرأة باردة جنسياً أن تكون كذلك إلاّ خلال العلاقات التناسلية . وهذا خطأ فادح .

واقعة : عدد النساء اللواتي يُسمين باردات جنسياً لا يُحصى .

حقيقة مزيّفة : البرودة الجنسية عجز حديث .

حقيقة : معظم الناس الحديثين يعيشون على وجدانية مريضة.

مناقشة أبدية : هل البرودة الجنسية عيب جسدي أم سيكولوجي ؟ هل العوامل الوجدانية ليست غير نتيجة الشروط العضوية ، أم أن العوامل السيكولوجية والاجتماعية هي الأولى ؟

يقين : ينعكس الاضطراب الوجداني بصورة آلية على الحياة الجنسية .

اقتناع غالب : البرودة الجنسية لدى المرأة منوطة بخَرَق شريكها . وهذا خطأ في ذاته ، مع أن بوسع خرق الشريك أن يعزّز البرودة الجنسية لدى المرأة . وهو خطأ لأننا بذلك ننسى العناصر الوجدانية . ويمكن لامرأة باردة جنسياً ، **من الناحية الوجدانية** ، أن تشعر بلذة تناسلية . كذلك بوسع رجل عاجز **من الناحية الوجدانية** (عاجز عن إبداء الحنان ، على سبيل المثال) أن يكون فحلاً من الناحية التناسلية .

ب – بعض الآراء التقليدية

يُنظر إلى البرودة الجنسية عادة على أنها صعوبة معقدة ومثيرة . إنها ، في بعض الأحيان ، نتيجة بعض الآفات التي تتدرّج من الطفيف إلى الأكثر خطورة : إعياء ، وهموم ، وإنهاك ، وسوداوية ، ووهن نفسي ، ومرض السكر ، الخ .

ويحدّدها بعضهم أنها بطء الشهوة الجنسية ، أو توقّفها ، أو فقدانها.

وتقبل المرأة ، بصورة نسبية ، أن تكون باردة جنسياً بمقدار ما يكون متعذراً عليها أن تقوم بالتمثيل .

وتؤدي بعض الانحرافات إلى البرودة الجنسية التي تتوقّف عندما يمكن للانحراف أن يصل إلى حد الاشباع : تلك هي حال امرأة مازوخية تزول برودتها الجنسية إذا عاملها الشريك بقسوة في الكلام أو في الفعل ، أو حال امرأة فيتيشية * تثير لذتها الجنسية رؤية موضوع الرغبة أو لمسه . كذلك فان امرأة معيّنة تزول من الناحية التناسلية برودتها الجنسية إذا استخدمت بعض الأشباح : رجلاً تفكر فيه بصورة خفية ، أو سيناريو تعرضه في ذهنها ، أو بعض الأوضاع المنحرفة التي تتخيلها .

وقد تكون الأسباب العرضية للبرودة الجنسية عديدة . فالحياة الحديثة تحول بين الإنسان وبين الهدوء والاستجمام اللذين لا غنى عنهما لجنسية عميقة وسوية . ولنقتصر على التفكير بالحياة في المجمعات السكنية الكبيرة التي لا تمنع انتقال الصوت والضوضاء في الشارع ، وبالمهن الكثيرة التي تسبّب التعب الشديد . ولكننا عندئذ نكون إزاء **برودة جنسية مزعومة** ليس لها صلة باضطراب في الشخصية .

يضاف إلى ذلك أن تسعة أعشار سكان كوكبنا يعانون اضطرابات وجدانية كالاضطرابات التالية :

— انفعالية مفرطة ، أو انفعالية مكفوفة .

(*) ننصح بالعودة إلى كتاب بيير داكو « الانتصارات المذهلة لعلم النفس الحديث » ، الذي نقلناه إلى العربية ، ونشرته وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، ص ٥٥١ ، القسم الثاني ، الفيتيشية . ونقول بصورة موجزة : إنها حالة من لا يوقظ الاهتمام الجنسي لديه غير جزء معين من الجسم أو الثياب . والفيتيشية موجودة لدى الرجال أكثر من النساء . فاذا اقترنت رؤية موضوع الرغبة الجنسية أو لمسه مع الفعل التناسلي زالت البرودة الجنسية لدى المرأة كما تزول لدى الرجال « م » .

– صعوبة (أو عدم القدرة) أن يحب الإنسان ، أو أن يستسلم للحب .

– إحساسات مشوّهة : إحساسات الدونية ، والقصور ، والعجز ، والإثمية ، والحصر .

– عواطف تالفة : صعوبة (أو تعذر) إبداء العواطف ، أو ، على العكس ، مبالغة في العروض العاطفية . وعدوانية ، وعداوة مقنّعة ، وتعذر التلقائية ، وعدم القدرة على السعادة أو الاستمتاع بالحياة.

وبالاختصار ، جميع هؤلاء الأشخاص يتصفون بعلاقات مزيّفة مع ذواتهم ، وبالتالي مع الغير .

ج – برودة جنسية مزدوجة

يعاني العديدات من النساء ضرباً من البرودة الجنسية المهبلية ، في حين أن البَظَر حساس بصورة سوية . ويقول فرويد إن الاستمتاع البظري يكوّن ضرباً من التثبيت الطفالي . وعلى المرأة ، بالنسبة لفرويد أيضاً ، أن يكون بوسعها « الانزلاق » نحو الاستمتاع المهبلي . هذا الانزلاق لا ينجح بصورة تامة أبداً ، وللمرأة ، خلال النضج الجنسي ، عضوان جنسيان **اثنان** . وتتردّد هذه المرأة ، إذا جاز لنا القول ، بين صورتين من صور الاستمتاع ، بالرغم من أن الاستمتاع البظري عادةٌ لديها على الغالب .

هل المرأة « ذات الاستمتاع البظري » ، امرأة سوية ؟ من العسير أن نجيب إجابة قاطعة . إنها امرأة غير تامة بالتأكيد . ولكن الحالة ليست مرضيّة بالضرورة .

د – البرودة الجنسية عَرَض

يعتقد الناس بصورة عامة أن امرأة باردة جنسياً ليست كذلك إلا في السرير . بيد أنه يصبح من الواضح أن هذا الرأي خاطيء ، إذا سلّمنا بأن البرودة الجنسية لدى هذه المرأة ناجمة عن اضطراب في الشخصية. وفي هذه الحال . تتصف برودتها الجنسية بأنها عرض ، ولا شيء أكثر.

وعلى هذه المرأة أن تلاحظ جيداً برودتها التناسلية . **ولكنها قلّما تتساءل فيما إذا كانت كذلك « باردة » في علاقاتها الاجتماعية** . فقد تلاحظ فيها وجلا ، وصلابة . وعدوانية ، وضروباً من الحصر . ولكن هل تقول لنفسها إنها في حياتها الجارية مثلما هي في السرير ؟

فاذا كانت برودتها الجنسية «حالة نفسية »، نقلتها معها حيثما حلت: وتؤثر برودتها الجنسية الداخلية بالضرورة على النحو الذي ترتّب فيه بيتها ، وعلى تربية أطفالها ، وعلى علاقاتها مع جيرانها أو مع بوابة البناية التي تسكن فيها ، ولو كان ذلك لا يُلاحظ بصورة مباشرة .

وذلك لا يعني أنها ستكون « باردة » مع الغير ، بالمعنى المألوف للكلمة . ذلك أن وجدانية مضطربة يمكن أن تؤدي إلى حساسية مغالية وإلى التعبير عن الذات تعبيراً خارجياً ، مغالياً ، وكذلك إلى خدر في العواطف .

ويقال على الغالب إن المرأة الباردة جنسياً تكفّ عن أن تكون كذلك عندما تغيّر الشريك . وهذا صحيح إذا كانت البرودة الجنسية عرضية : كعدم فهم من الرجل ، وجهل الجنسية الأنثوية ، وقسوة ، ونقص في الحنان ، الخ . وهو خطأ إذا كانت البرودة الجنسية ذات أصل وجداني.

وربما توصلت هذه المرأة إلى اللذة التناسلية « بوساطة » شريك جديد . ولكن ذلك لا يصلح وجدانيتها المضطربة . فاذا كفّت عن أن تكون باردة جنسياً في السرير ، ثمة بعض الأعراض الأخرى تظهر : غيرة ، وسلطوية ، ونزعة ملكية ، واقتضاء علامات الحب الدائمة ، الخ .

والمسألة ليست بسيطة كما نرى . بل ، بمعنى ما ، يتعذر الاحاطة بالصعوبة ، لأن من المتعذر أن نحلّل محيط العواطف ، والهيجانات ، والاحساسات ، والأفكار التي تعصف في اللاشعور الإنساني .

٢ – أسباب البرودة الجنسية

آ – هل المرأة ذات استعداد مسبق للبرودة الجنسية ؟

هل ثمة في طبيعة المرأة نزوع نحو كفّ وجدانيتها وإيقافها ؟ وهل ثمة لديها استعداد مسبق لرفض أنوثتها ؟

لقد فحصنا من قبل هذه الأسئلة . لذلك نقتصر على تلخيص بعض النقاط المهمة تلخيصاً سريعاً .

المرأة أكثر اتصافاً بالداخلية من الرجل . والرجل انفجاري ، أما المرأة فانبجاسية . والرجل متّجه نحو الخارج ، والمرأة منكبّة على «داخلها ».إن وجدانيتها تسيطر عليها سيطرة تامة . وهي تشارك في كل شيء مشاركة كلية . إنها تمنح نفسها برمتها « جسداً وروحاً » ، أو ترفض .

وفيما يخص التناسلية ، يتصف العضو المؤنث بأنه « مفتوح » ، ومحسوس بأنه بارد ، وغير منيع ، وعطوب . ويشعر به بعض النساء

وكأنه جرح أو تشوّه . وكثير من النساء يخشين الإيلاج ، الذي يحسسن به وكأنه « اغتصاب الشخصية » . فليس من المدهش ، للوهلة الأولى ، أن يصطدم هؤلاء النساء بصعوبات هائلة في تفتيح شخصيتهن . والحال أن العلاقات الوجدانية والتناسلية **تقتضي** انتشار الحرارة الداخلية ، الأمر الذي يتصف بأنه نقيض التوقّف الوجداني الذي هو البرودة الجنسية الحقيقية .

ب ـ العوامل الخارجية :

١ ـ إنها ، أول الأمر ، الظروف التي جعلت المرأة مشروطة سلبياً ، والأحداث التي كبحتها في **التعبير خارجياً** عن عواطفها وفاعلياتّها. وقد حالت هذه الظروف دون تفجر شخصيتها وانتشارها . وأكرهتها على أن تبقى في ذاتّها ، وعلى أن لا تخرج منها . من هنا منشأ الانطواء على الذات ، بكل معنى المصطلح .

وما فتئت هذه الظروف ، مع ذلك ، تضخّم نزعة طبيعية لدى المرأة : **أن تبقى في داخلها** (السيكولوجي) . وإمكانية الإظهار إلى الخارج موقوفة في الوقت نفسه .

وعندما يفكر المرء ، من جهة أخرى ، بأن الرجل الحديث عاجز عن العفوية ، فليس ثمة ما يدهش أن تكون « البرودة الجنسية لدى الزوجين » وضعاً منتشراً انتشاراً كبيراً .

٢ ـ المرأة موسومة منذ الأزل بضرب من اللعنة . لقد كانت (وتبقى على الغالب) تلك التي « بفعلها تحدث الكارثة » . وكانت موسومة بالحديد الأحمر بوصفها غير طاهرة . وكان فرويد يقول :

« لم تساهم الأعضاء التناسلية في جمال جسم الأنثى . . . » ولا تعتقدوا أن عصرنا كنّس كل ذلك . فهذه الاحساسات – اللاشعورية – ستبقى ما دام الانسان سيشعر بالحصر أمام المرأة (انظر ثانية الفصل الخامس المهم جداً) .

٣ – عديدون هم الأزواج الذين يتهمون نساءهم بالبرودة الجنسية حتى يخفوا عجزهم عن أنفسهم . ولا يعود تاريخ أكباش الفداء إلى أيامنا هذه .

٤ – ولا بد من أن نثير المفهوم المرعب : مفهوم « الواجب الزوجي » الذي يلحق بعقد الزواج . ولأن المرأة « تمنح » زوجها اللذة ، فهي تلغي شعورها بالإثم كونها لم تحس بشيء . وهي ، على الغالب عندئذ ، تحتفظ ، تحت مظاهر نرجسية ونسوية مغالية ، بالرأس بارداً برود قطعة جليد ، وبالنفس مصابة بالعطالة كالموت .

٥ – قد يكون مؤلّف برمته ضرورياً لوصف التخيلات ، والمخاوف ، والأشباح ، وضروب التقزز ، التي تبرز خلال الفعل الجنسي ، ولوصف كل النرجسيات والمازوخيات والنساء اللواتي يعتقدن أنهن « واسعات جداً » أو « ضيقات جداً » . والعدد الكبير من اللواتي يخفين برودتهن الجنسية عن أزواجهن ، وهن يعددنها « سوية » ، حتى لا يسببن لهم الألم أو النكد .

ج – العلاج

النساء الباردات جنسياً يستشرن ، بصورة عامة ، طبيباً عاماً أو طبيباً للأمراض النسائية ، وقلما يلجأن إلى علم النفس . فهن إذن يبحثن

عن أخصائي في العضوية الجسدية ، وينسين بنياتهن السيكولوجية .
وذلك يبيّن :

١ — أنهن ينسين (أو يجهلن) أن الجنسية مرتبطة بالوجدانية ، وأن كل اختلال في الحياة الداخلية ينعكس على الحياة المسماة جنسية .

٢ — أنهن ينظرن إلى برودتهن الجنسية على أنها سوية بصورة نسبية وقليلة الأهمية . وهن يتصرفن كما لو كن يطلبن دواء ضد أوجاع في المعدة يجهلن أسبابها .

ويبدو أمراً ثابتاً أن الطب التقليدي ينطوي على إمكانية ضئيلة في شفاء برودة جنسية ، للسبب المتميز الذي مفاده أن « المستويات » ليست واحدة . فالمرأة تسمع السؤال العرّة يُطرح على الغالب : « كيف تتفاهمين مع زوجك ؟ » . وهذا السؤال ، مهما كان يتصف بالطقسية ، شديد الخطر بصورة نسبية . وبالرغم من أنه ، في حد ذاته ، يتعلق بوجدانية المرأة التي تطلب الاستشارة ، فانه يورّطها على الأغلب في درب خاطىء . والسبب في ذلك أن هذا السؤال يضع الشريك موضع الاتهام في ذهن طالبة الاستشارة على الأقل . والحال أن البرودة الجنسية الواقعية ضرب من « السلوك » ، ولو أن بعض الظروف الخارجية تتعهدها بالرعاية .

إنها « حالة نفسية » تلك التي تجعل المرأة باردة في جميع الأفعال التي تقوم بها في حياتها . وقد يحدث بالتأكيد أن يكون زوجها عاجزاً عن أن يمدّ لها يد العون . ولكن هذا أمر لم يقم عليه الدليل .

ولهذا السبب ، من الخطأ أن نقول إن البرودة الجنسية عصاب

شخصين . هذا القول قول سهل جداً . فلكل شريك من الشريكين ، مهما كانت التفاعلات داخل الثنائي ، وجدانيته الخاصة ، مريضة كانت أم سليمة .

ولهذا السبب ، كان سؤال : « كيف تتفاهمين مع زوجك ؟ » شديد الخطر . فالمرأة تتعرض إلى خطر أن تبحث في الخارج عن سبب داخلي على نحو صرف .

أما فيما يخص علم النفس ، فانه يعدّ أن كل سلوك سيكولوجي ، شعورياً كان أم غير شعوري ، يؤثّر على الجسمي بالضرورة . وعلم النفس ينظر دائماً إلى الفرد في كليته .

فمن المناسب إذن أن نعيد طرح السؤال كما يلي :

— هل البرودة الجنسية في السرير عرض منعزل ، أم أنه حلقة في سلسلة أعراض أخرى تصدر عن اضطرابات في الشخصية ، عميقة على وجه التقريب ؟

وبعبارة أخرى : هل البرودة الجنسية في السرير « علامة خطر » تنذر بأن شيئاً ما « يصرّ » في أعماق اللاشعور ؟

ومن الواضح أنْ ليس بالإمكان كشف الصعوبات التي تشوه شخصية من الشخصيات بنظرة واحدة . ويعرف عن هذه الصعوبات شيئاً ما علماء التحليل النفسي الذين يتنقلون ، طيلة حياتهم ، في أعماق الغير اللاشعورية .

والواقع أن قليلاً من النساء يباشرن تحليلاً نفسياً « بسبب البرودة الجنسية » . فقد وجدت في عداد النساء اللواتي أجريت لهن تحليلاً

نفسياً ، ثلاث فئات : النساء اللواتي كن يرغبن ، وهن متحمسات للحياة ولسن مريضات على الإطلاق ، في تنمية أناهن إلى الحد الأقصى. والنساء اللواتي كن يعانين صعوبات في التكيّف مع أنفسهن ومع الحياة. وأخيراً ، النساء المصابات بـ « عصاب » ، مع كل اضطرابات الشخصية التي يثيرها هذا المصطلح .

بيد أنني ، فيما يخصني ، لم أعرف على الاطلاق امرأة باشرت تحليلاً نفسياً بهدف شفاء برودتها الجنسية، بوصفها عرضاً رئيساً . ولا بد ، خلال التحليل النفسي ، من مرور زمن طويل قبل أن تقول المرأة ، دون أن يبدو عليها أنها تعلّق على ذلك أهمية كبيرة : « **إنني ، من جهة أخرى ، باردة جنسياً** » .

ماذا نجد لدى المرأة الباردة جنسياً ، بالإضافة إلى برودتها التناسلية ؟ إن أنوثتها لا « تعمل » كما ينبغي أن تعمل . ويلاحظ لديها اضطرابات في الحيض ، وتشنج في المهبل ، ودورات مضطربة . ثم يلاحظ ، في المجال السيكولوجي ، هياج ، وإنهاك ، وحصر ، ووساوس ، وقابلية التهيج ، واكتئاب : إما بصورة دائمة ، وإما قبل الطمث .

وهذه الأعراض ليست بالطبع غير بعض الأعراض الشائعة . ولكن ثمة أعراضاً أخرى ، منها ، على سبيل المثال ، تعذّر التوقف عن العمل ، والإثمية عندما تندفع المرأة بعفويتها إلى السعادة ، والحاجة إلى العقلنة، والكره الموجّه إلى الرجال ، واحتقار النساء ، وضروب الغيرة المرضية ، ونزعة الملكية الخانقة ، والشعور بالدونية ، والإحساس بالتفاهة وبأنها غير محبوبة ، والحذر المبالغ فيه ، والمطالبات المفرطة ، وأعراض أخرى كثيرة أيضاً . . .

وتبين هذه الأعراض المختلفة على الأقل ما تعانيه هؤلاء النساء من صعوبة في إقامة **علاقة وجدانية** مع ذواتهن ومع الغير ، ومع الشريك على وجه الخصوص .

٣ – البرودة الجنسية : حسد ومطالبة

ثمة صورة من صور البرودة الجنسية تتصف بعواطف الحسد والمطالبة ازاء الرجل الذي تعده المرأة صاحب امتياز . والأسباب كثيرة : اجتماعية وتربوية ، بالنظر إلى أن الرجل موصوف بأنه « أسمى » ، أو لاشعورية : فالمرأة ترفض أنوثتها .

هذه العاطفة ، عاطفة الحسد والمطالبة ، لاشعورية على الغالب . ولكن المرء يندهش من عدد النساء « الأنثويات كثيراً » ، اللواتي يرفضن أنوثتهن ، ويحسسن أنهن أدنى ، وتافهات ، وسطحيات . وبعبارة أخرى ، يعتقدن أن أنوثتهن عيب ، بل خطأ من أخطاء الطبيعة .

وستحاول المرأة ، في هذه الحال ، أن تمتلك الرجل ، بالمعنى الاصطلاحي للكلمة . ووضعهن شبيه على وجه الضبط ، خلال الفترة الأوديبية ، بوضع بعض المراهقات اللواتي يحاولن ، بمظاهر « نسوية » جداً ، أن يوقعن بآبائهن عندما تسنح لهن الفرصة .

ولا بد لهؤلاء النساء ، منطقياً ، من أن يحاولن الحط من قيمة الرجل . كيف ؟ فهن ، بوصفهن يعتقدن أنهن عاجزات عن مصارعته صراعاً مكشوفاً ، يبدأن صراعاً مرائياً ، ماكراً . وستكون المرأة باردة جنسياً بوصفها ثائرة ضد الرجل دون أن تعلم . ومضمون ما تبطنه : « استمتع ، ولكن لا تعتمد علي في **المشاركة** بعملك ، عمل الذكر » .

هذه المرأة تخدّر نفسها ، وتجعل نفسها ميتة . إنها تعاني « هجوم » الذكر بعطالة وجدانية كاملة .

وتبدأ الحلقة المفرغة على هذا النحو :

– **البرودة الجنسية تولّد** . . . . الشعور بالدونية .

– **الذي يولّد** . . . . مطالبات جديدة إزاء الشريك .

– **تولّد** . . . . رفض الأنوثة رفضاً متزايداً ، وتعزيز البرودة الجنسية . . . . إلى حد الإغلاق الكامل . ونكتشف على هذا النحو . مجدّداً ، عقدة أوديب التي تظهر في حياة المرأة عند كل منعطف .

آ – حالة جميلة

كان هذا الاسم ، غير الموجود في الروزنامة التقليدية ، يمثّل تمام التمثيل هذه المرأة ذات الاثنين وثلاثين ربيعاً ، التي « كانت تصنع الإغراء » . لقد كانت تتذمر من الشعور بالدونية :

– ما أن يلاحظني الناس حتى تزل قدمي كما لو أنني شيء تافه ليس له الحق في الوجود . . .

ومن الشعور بالإثم :

– إن منعكسي ، عندما أكون في السيارة ، إزاء أوهى صفرة أو أوهى صوت لمنبّه سيارة ، هو : « ماذا فعلت ؟ »

ومن الحصر :

– في الصباح ، ما أكاد أفتح عيني حتى تكون الكرة هناك ، في

حلقي ، ومعدتي منقبضة . وأعلم أن نهاري سيكون مترعاً بالمخاطر ، والمخاوف ، وضروب الوجل . أعتقد أنني لست مجبولة لأكون سعيدة ! فاذا كان لدي متسع من الوقت لأنجز عملي كله ، زال الحصر. ولكن عليّ أن أبدأ عملي مباشرة دون أن أنتظر ثانية واحدة . فأنا أتمنى أن أفعل كل شيء في وقت واحد . وأسرع كما لو أن العالم بأسره يجدّ في أثري . فأهتاج ، وأتعب ، وأنجز كل شيء نصف إنجاز . ثم إنني عندما أنهي كل شيء على وجه السرعة ، أجد نفسي مجدّداً أمام ساعات فارغة ، دون أن يكون لدي أي شيء أقوم به . وعندئذ يبدو الحصر ثانية ، كما لو أن « الناس » كانوا يلومونني على بقائي عاطلة عن العمل.

إنها لم تقل لي إلا بعد ما يقارب العشرين جلسة :

— آه ! « كنت قد نسيت » . . . إنني باردة جنسياً .

ها هي ذي ، على نحو سريع ، حالة جميلة . إن جميلة ، المتزوجة من مهندس مرموق ، معجبة به بولع . أما معرفة ما إذا كانت تحبه كما تتخيل ، فتلك حكاية أخرى . ففاعلية زوجها وإبداعيته أصبحتا إبداعيتها الخاصة . إنها تعيش « بالوكالة » . لقد استولى عليها هذا الرجل ، ضرب من الخالق الذي يفجّر الجبال . ويشق الطرقات . ويخضع الطبيعة.إنها في نهاية المطاف ، شبيهة بهذه الطبيعة :

فهي تشعر بأنها عبدة هذا الزوج الاله . وفي يوم من الأيام ، التقيت بهذا الرجل : إنه موجود جافّ كان يقطّع المعمورة والموجودات إلى أرقام معقّدة . وموجود دون وجدانية كان يسوس الناس كما كان يفعل بآلاته .

فكيف كان بوسع جميلة أن تبيح لنفسها أن تكون عفوية إزاءه ؟ لم يكن بامكانها أن تكون غير خاضعة له . وخوفاً من أن يحتقرها هذا الزوج اللوغارتمي ، لم يكن بامكانها أن تبيح لنفسها أن تكون امرأة «حيواناً » في السرير . وهي ، في قرارة نفسها ، كانت تشعر بأنها موضع إطراء كبير حين « يتفضل » إلهها فيأخذها ، و « يتنازل » فيجعل منها فريسته . فالمشاركة ، بالنسبة إلى هذه المرأة ، كانت أمراً متعذراً : إن الوجدانية كانت ذات اتجاه وحيد ، دون أدنى صدى من جانب الرجل . فالبرودة الجنسية لدى جميلة لم تكن سوى ضرب من « تحفّظ » وجودها كله إزاء رجل كان يكبت كل عاطفة .

ب – حالة ماري آن

تتدخل الأم في هذه الحالة التي تتيح أن يفهم المرء عدداً من الحالات الأخرى . وها هي ذي فقرة مستخلصة من حديث اتصالنا الأول :

– أمي كانت هي التي ربتني . وكان أبي خارج البيت دائماً . إنه، بوصفه ممثلاً تجارياً ، لم يكن يظهر إلا لفترات قصيرة . والداي لم يكونا متفاهمين . وكان أبي يسمع اللوم الذي توجّهه له أمي في كل مرة بسبب روحاته وجيئاته ، غير المتوقعة ، بدلاً من أن يكون موضع ترحاب . إنني أعلم أن ذلك لم يكن يسيراً على أمي ، وكنت أشفق عليها. وكنت ألوم أبي داخلياً ، وأمي حينذاك فتية جداً ، لإهماله لها وعدم تغيير مهنته . والحقيقة أن أمي كانت متصلبة ، وقاسية ، وعنيفة ، وأعلم الآن أن أبي كان يؤثر تمديد أسفاره بدلاً من أن يكون عليه أن يعاني مزاجها السيء . ولم أعرف والدي في نهاية الأمر . لقد بقي «فلاناً يبدو ويختفي » . ولم أستطع قط أن أتكلم إليه بصورة صميمية .

وكانت أمي لا تكفّ عن انتقاده ، وما كان بامكاني إلاّ أن أصغي وأسلّم ، لم يكن لي سواها ، أتفهم ؟ ولا أعلم فيما إذا كنت أحب والدتي ، ولكنني كنت أحتاج إلى بيت ، إلى دفء ، وتركت نفسي أقع على عاتقها . وكانت تقوم مقامي في كل شيء إلى حد أنها كانت تنتزع شيئاً من يديّ قائلة : دعي إذن ، إنك رعناء إلى حد المغالاة .

ها نحن عدنا إلى حالة نعرفها جيداً . الأب ؟ رجل مجهول . الأم ؟ مستنقع ينغلق على الضحية . والوضع الأوديبي فاشل بصورة كلية . والشخصية الوحيدة المهمة هي الأم .

ولهذا السبب تبحث ماري آن ، من خلال زوجها ، عن « الأب » الذي لم تعرفه . ولكنها تظل لاشعورياً ، في الوقت ذاته ، « تحت وصاية » أمها . إنها لا تفلح ، إذا صح القول ، في الخروج من دورها ، دور البنت الصغيرة .

لماذا تتصف ماري آن بأنها باردة جنسياً ؟ لأنها ، أولاً ، تحذر الرجال بوصفها مشروطة بأمها : « إنهم يتركون النساء » . وكيف يمكنها ، من جهة أخرى ، أن « تذوب » في رجل تعتقد بصورة قبلية أنه يستطيع في كل لحظة أن يخدعها ، ويهملها ، وينبذها ؟

وعلى هذا النحو ، فان ماري آن ، بمظهرها العطوب الخجول ، كانت قد استمرت ، وهي في الثامنة والعشرين من عمرها ، متوحّدة بأمها . إنها كانت قد أصبحت « مثل » أمها . وهل ينبغي أن نضيف أن هذه الأم كانت ، على وجه الاحتمال الكبير ، باردة على جميع المستويات ؟

٤ ـ خاتمة

برودتان جنسيتان لا تتشابهان مطلقاً . أياً كانت مظاهرهما السطحية . ذلك أن وجدانيتين لا تعملان أبداً على نحو واحد .

والاسئلة الأولى التي تطرح نفسها هي التالية :

١ ـ هل البرودة الجنسية يا ترى هي برودة جنسية مزعومة . أم نحن بصدد اضطراب وجداني ليست « البرودة الجنسية » غير عرض من أعراضه ؟

٢ ـ من أين ينشأ هذا الكفّ في التعبير عن الذات ؟

٣ ـ كيف تستشعر هذه المرأة أنوثتها ؟

٤ ـ ماذا يمثّل شريكها بالنسبة إليها ؟

وعلى أي الأحوال . **ليس ثمة امرأة باردة جنسياً بالطبيعة** : فذلك إنما هو رأي مسبق ينبغي استبعاده .

وفي يوم من الأيام ، ربما تم اكتشاف دواء يساعد العمل السيكولوجي باصلاح بعض « الدارات الصغيرة » العصبية . فهذا أمر ممكن ، بل محتمل .

وبانتظار مثل هذا الدواء . يبقى . على الأغلب . حل اللغز ، لغز ضرب من البرودة الجنسية . عملاً وفقاً على علم نفس الأعماق . الذي يميّز المظهر من الماهية . ذلك أنه لا بد من القول **إن لكل برودة جنسية دلالة** . فهي ، على الغالب ، وسيلة دفاع ، وضرب من رفض الذات والآخر أو الآخر .

وبعبارة أخرى ، **إن البرودة الجنسية ، على الغالب ، اضطراب في التواصل مع الذات والغير .**

ثانياً : المرأة النرجسية

من الشائع في ثقافتنا أن الناس يعزون إلى غالبية النساء ضرباً من النرجسية المفرطة . ويعتقدون عن طيب خاطر أن النرجسية تشكّل جزءاً من طبيعتها العميقة . ومن المهم أن نعرف ما إذا كانت هذه الأحكام المسبقة تطابق واقعاً معينا .

أما وقد قلنا قولنا هذا ، فانه يبقى صحيحاً أن عدد النساء النرجسيات كبير . فما السبب ؟

١ ـ النرجسية السوية

يمكن صياغة النرجسية كما يلي :

ـ إنني موجود . وعليّ أن أتكيّف مع ظروف الحياة . وعليّ في كل آن أن أناضل للاحتفاظ بسلامي الداخلي وتوازن شخصيتي . فعليّ إذن أن أكون ، في نطاق معيّن ، موضوع اهتماماتي الأول . وعليّ أن أحمي صحتي ، وتوازني ، وسعادتي ، من أجلي ومن أجل الذين أعيلهم. ويمكن أن أضحي بنفسي إذا كان ذلك ضرورياً ، ولكنني لا أشعر على الاطلاق بأي حاجة مرَضية إلى التضحية . إنني أعاني الألم ككل موجود حي . وأقبل أن أعاني الألم بقدر ما يكون ذلك أمراً لا مفر منه ، ولكني لا أشعر ، على أي حال من الأحوال ، بالحاجة إلى معاناة الألم . إنني أحب الآخرين ، ويروق لي كذلك أن يحبني الآخرون . ومع هذا فلا أشعر بأي حصر إذا لم يحبوني .

قوام النرجسية السوية إذن أن يهتم المرء بذاته اهتماماً موضوعياً ، لا اهتماماً تحت ضغط الجبر أو الخوف من الغير .

٢ – النرجسية غير السوية

طرحت السؤال التالي على **نساء ورجال** :

- كيف تتصورون امرأة نرجسية ؟

ها هي ذي الاجابات :

– أرى امرأة تقضي الساعات الطوال أمام المرآة . . .

– المرأة النرجسية امرأة مغرمة بذاتها . . .

– إنها امرأة تهتم قبل كل شيء بجمالها الخارجي . . .

– أتخيل امرأة موقفها ذو قوالب جامدة ، وابتسامتها ذات قوالب جامدة ، ولا تكاد تتحرك عندما تكون بين الناس في مجتمع . . .

– إنها امرأة شاءت لنفسها أن تكون مغلقة إلى درجة تبدو أنها بلهاء.

يقال في الواقع ، بصورة عامة ، إن الموجود النرجسي – مثله مثل نرجس بالطبع – مغرم بالصورة التي تعكسها مرآته . وهذا صحيح في نهاية المطاف : ذلك أن هذا الموجود لا يميّز بين ما هو عليه وبين «الانعكاس» الذي يعرضه على الآخرين ، ولا يميز نفسه مما يتوهمه عن نفسه . ويمكن القول إذن إنه يبالغ مبالغة شديدة في أهميته ، ويتخيل أن جميع النظرات تدور حوله .

وتهتم المرأة النرجسية ، قبل كل شيء ، بـ **الأثر** الذي تحدثه . فثمة

رأي مسبق (خاطىء) قوام، مع ذلك أن لا تُرى غير فتية وجميلة . فالمرأة النرجسية تبحث على هذا النحو عن المظهر لا عن الماهية . وبوسعنا أن نستخلص من ذلك أن **النرجسية وسيلة دفاع** . ولهذا السبب ، تظهر النرجسية على الغالب في الوقت الذي يظهر الشعور بالدونية والعجز .

والتخطيطية التالية تبيّن الآلية الّتي تثير النرجسية لدى إحدى النساء.

تحتمي المرأة بما يلي :	**ضد الإحساسات التالية:**
عليّ أن «أبدو» أسمى أو لامبالية	لأنني أشعر بالدونية .
عليّ أن أبدو مغلقة	لأنني أشعر باللاأمن .
عليّ أن أفعل بحيث يُعجب الناس بي	لأن الناس يلاحظونني ليوجهوا إلي النقد واللوم والسخرية .
عليّ أن انغلق على ذاتي وأدور حولها	لأنني لا أفلح في أن أنبجس خارج ذاتي
عليّ أن أتخثر	لأنني لا أجرؤ على التصرف
عليّ أن أتلقى	لأنني لا أستطيع أن أعطي.
ينبغي أن يبرهن الناس عن حبهم لي	لأنني لا أستطيع أن أحب .
عليّ أن أخفي شخصيتي كيلا أخدع أبداً	لأنني أخشى بحصر أن أُخدع.
عليّ أن « أظهر »	لأنني لا أفلح في أن « أكون ما أنا عليه » .

عليّ أن لا أكشف عن نفسي،

وعليّ أن أحفظ سري الغامض — لأنني أعاني حصراً من أن أكشف عن ذاتي ، وأن أظهر نفسي إلى الخارج .

عليّ أن أبدو إنساناً مهماً — لأنني لست شيئاً .

أريد أن أكون مركز العالم — لأنني منبوذة من الجميع.

عليّ أن ألاطف الآخرين — لأنني محكومة بالإخفاق .

عليّ أن أحب ذاتي قبل كل شيء — لأنني أكره ذاتي .

عليّ أن أضخّم ذاتي — لأنني فقدت ذاتي .

عليّ ، بأي ثمن ، أن أكون مركز العالم — لأنني أتمنى أن أغرق في العدم.

النرجسية هي إذن « حماية » الذات . والمرأة النرجسية تتوهّم أنها كل شيء لكي تتخلص من الاحساس بأنها لا شيء . فهي تريد باستمرار أن تحدث لدى الغير انطباعاً رائعاً عنها . ويفهم المرء أنها ، لكي تفعل ذلك ، ملزمة بأن توقف عفويتها : ذلك أنها إن عبّرت عن نفسها تعرّضت إلى خطر أن تحدث « أثراً سيئاً » . فتضع نفسها في ضرب من الحذر الوجداني .

والمرأة النرجسية ملزمة ، تحت طائلة الحصر ، أن ترعى الأوهام التي تصنعها عن نفسها . كتب **كارن هورنه** يقول :

— أتساءل على الغالب فيما إذا كانت هذه الأوهام لا تحول بين

الفرد وبين أن يُصاب بالدمار على نحو تام ، وفيما إذا كانت هذه الأوهام ، بفعل هذا ذاته ، لا تنقذ حياته بصورة كلية . . .

ويبدو لي ذلك صحيحاً كل الصحة . ولكن المرأة النرجسية ، إذ تتعهد بالرعاية ، على هذا النحو ، وهم أنها ذات شأن ، معرّضة للاخفاق باستمرار كل التعرض . ومن المحتمل أن تلاحظ أنها أقل « إثارة للإهتمام » مما تعتقد بكثير . وعندئذ يبدو الحصر . وعلى المرأة النرجسية أن تعزّز مجدّداً وهم قيمتها الخاصة ، حتى تحتمي منه . وتلك هي الحلقة المفرغة . فاذا تحطمت ، دخلت المازوخية ، مسبوقة بطبولها السوداء .

وتبدو المرأة النرجسية أنها تحب ذاتها . والواقع أنها تكره نفسها . وهذا هو السبب الذي من أجله تهتم ، على وجه الحصر ، بالصورة الخارجية التي تعرضها على الغير . وهذا الجانب المرئي سيكون : سحرها ، وجمالها ، ورنة صوتها ، و « سرها الغامض » ، وطريقتها في الملاحظة ، وحركاتها المحسوبة مع مغالاة في الحساب . ويمكنها كذلك أن تتبنى سلوكات تجعلها تبدو في جو ملائم : أن تظهر نفسها شهيرة ، وعالمة ، ومغرية ، الخ .

وإذا كانت المرأة النرجسية لا تتمتع بـ « صفات » يمكنها استغلالها على نحو يسير ، فان عليها أن تضاعف جهودها حتى تلفت الأنظار . ولكن هذه الجهود ذاتها يحتمل أن تهز الأوهام التي ترعاها عن نفسها بعض الهز ، فتولّد الحصر على هذا النحو .

وتؤدي المرأة النرجسية دوراً في **المجتمع** . **فهي** تبدو لاشخصية ،

ومتجمدة . ابتسامتها ثابتة على الغالب ، وعسيرة على الفهم . إنها تبتسم لكل فرد على طريقة واحدة ، ولكنها لا تبتسم لأي شخص في الواقع (ويمكن التساؤل فيما إذا لم تكن الابتسامة الشهيرة في لوحة **الجوكوندا** * ابتسامة نرجسية على نحو صرف) . فكل شيء محسوب : طريقة السير ، والجلوس ، والوقوف . والاشارات بطيئة في بعض الأحيان ، ومقدورة ، وموسومة بهدوء لامبال . إنها لميتة حية ، إذا جاز لنا القول ، هذه المرأة .

إنها في بعض الأحيان شبيهة بالحرباء . وهي إذ تخشى أن يُوجّه إليها الانتقاد ، تقتدي بالشخصية الأكثر أهمية ، التي تشاطرها الرأي ، دون أن تكفّ عن الابتسام « بهدوء » .

والمرأة النرجسية — وإن كان الجميع يتهافتون عليها — تهرب من الآخرين ، إذ تحيط نفسها بهذا السر الغامض المزيّف الذي يثير سحرها المزيّف . وهي لا تبدي وجهها الحقيقي أبداً حتى في المجتمع الأكثر اتصافاً بالعفوية .

ثم تهلّ البرهة المأساوية التي يصبح فيها هذا الدور عديم الجدوى . فالمرأة النرجسية التي لم تعد تشعر أنها تلفت الأنظار امرأة شبيهة بالميتة . وتلك هي مرحلة المساحيق المغالية ، ورفض الشيخوخة ، والزينة الشاذة . ولا يمكن لجميع هذه الأناقات إلاّ أن تبعث مرارتها مجدّداً . وعندئذ ، تقع المرأة على الغالب في الهستيريا ، مع شبيهاتها اللواتي يتسكعن كل يوم في جادات ضروب الغسق المنسي .

(*) لوحة الرسام الشهير ليونار دوفنسي « م » .

ثالثاً — المرأة المازوخية

يقال غالباً : المرأة مازوخيةبصورة طبيعية . فهل هذا يا تُرى رأي مسبق خاطىء؟وإذا كانت مازوخية ، فهل هذه الخاصة أساسية أم أنها عرضية؟ وهل طبيعتها ذاتها هي التي تدفعها إلى المازوخية أم المجتمع؟ وهل المرأة ذات استعداد مسبق للمازوخية أكثر من الرجل ؟ من العسير مع ذلك تحديد المازوخية . فهذا المصطلح يجرّ وراءه ضروباً عديدة من العفن . ويتخيل المرء بصورة مباشرة ضاربين ومضروبات ، مغتصبين ومغتصبات، قتلة وقتيلات ، مذلين وذليلات ، باقري البطون ومبقورات . وبعبارة أخرى ، ثمة نزعة للاعتقاد بأن كل مازوخية مرضيّة بوضوح . ولكن ، ألا توجد مازوخيةسوية على وجه التقريب ؟

يضاف إلى هذا أن الناس لا يميّزون على الغالب بين المازوخية والانحراف التناسلي الذي يقوم على البحث عن الضربات ، والجلد ، والإهانات . والحال أن المازوخية هي قبل كل شيء انحراف وجداني ، وتعبيرها التناسلي المحتمل ليس سوى عرض في عداد أعراض أخرى.

١ — ما يعتقده بعض النساء والرجال عن المازوخية

استطعت أن أطرح السؤال التالي على أشخاص عديدين ، ينتمون إلى شتى الأوساط :

إذا افترضنا أن المازوخية تتألف ، في عداد ما تتألف ، من :

— استصغار الذات استصغاراً عميقاً ، بل احتقار المرء شخصه الخاص .

– شعور بالدونية بالغ حده .

– حاجة عميقة إلى الإخفاق ، أو الىحصر الاخفاق ، حصر دائم .

– كشف المرء عن ضعفه ، وشقائه ، وعجزه ، كيما يتملّق الآخر .

– القدرة على الانتظار زمناً طويلاً لكي « يوقع بالآخر » عندما تسنح الفرصة .

– القدرة على أن يجعل الآخرين يتصرفون لمصلحته ، ولكن مع قوله لنفسه : إنهم لا يعادلون نصف ما يدعون .

– كونك تنتظر أن يأتي الآخرون للبحث عنك والاعتراف بمزاياك . دون أن تبذل أدنى جهد لتقييم نفسك بصورة موضوعية .

– الحصر أمام أوهى عمل غير ودي يقوم به الغير .

– الحاجة إلى أن لا يفطن إليه أحد ، أو أن لا يكون بسلام إلا إذا شعر بأنه يلفت الأنظار أو بأنه محبوب .

– أن يجد المرء نفسه منزعجاً كل الانزعاج إزاء المديح والنقد على السواء .

– حاجة عميقة إلى التبعية أو الخضوع ، محجوبة في بعض الأحيان تحت مواقف الاستقلال الفظ .

– كون المرء يحتفظ بكل شيء لذاته ، ويوجّه فاعليته نحو «الداخل » دون أن يفلح في إظهار ذاته إلى الخارج .

فهل يبدو لكم ، في هذه الشروط ، أن كثيراً من النساء مازوخيات؟

ها هي ذي النقاط المشتركة في الإجابات التي حصلنا عليها .

النساء

١ — نعم ، نحن مازوخيات . وإذا كان الأمر غير ذلك ، لماذا تركنا أنفسنا ننسحق خلال هذا المقدار من القرون ، مع الرضى الخفي بأن نكون تابعات للرجل ، وأن نكون محبوبات منه ؟

٢ — كلا . إذا كنا مازوخيات في بعض الأحيان ، فذلك لأن الرجال ينقصون من قدرنا إلى حد أننا ننقص من قدر أنفسنا .

٣ — كلا ، ولكننا ملزمات بأن نجعل من أنفسنا « كما لو أننا مازوخيات » . فالرجال يحبوننا تبعاً لهذا الخضوع الظاهر .

٤ — كلا . ولكن ساعتنا ستأتي ، وعندئذ . . .

٥ — نعم . نحن نتحمل كثيراً من الآلام دون تذمر . وهذا أمر غير سوي .

٦ — كلا . فكوننا نعرف أننا عاجزات عن أن نفعل كما يفعل الرجل ، لا يعني أننا مازوخيات .

٧ — نعم . تريد النساء أن يكن محبوبات ، وبدون ذلك لسن شيئاً . إنهن يصنعن أي شيء ليجذبن الحب .

٨ — نعم . تشعر المرأة سريعاً بأنها مهملة ، شهيد ومنبوذة .

٩ — نعم . يتصرف النساء في أغلب الأحيان خفية ، دون أن يظهر عليهن ذالك ، إذ يبسطن ضعفهن.ولا أعلم ما إذا كان ذلك عرضياً ، غير أنه يتيح لها أن تصل إلى غاياتها .

١٠ — نعم . لا تفلح المرأة في أن تظهر ذاتها إلى الخارج ، وهذا أمر طبيعي .

الرجال

١ — كلا ، فأنا لا أعتقد ذلك . ولكننا نحب أن يتظاهرن بذلك.

٢ — نعم . حتى النساء الأكثر تصلباً يذبن كالثلج عندما يثنى عليهن .

٣ — كلا . لسن مازوخيات أكثر من الرجال . ولكن هؤلاء بحاجة إلى الخضوع النسوي .

٤ — كلا . إنهن أقل مازوخية منا . ومقاومتهن الداخلية هائلة .

٥ — نعم . إنهن يذهبن مدحورات دائماً مهما فعلن ، لأن حاجة طبيعية إلى أن يكن محبوبات قبل كل شيء تسيطر عليهن .

٦ — نعم . إنهن مازوخيات بقدر ما هن ساديات ، وقادرات على تدمير كل شيء .

٧ — كلا . شعورهن بالدونية دمّرهن غالباً ، ولكن هذا إنما هو ظاهرة ثقافية . فمفهوم القوة زيّف كل شيء .

٨ — كلا . مازوخيتهن ناشئة من اللا أمن الذي فرضناه عليهن ، ومن كون امرأة وحيدة لا تُحمل محمل الجد . إنهن مازوخيات حتى لا يكن وحيدات ، وحتى يتخلصن من اللا أمن .

٩ — كلا . ففاعليتهن طبيعية أكثر من فاعليتنا .

١٠ — نعم ، ولكن ذالك إنما هو عرضي . إن مجتمعنا يجعل منهن مازوخيات منذ طفولتهن .

٢ ــ الحاجة إلى الأمن

المرأة ، وفاقاً لرأي مسبق واسع الانتشار ، خاضعة بصورة طبيعية ، إذ لا تجد سعادتها وأمنها إلا بالتبعية . فما هي الحقيقة ؟ أيمكن القول إن المرأة ، على عكس حاجتها إلى الاستقلال الاجتماعي ، لا تجد هناءها الوجداني إلا بطاعتها لرجل تعجب به ؟ أو أيضاً هل كل ا رأة سوية نزّاعة إلى التبعية ؟ وإذا كان الأمر كذلك ، هل تتصف نزعتها بأنها طبيعية ، أم أنها نتيجة اشراط اجتماعي ؟

علينا أن نتذكر أن كل موجود إنساني يبحث لاشعورياً ،في كل آن من حياته ،عن سلوك يمنحه أفضل توازن ، وأعظم « سلام » ممكن . و « يستجيب » الشخص ، أمام كل حدث ، محاولاً ايجاد أفضل أمن ممكن ، مع النظر إلى الظروف .

والحال أن الخضوع حل يزوّد دائماً ببعض من إعادة السلام الداخلي . **ويبدو أن من الأيسر على المرء أن يكون عريفاً من أن يكون عقيداً.** والواقع أن الخضوع إلى الغير يعني عدم الدخول في منافسة معه ، وعدم التعرض لعدوانيته وغضبه ولومه ونبذه . ويؤمن الخضوع حماية الغير.والطاعة تستبعد الخوف من الاهمال . وهذا السلوك يلغي الحصر بصورة مؤقته ، لأنه يمنح الاحساس للمرء أنه محبوب من الآخر .

والتبعية والخضوع (من حيث هما سلوكان مخصصان لاستبعاد الحصر) خاصتان من خصائص المازوخية . ولكن ، إذا كان صحيحاً أن هذين الموقفين منتشران انتشاراً واسعاً ، فالصحيح أيضاً أننا نجدهما لدى الرجل والمرأة **على السواء** .

ومن المؤكد ، مع ذلك ، أن المرأة تخشى أن تفقد الحب أكثر من الرجل . بل إن **فرويد** يفترض أن ذلك إنما هو خوفها الجوهري . ويقول **رولان كاهن** (١) إن الحب ، بالنسبة إلى المرأة ، هو « العمل العظيم في حياتها » . الأمر الذي يتصف بأنه جيد جداً لو أن المرأة ، على وجه السرعة ، **لا تنحرف صوب الحاجة الأساسية إلى أن تكون ملفت الأنظار** .

ولعقدة أوديب كلمة تقولها في هذه الحاجة إلى أن تكون ملفت الأنظار . ولكن المسألة ، هنا أيضاً ، هي مسألة « عَرَض » يحدّد ، دونما ريب ، حياة برمتها . ولكنها مسألة عرض مع ذلك .

يضاف إلى هذا أن كل امرأة وحيدة أو مهجورة يحسبها الناس ، حتى في مجتمعنا الذي تعادل المرأة نفسها فيه بالرجل ، أنها فقدت « معناها » . وينظر إليها الناس على أنها غير متحققة وعديمة الجدوى . من هنا منشأ رفض الشيخوخة ، وسباق عنيف نحو شباب أبدي ، ونحو تجديد الشباب بأي ثمن . وكل ذلك يتضمنه الحصر بأنها ليست ملفت الأنظار .

وحسب المرء أن يلاحظ ، على المستوى الاجتماعي أيضاً ، كثرة من النساء اللواتي أصبحن ، على الرغم من دورهن الفاعل ، « ضاربات إلى الوداعة » . فلكي يرقن للرجل الحديث ، ويستجبن لمتطلباته العصابية . كثيرات من النساء « لنّ » إلى حد محون في بعض الأحيان كل شخصية مرئية : وثمة جماهير برمتها من النساء قبلن أن يحملن العلامة الخارجية

---

(١) رئيس الجمعية الفرنسية لعلم النفس التحليلي والمترجم المكيف لكتابات يونغ .

لهذا اللين : وبالتالي لخضوعهن . وأصبح نصول لون شعورهن شعار طاعتهن . فليست مطروحة مسألة أن يحملن شعوراً سوداء يخفن الرجال. وكل لون آخر يتبنينه : أشقر أو أبيض ، فضيّ أو ضارب إلى الصهبة . ويطمئن النساء على هذا النحو بأنهن ملفت أنظار الرجل (١) .

إنها لمازوخية لا تقول اسمها .

فكل صورة من صور المازوخية تمثل إذن ضرباً من **الأمن** . وإذ يمّحي الفرد أو يخضع ، فانه يبحث عن بعض الأمن الداخلي ويحصل عليه . ومن المؤكد أن العداوة الصامتة ، بل الكره ، هما من حصته : ذلك أن أي موجود إنساني لا يقبل الخضوع دون أن يتمرد . **ولكن الطاعة في هذه المناسبة إنما هي التي تثير الحصر الأقل.وقد«اختيرت» لهذا الهدف** .

وما النتيجة في المستقبل ؟ ليس ثمة من شخص يستطيع أن يقولها . فقد بيّنت بما فيه الكفاية أن استقلال المرأة ليس على الغالب سوى رماد في العيون . في عينيها بالطبع . والصعوبات بين الجنسين لم تصغر ، بل هي على العكس انشحذت . **بيد أن من الطريف جداً ، بعد كل حساب ، أن يلاحظ المرء أن غالبية النساء يجدن ، ما أن يبلغن بعض الاستقلالية ، وسيلة من الوسائل يسجلن بها ، على الرغم من كل شيء ، طاعتهن للرجل.**

فهل هذه المازوخية أساسية أم لا ؟ نحن نعلم أن الرغبة الأساسية

---

(١) انظر فصل « ناصلات اللون » .

للمرأة ، وغير الممكنة التحقيق ، هي ، بالنسبة إلى فرويد ، أن تمتلك العضو المذكر .

ولهذا السبب ، إذا اقتفينا أثر فرويد :

– فان المرأة ، التي أصابها الاحباط دون رحمة ، تعدّ نفسها بصورة لاشعورية أنها « مشوّهة » ، جسدياً وسيكولوجياً . وهي لا تفلح في أن تعبّر عن ذاتها في الخارج إلا بصعوبة ، وشريطة أن تثير العنف. وقد تشعر ، ولو كانت شهيرة ، أنها غير جديرة بأن « تفكر » (وتلك وظيفة يزعمون أنها وقف على الرجل) . وليس مع ذلك من النادر أن يرى المرء نساء تنزل بهن « عقوبة » صداع شديد على أفكار أو آراء أصدرنها ، كما لو أنهن يخصين أنفسهن في الرأس .

وكل شيء يجري كما لو أن هذه المرأة كانت تستشعر ما يلي :

– من غير المجدي أن أتجه نحو الخارج ، بما أنني مخصيّة « بعد كل حساب » ، وأن أشق طريقي الخاص ، وأن أتصرف لحسابي الخاص واذا فعلت ذلك بالرغم من كل شيء ، تعرضت في كل لحظة إلى الشعور باللاأمن ، أو بالإثم .

٣ – مقاومة الألم

يمكن للمرء أن يتساءل فيما إذا لم تكن مقاومة الألم ، لدى بعض النساء ، متجذرة في الشعور بأنهن « مخصيّات » .

– إنني مشوّهة تشويهاً طبيعياً . ودرجة التشويه ، أكثر أو أقل ، لا تنطوي على أهمية كبيرة أبداً .

فهل هذا ، جزئياً ، أساس بعض ضروب « شجاعة » النساء ،

شجاعة يعرفها الأطباء ، والأطباء الجراحون ، أو أطباء الأسنان ؟ وهل هذا سبب من أسباب هدوئهن الرائق ازاء الألم ؟

يضاف إلى هذا ، أوليست المرأة ، وقد تعودت على **معاناة** الظاهرات الفيزيولوجية ، مشروطة بأن تعاني الألم مع الاتصاف بعطالة أكبر من عطالة الرجل ؟

كانت إحدى النساء قد قالت لي ، وسبق لكم أن قرأتم ملاحظات من هذا النوع :

— مصيرنا يلزمنا بأن نوجه انتباهنا « إلى » داخلنا ، لأن كل شيء يحدث « في داخلنا » : عاداتنا الشهرية ، وحملنا ، ووضعنا . فاذا استخدمنا العادة السرية ، في مرحلة المراهقة ، فانه يتعذر علينا أن « نرى » إن كانت أعضاؤنا متأثرة بها . ونخشى في بعض الأحيان ضرباً من الشذوذ يحدث ، هو أيضاً ، داخل جسمنا .

ولنكرر بأن ، لدى المرأة :

من الناحية العضوية	**ومن الناحية السيكولوجية**
— كل شيء يحدث « فيها »	— كل شيء يحدث في «نفسها».
— وتجري الفاعلية الفيزيولوجية في داخل الجسم .	— وتتجه الفاعلية الذهنية نحو داخل الشخصية . إنها فاعلية خفية وعميقة ، كما لو أنها مغلقة على ذاتها .

وقالت لي امرأة أخرى :

– نحن ، من الناحية العضوية ، محكوم علينا بالصمت . فلا نتكلم ، أبداً على وجه التقريب ، عن ضروب ضيقنا ، وآلامنا ، ومخاوفنا . ذلك أن الرجال لا يقبلون غير الألم الذي تثيرة الجروح المرئية . فيرق قلبهم للجرح المكشوف ، والذراع المكسورة ، ولكنهم يرتعشون أمام ما هو خفي . وهذا هو السبب الذي من أجله يخشون السرطان اللامرئي أو التدرن الرئوي الذي يخرّب من الداخل أكثر مما نخشاهما . وهم يخشون كذلك آلامنا الداخلية . فماذا بوسعنا أن نقول لهم ؟ علينا أن نطمئنهم ، في حين أننا ، نحن أنفسنا ، غير متأكدين . ماذا نستطيع أن «نبيّن» لهم ما بوسعهم « رؤيته » وما بوسعه تهدئتهم ؟ وعندئذ ، نقول لأنفسنا : « ذلك إنما هو لا شيء ، وسيمر . . . » ثم نسكت .

وقالت لي امرأة أخرى :

– نحن نعاني الألم من « داخل أبدي » . . .

وقالت أخرى أيضاً :

– ثمانية أيام في الشهر ، أنطوي على « داخلي » الذي يؤلمني . فأصبح كحيوان ينسحب إلى جحره . ولا أقول شيئاً لزوجي حتى لا أقلقه .

ويؤكد بعض المحللين النفسيين ، **هيلين دوتش** على سبيل المثال ، أن المازوخية تمثّل الأساس الذهني للمرأة . **فهي تقول** :

– تجد المرأة ضرباً من الاشباع المازوخي في الصعوبات والهموم التي تنطوي عليها الأمومة .

ـ الولادة لذة مازوخية بالنسبة إليها .

ـ تتمنى المرأة بصورة لاشعورية ، أو عبر شتى الأشباح ، أن تكون ذليلة وأن تُعامل بالعنف .

ـ قدر النساء أن يكن باردات جنسياً إلا إذا شعرن (أو تخيلن) ، خلال الفعل التناسلي ، أنهن مغتصبات ، ومجروحات ، وذليلات .

وينبغي ، على أي حال ، أن نأخذ مصطلح « المازوخية » هنا بمعناه الواسع . ويمكن القول ، مع ذلك ، إذا عكسنا المسألة ، إن الاندفاع الأساسي السادي للرجل هو « الأخذ » ، والسرقة ، والاختراق ، والثقب ، والفتح ، والاغتصاب ، وإن قوانينه الأخلاقية وحدها هي التي تحول بينه وبين أن يستسلم لنزعاته .

ويمكن القول كذلك ، إذا نحن استخلصنا النتائج المترتبة على ماتقوله هيلين دوتش ، إن النزعة الأساسية لدى المرأة هي أن تعيش خاضعة وتابعة ، وإن حاجتها إلى الذكورة هي ضرب من الدفاع ضد هذه المازوخية التي تحس بها تجوس في داخلها .

وإذا كان ليس ثمة من شيء يبرهن على أن ذلك صحيح بصورة أساسية ، فليس ثمة من شيء يبرهن على أن ذلك خطأ .

٤ ـ الانزلاق نحو اللاسوي

إذا افترضنا أن المرأة ذات استعداد مسبق للمازوخية (شأنها شأن الرجل ، ذي الاستعداد المسبق للسادية) ، فان بوسعها أن تنحرف نحو اللاسوي ، انحرافاً يزداد سهولة بقدر ما لا يستغني مجتمعنا عن دعوتها إليه .

وانطلاقاً من شعور المرأة بأنها أضعف جسدياً ، يمكنها أن تنحرف نحو

— الشعور بالدونية .

— استغلال هذا « الضعف » (أحببني ، فلست غير امرأة ضعيفة).

— الحاجة إلى أن تكون تابعة ، لكي تمنح نفسها شعوراً بالأمن .

— الاستمتاع بأنها تابعة وخاضعة .

— الحاجة إلى أن تتمسك بشخص ، بفكرة ، بمثال .

وانطلاقاً من قدرتها على السلبية (١) والانتظار ، يمكن أن تفضي إلى :

— أن تنتظر بعطالة أن يعمل الآخرون لمصلحتها .

— أن « تنتظر زمنها » ، مع ما يرافق ذلك من أحلام الانتقام التي لم تتحقق أبداً .

— أن تحلم ، خلال حياة برمتها في بعض الأحيان ، بحبيب مثالي ، من أجله تستشهد وجدانياً .

والتخطيطية التالية تبيّن الانزلاق التدريجي من المازوخية والسادية الطفيفتين إلى الصور المرضية .

---

(١) هذا المصطلح ، الذي يتصف دائماً بأنه يفسر تفسيراً سيئاً ، مشروح في فصل « الأنوثة والذكورة » .

القطب المؤنث والمازوخية	القطب المذكر والسادية
ـــ انتظار يرافقه تجميع الطاقة.	ـــ فاعلية يرافقها استخدام الطاقة المتجمعة .
ـــ سلبية يرافقها تناقض في تجميع الطاقة ، ونزعة نحو العطالة.	ـــ فاعليات تتصف بضعف متزايد في الارادة ، أو تتصف بالتشتت .
ـــ ركود .	ـــ اندفاعات .
ـــ عدم الاهتمام بما يفعله الآخرون .	- إفراط في الفعل
ـــ استسلام لما يفعله الآخرون واستسلام للهجوم .	ـــ هجوم .
ـــ حاجة إلى الخضوع.	ـــ حاجة إلى الهجوم وسحق الآخر.
ـــ استسلام للنفاذ دون رد فعل ، نفاذ الحياة ، والكلام الجارح ، وأفعال الآخرين .	ـــ نفاذ بعنف (بالأفعال ، والكلام الذي ينتهك حرمة شخصية الغير) .
ـــ اتخاذ مكان « دون » الآخرين .	ـــ اتخاذ مكان « فوق » الآخرين .
ـــ استسلام للإذلال .	ـــ إذلال .
ـــ البحث عن الذل .	ـــ بحث عن إذلال الآخرين .
ـــ بحث عن الألم .	ـــ حاجة إلى إيلام الآخرين .

– اطمئنان بفعل الألم .	– اطمئنان بفعل إيلام الآخرين .
– بحث عن النشوة في الألم .	– بحث عن النشوة في إيلام الآخرين .
– بحث عن الإخفاق الكلي ، والموت الداخلي أو المادي .	– حاجة إلى إفشال الآخر ، وحاجة إلى إماتته معنوياً أو مادياً.

ومن الواضح أننا ، في القطبين ، نتّجه من الأعلى إلى الأسفل نحو اللاسوي أكثر فأكثر .

٥ – دلالة المازوخية

ها هي ذي أم تعلن عن نفسها أنها شهيد ولا يفهمها أولادها . وإذا نظرنا إليها عن كثب ، أدركنا أنها «تمثّل» دور الشهيد . فلماذا ؟ وكيف يمكن لهذا السلوك أن يجلب لها ضرباً من الأمن ؟ فهي لا تتظاهر بالألم، بل إن ألمها واقعي . ولكن ماذا يوجد في الخلفية ؟ أي هدف كانت تنشده « آلتها الناظمة » اللاشعورية عندما تأمرها بهذا السلوك ؟ يبدو من العبث ، للوهلة الأولى ، أن يُقال إن هذه الأم تجد لذة في أن تتألم . ومع ذلك . . . فليست المسألة مسألة لذة مباشرة ، وإنما هي تجد اللذة بصورة غير مباشرة . وربما تحاول ، بألمها ، أن تفرض على زوجها تبكيت الضمير ، وأن تجعل من نفسها محبوبة منه . أو أن ذلك سيكون ضرباً من الابتزاز : « إنك أنت الذي تمنيت موتي » .

كذلك فان المرأة عندما تضع الأغلال في عنقها أمام رجل ، فلأنها تجد في هذا بعض الأمن الداخلي ، حتى عبر الألم ، بل عبر حقد خفي . وهي « ترغب » بصورة لاشعورية في الخضوع ، لأنها تجد في هذا الموقف من الفائدة أكثر مما تجده في الاستقلال .

ويمكن القول ، بمعنى واسع ، إن كل طفل يبدأ بأن يكون مازوخياً على نحو سوي . بقدر ما يقتضي أن يكون ضعفه محمياً . فبين هذا الموقف ، وبين أن « يسعى للافادة » فيما بعد من هذا الضعف ، إذ يسقط في ضرب من المازوخية المفرطة . ليس ثمة غير خطوة واحدة . .

والمنعكس الأول للفرد . أمام صدمات الحياة . أن يخفي وجهه بيديه . وأن يحمي نفسه . ثم أن يحاول ملاطفة ما يخيفه . فبين هذا الموقف . وبين أن يتخذ مكاناً « دون » الآخرين للحصول على عطفهم وحمايتهم . ليس ثمة ثانية غير خطوة واحدة .

وفي نهاية المطاف ، أيسر على المرء أن يكون محبوباً من أن يحب . وينتهي المرء ، وحصر الحاجة إلى أن يكون محبوباً يلاحقه ، إلى أن يفعل كل شيء ليحصل على هذا الحب : مع احتمال أن يتجرد من شخصيته .

كذلك فان كون بعض النساء يتحولّن من مازوخيات إلى « ساديات » . ليس من غير دلالة . إنهن يزعجن الرجل ، ويحتقرنه بصورة مكشوفة . ويلذ لهن أن يحططن من شأنه . فهل هدفهن الوحيد أن يسيطرن عليه؟ على العكس . إنهن يطلبن بصورة لاشعورية أن ينتصب الرجل ، وأن يستعيد الأولية ، وأن يفوز ثانية بمظهر الذكر . ويمكن للمرأة على هذا النحو أن تُعجب بالرجل ثانية وتخضع له . وليس من النادر أن يرى المرء نساء يتمنين بحرارة (ولكن على نحو خفي) رشقة من الضربات أو هجراً ، كيما يكون بمقدورهن (كما كانت تقول لي إحداهن) « **أن تركض خلفه ، وأن تتلذذ بأن تنال الصفح** » . أو سيكون ذلك كما تصرّح بعض بطلات السينما ، مبتهجات ، بعد رشقة الضربات المذكورة :

« **إنك ، أنت ، رجل على الأقل !** »

إن مجتمعنا يُكره المرأة **على أن تكون موضع إعجاب ، بالمعنى السيء للكلمة** . ولا يعلّمها الناس أن تكون جذّابة ، بل كيف تغري. وعصرنا لم يغيّر سوى المظاهر . والمرأة التي تتصف بأنها أكثر «استقلالا» بين النساء تعلم بعمق أنها تجازف بأن تجد نفسها وحيدة ، وأن لا تكون موضع إعجاب . وثقافتنا تلزم النساء بأن يكن مازوخيات — أو ساديات إذا اتخذن الطرف المعاكس . وتلك هي ، في اعتقادي ، خلاصة كل ما قيل حتى الآن .

رابعاً — السحاقيات

١ — بعض العموميات

قد يعتقد بعضهم أن الموضوع الذي أتناوله هنا لا يهم غير قليل من النساء . إنني أعتقد ، على العكس ، أن فهم السحاقيات (أو اللسبيات *) يتيح أفضل مقاربة لسلوك المرأة السوية ، ولعلاقات الأمهات بالبنات على وجه الخصوص .

عدد السحاقيات « الفاعلات » ، بالرغم من أننا نجهله بصورة عامة ، مرتفع . فاذا أضفنا إليه عدد النساء ذوات السحاق الكامن ، وصلنا إلى أرقام مدهشة .

ولا بد من القول ، أولاً ، إن الجنسية المثلية ليست من « الجنسية »

(*) اللسبيات أو السافيات ، نسبة إلى لسبو ، جزء من مقاطعة سافور . ولسبو جزيرة يونانية في بحر إيجه . ويبدو أن هذه الممارسة كانت منتشرة لديهن . انظر « الانتصارات المذهلة لعلم النفس الحديث » ، بيير داكو ، ترجمة وجيه أسعد ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، دمشق ، ١٩٨١ ، الفصل العاشر ، القسم الثاني « م » .

في شيء بالمعنى المألوف المصطلح . وهي ،من جهة ثانية ، **عرض من أعراض أخرى لاضطراب في الشخصية .**

ومن الضروري أن يكون الآباء والمراهقات على علم بالآلية العامة الجنسية المثلية . لأنها تنشأ دائماً في مرحلة الطفولة أو مرحلة المراهقة . فثمة عدد من البنات اللائي يتصفن بوجدانية طافحة . أو بوجدانية مصابة بالإحباط ، يتعرضن إلى خطر أن يكنّ ضحايا سحاقيات خبيرات .

وها هي ذي ملاحظة نذكرها عابرين : إن مصطلح « الجنسية المثلية » ينطبق عموماً على الرجال . غير أن الجنسية المثلية تعني ، من حيث جذرها في اللغة الفرنسية ، علاقة «جنسية» مع شخص من الجنس نفسه * .

ويبدو مفيداً أن نكشف عن بعض الأخطاء الشائعة :

ما يعتقد الناس غالباً	ما الواقع ؟
— يتصف جميع النساء السحاقيات على وجه التقريب بأنهن ذوات مظهر رجولي .	— يتصف عدد من السحاقيات بأنهن ذوات مظهر نسوي بمغالاة ، وعلى العكس ، كثير من النساء ، ذوات المظهر « المذكر » ، لسن سحاقيات على الإطلاق : لا بالكمون ، ولا فاعلات .وكثيرات من السحاقيات يتصفن بالأناقة التامة في لباسهن . فلا البنطال ، ولا الشعور القصيرة ، ولا المشية ، تصنع السحاقية .

(*) المقابل الفرنسي هو Homosexualité . وتعني Homo المثل : فالمصطلح العربي « الجنسية المثلية » يعبر عن المعنى المقصود بدقة « م » .

– ليس للسحاقيات علاقات تناسلية إلا مع النساء .	لكثيرات من السحاقيات علامات تناسلية مع الرجال أيضاً.
– جميع السحاقيات يمقتن الرجال .	هذا خطأ . فكثيرات من السحاقيات يبحثن عن رفقة الرجال الذين يتماثلن معهم .
– الجنسية المثالية وراثية	لا ، إنها عرضية ، وعرض من أعراض عصاب. يضاف إلى هذا أنها ، على الغالب ، صورة من صور الحماية الذاتية التي تتيح للمراة أن تحتفظ بتوازن نسبي .
– تحتل الأم مكاناً كبيراً ، إيجابياً أو سلبياً ، في سيكولوجية السحاقيات .	بالتأكيد ، في غالبية الحالات على الأقل .
– يمكن للعلاقات السيئة بين الأم والبنت أن تكون سبباً من أسباب الجنسية المثلية .	نعم .
– النساء مهددات بالجنسية المثلية أكثر من الرجال .	صحيح إلى حد ما .
– كل مراهقة تجتاز مرحلة من الجنسية المثلية .	نعم ، ولكن الأمر ، بصورة عامة ، حالة انفعالية على نحو صرف ، وسلوك لاشعوري . وثمة خطر مع ذلك .

— بعض السحاقيات شبيهات، من الناحية الفيزيولوجية، بالرجل على وجه التقريب .	نعم
— الجنسية المثلية ترتسم في مرحلة البلوغ .	لنقل، بالحري، إن الصلات الوجدانية بين الفتيات والأبوين أولية في جميع الأعمار .
— بعض السحاقيات يقمن بالدور الفاعل أو المنفعل على السواء .	نعم .
— السحاقيات «مريضات» .	نعم، بالمعنى الذي نعد فيه أن سلوكها علامة من علامات عصاب. فكل جنسية مثلية، شعورية أو لاشعورية، مصبوغة بالطفالة، وباللاأمن الوجداني على وجه الخصوص .

٢ — الوجدانية المثلية

آ — ثلاثة قوانين أساسية

القانون الأول

الوجدانية	الجنسية
كل علاقة مع أي كان، إنسان أم غير إنسان، قائمة على إحساسات وعواطف، شعورية أو لاشعورية . وكل علاقة إنسانية هي علاقة وجدانية .	كل صورة من صور الجنسية، سوية كانت أم مشوّهة، حالة نفسية، حالة وجدانية . فالجنسية والوجدانية شيء واحد وحيد . والتناسلية، بوصفها فعلاً آلياً، ثانوية.

إذن :

كل علاقة إنسانية ، أيا كان موضوعها ، علاقة جنسية . وبدلاً من جنسية مثلية ، ينبغي القول : **وجدانية مثلية** ، أعني وجدانية يوجهها الفرد نحو موجود يتماثل معه بالجنس .

القانون الثاني :

في غالبية العلاقات بين امرأتين (أيا كان العمر وصورة هذه العلاقات ، سوية كانت أم غير سوية) ، نجد بديلاً للعلاقة بين الأم وابنتها .

القانون الثالث :

إذا كانت الجنسية والوجدانية شيء واحد وحيد :

— فمن السوي أن يوجّه الفرد جزءاً من وجدانيته نحو شخص من الجنس نفسه (صداقة ، عداوة ، إعجاب ، احتقار) . ومن السوي إذن أن يكون ثمة نصيب من الجنسية المثلية لدى كل كائن (أي وجدانية مثلية » . والوجدانية المثلية الأعمق خاصة بالعلاقات بين الأب والابن ، وبين الأم والبنت .

— ومن غير السوي أن يتوجّه الجزء الأكبر من وجدانية الفرد نحو شخص من جنسه نفسه .

ب — المراهقات في غليان

لا تتعرض مراهقة إلى أي خطر من الناحية العملية ، إذا كان قطبا

الأنوثة والذكورة لديها متوازنين . ويبقى ذلك صحيحاً ولو أنها تشعر بهوى إزاء بنت أخرى تحميها أو تُعجب بها .

ولكن المراهقة ليست ، بالنسبة لكثير من الفتيات ، رائقة . فنزعات «الجنسية المثلية » (الوجدانية المثلية إذن) تعبّر عن نفسها باتجاه فكري وبدوافع انفعالية على نحو عميق ، ولاشعورية على الغالب . ومن المؤكد أن المخاطر تتصف بمنحنى صاعد ، إذا كانت الفتاة تعيش في وسط عصابي (مدرسي ، عائلي ، اجتماعي ، ديني) .

وعمّ تبحث مراهقة من المراهقات ، إن لم يكن عن مظاهر الاهتمام والاعتبار والحب ؟ فكل مراهقة خائبة الأمل من الحب ، أو أنها تعتقد ذلك ، ستبحث عن إرواء حاجتها إلى التلقّي والعطاء في جهة أخرى . والصداقات ، في فترة المراهقة ، التي تتصاعد بسرعة نحو الهوى الافلاطوني ، معروفة . إنها الوجدانية المثلية التي تصرّح عن نفسها : فهي لا تنطوي على أي خطورة ، ولكن من المناسب مراقبتها . ذلك أنه قد يحدث على الغالب ، بوصفه نتيجة أولى ، أن يفضي « اندماج » فتاتين ، إحداهما بالأخرى اندماجاً كبيراً ، الى عدم اهتمامها بالصبيان . وتاريخ المدارس والمدارس الداخلية طافح بهذه الأهواء . وثمة رسائل متبادلة : «ملاكي العزيز ، ليس بوسعي أن أقضي يوماً دون أن أراك . . . » . وثمة ضروب من التواطؤ تنعقد ، وضروب من الغيرة الشرسة تنفجر ، وضروب من الاكتئاب العصبي تتعمق .

وعندما يكتشف المربون هذا النوع من الانجذاب الوجداني ، من الجوهري أن لا يخطر على بالهم « رذيلة » ، غير موجودة بالمناسبة . **ولكن ينبغي أن يبحثوا عن الاحباط الأساسي وعن فهمه** ، وإلاّ أمكن للمناخ

الوجداني أن يتطور نحو الاتصالات المادية : عادات سرية متبادلة ، وتماس صميمي يلبث دون مستقبل في بعض الأحيان . ولكنه يستقر استقراراً دائماً في بعض الأحيان الأخرى أيضاً ، استقراراً يواكبه الشعور القوي بالإثم . فيبدأ العصاب .

وثمانون بالمئة من المراهقات يعانين حباً لفتيات أخرى أو لمدرسات . فاذا كان البلوغ سوياً ، توجّهت الوجدانية بصورة تدريجية نحو الصبيان ، ونُبذت الوجدانية المثلية في درج الأعمال المحفوظة .

ولكن ماذا تصبح عليه هذه الوجدانبة المثلية ؟ قد يحدث أن تركد هذه الوجدانية المثلية في اللاشعور إلى الأبد . ولكن قد يحدث كذلك أن تبرز في يوم من الأيام على صورة كامنة . وهذه الوجدانية المثلية « تتسامى » في أغلب الأحيان . وتلك هي ، **على سبيل المثال** ، ضروب الصداقة والإعجاب بين النساء ، وتماثل مع نساء نادرات : ممثلات ، ونساء شهيرات ، ونساء فنانات . ويمكن ، من جهة أخرى ، لهذه الوجدانية المثلية أن تتسامى من خلال المثل : هذه امرأة تضفي المثالية على «المرأة » وتناضل لهذا الهدف ، وتلك امرأة أخرى لا تعيش إلاّ لتنقذ البغايا ، وثمة امرأة ثالثة أيضاً تنذر حياتها لجماعات النساء ، الخ .

٣ — عقدة المسألة

آ — الجنسية حالة وجدانية

ينبغي أن لا نخلط بين الجنسية والتناسلية . ونفهم ذلك على نحو أفضل انطلاقاً من قطبي الأنوثة والذكورة ، الموجودين لدى كل شخص إنساني ، رجلاً كان أم امرأة .

القطب المؤنث	القطب المذكر
الجنسية مصنوعة من تراكم الاحساسات والعواطف ، بالمعنى الأوسع ، **والجنسية مشاركة الموجود برمته** . إنها **تجمّع** الطاقة ، وموقعها **في الديمومة** . وهي **دائمة** ، شأنها	والتناسلية عمل خارجي وعمل أُضفيت عليه الصفة الخارجية. والتناسلية ضرب من **تفريغ** الطاقة المتجمعة موقعها في **الآن** ، وهي **مؤقته** .
في ذلك شأن الإحساسات ، والعواطف ، والحياة الداخلية .	
إنها **كامنة** .	والتناسلية **حركية** .

فالجنسية ، سوية كانت أم غير سوية ، هي إذن **حالة وجدانية** . إنها علاقة داخلية بالموجودات والأشياء . وهي حاضرة في كل علاقة إنسانية ، ما دامت كل علاقة مشحونة بالوجدانية ، ولو كانت هذه العلاقة ضعيفة القيمة وسطحية .

والجنسية حاضرة عندما يتبادل النظرات في الشارع شخصان يجهل أحدهما الآخر (إنهما يشعران بالاحساسات والعواطف) . وهي تتدخل عندما نلاحظ شجرة ، وشيئاً ، وأثاثاً ، وحيواناً ، وعندما نفكر بالوطن . ويمكن أن تكون الجنسية إيجابية (انجذاب ، ومحبة ، وإعجاب ، وتأمل ، واهتمام) ، أو سلبية (نفور ، وعداوة ، واحتقار) .

ومن المؤكد أن التناسلية متعذرة من الناحية العملية دون وجدانية ، ولو كانت هذه الوجدانية تافهة ، وأولية ، وعنيفة ، وطفالية . إن ضرباً من التناسلية ، من غير وجدانية كافية ، هو الذي يعطي ، من جهة أخرى ، لـ « الجماع العابر » طعم الرماد .

وبوسعنا أن نستخلص من ذلك أن كل علاقة إنسانية بموجود من الجنس نفسه هي علاقة جنسية مثلية ، ما دامت علاقة وجدانية مثلية .

ويسأل بعضهم أحياناً إن كانت المرأة أكثر جنسية من الرجل . والواقع أن **بامكان** الرجل أن يكون متصفاً بـ « الجنسية » كالمرأة سواء بسواء ، اذا حقّق كمال قطبه المؤنث (أو حياته الداخلية) . وإذا أصبح ثانية قادراً على المشاركة وجدانياً في العالم الذي يحيط به . أما في الحالة الراهنة للأمور ، فان المرأة أكثر جنسية لأن :

- المرأة تعيش على إحساساتها وعواطفها أكثر مما يعيش الرجل عليها بما لا يقاس ؛

- المرأة أكثر « ارتباطاً » بماهية الأشياء والموجودات ؛

- موقع المرأة في الديمومة ، بوصفها لا تغريها العقلنة والتعسف في العقلنة . والزمن ممنوح لها لتدرك العالم .

- المرأة ، باختصار ، تشارك في حياة الموجودات والأشياء ، على نحو طبيعي ، بفضل سعة قطبها المؤنث .

وفيما يخص السحاقيات ، فان مشكلهن ليس ذا علاقة بتناسليتهن ، وإنما بجنسيتهن أو وجدانيتهن .

ب — سعادة مرة

تزعم غالبية السحاقيات أنهن سعيدات سعادة تامة . ويقلن إنهن لا يعانين أي صراع داخلي ولا صعوبة خاصة . وهن في سلام ، ولا يشعرن بالحاجة إلى استرداد شخصيتهن . إنهن سعيدات لكونهن محبوبات.

وحسب المرء ، في الواقع ، أن ينزع القشرة حتى يبدو الجرح . وعندئذ يكتشف عصاباً دائماً وشرخاً في الشخصية . وغبطتهن المزعومة هي إلى هذا الحد من السطحية بحيث توضع موضع التساؤل في كل يوم : وعندئذ تبدو مشاهد مخيفة من الغيرة واللوم ، ورقابة مستمرة على الشريكة . . . إلى أن يعود « اليقين » بأنها الوحيدة المحبوبة إلى الظهور ثانية .

كل امرأة سحاقية هي امرأة وحيدة . وليست شريكتها غير أمن متذبذب . وهي تعلم ذلك في طيات نفسها . ولكن تسليمها بذلك على نحو شعوري يعني قبولها أن يُفتح باب السقف الذي يطلّ على كهوف العصاب .

ولهذا السبب كانت المحاكمة مع السحاقية عديمة الجدوى إطلاقاً. فعندما يضع الإنسان على عينيه نظارتين حمراوين ، يرى العالم أحمر . فماذا يستطيع العقل أمام ذلك ،ما دام يرى العالم أحمر **بصورة واقعية** ؟

ويفهم المرء منذئذ أن من النادر أن تطلب العلاج إحدى السحاقيات.

فاما أن يعتقد الكثيرات أن حالتهن فيزيولوجية ، وبالتالي فهي طبيعية. وذلك خطأ بنسبة تسعين بالمئة . فغالبية السحاقيات لا يتصفن بأي اضطراب هرموني ، في حين أن عدداً من النساء ، اللائي يعانين من هذا الاضطرابات الهرمونية ، لا يظهر عليهن أي عرض من أعراض الجنسية المثلية غير السوية . وإما أن يقلن إن هذا العرض يشكّل جزءاً من شخصيتهن الباطنية .

والحقيقة أن السحاقيات لا يجرؤن على أن يضعن موضع التساؤل جنسيتهن المثلية التي تتيح لهن الاحتفاظ ببعض التوازن ، مهما كان هذا التوازن عابراً .

وعندما تبدأ إحدى السحاقيات عملاً سيكولوجياً عميقاً ، فان ذلك ، على الغالب ، بهدف استبعاد أعراض أخرى أشد ألماً : الحصر ، والشعور بالدونية أو بالإثم ، ونادراً ما يكون ذلك بهدف استئصال الجنسية المثلية لديها . ولهذا السبب أيضاً ، كانت الملاحظات السريرية فيما يخص السحاق قليلة العدد نسبياً .

٢ – النساء ذوات الجنسية المثلية الكامنة

لا يمكننا أن نغالي في التكرار بأن كل موجود إنساني ناشيء من قطب مؤنث وقطب مذكر . فمن السوي إذن أن يتوجّه جزء من الوجدانية نحو أشخاص من الجنس نفسه : وإلاّ استبعدنا كل صداقة بين الرجال ، وبين النساء ، وبين الأب وابنه ، وبين الأم وابنتها . فالوجدانية المثلية إذن سوية على نحو دقيق ، ما بقيت خلف حدود المبالغة .

ولكن ، أين توجد الحدود التي تفصل السوي من المرضي ؟

ثمة نساء صبايا يتساءلن بقلق ، لأنهن يحببن إحدى الصديقات « حباً شديداً » . فهل هذا جنسية مثلية ؟ بالتأكيد ، ما دامت الوجدانية المثلية موجودة. ولكن إلى أي حد ؟ ثمة مع ذلك حظ كبير في أن يكون بينهما ، بصورة لاشعورية ، علاقة أم بابنتها ، علاقة حامية بمحمية ، علاقة ناصحة بطالبة نصح ، علاقة مؤتمنة على الأسرار بمخذولة ، علاقة حفيّة

بمحتفى بها ، علاقة معجب بهابمعجبة . فأين السوي ، وأين تبدأ الطفالة الوجدانية ؟

ولا علاقة للجنسية المثلية الكامنة بالتناسلي في غالبية الحالات . إنها علامة عدم نضج داخلي .

وثمة خوف غامض ، ناجم عن نقص في النضج ، يحول بين عدد من النساء وبين أن يتوجّهن صوب الرجل . وفي هذه الحالة ، نجد ، على الغالب ، جنسية مثلية كامنة ، ولكن غالبية هؤلاء النساء لا يشعرن **أبداً** بالحاجة إلى صلات مادية مع صديقاتهن . فهن يعقدن مع الصديقة ضرباً من علاقة البنت بأمها الحامية .

ويستشعر كثير من النساء ، بصورة غامضة ، من خلال تخيلاتهن أو أحلامهن الليلية ، انجذاباً معيناً نحو النساء ، أو نحو امرأة محددة . ولكن أخلاقيتهن تتدخل ، والإثمية تبدو . ويخشين أن يكشفن عن« هواهن المجرم » بحركة أو بعبارة . ويصعد الحصر شيئاً فشيئاً . وفي هذه اللحظة على الغالب إنما يبدأن تحليلاً بهدف استئصال هذا الحصر الذي يجهلن جذره العميق .

وتكون غالباً ردة فعل المرأة ذات الجنسية المثلية الكامنة(التي لا تشعر بأنها كذلك) **آراءمسبقة عنيفة** ضد الجنسية المثلية.انهن يمقتن السحاقيات بصورة قبلية ، دون أن يكون بوسعهن على الإطلاق أن يشرحن موقفهن. فيجدن ، على الأكثر ، أفكاراً مبتذلة ، ليست جديرة بذكائهن .

... فماذا يحدث ؟ إن هذه الآراء المسبقة تحميهن . والسحاقيات يقمن ،

بالنسبة إليهن ، مقام المرآة ، بكل بساطة . فيتعرفن على أنفسهن في هؤلاء اللسبيات . وبما أنهن يكرهن بصورة لاشعورية نزعتهن الخاصة ، فانهن يحاولن تدمير الأخريات بآراء مسبقة جاهزة ، شأنهن في ذلك شأن موجود إنساني تسوّل له نفسه تحطيم المرايا لأنه يمقت وجهه الخائن .

ثمةحالة أخرى غالبة : ينفر بعض النساء من أن تمسهن نساء أخريات ، أو يقبلنهن ، أو يجاملنهن ، بدءاً من أمهاتهن أو صديقاتهن . ويتعذر عليهن شرح سبب هذا النفور ولكنهن يرفضن ، رفضاً قاطعاً ، أن يرقدن في سرير واحد مع رفيقة ، سواء كان في الفندق أم في السفر .

ويشعر بعض النساء كذلك بالانزعاج ، وتحمرّ وجوههن ، منذ أن ينصب الحديث على اللسبيات ، كما لو كن يشعرن بأنهن مقصودات ، ويخشين أن ينكشف القناع عنهن . والحال أن من المحتمل أنهن لم يستشعرن قط بضرب من الانجذاب المغالي صوب امرأة أخرى . فما سبب ردود الفعل هذه ، إن لم يكن لأن مجرد الحديث عن السحاقية ينعش نزعة مكبوتة ، ربما كانت طفيفة مع ذلك ؟

ها هو ذا ما كانت قد قالته لي امرأة خلال التحليل النفسي :

— . . . كان لزوجي صديقة من صديقات الطفولة . وبقيا صديقين حميمين . وقد أصبحت صديقة زوجي صديقتي الحميمة . وكنت أحبها إلى درجة أنه لم يكن بامكاني أن أتصور أتفه عمل دون موافقتها . . . والعلاقات بينها وبين زوجي كانت طبيعية ، لا أكثر . إنني أنا ، أنا . . . نعم . . . ولا أدري كيف . . . دفعتهما ، الواحد منهما إلى حضن الآخر . وكنت أقول لنفسي : « أتمنى أن أراهما معاً ، يحضن أحدهما

الآخر . . . » . ولكنني كنت أجهل سبب هذه الرغبة التي كنت أعدها شنيعة . . . إنها كانت أقوى من ارادتي وأخلاقي ، وأقوى من الاعتبار والمحبة التي كنت أكنهما لزوجي . . . كنت أقول لنفسي إنني مسخ ، ولكنني دفعتهما ، الواحد نحو الآخر . . . آه ! لم أستعجل الأمور . . وناورت لكي يصبحا حبيبين . . . وعندما تم ذلك . . . » إنني أعاني خجلاً مرعباً) . . . تظاهرت بالخروج ، ثم عدت دون أن أحدث ضجة ، ونظرت إليهما من ثقب القفل . . .

بسيط شرح هذا السلوك . كانت هذه المرأة تشعر بانجذاب (لاشعوري) قوي نحو صديقتها . بيد أننا إذا فرضنا أنها كانت واعية لهذه النزعة ، فانها لم تجرؤ قط على أن تصرّح لصديقتها بأي شيء . فاتخذت عندئذ واسطة ، على نحو لاشعوري دائماً . وكانت تتخيل نفسها ، وهي تنظر إلى الإثنين في هذه الحالة ، أنها موجودة مكان زوجها . إنها « كانت تمتلك » صديقتها سحاقياً ، بالإنابة .

ويرى المرء إلى أي مدى تتعرّج الحدود بين السوي ، والسوي « على وجه التقريب » ، والمرضي .

وفي بعض الأحيان ، يتفجر الكبت ، وتدخل المرأة في العصاب ، بل في الذهان . فتلك امرأة تؤكد أن الناس في الشارع ، أو الجيران ، يتهمونها بأنها امرأة فاسدة ، امرأة « سحاقية » . إنها تحس بأن كل فرد يعرف نزعاتها ، ويشير إليها بالبنان ، ولو أنها لم تحقق قط ، بصورة فاعلة ، نزعاتها السحاقية . وفي هذا النوع من الحالات ، تتصف الجنسية المثلية الكامنة بأنها ضرب من السد الذي يفرّخ الحصر والإثم خلفه .

٣ – السحاقية المزيّفة

هل هذه مفارقة ؟ السحاقية الأكثر شيوعاً هي السحاقية المزيّفة. إن لها وجدانية طفل ، سواء كان مظهرها الخارجي مظهر نسوي أو مظهر الرجولة . إنها لا تطلب غير شيء واحد : أن تجد « أما » تحبها ، أو تعثر على « بنت » ، بوسعها أن تحميها كما تفعل أم . وهي ، على الغالب ، امرأة بنيّة تعيش في تخوم فاتنة وصيّة . بيد أن من المؤكد أن هذه الفاتنة ، السحاقية الفاعلة ، تلعب لعبة تلائم عصابها الخاص كل الملاءمة .

هذه السطور ، من رواية لكوليت * ، كان ينبغي الاستشهاد بها على الأغلب :

إمرأتان ، تحتضن إحداهما الأخرى . تكوّنان لوحة سوداوية ، وتعبّران عن ضعفين . وربما تحتمي إحداهما في أحضان الأخرى لتنام فيها ، ولتبكي ، ولتهرب من الرجل ، الخبيث في أغلب الأحيان ، ولكي تذوق ما يُرغب أكثر من أي لذة أخرى : سعادة الشعور المرة بأنهما متشابهتان ، تافهتان ومنسيتان .

ونحن ، مجدّداً ، نكتشف الثنائي « الأم – البنت » معزولاً كما لو أنه وسط جزيرة من الجزر ، تجمعان شقاءهما ، وتجرّان خلفهما الشعور بأنهما مهجورتان ، من العالم ومن الرجال .

آ – حالة آني

آني سحاقية صبيّة وامرأة طفل ، كانت تعيش مع مديرة مشروع ،

(*) كوليت (غابريل) : روائية فرنسية ، عاشت بين ١٨٧٣ – ١٩٥٤ « م » .

أنيقة جداً ، وسحاقية من النموذج « الفاعل » ، وتتصف بحنان الأمومة.

وها هي ذي بعض ارتباطات الأفكار للمرأة الصبيّة ، التي سجلناها إبان جلسة من جلسات التحليل النفسي :

يحتمي : إيمّا (صديقتها) احتفت بي . . . إنني لا شيء بدونها . . . إنها أمي ، وأختي ، إنها كل شيء . . .

رجل : لا أعرف غير والدي . . . ضرب من البهيمة . . . الرجال هم من الضخامة والشراسة . . . ومع ذلك ، لا أعلم ، يوماً من الأيام ، إذا . . . وكانت أمي تريد أن أبقى بقربها . . . إيما ملجأي . . .

ينام : يموت ، يزول . . . لو كانت إيما رجلاً ، لكانت كالاله . . . إنها طيّبة ، شهية ، عطوف ، حامية . . . إنني خادمتها ، وأتمنى لو تحتفظ بي دائماً . . . مرارة وسرور . . .

ويمكن أن نرسم تخطيطية قطبي آني كما يلي :

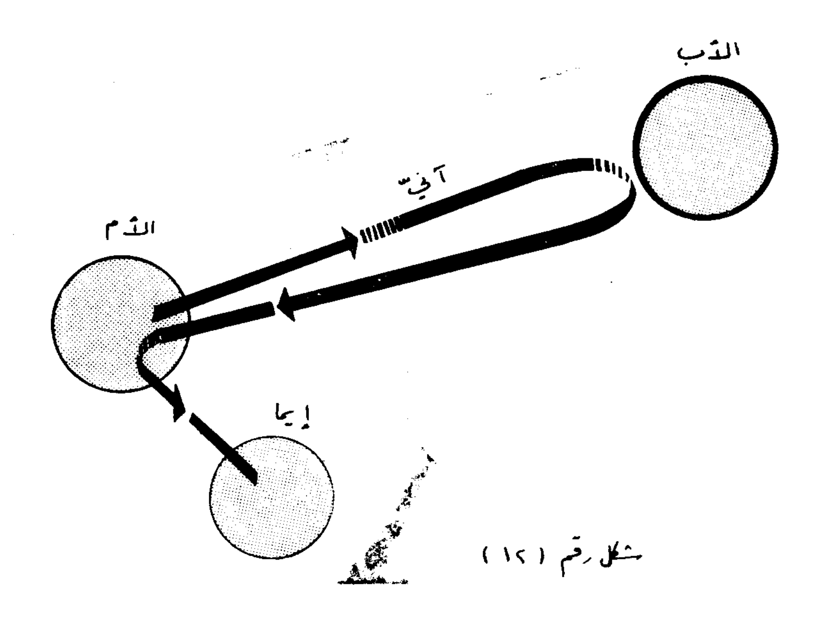
القطب المؤنث	**القطب المذكر**
— عطالة .	
— ركود .	— عدم . لا وجود لأي حث للفاعليات .
— حاجة إلى الانغمار والموت وجدانياً ، وإلى أن تكون منسية بين « ذراعي أمها » . وحاجة إلى العودة إلى بطن أمها ، نحو العدم.	— ثمة ، على الأكثر ، بعض ضروب تفريغ الطاقة بالغيرة الغضبية .

وما تاريخ آني بصورة سريعة؟ كان لا بد لآني ، وقد أوقفت في

مكانها خلال مرحلة عقدة أوديب (١) ، ووقعت في فكي كماشة بين أب فظ وأم كانت تريد « أن تستعيد ابنتها » ، من أن تنعزل في عطالة كلية ، خارج الزمان والحياة . ودارت آني ، الواقفة أمام أبيها ، نصف دورة نحو أمها التي بحثت عندها عن الحماية ، ثم صادفت إيما ، أماً بديلة .

وتبدو مازوخية عميقة من خلال إجابات آني :

يموت ، يزول ، إنني خادمتها ، شريطة أن تحتفظ بي دائماً ، (أي : شريطة أن لا تنبذني في ظلمات العدم السوداء) .



شكل رقم (١٢)

---

١ — أنظر فصل « البنت المحصورة » .

ولنشر أيضاً إلى أسلوبها الطفلي في التعبير عن نفسها : « **الرجال هم من الضخامة والشراسة . . .** » ، وإلى أسفها إزاء الرجل الذي تنتظره على الرغم من كل شيء : **ومع ذلك ، لا أعلم ، يوماً من الأيام ، إذا . . .**

هل هذه جنسية مثلية ؟ نعم ، بمعنى وجدانية مثلية . وكانت تتلخص التناسلية بأمور تافهة : مداعبات وملامسات . وكانت جنسية آني مشبعة بدفء « منزل الأسرة » (إيما = أم !) وبهذه العلاقة المزيّفة ، علاقة بنيّة بحاميتها .

تحليل آني النفسي ساعدها كثيراً على إزالة هذا الفقدان المرعب ، فقدان الأب ، وساعدها في الوقت نفسه على إزالة حاجتها إلى أن تغرق في انتحار معنوي ، ربما يصبح انتحاراً مادياً في يوم من الإيام .

ب – حالة مارسيل

عمر مارسيل خمسة وثلاثون عاماً . و« تستميل » مارسيل ، بوصفها سحاقية « فاعلة » ، كل فتاة ناعمة وطيّعة . إنها جميلة ، ومتميّزة ، وذات أناقة دقيقة ، وذكية و « مثقفة » .

كان لمارسيل أب فظ وسكيّر ، وأم سوقية وغبية . وفي يوم من الأيام ، هربت مارسيل ، ووجدت عملاً ، وتابعت دراستها « كالحيوان » (كذا) . وكانت قد توصلت إلى وضع ممتاز . ولكن رب عملها أغواها ، وقطع لها ألف وعد ، لكي يهجرها فيما بعد . وكانت مارسيل قد أقسمت لنفسها ضرباً من القسم :

– أقسمت لنفسي أن لا أدع رجلاً « يمتلكني » ، ولا امرأة .

والبقية كانت مؤكدة :

– قلت لنفسي إنني ، من الآن فصاعداً ، أنا التي سأمتلك الآخرين. لقد تقيأت المجتمع . وكل نجاح في مهنتي سيمنحني الاحساس بأنني ظفرت « عليهم » : على أرباب العمل ، والزبائن ، والبورجوازيات!

كان بامكان مارسيل كذلك أن تتزوج رجلاً غنياً وضعيف الشخصية ، تنشد على سبيل الحصر أن « تمتلكه » إلى أن ينتهي من الناحية الجسمية والمالية . ولكنها سلكت درباً آخر . فقد رفضت أن تتصرف تصرف المرأة :

– المرأة ، إنما هي شيء يُؤخذ ويُنبذ . . .

ومارسيل تحتقر جميع النساء .

– إنهن جميعاً متشابهات . وينخدعن بكل كلام يتملقهن . أما أنا ، فانني أتباهى بأن أراهم عند قدميّ !

وتبحث مارسيل ، في الوقت نفسه ، عن صحبة بعض الرجال ، الأمر الذي لا يتصف بالمفارقة :

– أفضل الرجال المهذبين . فهم أكثر ذكاء من النساء . ولكن شريطة أن لا يمّهدون لي لعقد صداقة ، وإلا فانني أسحقهم .

وعلى هذا النحو إذن كانت مارسيل تريد :

١ – أن تحط من شأن الرجال بأن تبدو أكثر ذكاء منهم ، وأن تبقى في صحبتهم ما لبثوا « حياديين » أو مخنثين .

٢ – أن تسحق النساء بالسيطرة عليهن .

٣ – أن تكون ضرباً من « الملكة » .

٤ – أن تكون محبوبة من حيث هي امرأة **متفوقة** .

٥ – أن تخلّص هؤلاء « الصغيرات الفقيرات » (كذا) من مخالب الرجال .

٦ – أن تقوم بحيلة خبيثة ضد الأزواج مفادها إيثار زوجاتهم الفتيّات .

وكانت مارسيل قد أصبحت امبراطورة من الورق المقوى ، محاطة بالنساء الأطفال والنرجسيات ، واستحالت إلى بغماليون * امرأة : فقد كانت « تعدّ » النساء الصبايا ، اللاتي كانت تسيطر عليهن ، باعطائهن محاضرات في التماسك والثقافة . وكل شيء كان ممتازاً ما دامت العبدة تلبث خاضعة .

وكان حلم مارسيل السري :

– كنت أريد أن أكون رئيسة دير من المثقفات .

كانت ترغب في أن تكون « أماً » ولكن على شرط أن تكون بناتها تحتها ، مقيدات الرجلين واليدين . والحقيقة أن ذلك إنما هو حكاية ضرب من « نظام أمومة » بولغ فيه حتى بلغ الديكتاتورية السادية .

(*) بغماليون : Pygmalion : نحات قبرصي أسطوري ، نحت تمثال غالاته واغرم به ، ثم حصل على أفروديت التي منحها الحياة وتزوجها « م » .

٤ — بعض التلونات حول موضوع واحد

آ — السحاقية الفيزيولوجية

ثمة ضرب (نادر مع ذلك) من السحاقية الفاعلة التي تقترب بصورة طبيعية من الرجل ، بفعل كثير من الخصائص التشريحية والفيزيولوجية. فالجسم ثقيل ، ومتين ، ومتعضّل . والتمفصلات كثيفة . ومشيتها مشية رجل . وهي تتصف بعلامات خنثاوية على نحو واضح : الصوت خشن ، والثديان متقلصان ، بل مفقودان . وغني عن البيان أنه لا بد من أن نميزها من المرأة التي تقلّد أساليب الرجل لسبب من الأسباب .

ولكن ماذا تريدون أن تصبح هؤلاء النساء ؟ فهن يحسسن بأنهن رجال أكثر مما هن نساء . ولكنهن رُبين نساء . وسقطت الحقوق المدنية غالباً عنهن في مجتمع له تقاليد القرون الوسطى ، مجتمع لا يمكنه أن يتصوّر وجود أحد الأشخاص على حدود الجنسين من الناحية التشريحية . وقد يحدث أن يكون بوسع علم الجراحة أن يعيد إليهن طبيعتهن الواقعية فيصبحن « هم » . ولكن من اليسير على المرء أن يتخيّل الصعوبات الاجتماعية الجديدة التي سيصطدمن بها ، صعوبات لا يمكن التغلب عليها تقريباً .

ب — التماثل مع الرجل

يقال عن هذه المرأة إنها « صبي فاشل » ، أو إن لها روح رجل في جسم امرأة ، أو إنها أيضاً « نسخة » عن أبيها .

والمسألة هي دائماً حالة سيكولوجية . إن هذه المرأة ، في علاقة

سحاقية ، تقوم بالدور الفاعل (المذكر) . ولكن سلوكها حريّ بأن يذكّر المرء بسلوك **أم** متشددة ، ومتعالية . ولا رحمة عندها أمام ضروب «الضعف » ، تحاول باستمرار « أن تتجاوز نفسها » .

ونقول بصورة عرضية : تساءلت دائماً كيف يمكن للمرء أن يتجاوز ذاته . وبوسعه في بعض الأحيان أن يبلغ الطرف الأقصى من ذاته ، مع أنه يبقى في أغلب الأوقات بعيداً عن هذا الحد . ولكنه ما أن يبلغ الطرف الأقصى حتى يتعذر عليه أن يمضي إلى ما هو أبعد . فالمسألة ، مجدّداً ، هي مسألة تعبير جاهز ، ولكن ضرباً من إرادة القوة ، التي تتمنى أن تسود المعمورة ، يلوح منه .

ولنعد إلى المرأة التي هي موضوع حديثنا . اصطدمت هذه الفتاة ، خلال مراهقتها ، بأب « عسير البلوغ » (كان ، على سبيل المثال ، شهيراً ، يجني جميع النجاحات) . وبحثت الفتاة بجميع الوسائل ، وهي مبهورة بأبيها وشاعرة بالدونية ، عن أن تتوصّل إلى هذا النصف إله الذي يحوم فوقها . واستخدمت كل شيء لتجذب انتباهه ، ولتكون شبيهة به ، وفعلت كل شيء لتصبح « مثل » أبيها ، بل لتتجاوزه .

ثمة ضرب من الوضوح : **إنها لم تستطع ، وقد حاولت أن تصبح كأبيها ، أن تصبح ذاتها** . إنها مضت إلى جانب ذاتها ، ودلفت درباً لم يكن ممكناً أن يقودها نحو شخصيتها الخاصة . فأصبحت نسخة ، وتقليداً أعمى ، ومحاكاة .

وينظر الرجال إليها نظرة ترافقها السخرية ، والإعجاب في بعض الأحيان .وتحسدها النساء أو يمقتنها ، هذا اذا لم يعجبن بها لهذه «الرجولة التي تقاوم الرجال » ..

ويبدو بالفعل أن لها روح رجل في جسم امرأة . والواقع أن وجدانيتها لبثت موقوفة في مرحلة المراهقة . وكيف يبدو القطبان لديها ؟ قطباها في حالة سيئة جداً ، إذ أن الأب يحتل مركز كل منهما .

القطب المؤنث	القطب المذكر
– مرفوض إلى حد ما . – متقلص . تتجمع فيه إحساسات زيفتها الحاجة إلى أن تكون « مثل » أبيها . فقدان الصبر . عدم فهم وتهييج .	– متضخم ومنسوخ عن قطب أبيها .

فهل امرأة من هذا النوع تسقط بصورة آلية في السحاق؟ كلا ، بالتأكيد ، ولكنها ذات استعداد مسبق للسحاق . فتصبح هذه المرأة ، إذ تتماثل مع أبيها وتكره على تمثيل دورها إلى نهايته ، عدوانية ، ومغالية في الثقة بذاتها ، ومغالية في حب القتال . وهذا يعني أنها تشعر شعوراً ضعيفاً بالثقة بذاتها ، وتشعر بالدونية .

ماذا تصبح هذه المرأة ؟ الامكانات شتى :

١ – إنها لا تجد رجلاً « على قدها » ، وأعني بذلك أن يكون بوسعها موازنته بصورة ملائمة مع أبيها . فتبقى عزباء وسحاقية بالكمون.

٢ – تتزوج رجلاً مرموقاً ومحط إعجاب . . . كأبيها . فهي اذن تتزوج أباها « بالإنابة » . ولنتحسر على هذا الزوج إذا « فقد اعتباره» ، في يوم من الأيام ولسبب من الأسباب ، في عيني زوجته التي تبقى ، بالطبع ، سحاقية بالكمون .

٣ — تتزوج رجلاً ضعيفاً وخاضعاً . وفي هذه الحال ، **تحقق جنسيتهاالمثلية** . فهي تتزوج « رجلاً امرأة » ، اذ أن الأنوثة لا تتميز ، بالنسبة إليها ، من الخضوع . وتصبح ، على حد سواء ، مسيطرة ومتصفة بحنان الأمومة ، ديكتاتورية ورحيما ، متعرجة باستمرار دون أن تفلح في أن تجد نفسها أبداً .

٤ — توجّه وجدانيتها نحو النساء . وبما أنها « قائد » ، فهي تبحث عن الفتيات الخائفات والطيّعات اللواتي تسوقهن بالسوط .

إنها إذن سحاقية بالكمون ولو تزوجت . فهل تحب الرجال ؟ إنه لأمر متعذر . فهي تجد نفسها باستمرار في تنافس معهم ، وتبحث عن تجاوزهم ، والظفر عليهم .

إنها امرأة عصابية تنتظر ، بصورة خفية وإلى الأبد في بعض الأحيان ، تنتظر الرجل القوي ، على نحو حقيقي ، الذي قد يساعدها على التخلص من روحها الطفلي .

ج — عارض اجتماعي

ها هو ذا ما كانت جوليان تقوله لي :

— هل ترى شعر البدن الذي ابتُليت به ؟ وصوتي ، هل تسمعه ؟ ... أشعر أنني امرأة جداً ، مع ذلك ، ومستعدة كل الاستعداد للمضي نحو الرجال . . . ولكنني لم أسمع ، خلال مراهقتي ، سوى مناداتي : «أي ، جول ! كيف حالكَ ؟ » ، وسخريات أخرى من النمط نفسه . ثم أسمع كذلك : « لو تتخيلين أن يرغب فيك صبي ! » ولا حظت سريعاً بالفعل ، أن أي صبي لم يكن ينظر إلي أبداً . وعلى هذا النحو إنما بدأ كل

شيء . . . ثم التقيت بسحاقية صبية ، وها أنا ذا . . . ولكنني أمنح كل شيء مقابل أن يحبني رجل ، بدلاً من أن أمثّل دور الرجل ، كما كنت ملزمة على وجه التقريب بذلك . . .

٥ ـ خاتمة

آ ـ خلاصة

لبعض النساء نزعة إلى التماثل مع عالم الرجال . إنهن يضخّمن قطبهن المذكر (الفاعلية ، والحركة ، والسلطان) على حساب قطبهن المؤنث (انتظار ، وصبر ، وفهم ، واستطاعة داخلية) .

ويبحث هؤلاء النساء ، في الوقت نفسه ، عن الحط من قدر النساء الأخريات اللواتي يعتبرنهن أدنى منهن . إن هؤلاء النساء سحاقيات بالكمون ، على وجه العموم . فهن يبحثن عن رفقة الرجال ، ولكنهن يرفضن كل اقتراب تناسلي . والغالب أن تبقى جنسيتهن المثلية لاشعورية.

وفي هذه الحالة كيف تعبّر الجنسية المثلية عن نفسها ؟العلاقات التناسلية مع الزوج تثير إحساسات النفور أو القرف . فالبرودة الجنسية مؤكدة . وتشنج المهبل غالب . وتجد حالات اكتئابية ، وضروباً من عدم التلاؤم الاجتماعي ومن الهوس ، ومخاوف مرضية . وقد تبدو أزمات اختناق ، وأزمات تقيؤ كذلك : إنهن « يتقيأن » عضو الذكر بصورة رمزية .

هؤلاء النساء ممزقات بين ذكورة يتمنين امتلاكها ، وبين أنوثة موجودة على الرغم من كل شيء . وبعبارة أخرى ، إن توازنهن ، بالنظر لكون جزء الجنسية المثلية في شخصيتهن هو الأقوى ، منوط

بتحقيق هذه الجنسية المثلية . والحال أن هذه الجنسية المثلية مكبوته في اللاشعور ، بحيث أن شخصيتهن تتصف بما يشبه الانقسام إلى جزأين ، الأمر الذي يثير الشعور بالكف ، واللا أمن ، والدونية ، والحصر .

ب – عودة إلى الميناء تنذر بالخطر . . .

المرأة السحاقية الأكثر انتشاراً هي المرأة النرجسية ، امرأة طفل تركد وجدانيتها في مستوى البنت الصغيرة . وتبحث هذه المرأة السحاقية ، من خلال شريكتها الفاعلة ، عن بديلة للأم . وهاكم كيف تبدو هذه الحالة بصورة عامة :

الشخصية الرئيسة . تتصرف الأم ، وقد أصيبت بالإحباط والشقاء لسبب من الأسباب ، كما لو أنها تريد أن توجّه ابنتها صوبها ، وأن تعيدها **إليها** ، وأن تحتفظ بها إلى الأبد ، وأن تبتلعها وتقتلها وجدانياً .

ثمة سياق شائع . هذه الأم الشقية تحاول ، بصورة لاشعورية ، أن تحطم منزل ابنتها الزوجي . إن غياب الزوج غياباً متكرراً يسهّل على وجه الاحتمال مهمتها .

أملها . اذا أصبحت البنت شقية و « مهجورة » بدورها ، فانها ستكون من الحرمان بحيث تعود إلى أمها ، وتترك نفسها كلياً إلى « حماية » الأم .

المستتر اللاشعوري . « إنني وحيدة ومهجورة ، شقية ومنعزلة . وأنت كذلك . عودي إليّ ، واصبحي ثانية الطفل الذي كنت . وسنوحّد

تعاستينا . وسنصبح متواطئتين اثنتين ضد العالم . في الجزيرة المهجورة ، جزيرة بيتنا » .

إن الأم،في هذه الحالة،هي التي تتصف ، من الناحية الوجدانية ، بأنها ذات جنسية مثلية كامنة تجاه ابنتها .

الخطر . إذا اتجهت البنت إلى الوراء ، سقطت ثانية تحت سيطرة أمها ، وتتقدم البنت على قمة زلقة . مغلولة اليدين ، ومحاطة بالكلام المعسول والرعاية والتغذية . وتتعرّض في كل آن إلى أن تقع إما في الطفالة ، وإما في الجنسية المثلية المرضية . وحسبها أن تصادف سحاقية فاعلة حتى يقع المقدور .

٦ — كيف الوقاية من الجنسية المثلية المؤنثة ؟

وما دامت الجنسية المثلية ليست سوى عرض، فان العصاب المستتر هو الذي ينبغي أن نمنع حدوثه. ولا بد في هذا المجال من أن نكرّر القول — مع احتمال أن يكون مملاً — إن الجنسية والوجدانية شيء واحد. ولهذا السبب **يتمخّض كل نقص في النضج ، بصورة حتمية ، عن اضطرابات جنسية، وذلك أيا كانت تعبيرات التناسلية، قوية أم ضعيفة.** والحال أن فقدان النضج هذا يجرّ إحساساً باللاأمن ، وعدم التلاؤم ، والحصر . إحساساً سيدفع هذا الشخص إلى البحث عن ملجأ في أمن وهمي . وفي جهة من الجهات ، ولدى « شخص ما » في الحالة التي هي موضوع حديثنا . وهذا ما تفعله السحاقيات **دائماً** .

وليست الجنسية المثلية المؤنثة ضرباً من « الانحراف ضد الطبيعة ». **وصعوبات السحاقيات العميقة ليست حيث يعتقد بعضهم أنها موجودة.**

فهي ليست من مجال « الجنسية » بالمعنى المألوف للكلمة ، بل هي من مجال الوجدانية .

ومن المحتمل أن تبدو بعض النساء قليلات الاتصاف بالموضوعية جداً عندما ينصب الحديث على الجنسية المثلية المؤنثة . ويرعى بعض النساء ، إزاء السحاقيات ، آراء مسبقة هي من العنف بحيث يتصدين لكل محاكمة . وقد قلت سبب ذلك : إنهن يتعرفن على أنفسهن (بصورة لاشعورية جداً) في هؤلاء السحاقيات ، الأمر الذي يعني أنهن كبتن نزعاتهن السحاقية الخاصة .

وثمة بعض النساء الأخريات اللواتي ، على العكس ، يظهرن أنهن **مغاليات** في العطف على السحاقيات . ويتعطّل الموقف الموضوعي لدى هؤلاء النساء أيضاً ، ويتّخذ تسامحهن في بعض الأحيان مظهر « التواطؤ » . فهؤلاء النساء **يستشعرن** في أنفسهن نزعات سحاقية ، وهن يتصفن بأنهن مغاليات في العطف على السحاقيات لأنهن يشعرن بالعزاء في أن يلاحظن أنهن لسن الوحيدات اللواتي يجدن أنفسهن في هذا الوضع .

وها هي ذي نماذج الفتيات الصبايا اللواتي يتصفن بأنهن أكثر تعرضاً :

١ ـ البنات الأطفال ، المتعلقات بأمهاتهن .

٢ ـ البنات النرجسيات .

٣ ـ البنات « ذوات الأنوثة المفرطة » .

٤ ـ الفتيات الصبايا اللواتي ينكرن وضعهن المستقبل بوصفهن نساء .

٥ — الفتيات الصبايا اللائي يتماثلن مع آبائهن ، أو يخشينهم ، أو يمقتنهم ، وكذلك الفتيات « الصبيان الخائبون » .

وفي حدود ما يكون الأبوان موضع اتهام،في حالة الجنسية المثلية المؤنثة — وبالتالي في حالة الاضطرابات الوجدانية ، نجد دائماً إحدى الأوضاع التالية :

١ — أبوين عصابيين .

٢ — أبوين منفصلين بالطلاق .

٣ — أبوين يعدان التناسلية قذرة أو محرّمة .

٤ — أباً فظاً ، وغير فهيم ، ولامبالياً ، وكدراً ، ومسيطراً ، وعسير البلوغ بطريقة أو بأخرى .

٥ — أباً يدلّل ابنته .

٦ — أما نزّاعة إلى الملك ، أو ميّالة إلى الوداعة ، أو سلطوية ، أو مصابة بالاحباط ، أو شقية ،أو مطالبة ، أو طفالية ، أو شرسة ، أو جميلة بافراط ، أو ذكية بافراط .

وبعبارة أخرى ، إننا إزاء أبوين يمنحان ابنتهما ، في مواجهة الحياة ، إحساساً بالعجز ، والعزلة ، والدونية . **ويدفعانها ، في الوقت نفسه ، إلى البحث ، في الخارج ، عن الأمن** الوجداني الذي لا تجده لديهما .

ويتصف الآباء ، في أغلب الأحيان أيضاً ، برعونة مذهلة . فما رأيكم بأب يصرّح لابنته أو يشعرها أنه كان يؤثر أن يكون له صبي ؟ والواقعة تتكرّر ، على الرغم من أن ذلك يبدو من عصر آخر .

وما تقول بأب مرموق يربي ابنته كما يربي صبياً . وينتفخ فخراً لأن ابنته تحاول أن تكون كفؤاً له . . . ولكنها تنزلق على هذا النحو صوب « التماثل مع الرجل » ؟ وماذا تقولون بأب آخر ، تُعجب به ابنته اعجاباً يتجاوز الحدود ، يترك هذا الانبهار الذي يتملقه ينمو ؟

وما رأيكم بهذه الأم التي تحاول ، وقد انتصبت ضد زوجها وصارت « متواطئة » مع ابنتها ضد الرجال ، أن « تبتلعها ثانية » ، وتحتفظ بها بقربها ؟ إن سلوك الأمهات اللواتي يرفضن ، بصورة شعورية أو لاشعورية ، أن يكنّ نساء ، ينعكس على تربية بناتهن . فليس بوسعهن ، مهما قلن أو فعلن ، ومهما كانت إرادتهن الطيبة وذكاؤهن ، إلا أن ينقلن ما يستشعرنه . فتصاب البنت بالإحباط في فرحها بأنها امرأة .

إن القوانين تدفع السحاقيات إلى تعزيز انعزالهن وعداوتهن ضد المجتمع المسمى صائب الرأي ، المجتمع الذي يمثّل دور الحواريين الطيبين ، ويحتفظ بطريقة قديمة في النظر إلى الأمور . ذلك أن المحققين في محكمة التفتيش مستمرون في صحة جيدة ، وإن كانت محكمة التفتيش ميتة . فكأن الأمر شبيه باعلان قانون يدين العصاب أو الحصر !

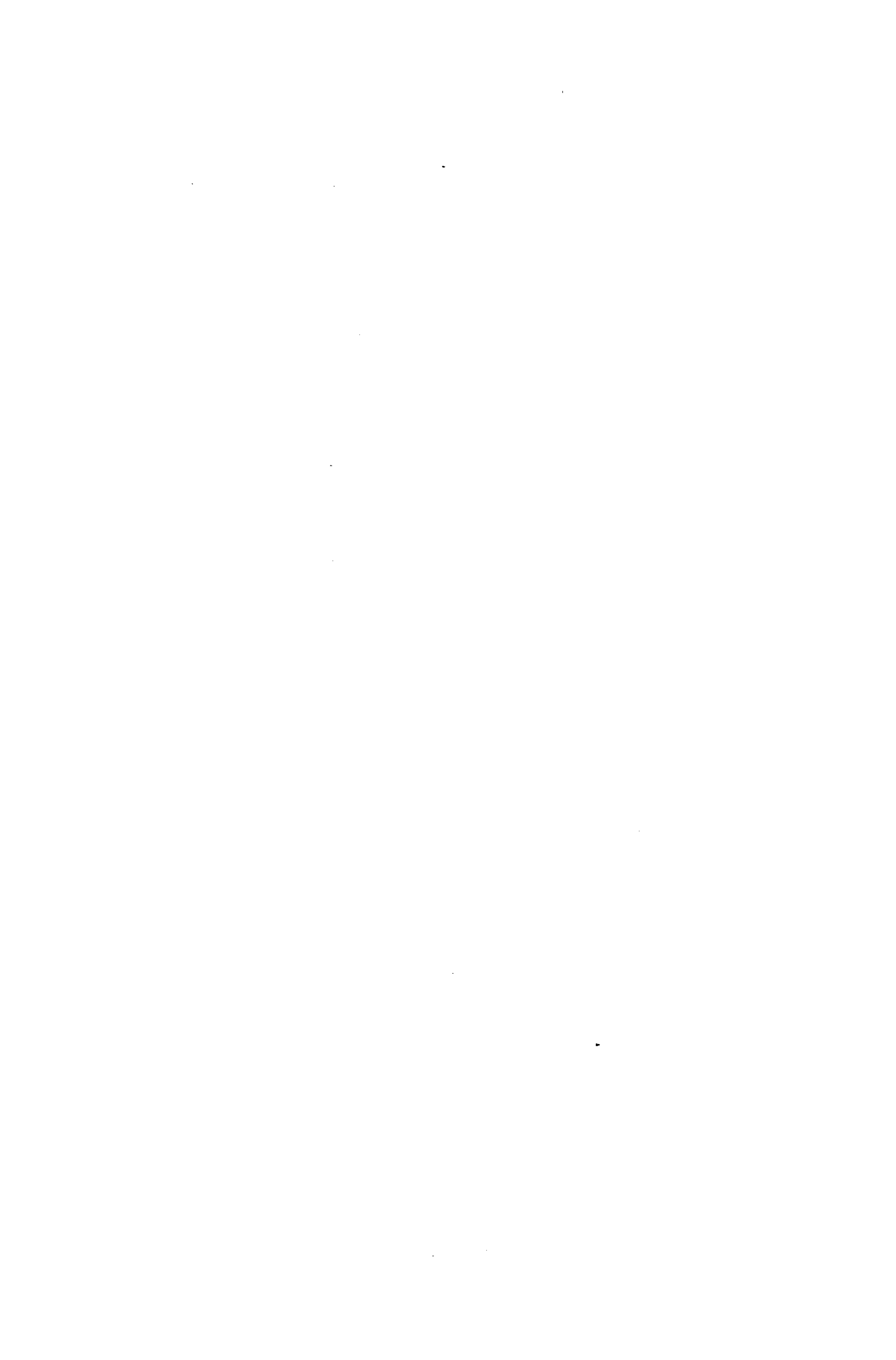
أما فيما يتعلق باضفاء الصفة الأخلاقية ، فليس بوسع هذا الإضفاء إلا أن يعزّز الاحساس بالخطيئة ، وبالإثم الذي يتصف بأنه مرتبط دائماً بالمرض السيكولوجي .

ويمكن تلخيص كل ما سبق بجملتين اثنتين :

— حتى يكون بوسع فتاة أن تستشعر ما هي الأنوثة الحقيقية وما هي

الاستطاعة التي تمثّلها ، ينبغي أن تكبر في مناخ من الأمن ، في أحضان ثنائي متلاحم وجدانياً ، ومتلائم تلاؤماً حسناً مع الوجود .

– لدى كل سحاقية ، سواء كانت بالكمون أم فاعلة أو متسامية ، نجد صراعات وجدانية عميقة ، ولاشعورية على نحو واسع ، تعود أصولها إلى مرحلتي الطفولة والمراهقة اللتين تتصفان بأنهما مصدر كل حياة إنسانية .



مهمة المراهقات المعاصرات مهمة ثقيلة . إن عليهن أن يصبحن ثانية نساء ، مع توقفهن عن أن يكنّ أنثى خطرة تخيف الرجال منذ الأزل .

ولكننا ونحن نراهم ، بهذا العدد الكبير إلى هذا الحد ، لامتمايزات ، وممزقات ، ولامباليات ، ومتسكعات ، نشك بأن ذلك سيكون في المستقبل القريب .

عندما تذوب قيم الأنوثة في قيم الذكورة ، تبدو روعة العالمجدّداً .

من ينقذ الإنسانية ، إن لم يكن الإنسانية الداخلية ؟ والحال أن النساء المكتملات ، اللائي أصبحن نادرات في الحقيقة ، يلبثن المؤتمنات على هذه الإنسانية إياها .

وأعتقد ، دون مبالغة ، أن تدخلهن مسألة حياة أو موت .

والمرأة لا تتساءل إن كان هذا الأمر ممكناً ، بل تتساءلإن كان مفيداً .

ويتصرف الرجل بعكس تصرف المرأة ، مع احتمال أن يدمّر ذاته .

دور المرأة المترامي الأطراف أن تمنح ثانية ضرباً من المعنى للأفكار الفارغة من كل جوهر إنساني .

الفصل الحادي عشر

البنت المحصورة

> **كل فعل لا توحيه العاطفة فعل ضعيف الأهمية .**

لا تتصف أي مراهقة بأنها قليلة الشأن . فهي ترغب في الكمال حتى عندما تكون عاطفتها مقموعة ، ومكبوتة ، وملجومة . وإذا تابعت الفتاة مسارها دون عارض ، حققت إبداعيتها الشخصية ، وتعبيرها عن ذاتها ، مستندة إلى أنوثة متفتّحة .

فلماذا إذن ينتهي كثير من النساء إلى أن لا يكنّ العنزة ولا الملفوف ، أو أن يكنّ شبيهات بالرجال ، ومنتصبات بصورة شرسة ضد النساء والرجال ، أو أن يكنّ مستجديات للاهتمام والحب ، بصورة تعيسة؟

بلغت حنة من العمر ثلاثين عاماً. إنهما ، هي وزوجها ، ينشدان مثالاً واحداً . ولكن حنة تعترف أنها عاجزة عن الحب دون إعجاب . فما أن ينسحب زوجها بسبب مرض ، أو ضعف ، أو جبن ، حتى

تبدو عدوانية ، بل محتقرة . إنه حب عجيب . ما سبب هذا العجز عن الحب دون إعجاب ؟

لكاترين من العمر خمسة وعشرون عاماً. إنها تقتضي أن يكون زوجها « الأشهر » بين زملائه . وهي تدعمه ، من جهة أخرى ، بطريقة فاعلة . ولكن كل إخفاق يلاقيه الزوج يثير عدوانية كاترين . وتنهك نفسها بالعمل ولو كانت مرهقة . ومن الواضح أن كاترين تنقل إلى الرجل طموحها الشخصي . فما السبب ؟

دخلت إرما عامها الثامن والعشرين. إنها تحب زوجها ، رجلاً مرموقاً وعطوفاً . ولكنها تطلب إليه عشر مرات في اليوم : « قل لي إنك لا زلت متعلقاً بي » . فما السبب ؟

إن هيلين ، التي بلغت الثلاثين ، سكرتيرة مدير فريد و « ساعده الأيمن » . وهيلين متزوجة ، سعيدة حسب زعمها ، ولكنها عاجزة عن أن تمنع نفسها من معاناة حب افلاطوني لمديرها . فما السبب ؟

ثمة شخصيتان مهمتان ، في أثناء نمو وجدانية الفتاة ، تبدوان على طول الطريق : الأم والأب . وفي هذا المجال ترتفع الستارة ، ذلك أن «عقدة أوديب » ، الشهيرة جداً ، أو الوضع الأوديبي بصورة أكثر دقة ، موجودة . هذا الوضع الأوديبي ، الذي يتصف بأنه تافه الحلاوة ، يزيّف تسعين بالمئة من حياة النساء ، و يزيف زواجهن ومهنتهن ، وبعبارة أخرى ، يزيّف سلوكهن . والوضع الأوديبي ذو استطاعة تزداد امتداداً في جميع الاتجاهات بقدر ما يلبث لاشعورياً .

ومن الملاحظ أن بعضهم أخذ الصلات بين الصبي وأمه بالحسبان،

دائماً على وجه التقريب ، عندما ينصب الحديث على « عقدة أوديب » . فهل البنت مهملة في هذا المجال أيضاً ؟

عليكم، دون ريب ، لا أن تقرأوا هذا الفصل،بل أن تدرسوه ، مع احتمال أن يصل الأمر بكم إلى حد التأمل . فأرجو المعذرة : ذلك أن وضع البنت الأوديبي ليس « عقدة » ، وإنما هو خطر متجدد . وليس مصطلح « وضع » مناسباً مع ذلك ، لأن هذه الكلمة تنطوي على استقرار معيّن . والحال أن المسألة هي مسألة حركة حبل متصلب ، ومسألة تعقيد يتعذر تصديقه . وقد حاولت أن أحدّد الصعوبات التي تلاقيها المراهقة خلال هذه المرحلة ذاتها من الحياة ، مرحلة يبدو أن الصبي يعيشها، على الغالب ، وكأنها ضرب من المزاح .

ولنعلم سلفاً :

– أن الوضع الأوديبي ، لدى البنت ، وضع ضبابي عسير .

– أن المراهقة تجد نفسها فيه معوقاً بصورة واضحة ، قياساً على الصبي الذي يتصف وضعه الأوديبي بأنه واضح على وجه العموم .

– أن الوضع الأوديبي لا يجد ، من الناحية العملية ، حلا في سن الرشد على الاطلاق ، إلا فيما يتعلق بفتيات يتصفن بأنهن متوازنات على نحو فريد،ويتصف الثنائي الذي ينحدرن منهبأنه متحد على نحو يخلو من كل عيب .

أولاً – النقاط الأساسية

١ – دثار الظل وجلباب الظفر

لنستبعد الرموز الكبرى ، رموز الأم والأب كما هي مطبوعة في

كل لاشعور إنساني ، ولكن لنستعدها متذكّرين أنها « تمارس تأثيراً» على موجود في حالة التكوّن ، وأن بوسعها أن تستحيل إلى شَرَك ، نهائي في بعض الأحيان .

ولسنا ، على الإطلاق ، بصدد تخيل حول موضوع معطى ، بل نحن بصدد أوضاع تعيشها جميع الفتيات بصورة لاشعورية . ألا تعتقدون أنها جديرة بأن تُبذل الجهود الضرورية لدراستها ؟

أم المراهقة

رموزها الإيجابية	رموزها السلبية
الفهم	التهديد الصامت ، الخفي
التسامح	إلغاء الحب
الانفتاح القلبي	الإهمال
الجاهزية	الانتظار الحذر
الصبر	المادة
الملجأ	الابتلاع
دوام الحب	إضفاء العدم
الحياة	الموت
الولادة	
الطفولة	
الماضي	

إنكم تلاحظون أن هذه الرموز السلبية ، وغالبية الرموز الإيجابية، تذكّر بـ :

– **الجمود**

– **« العودة إلى الوراء » ، والنزول ، والماضي .**

رموز الأم « تسحب » إلى الوراء ، ونحو الطفولة ، ونحو عدم ما قبل الولادة . فالعودة نحو الأم تعني القيام بنصف دورة نحو نقطة الانطلاق . ومن الناحية الرمزية (وهذا أمر مهم جداً) : الأم موجودة من الناحية الزمنية « وراء » ، « في الظهر » .

أب المراهقة

رموزه الإيجابية	رموزه السلبية
الطاقة الخلاّقة	القوة العمياء
القوة الذكية	الإفناء الفظ
الاستطاعة المراقبة	القانون
الضوء	الواجب
العمل	الشرف
الإشعاع الخارجي	العمل
الفكر	النجاح
الضجة	الاله المدمّر
الهادي	
الاله البنّاء	
المستقبل	

(القانون ، الواجب ، الشرف ، العمل ، النجاح : بمعناها اللاشخصي والمجرد)

ولنلاحظ أن هذه الرموز تذكّر بـ :

– **الحركة ؛**

— **الاندفاع إلى الأمام ، والصعود ، والابداعية ؛**

— **المستقبل .**

ولا « تسحب » هذه الرموز إذن إلى الوراء : لا نحو الماضي ولا نحو الطفولة . فالأب موجود **في الأمام** ، ويدفع نحو الأمام ، وإلى ما «هو أبعد» . ولا بد لبلوغه من **الصعود** ، **والتسلق** ، **والصراع** .

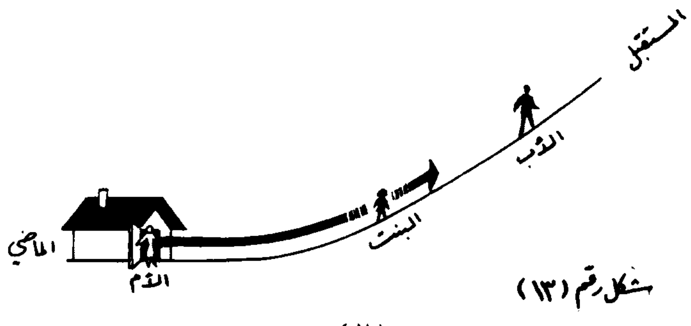
والأب هو الذي ينتصب ، **فيسدّ الطريق بين الطفولة (الماضي) والمستقبل (سن الرشد) . ولا بد ، من الناحية الرمزية ،من أن يُصرع أو يتم تجاوزه،مع احتمال تحديه فيمابعد**(هذا ما فعله بعض الفرنسيين إزاء دوغول ، وذلك مثال من ألف مثال) .

هذه الرموز المهمة يمكن ترجمتها على نحو آخر :

— **الأب** = خط الجبهة = المعركة النشيطة وعلى المكشوف .

— **الأم** = الخنادق الخلفية الموحية بالأمن = التراجع الممكن (شريطة أن تبقى الأم صديقة ابنتها) .

يمكن إذن أن نصيغ قانوناً يُناط به نضج الفتاة : **تركت المراهقة ، المناضلة في الحياة ، خنادقها الموحية بالأمن (الأم) . وهي تصعد نحو الجبهة (أبيها) . ولكن عليها أن يكون بوسعها الاعتماد على خلفيات متينة (أم متوازنة) .**



شكل رقم (١٣)

٢ - وضع البنت الأوديبي

يعكس بعضهم دون قيد ولا شرط ، في أغلب الأحيان ، خصائص الرجل ، من أجل تحديد المرأة : الأمر الذي يفضي إلى رؤية للواقع مزيّفة كل التزييف .

ويفعلون الشيء نفسه فيما يتعلق بـ « عقدة أوديب » ، فيضعون البنت بصورة عامة موضع الصبي ، والأم مكان الأب ، والأب مكان الأم ، ويعطيهم كل هذا مقلوباً مغلوطاً ، كما يلي :

الصبي	البنت
- يريد أن يمتلك أمه متفرداً بها ، وأن « يكوّن ثنائياً » معها.	- تريد أن تمتلك أباها منفردة به ، وأن تكوّن ثنائياً معه ، وأن « تغريه » .
- يرغب في استبعاد أبيه ، وقد أصبح خصماً له .	- ترغب في استبعاد أمها ، وقد أصبحت خصماً لها .
- يصارع أباه ، ويفوز على هذا النحو برجولته الراشدة .	- تصارع أمها في الأنوثة ، وتفوز على هذا النحو بأنوثتها الراشدة .

وإذا كان هذا صحيحاً بالنسبة إلى الصبي ، **فذلك خاطىء على نحو جزئي ، بالنسبة إلى البنت** . والواقع :

١ - أن البنت لا يمكنها ، إذا لم تفعل سوى إغواء أبيها ، إلا أن تتخذ مكاناً **تحته** ، بموقف خاضع . ولا يمكنها أن تنمّي سوى أنوثة باهتة ، وتافهة ، وفاتنة . فتصبح « عاهرة » أبيها ، (ثم عاهرة الرجل).

٢ – أن ما ترغب فيه البنت هو **معرفة** أبيها ، والاتصال معه اتصالاً عميقاً . أليس هذا الأب هو الرجل الأول الراشد الذي تعيش إلى جانبه ؟ وسنرى أهمية **ذلك** .

إليكم كيف كانت ردود فعل رجال ونساء مثقفين ، وأطباء ، وأمهات ، ومراهقات ، إزاء مصطلح « عقدة أوديب » . إنني لم أستطع أن أطرح السؤال سوى ما يقرب من خمسين مرة . فغير مطروح إذن أن نعمّم .

– **عقدة أوديب ، ولكن هذا ليس غير أمر عابر !** (يا للشيطان ، إن كان ذلك صحيحاً !)

– **إنه قديم الزي ، مهجور ، مفهوم مضى زمنه** . (كما لو كنا نقول : الولادة كلمة مهجورة ، وليس ثمة من يولد في أيامنا هذه) .

– **هذه العقدة ذات شأن كبير من أجل بلوغ الصبي نضجه .** (وما على البنت ، إياها ، إلا أن تتدبر أمرها) .

– **أفترض أنني مررت في الوضع الأوديبي كغيري من الناس . ثم ها أنا ذا ، لا أحمل منها ما هو سيء !** (ومع ذلك يستمر الوضع الأوديبي لدى هذه المرأة ذات المهنة الحرة ، التي كانت تشرف على الرعب لأقل استياء من زُبُنها ، والتي كانت تبحث ، وهي متزوجة ، عن حب « مثالي » غير موجود ، من خلال كثير من العشاق) .

كلٌ يعلم أن عقدة أوديب سوية . إنها تلقي بأولى ومضاتها خلال الطفولة ، وتكبر متشظية في أثناء المراهقة . ومن المفروض عندئذ أنها تختفي إلى الأبد في مسافات سن الرشد . والحال أن العقدة لا تُحلّ حلاً

ممتازاً إلا مرة واحدة من عشرة آلاف ، ونحن في حال من التفاؤل الشديد . . .

وإذا **بسّطنا إلى الحد الأقصى** وضع المراهقة ، يمكن أن نصفه على النحو التالي :

١ — البنت منجذبة بأبيها ، شأن امرأة منجذبة نحو رجل . وهو أمر سوي ومنطقي .

٢ — تصبح الأم « منافسة » ، وينبغي استبعادها . والوسائل الرائجة هي : الاحتقار الموجّه لأمها ، والتهكم ، وظهورها أروع من أمها ، وأجمل ، وأذكى ، وأكثر فتوة على وجه الخصوص .

ويشعر المرء ، وقد تم تبسيط عقدة أوديب على هذا النحو ، أنه بصدد عقدة طيّبة ، ومتموضعة ، ولا يمكنها أن تثير غير اضطراب عابر . والواقع أن هذه المعطيات الأساسية تتشعّب ، وتكوّن تشبيكات في منتهى التعقيد .

ذلك أن الوضع الأوديبي ، بالنسبة إلى المراهقة ، هو الأمل في لانهاية فردوسية . فأبوها هو « الرجل الناضج » الأول الذي تجده في طريقها . وهذا الرجل مشحون برمزية قوية . إنه « الإله » العسير المنال ، الذي يمثّل الذكاء المبدع ، والفتح ، والنجاح ، والاستطاعة ، والمعرفة . وتشعر البنت بالحاجة إلى الارتباط به ارتباطاً عاطفياً ، وإلى أن تكون محبوبة منه ، كذلك بصورة عاطفية وعلى وجه الحصر .

ولا تطلب البنت غير شيء واحد : **أن تتصل بأبيها اتصالاً وجدانياً**. وهنا انما تبدأ الفخاخ تنحفر .

وترغب المراهقة في :

١ ـ أن تكون محبوبة من أبيها .

٢ ـ أن تكون ملفت نظره من بين سائر النساء .

٣ ـ أن تكوّن « ثنائياً وجدانياً » مع أبيها .

٤ ـ أن تعرف أباها بعمق ، وأن تعلم من هو ، أياً كانت المظاهر .

ب ـ السحر والإغواء

وتتسع اللعبة الانسانية مع مرور الزمن . فطريقة البنت ، الطريقة الوحيدة ، لمعرفة أبيها هي أن تقترب منه . ولا بد لها ، لكي تقترب منه ، أن تروق له . ولكن كيف ؟

١ ـ **تفتن** البنت أباها بفضل صفاتها الخاصة ، ذكائها وعفويتها ورغبتها بالتقدم في الحياة . إنه موقف **اغراء سوي** .

٢ ـ أو أنها **تغوي** ، الأمر الذي يختلف كل الاختلاف . وقد تكون البواعث عديدة . ويمكن للمراهقة ، وقد أحست بأبيها أنه عسير المنال ، وجميل ، وذكي ، وشهير ، أن تعتقد أن « الغواية » هي الوسيلة الوحيدة في أن تلفت إليها الأنظار . ويكمن الخطر في أن هذه الطريقة ناجعة ، ذلك أن من المحتمل أن تستمر الفتاة في اللعبة نفسها إزاء الرجال خلال حياتها كلها . وهي تنمّي على هذا النحو « أنوثة

من النوع الرديء » ، مبنيّة على مظهر خارجي من الجمال ، وعلى نزوات طفالية ، وعلى نرجسية مغالية . فهذا الموقف من الإغراء غير سوي ، على الرغم من أنه غالب جداً .

والحد الفاصل بين « السحر » و « الإغواء » ، حد متعرج مع ذلك . فمن المؤكد أن البنت ، وهي تمارس « الإغواء » ، تزيد من قدرتها على الإغراء . والحال أن إغراء الغير أساس كل علاقة إنسانية ـ أيا كان الجنس والعمر .

هنا إنما يتكشف موقف الأبوين أنه ذو أهمية قصوى .

الأب أولاً : إذا حاولت ابنته أن « تفتنه » ، فكيف يكون رد فعله ! هل سيكون مفتوناً بأن يرى فتاته تصرف كنوزاً من البراعة لكي تروق له ؟ هل سيكون مسحوراً بهذا الإعجاب الذي يبدو أنها تعانيه بالنسبة إليه ؟ ألا يستشعر ضرباً من الانجذاب الجنسي (المكبوت أو غير المكبوت) تجاه ابنته الجميلة والفاتنة إلى هذا الحد ؟ ألا يمثّل دور « الفتى » كيما يكون « جديراً » بضروب الثناء التي توجهها إليه ابنته من خلال مظاهرها المغناجة ، بشعرها المتهدل على وجهها وتزينها البارع ؟ أو أنه ، على العكس ، يتقن توجيه هذا الوضع بفهمها ؟ وهل بوسعه أن يبيّن تدريجياً للفتاة أنها تتنكّب طريقاً خاطئاً ، وذلك دون أن يصدّها أو ينبذها ؟

وما وضع الأم ؟ هل تفهم ؟ وهل تشعر بالغيرة من ابنتها عينها ؟ أليست شرسة ؟ أتحاول أن تكسب ثقة أبنتها ؟ هل تفهم أن ضرباً من الموقف السلبي لا يفتأ يزيد السوء ، لأن ابنتها تنحاز إلى أبيها ضدها ؟ وعلى العكس ، إذا فهمت الأم دلالة هذا الوضع الأوديبي ، وإذا بقيت

جاهزة بصورة عميقة ، أمكنها أن تقدّم لابنتها العون على تجاوز هذا الصراع .

٣ – لنوازن بين البنت والصبي

ستتيح لنا هذه الموازنة أن نفهم ، على نحو أفضل ، مأساة الفتاة ، مأساتها العميقة .

يبحث الصبي عن الصراع مع أبيه **من أجل حب امرأةهي أمه** . ولهذا السبب فان **على الذكر الفتى** :

– أن يعزل « رئيس العشيرة الشيخ » ، الذكر القوي ، المنتصب في وسط طريقه ، والذي يسدّ عليه المرور نحو المستقبل .

– وبالتالي ، أن يصارع أباه مُظهراً رجولته الخاصة (استطاعة ، ذكاء) .

– ويندثر الذكر الشيخ وقد تم صرعه ، ويتابع الصبي طريقه الرجولي وقد توطّد وأصبح راشداً .

نحن اذن بصدد صراع بين ذكرين. وهذا أمر واضح ، وصريح ، ودون إخفاء . يضاف إلى هذا أن الصبي يمتلك مؤهلاً رئيساً للنجاح : أمه **صديقة و«متواطئة»معه**. ذلك أن عقدة أوديب ما كانت قط وحيدة الاتجاه . وهل ثمة أم واحدة لا تتأثر بتعلق ابنها الشديد بها ، ولا يروق لها هذا التعلق ؟

وملخص القول بالنسبة إلى الصبي :

أمه	والده
– صديقة ؛	– أسلحة الصراع معه متكافئة
– تؤمّن مؤخرة ابنها خلال المعركة . وبوسع الابن أن يلتجيء إليها في حالة الخطر أو الإخفاق.	(رجولة في مقابل رجولة) . – مستوى الصراع واحد (نوع الذكور ضد نوع الذكور).

وعلى **الفتاة بصورة طبيعية** أن تفوز بمستقبلها كالصبي . والحال أن **أباها** موجود أمامها ، ويسدّ عليها الطريق كذلك، بكل تجربته وبكل قوته . وعلى البنت ، من الناحية المنطقية ، كالصبي ، أن « تنزع السيف » الذي يمسكه أبوها ، وأن تتابع طريقها .

وفي هذا المجال ،**ليس ثمة من شيء يحدث بالنسبة الى البنت**. أن تنتزع سيف أبيها ؟ أن تصارع على مستوى الرجولة ؟ الأسلحة ليست متكافئة. فلكي تتصرف البنت على هذا النحو ، عليها أن تصارع كما تصارع فتاة لها صفات **الذكر** . وعليها أن تتصرف تصرف الصبي ، الأمر الذي يتصف بأنه عبث ما دامت امرأة.**فعلى أي مستوى سيكون بوسع أنثى صغيرة أن تصارع ذكراً شيخاً** ؟ أقل ما يقال في الوضع إنه عسير .

ثمة تعقيد إضافي : تنظر الأم ، على الغالب ، إلى ابنتها « تحوم حول » أبيها، نظرة لوم . فهي تشعر أنها منبوذة ، وحسود . وحتى لو أن الأم تتصرف تصرفاً سوياً ، فان البنت تستشعره على نحو مختلف كل الاختلاف.

وملخص القول بالنسبة إلى البنــــت

أمها	أبوها
ليست صديقة . وتحس بها البنت أنها منافسة حسود ؛	– الأسلحة غير متكافئة في الصراع ؛ (أنوثةضد ذكورة) .
– لا تؤمّن مؤخرة ابنتها ، فالملجأ مغلق .	– المستويات مختلفة (النوع الأنثوي ضد نوع الذكور) .

وعلى هذا النحو إنما تتصف البنت بأنها محصورة . إنها تشعر بأنها وحيدة في قيادة معركة مستحيلة . إنها واقعة في فكي كماشة بين أبيها وأمها ، ويبدو لها الوضع دون مخرج .

وعلى الجبهة : لا بد لها ، وليس في وسعها أن تصارع أباها على مستوى الرجولة ، من أن تعالجه بطريقة غير مباشرة . فعليها أن تتثعلب ، وتجذب انتباهه . وهي تحاول ، في أغلب الأحيان ، أن يكون معجباً بها ، وتغريه ، وتبسط « نِعم » أنوثتها الناشئة . هذا إذا لم تحاربه على مستوى أكثر «رجولة» : ذكاء ، ورياضة ، الخ . إنها ، على أي حال ، في وضع الدونية أمام أبيها .

في المؤخرة : تتعرض البنت ، وهي تسحر أباها ، إلى خطر أن ترى أمها تنقلب عليها . والحال أن الاختلاف مع أمها شيء خطير . فهي المعتمدية والملجأ . وتشعر البنت إذن أنها مكرهة لتبني سلوك يصون لها الحظوة لدى أمها (منافستها !) .

فالمراهقة ، على هذا النحو ، في حركة دائمة متعرجة ، وفي ريبية دائمة من حيث النتائج .

كانت إحدى الفتيات قد كتبت لي :

— لم يوجّه أبي لي نظرة قط . فهو في منتهى الذكاء ، ويسبقني بألف فرسخ . كيف يمكنني أن أدركه ؟ فليس بوسعه ، من قمة عظمته الراشدة والمذكّرة ، أن يفهم الرغبة التي تتوطّن نفسي . إنه يتفرغ لاهتماماته العظيمة الشأن . ولا أراه إلا في المساء . إنه حتى لا يراني : فليس له عينان إلا بالنسبة لأمي . فكيف يوجّه اهتمامه إلى امرأة صغيرة طيبة مثلي ؟ إنني وحيدة في العالم .

ووصلتني رسالة من مراهقة أخرى تقول :

— أمي حسود وتعنّفني باستمرار . هذا مؤكد: إنني أجمل منها ! وعندما يهنئني أبي على فستاني ، فانها تعاني من ذلك . ولن أسرق منها زوجها مع هذا ! إنني تعيسة .

والحقيقة أن المراهقة تعتقد في نفسها أنها وحيدة في العالم ، ومهجورة من أمها وأبيها ، ومرفوضة . إنها تسبح في وجدانية هي من الفيض بحيث لا يسعها أن تجد متنفساً إلاّ في الحلم .

فليس ثمة إذن ما يدهش أن يكتسب كثير من النساء ، خلال هذه الفترة ، عادة التذبذب من عاطفة إلى أخرى ، وإنما يخطىء الناس في وصفهم هذا الموقف بأنه موقف مراءاة ، ونزوة ، وتغير مفاجىء دون باعث .

وها هي ذي تخطيطية موازنة تلخّص الأوضاع الأكثر تواتراً ، وتكمل التخطيطية التي عرضناها فيما سبق :

فيما يخص الأب :

الصبي	البنت
— يصارع أباه بطريقة تصادمية وعدوانية .	— تقوم بمناورات من السحر أو من « حرب العصابات » لتروق لأبيها . فالمعركة خفية أكثر مما هي ذات مظهر خارجي .
— إنه متجه نحو المستقبل وشخصيته تتوطّد .	— إنها في الانتظار (هل لاحظني ، هل رقت له ؟) ، شخصيتها مزعزعة .
— ذو نزعات سادية ، بالمعنى الواسع للكلمة ، يرافقها إعجاب بالنفس وتبجح .	— ذات نزعات نرجسية ومازوخية ، يرافقها إحساس بأنها لن تستطيع الفوز بأبيها .
— يتابع سيره إلى الأمام (إذا كان ، على الأقل ، كل شيء يجري تماماً ، وإذا كان لا يعاني الحاجة إلى « العودة إلى أمه ») .	— تتوقّف في مكانها على الغالب ، لأن عليها أن تراعي حبها لأبيها وحبها لأمها .
— الصبي ، من الناحية الرمزية ، « ينتصب » ، ويتخذ مكانه في بعد « عمودي » . إنه يريد أن يضع نفسه « فوق » أبيه (« أن يمشي فوق رأسه ») .	— البنت ، **من الناحية الرمزية** ، « ترقد » ، وتضع نفسها «تحت أبيها » ، في بعد « أفقي »، خاضعة معجبة .

وملخص القول ، إن وضع كثير من المراهقات يمكن ترجمته بما يلي : « أن أحوم حول أبي » ، وأن أراعي قابلية التأثر لدى أمي ، وأن لا أزعل أحداً ، فتفشل في عبور حدود الرشد .

ثانياً : العقبات

١ ـ عندما يكون ثنائي الأبوين مصاباً بالتصدع

تنطوي الأسر ، التي لا يكوّن فيها الأبوان ثنائياً متحداً ، على عدد لا يحصى من الدرجات . إنها :

ـ العزلة لاثنين .

ـ اللامبالاة المتبادلة .

ـ الخلافات الحامية أو الباردة ، والحروب الخفية أو المعلنة .

ـ الثنائي الذي (وضع خطير دائماً) تثير فيه الأم ، المصابة بالإحباط والتعسة ، ابنتها ضد أبيها . فتجعل هذه الأم من ابنتها «متواطئة » معها ، وتجعلها مشروطة بأن تنحاز ضد أبيها .

ـ الثنائي الذي تحتقر فيه الأم (علناً أم خفية) زوجها ، ويتم هذا الأمر أمام ابنتها ، فنؤوب إلى الحالة السابقة .

ـ وبعبارة أخرى ، إنها جميع ضروب الثنائي الذي يعيش كل عنصر من عناصره في منزله الداخلي الخاص .

ولنشر الىأنه قد يحدث أيضاً أن « يثير » الأب ابنته ضد أمها.وفي جميع الأحوال ، تُلغى معاً موضوعية البنت ورأيها المستقل .

وسأقدم ، في الصفحات التي تلي ، ثلاث حالات من الحالات الأكثر تواتراً . ولكن يجب أن لا تجعل منها مطلقاً . والواقع أن :

- النقص في الاتصال بالأب قد يكون كلياً أو جزئياً . فتشكيلة اللونيات واسعة .

- والأمر نفسه فيما يتعلق بالأم .

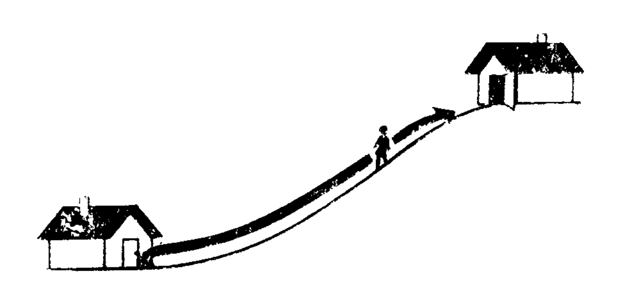
ولا يتصف الخلاف غالباً بأنه صارخ . ولكن الفتاة **تحس بجميع خلفيات** هذا الوضع ، وضع الأبوين . وهي موزّعة بين أبيها وأمها ، ولا تعرف إلى أيهما تنحاز .

كذلك فان الانتقادات ، في الثنائي الذي يثير فيه أحد الأبوين ابنته ضد الآخر ، تحدث في غياب الزوج الآخر بالطبع . والبنت ، الممزقة بين أبيها وأمها ، فريسة اللاأمن ، والعزلة ، والحصر . صوب أي منهما تمضي ؟ من تؤثر ومن ترفض ؟

لقد اخترت ثلاثة أوضاع حاسمة ، ولكنها تتيح التذكير بحالات أخرى كثيرة ممكنة .

٢ ـ الحالة الأولى : غياب الأب

آ ـ الآلية



لاحظ المسيرة التي أنجزتها البنت . إنها ، وقد « انطلقت » من عند أمها ، عادت إليها بعد أن اصطدمت بباب أبيها المغلق . فارتدت على هذا النحو إلى ماضيها وطفولتها ، وفاتها قطار مستقبلها ونضجها .

تبقى البنت على اتصال بأمها ، لأن هذه الأم :	**لا تقيم البنت اتصالاً بأبيها . لأن هذا الأب :**
– تبقى حفية بها .	– غائب ، من الناحية الجسدية أو من الناحية السيكولوجية
– « حاضنة » .	– فظ ، ولامبال ، وعدواني .
– متسلطة .	– في منتهى الشهرة ، وعسير المنال .
– لا تغفر أن تفلت منها ابنتها .	– لا يُفهَم ، ومتقلب الأطوار ، وخاضع ، ومذعور ، وباهت الشخصية ، وضعيف .
– تظهر نفسها أنها مهملة ، تطلب شفقة ابنتها .	– يحتقر النساء أو يخشاهن.
– أصبحت متواطئة مع ابنتها ضد زوجها ، وتظهر بمظهر الشهيد غير المفهومة .	– تحتقره الأم .

ويمكن أن يكون فقدان الاتصال بين البنت والأب ناشيء عن أن هذا الأخير غبي ، وعاجز ، ومتقلب الأطوار ، ومتعال .

ولكن ، في الواقع ، أوليس بسبب أن زوجته تخيفه إنما هو خاضع أو عدواني ؟ وإذا كان يفعل كالفراشة ، أوليس من أجل أن يفلت من زوجة تمتد في جميع الاتجاهات ، ومن زوجة مشاكسة ؟ ذلك إنما هو أمر ذو شأن ، ذلك أن المراهقة لا تميز المظهر من الواقع . إنها لا تتساءل ، بأستثناء توافر وضوح فريد :

ـ ضمن أي حد لم يثر سلوك أمي سلوك أبي ؟ وإذا كان الأمر على هذا النحو ، فليس أبي هو ما يبدو عليه. وعلي إذن أن أحاول الاقتراب منه وملاقاته كما هو .

ونحن نصل من ذلك إلى نقطة ثانية هي أيضاً أعظم شأناً . إن موقع الأب ، بالنسبة إلى البنت ، **أمامها . وهي تدنو منه وفي نفسها رأي مسبق عنه : رأي أمها . وترى أباها بعيني أمها** . فكيف ترغب البنت في أن تعمق الاتصال بأبيها إذا كان الرأي غير مناسب بصورة قبلية ؟

كم من الأمهات يوحين ، أو يصرحن علناً :

ـ أبوك إنسان عاجز . ويفكر أبوك بكل شيء ما عدانا « نحن»(١). وأبوك لن يفهم النساء أبداً . وأبوك جعلني دائماً شقيّة . إنه لن يفعل شيئاً غير ذلك أبداً ، هذا الرجل القليل الأهمية !

فالمراهقة ، على هذا النحو ، محقونة بالأفكار ، ويمكن للمرء أن يتوقع أنها لن تعرف أباها بعمق ، مع كل النتائج التي يفترضها ذلك.

وليس ثمة من مراهقة في العالم لا ترغب في معرفة أبيها ، أياً كان هذا

---

(١) هذا « « النحن » صورة من صور التواطؤ . مضمونه : « ابقي بقربي ، ولا تهتمي بهذا الرجل . فاذا كنا ، نحن الاثنتان سوية ، فسنكون على ما يرام ، ونشكل جبهة ضد العالم الخارجي ». إن هذا لضرب من قتل الطفل قتلا معنويا .

الأب . لقد افترضتُ أن باب الأب مغلق . والواقع أنه كان مفتوحاً قليلاً . فأي أب لا يتمنى أن يحاور ابنته ، وأن يشرح لها حياته ، وأن يقول لها كيف نجح أو فشل ، ولماذا ؟ وأن يبدو كما هو عليه ؟

وإذا كان هذا الأب منفصلاً وجدانياً عن أمها ، فمن المؤكد أنه سيكون عسيراً عليه جداً أن يشعر بأن ابنته تدينه ، وهو يعلم أن حكم المراهقة ، إذا لم يكن موضوعياً ، فان الأم إنما كانت هي التي صاغته .

فليس الأب ، في هذه الحالة ، هو الذي أرتج بابه ، ولكن البنت تبقى على العتبة ، ترفض الدنو من شخص لا تقيم له أي اعتبار . **وهكذا يسلك شخصان ، كان بوسعهما أن يعرف أحدهما الآخر ، طريقين متباعدين .**

قالت لي نساء ما يلي على وجه التقريب :

– أما وهو الآن ميت ، فقد تعلمت أن آسف لأنني لم أدن منه ، ولأنني نبذته . لم أعرف أبي ، ولكنه حاضر دائماً . وكنت أحس دائماً أنه يحبني ، وأنه كان يريد أن يكلمني ، غير أني صددته . لقد كانت أمي موجودة بيني وبينه ، كالضباب الذي يطمس الآثار .

وأصبحت البنت يتيمة الأب من الناحية الوجدانية . فهي لم تستطع أن تلحق بمن هو ، من الناحية الرمزية ، موجود « على بعد كبير » ، و«علو شاهق».وينسدّ مستقبل البنت ، وتبقى على ما هي عليه من الجوع .

وتحس المراهقة، خائبة الأمل ، وربما محطمة أو متصدعة ، بفقدان « دليلها إلى المستقبل » ، إحساساً أليماً .

وتنظر ، يائسة ، إلى الوراء . وهنا ، يمكن ، بالنسبة إليها ، أن تعود إلى الأم ، وبالتالي ، إلى الطفولة .

والمراهقة عندئذ :

– تبحث عن ملجأ بقرب أمها .

– تعود إلى أمها لتلقى العزاء منها ، وتتحد بها ضد أبيها . . . ثم ضد الرجال جميعاً فيما بعد .

– لا تشعر ، وفقدان الأمن المذكر يرعبها ، بالرغبة في أن تكبر : بل بالبقاء بنيّة قرب أمها .

ب – النتائج اليومية

تعود المراهقة إذن إلى الوراء . فهي تمشي القهقرى ، وتتعرض إلى خطر أن تكتشف نفسها ملتصقة بـ « بيت الأمومة » ، وسجينة فيه . وكونها لم تر السلم ، فقد سقطت في القبو .

ويمكن لهذه الفتاة أن تصبح :

– امرأة مغالية في الرقة ، مطموسة ، ومذعورة أمام المظاهر الاجتماعية للحياة ، مظاهر كان يمكن لأبيها أن يعوّدها عليها .

– امرأة تعوّض عن خوفها من الحياة الاجتماعية بالعدوانية ، والقسوة ، والصراع مع الرجال والنساء .

– امرأة خائفة أمام كل عمل وكل مبادرة .

– امرأة « غير منتجة ».فابداعيتها موقوفة ، ولم يضع الأب ، الذي

يتصف بأنه الدليل نحو الحياة المعبّر عنها في الخارج ، سير نقل الحركة في مكانه . ولن تستطيع هذه المرأة أن تبحر إلاّ في ظل زوجها .

— امرأة ضعيفة الإرادة ، تعدّ ألف مشروع دون أن تحقّق منها مشروعاً واحداً .

— امرأة ذا عقلية « البنت المسنة » ، سواء تزوجت أم لم تتزوج .

— مسترجلة تكره « الرجال الذين يسيئون إلى النساء » .

— امرأة تنظر إلى « الأنوثة » على أنها دنيا ، وإلى المظاهر التناسلية النسائية على أنها مجلبة للعار .

وأؤكد لكم أنه لا بد عندئذمن أن تحفروا على عمق لكي تجدوا في هذه المرأة بعضاً من الفرح بالحياة . **فقد أصبحت ماضياً يسير** ، ولو أنها مشدودة بصورة عدوانية نحو المستقبل والنجاح .

فالمخاطر كثيرة .

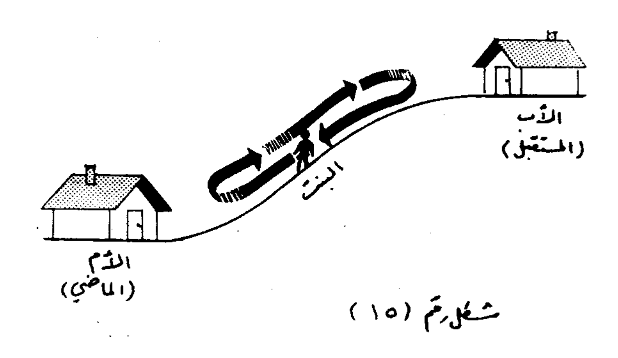
إن بامكان الفتاة ، وقد ضيّعت أباها (والرمز الذي يمثّله) ، أن تبحث عن « حب مثالي » من خلال العديد من العشاق الذين يخيّبون جميعهم أملها . ويمكنها أن تتزوج رجلاً يبدو عليه أنه يطابق الرمز الكبير ، رمز ابيها . ولكنها ، في هذه الحالة ، تتزوج من ظل . ومن المحتمل أن تنحرف نحو الحب الافلاطوني ، هذا إذا لم تعش « بالإنابة » ، مستلزمة ، دونما رحمة ، أن ينجح زوجها اجتماعياً ، إذ أن هذا النجاح يحل محل إبداعيتها الخاصة الميتة . أو أنها تتزوج باهتاً يجنبها كل مواجهة اجتماعية . وربما كذلك لا تتزوج ، مكرّرة سلوك الزمن الماضي ، السلوك نفسه : الانحياز إلى أمها ضد أبيها . وقد يحدث أيضاً أن تبحث

عن « أب مطلق عسير البلوغ » ، شأنها في ذلك شأن بعض المتدينات اللواتي لا يعشن إلا على أمل أن يكافئهن الله الأب . أو أن تلبث قرب أمها بفضل ضرب من الذريعة : ذريعة أن تتزوج رجلاً يشبه طبعه العميق طبع الأم المومأ إليها . ومن الممكن أيضاً أن تصبح سحاقية . أو أنها ، أخيراً ، تنظر إلى الرجل كاله ، مع كل ما يرافق ذلك من الشعور بالدونية والعدوانية الذي يفترضه .

وستبقى هذه المرأة ، في جميع الأحوال ، وأيا كانت المظاهر ، « بنتاً صغيرة » يسيطر عليها ظل أمها .

٢ ـ الحالة الثانية : الأم المنيعة

آ ـ الآلية



شكل رقم (١٥)

المسيرة ، في البداية ، هي ذات المسيرة في الحالة الأولى . فالبنت «تصعد » نحو الأب ، وتبقى على العتبة . ولكن الأم ، هنا ، هي التي أغلقت بابها .

قطعت البنت اتصالها بأمها ، لأن الأم تتصف (أو يبدو أنها تتصف) بأنها :

- حرِدة .
- شرسة ، وعدوانية ، وقاسية .
- صاحبة نزوة (لا يعرف المرء معها بأي رجل يرقص).
- متشددة .
- مغلقة ، ومتشبثة برأيها ، وعنيدة ، ومحتقرة .

لاتقيم البنت إتصالاً مع أبيها ، لأن هذا الأب يتصف (أو يبدو أنه يتصف) بأنه :

- خصائص الحالة الأولى ذاتها .

وتفشل الفتاة إذن في الاتصال بالأب ، فتصاب ، على نحو عميق ، بخيبة الأمل . وتنظر إلى الوراء ، صوب ملجأ الأمومة .

بيد أن الباب مغلق ، إما لأن الفتاة تستشعر أمها أنها عديمة الفهم أو شديدة الخطر ، وإما لأنها تمقت ماضيها . فلا شيء في الأمام، ولا شيء في الخلف . **وماذا بوسع الفتاة أن تفعل سوى أن تدور في مكانها ؟** وكونها لا تستطيع أن تلامس أباها وجدانياً ، ولا أن تدع نفسها تذهب صوب أمها ، **فانها تضع نفسها في مدار بين الكوكبين .**

وفي رأيي ، هذا هو الوضع الأشد خطورة فيما يتعلق بعدم تحقق المرأة .

ب ـ النتائج اليومية

التوقّف الوجداني لدى البنت حادث في الاتجاهين .

ابداعيتها الخارجية ، وتعبيرها الاجتماعي ، مكفوفان ، وذكورتها موقوفة.والثقة بالتأكيد الاجتماعي للذات متآكلة بصورة تنذر بالخطر .

حياتها الداخلية ضامرة ، بل مصابة بالعطالة . وثقتها بالحياة — تلك الثقة التي يمكن للأم وحدها أن تمنحها — متزعزعة . وأنوثتها ليست ذات استطاعة .

ويستقر ، بالنتيجة ، خوف معمّم ، لاشعوري بصورة كاية في بعض الأحيان . وقد تبدو جميع ضروب التعويض عن الخوف : العنف ، والقسوة ، وروح القتال المتفاقمة في شدتها ، الخ .

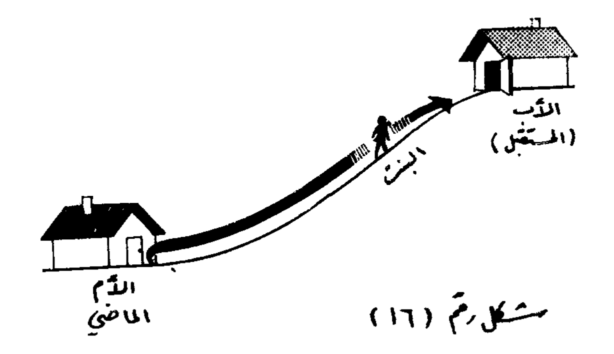
وهذه الفتاة **يتيمة الأب** ، كما في الحالة الأولى . ولكنها **يتيمة الأم أيضاً** ، وسيكون عسيراً عليها تنمية عاطفة الأمومة الخاصة بها .

وهذه الفتاة محصورة بصورة كلية ، ومصابة بالحصر إزاء النساء والرجال . إنها لا تتصرف : إنها « تدع الأمور تجري » . وجميع تجليات الحياة الاجتماعية ، من عمل وعلاقات مع الرؤساء ومبادرات ، تغرقها في اضطراب عميق .

وستدور هذه المرأة في ظل زوجها وفي ظل نجاحه المحتمل . وربما تتزوج رجلاً ديناميكياً ، وعقلانياً ، ومرموقاً ، يعبر بالرمز عن الأب الذي لم تعرفه ، وسيكون في الوقت ذاته عطوفاً ، وحنوناً ، ومحباً ، وبالتالي يتصف بـ « عاطفة الأمومة » . **وذلك أفضل ما بوسع المرء أن يتمناه لها** . ذلك أن مثل هذا الزوج يمكنه أن يزيل عواقب مراهقة فاشلة. وربما كان بوسع المرأة الصبية ، وزوجها يسحبها ، أن تحرّر قدراتها المكفوفة .

٣ ــ الحالة الثالثة : أب شهير أو ضعيف

آ ــ الآلية



شكل رقم (١٦)

قطعت البنت اتصالها بأمها لأن هذه الأم تتصف (أو يبدو أنها تتصف) بأنها :

ــ الإمكانات ذاتها في الحالة الثانية .

تقيم البنت اتصالاً بأبيها لأن هذا الأب :

ــ يمتلك خصائص تنطبق على رمز الرجل : إنه حازم ، وذكي ، وطيب ، وعطوف ، وحفي ، وودود ، وقادر على أن «يرشد ابنته » .

ــ إنه « رائع » ، وناجح اجتماعياً .

ــ أو يبدو بحاجة إلى الحماية ، مذعوراً ، مصاباً بالحصر ، يلتمس من ابنته عاطفة الأمومة .

ــ يبدو أنه بحاجة إلى الدعم ضد الأم التي نبذته واحتقرته .

وعندما تبدو الأم منيعة ، فهي تمثّل الماضي . إنها ، من الناحية الرمزية ، موجودة في ظهر المراهقة . فلهذه المراهقة إذن ، خلفها ، أم تستشعرها وكأنها عدو ، وشديدة الخطر ، وخالية من الحب .

ولكن الفتاة ، في هذا المجال ، تقيم الاتصال بأبيها . فهي تنحاز إذن لأبيها ضد أمها . والحال أنها كلما أمعنت في هذا الاتجاه ، ازداد الخطر . فما السبب ؟

والسبب أن « مؤخرتها » مقطوعة . ولا يمكنها العودة إلى خنادق توحي بالطمأنينة . إنها ، على العكس ، تشعر أنها مراقبة « في الظهر » من أم شديدة الخطر .

نزعتها العميقة أن تصنع ثنائياً مع أبيها ، وأن تتحالف مع « باباها العزيز » ضد العالم برمته.وتلك صورة مخيفة من صور عقدة أوديب .

وإذا كان الأب رجلاً « رائعاً » وشهيراً ، فهل ستحاول أن «تتجاوز » أباها ، وأن تصرعه حتى الموت ؟ أم أنها ستصبح ابنة صغيرة ساحرة ، أو « صبياً فاشلاً » ؟ وإذا تزوجت ، عمن تبحث ؟ هل تبحث عن رجل تستمر إزاءه بـ « الاغراء » ، أم تتزوج رجلاً ، تغلب عليه صفات الأنوثة ، وتكون هي زوجته ذات الصفات الشبيهة بصفات الرجولة على وجه التقريب ؟

وإذا كان الأب ضعيفاً ، فهل ستحضنه وتحميه كما تفعل أم بطفلها؟ ومن المحتمل ، إذا تزوجت ، أن تبحث عن رجل تفرض عليه إرادتها بفضل بعض الأطباق الصغيرة الشهية ، أو بفضل ألف رعاية خانقة ورعاية .

وليس بوسع الفتاة أن تتزوّد من أمها « بالأنوثة » ، لأنها تنظر إليها على أنها شديدة الخطر . وستكون أنوثتها جافة (صبي فاشل) ، أو تفهة (بنت ذات سحر) ، أو طاغية (أم دجاجة بالنسبة إلى زوجها) .

ب ـ النتائج اليومية

وإزاء أب « شهير جداً » ، أي أنه يتصف ، من بين ما يتصف ، بما يلي :

- ذكي بصورة عظيمة ؛
- جميل وقوي كاله ؛
- وزاخر بالمعارف ؛
- يُعجب به الجميع ؛
- مرح وسيد عظيم ؛
- رياضي رائع ؛

من المحتمل أن تحس به المراهقة وكأنه « عسير البلوغ » . فتدنو منه دنوا يرافقه الشعور بالدونية والعجز . وستكون مجذوبة به كما تنجذب فراشة بالضوء .

كانت إحدى الفتيات قد كتبت إلي :

ـ أبي لا يُغلب . إنني معجبة به بشغف . سأكون دائماً دونه بكثير . وأنا أتمنى كثيراً أن يحبني ، على الرغم من صفاتي الضعيفة .

وكتبت إلي فتاة أخرى تقول :

– إنه يسحق الناس جميعاً بالسباحة والفروسية والرماية . وقد صممت على أن أفعل مثله .

وإذا كانت المراهقة تشعر شعوراً قوياً بالدونية ، فانها تثير عملية السحر .

أو أنها ، إذا تصرفت ضد دونيتها ، ستكون نزّاعة إلى الدخول في منافسة مع أبيها ، وفي الفرع الذي هو لامع فيه ذاته . فلماذا ؟ إنها تفعل ذلك حتى تثير إعجابه ، وتلفت على هذا النحو انتباهه ؛ أو إنها تفعل ذلك لمنافسة « هذا الذكر » الذي يحتل المكان كله ، أو لتثأر لأمها التي بقيت في الظل ، ولتبيّن أن للنساء « كلمة ينبغي أن يقلنها » .

وتتعرض الفتاة تعرضاً قوياً ، في هذه الحالة ، إلى خطر أن تصبح «صبياً فاشلاً » .ولاحظوا أن كثيراً من الآباء فخورون بذلك . وسينظر المجتمع ذاته إلى هذا « الصبي الفاشل » نظرة مقرونه بالتعاطف الذي تغلب عليه التسلية ، ويسامحه الناس بكل شيء : سوء مظهره ، وأيمانه ، ومواقفه ذات المظهر الرجولي . وسيقال « فكّر إذن ! كانت تريد في الخامسة من عمرها أن تسبح كأبيها ، وكانت تنكبّ على ركوب الخيل مثله في العاشرة . وكانت ، في السادسة عشرة ، تقود سيارتها بجسارة لتفعل مثل أبيها » .

إن تلك التي تسمى « صبياً فاشلاً » هي امرأة فاشلة بكل بساطة. فأولئك الذين ينظرون باعجاب إلى امرأة ترغب في أن تكون شبيهة برجل ، لماذا ينظرون ، من جهة أخرى ، باحتقار إلى رجل يرغب في أن يكون شبيهاً بامرأة ؟

ومن المؤكد أن عبادة قوة الذكر ليست مشرفة على الموت .

والواقع أن الفتاة التي تبدو ذات مظهر رجولي وقتالي لا تسلك سلوك الذكر ولا سلوك الأنثى . وهي لا تفلح في أن تحدّد موقعها . **إنها تحاول أن تصارع أباها لأنها لم تعرفه ، وهي ، لهذا السبب ، نسيت هدفها الرئيس الذي كان محدداً بأن تستشعر أباها بعمق** . ولهذا السبب ، فمن المحتمل أن تبحث عن زوج بالشهرة التي كان عليها أبوها ، زوج بوسعها أن تكون معجبة به وهي في تنافس معه في الوقت نفسه . وستحاول على هذا النحو أن تجد ، لدى رجل آخر ، هذا الرمز ، رمز الرجل الاله الذي أخفقت في الدنو منه من زاوية خاطئة .

هذا باستثناء ما إذا « خطفت » — وتلك حالة نادرة — صبياً مذعوراً تسيطر عليه كما يحلو لها .

إنها ، في جميع الأحوال ، لم تنجح في ذكورتها الأصيلة ، واستنزفت ، في الجزء الأكبر منها ، منابع أنوثتها .

ولا تستخلصوا من ذلك على عجل شديد أن الروح الرياضية لامرأة علامة وضع أوديبي فاشل .

ثالثاً : المآلات الأربعة الأساسية للوضع الأوديبي

لتعذرني المراهقات لموازنتهن بورقة للتصوير تم التصوير عليها ، وهي في طور التظهير . فالصورة موجودة ، ولكنها هي ما هي عليه ، وليس بوسع أي كان في العالم أن « يسحب » منها أكثر ما تنطوي عليه . ويتصف الاختبار النهائي غالباً ، مع الأسف ، أنه أدنى بكثير مما كان

من الممكن أن تكون عليه الصورة : إما لأن تظهيرها تم في مختبر يرثى له من مختبرات الوالدين أو المختبرات الاجتماعية ، وإما لأنه قد يحدث ، ولو أن الوالدين والوسط يتصفون جداً بالانسجام ، أن تخفق المراهقة في الوضع الأوديبي عقب ردود فعل غير مناسبة ، ناشئة من طبعها الخاص.

١ ـ المرأة المتفتحة

كيف تخرج المرأة من الحمام الأوديبي ؟ هل تخرج شاحبة ؟ نامية بافراط ؟ هل ستكون الظلمات عميقة أم شاحبة ؟ وهل ستكون الأنوار العليا ساطعة أم باهتة ؟

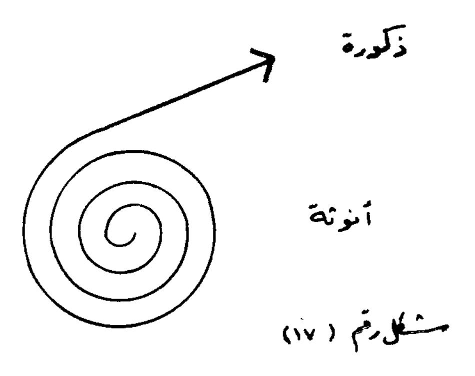
ذلك أن « تجلي » المرأة يتطلب شروطاً واضحة جدّاً :

١ ـ **فالأب** ينبغي أن يعطي المثال على فاعلية رجولية أصيلة . وقطباه ، المذكر والمؤنث ، يجب أن يكونا متوازنين . فالمراهقات لا يخلطن خلطاً عبثاً (وعلينا أن لا ننسى نفاذ البصيرة الحدسي الشهير لدى المرأة) . وبوسع الفتاة على هذا النحو أن تتصل اتصالاً عميقاً بأبيها الذي **تضم إليها منه** صفات الابداعية ، والتعبيرعن الذات في الخارج ، والثقة الاجتماعية بالذات .

٢ ـ **والأم** ينبغي أن تكون مثال الأنوثة العميقة الفاعلة . وإذا كان الأمر غير ذلك ، فكيف ترغب الفتاة في أن تكتسب صفات الأمومة وتنمّي قطبها المؤنث ؟

٣ ـ وينبغي أن لا يحجز **الوسط الاجتماعي** الى الصبيان جميع الامتيازات . وينبغي تربية المراهقة بالحزم الذي يُربى به الصبيان . إنها

بحاجة إلى أن تكون محبوبة ومحترمة بوصفها موجوداً إنسانياً ذا حصة كاملة ، مع جميع المسؤوليات والحقوق التي للصبيان .



مشكل رقم (١٧)

ومن المؤكد أننا لم نصل بعد إلى ذلك . **ولكننا عندما نميز الأنوثة من الضعف** ، يمكن لمسيرة المراهقة أن تكون كما يلي :

١ — تنمّي المراهقة أنوثتها وتفتّحها . في ظل من الأمن الكلي ، مستندة إلى أمها .

٢ — «تصعد » نحو أبيها ، واثقة بالحياة ، جنباً إلى جنب مع أمها — لا على أنها منافسة لها .

٣ — تتخذ مكاناً لها في مستوى أبيها ، وتلتقط صفاته المبدعة ، الاجتماعية ، والرياضية ، والفكرية . وسيكون أبوها مدرباً على المستقبل.

٤ — تبقى « في فلك » حول أبيها خلال زمن التدريب الضروري؛

٥ — وتشرع الفتاة في انطلاقتها المستقلة ، وقد أصبحت مكتملة الأنوثة والذكورة .

ولكن الحقيقة أنكم لن تجدوا في أغلب الأحيان وضعاً مماثلاً في مجتمعنا إلا كمثل قطعة من الذهب في وسط جادة من الجادات .

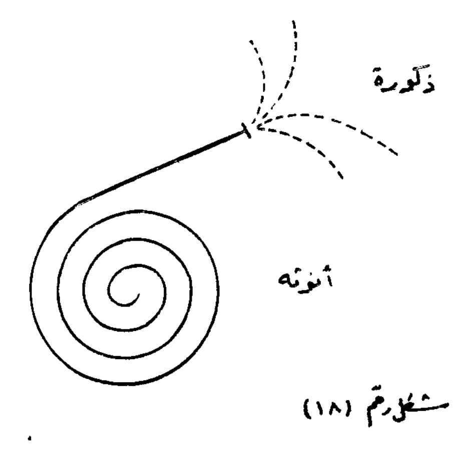
فعلى المرأة إذن أن تمتلك قطبين متوازنين مبتهجين .

إن أنوثتها تجمّع الطاقة باستمرار ، طاقة يمكن استخدامها في كل لحظة .

وذكورتها ، النامية جيداً . فاعلية وإبداعية معبّر عنها في الخارج ، ومسيرة واثقة من نفسها نحو المستقبل . وكون هذه المرأة تعمل في الخارج أو لا تعمل ، أمر ضعيف الأهمية . وبما أنها لا تشعر بالحاجة إلى تعويض إزاء الرجل ، فانها لا تعاني أي شعور بالدونية أو الفوقية ، ولا أي مطالبة داخلية .

هذه المرأة شبيهة بأرض خصبة تثمر أجود الزروع

٢ ــ المرأة البائرة



شكل رقم (١٨)

الأنوثة . هنا ، في حالة جيدة الى حد ما . ولكنها تظل بالانتظار .

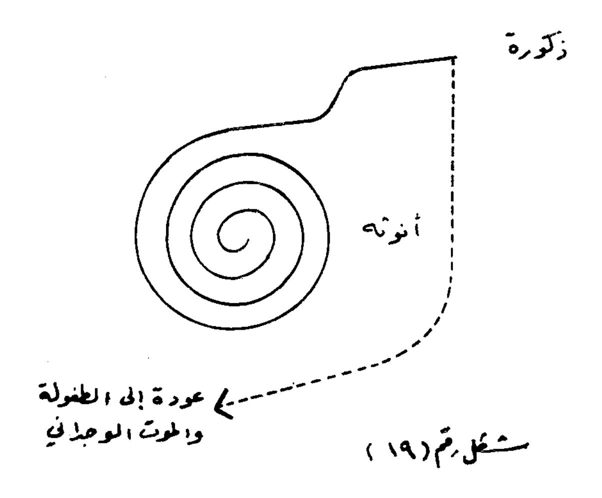
دون أن تنشط خارجياً ، ودون أن تظهر إلى الخارج . والاستطاعة موجودة ، ولكنها غير مستعملة .

والذكورة ضعيفة الارادة ، لأنها موقوفة بفعل عواطف الإثم والدونية . وتخشى المرأة أن تنتقل إلى الإبداعية ، وأن تبادر .

انها ، بصورة عامة ، ربة منزل رائعة . وتفضّل أن تبقى « في ذاتها » و « في بيتها » . والعمل الخارجي عسير عليها ، بل يجلب الحصر . ويؤثر هؤلاء النساء ، في بعض الأحيان ، عملاً غيريا : فيصبحن ممرضات ، ومساعدات اجتماعيات ، وراهبات ، الخ . ويستطعن ، إذ يوجهن اهتمامهن إلى الغير ، أن ينشطن ذكورتهن ، دون أن يشعرن بالإثم في التصرف .

هذه المرأة شبيهة بالأرض الطيبة ، ولكنها بائرة .

٣ ـ المرأة الملتصقة باستطاعة الأم



شكل رقم (١٩)

الأنوثة في حالة يرثى لها . هذه المرأة عائدة ، من الناحية الوجدانية ، « الدى ماما » التي ، إلى أوامرها ، تبقى هذه المرأة خاضعة في الأغلب. إنها تعيش في خوف من رأي الآخرين .

والذكورة يرقية دون أي استقلال .

ذلك هو نموذج من المرأة الطفل ، التي تستطيع إخفاء ضعفها تحت مظاهر عديدة . إنها ليست ذات عمر من الناحية الوجدانية ، وهي لطيفة ، ووديعة ، ودون صعوبة ظاهرة . ولكنها ، من الناحية الوجدانية دائماً ، ميتة .

هذه المرأة شبيهة بالأرض المشبعة بالماء ، حيث ترقد بعض نباتات النيلوفر الليلية .

وحالة مارسيل ، التي تكلمت عنها سابقاً ، توضّح بالمثال جيداً هذا المآل .

قالت لي منذ المقابلة الأولى :

ـ أتمنى أن أعرف نفسي معرفة عميقة . وسأخصص من أجل ذلك الزمن اللازم . أتمنى أن أعرف ما يمنعني من أن أكون موجودة .

ثم أضافت وهي تبتسم :

ـ تعلمت الصبر ، مع ذلك .

كانت تبدو أنها موجودة خارج الزمن . وأرتني صورة فوتوغرافية لأمها :

– ألم تكن ذات مظهر امبراطوري ؟

ولكن لم يكن معها ، « كما لو كان بالمصادفة » ، أي صورة لأبيها .

– كان أبي يثير الشفقة . . . رجل عديم الأهمية ! لم أره قط يتخذ مبادرة . فقد كان منقاداً لكل شيء . والحقيقة أن ماما . . .

والحقيقة أن ماما كانت ديكتاتورية ، وجميلة على نحو يثير الإعجاب . وكان ينبغي أن يكون على طريق مارسيل الصاعد أب ، واسطة نحو المستقبل . ولكنه كان يبدو أنه ليس سوى ظل : فكيف كان بامكان مارسيل أن تدخل بيت ضرب من الظل ؟ كيف كان بامكانها أن تلحق بأب لم يكن يتجلى قط ؟

وكانت مارسيل تنظر إلى « أبيها » . فالرجل كان يعمل حتى وقت متأخر من الليل ، وكان يهرب في أعمال ديوانية .

– ومع ذلك ، كان بوسعي أن أحبه . . . وعندما نكون وحدنا ، في بعض الأحيان ، كان يترك لعفويته العنان خلال لحظات قصيرة . وكان يحاول أن يشرح لي حياته ، وإخفاقاته ، وعدم فهم أمي . . . وكنت أحس أن بامكاني أن أحبه . ثم كانت أمي تصل ، متعالية . فلم أكن أبدي أية مقاومة . وكنت أترك بابا . . .أما وقد مات الآن ، فانني أشعر بأنني آثمة لكوني أصغيت إلى والدتي .

قالت لي مارسيل في يوم آخر :

– كنت من الشعور بأنني أدنى من أمي بحيث كان لديّ الانطباع

بأنني تافهة في كل شيء . فأي صبي كان بوسعه أن يلقي نظرة عليّ ؟ كان هناك ممثل تجاري يأتي لبيتنا ، من وقت لآخر . وكنت أحاول أن أجذب انتباهه . لقد كان صبياً طيباً ، من غير تكلف . ولكن أمي كان تحتقره ، ولم أكن أجرؤ ، أنا ، على قول شيء ، مثلما أنني لم أكن أجازف بالدفاع عن أبي .

وعلى هذا النحو ، لم يكن **أمام** مارسيل شيء : ليس ثمة اتصال عميق بأبيها . **وخلفها** ، ثمة أم عسيرة البلوغ بقدر ما هي متشددة . ومات الأب ، فعدّلت مارسيل مسارها :

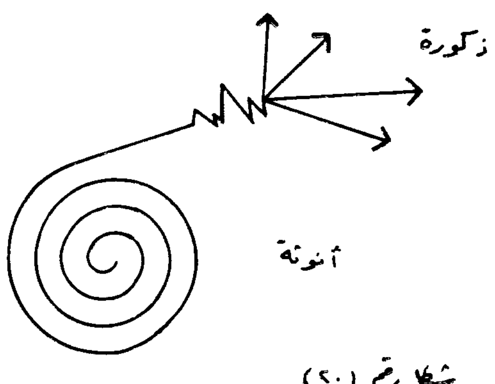
عادت إلى الوراء ، صوب طفولتها ، وصوب الحماية الملكية ، حماية أمها .

ـ كانت أمي تقول لي : إذا كنا ، نحن الاثنتان ، سوية فاننا سنكون على ما يرام ، وسترين !

خيبة أمل كاملة ، كما ترون . كانت مارسيل تدير ظهرها للمستقبل ، وتضع نفسها خارج الزمن ، وأصبحت دون عمر . **وكانت أنوثتها ملتصقة باستطاعة الأم ، وكان قطبها المذكر راقداً.**

عندئذ إنما بدأت تحليلاً نفسياً فصلها عن أمها تدريجياً ، وجعلها تعي ضرباً من الاستقلال الممكن الذي حققته من جهة أخرى .

٤ ـ المرأة العدوانية



شكل رقم (٢٠)

هذه المرأة ليست امرأة ولا رجلاً ، ولكنها عدوانية دائماً ، ومهتاجة بصورة مستمرة ، ومتمردة أبداً ضد الرجل والمرأة ، وضد نفسها . إنها في حالة من الذعر العميق ، ولكنها تقنّعه بعناية .

أنوثتها ضعيفة ، مصلّبة . وذكورتها ، التي تتصف بأنها صعبة المراس على نحو فاحش ، تفرغ شحنتها بضروب قذف من العدوانية .

إنها ليست اجتماعية ، وقلّما تتزوج ، أو أنها تتزوج لأمد قصير . وهي ، بوصفها سحاقية على الغالب ، تقوم بدور الرجل . وفي عملها ، تتكلم بصوت عال وقوي ، وتسحق الرجال والنساء بمطالبها التي توحي بالاحتقار . ولا أحد يحبها بصورة فعلية أبداً .

هذه المرأة شبيهة بالأرض الجافة التي لا تنبت غير الشوك .

وتبيّن جيداً **حالة آن** ، الحالة التي صادفناها فيما سبق ، بأي وسائل غير مباشرة يمكن أن تتضخّم ذكورة المرأة على هذا النحو ، في حين تضمر أنوثتها . كانت آن تقول لي :

– كان أبي زوبعة حقيقية ، وكان يغلي كالشمبانيا ، ويضحك من كل شيء . وكانت النساء جميعهن مغرمات به ، ويتحوّل من إحداهن إلى الأخرى . . . كان مغرياً إلى حد كبير ، وله سحر غريب . ولم يكن بوسع أي شخص أن يرفض له شيئاً .

وغني عن البيان أن آن كانت ، كغيرها من الأخريات ، تفرفر حول أبيها حتى تكون محط اعجابه .

– ووضعت نفسي في الصف ، شأني في ذلك شأن عشيقاته . كنت حبيبة قلبه . والحقيقة أني كنت فخورة بنجاحاته لدى النساء !

كانت تشعر أنها فخورة بنجاجات أبيها ، **شريطة أن تكون الأثيرة وأن تظل كذلك .**

قالت آن أيضاً :

لم يسبق لي أن ألقيت نظرة على رجل آخر . ولم يكن أحد يبدو لي أنه جدير بأن يصافح أبي . وكان رائعاً على زلاجتيه ، سيداً عظيماً في المطعم ، عارفاً في الفنون . . . وكنت أعدّه ملكاً،ولكنني أرى الآن جيداً أن ذلك كان بريقاً خدّاعاً فلم يكن له ضمير أو على الأقل كان يخفيه جيداً . . .

والبقية معروفة لدينا جيداً . إن آن ، وقد أرادت أن تكون أثيرة «حريم » أبيها الاله ، تدربت على الألعاب الرياضية ، وأصبحت فيها ذات قوة أولى . وقرأت مؤلفات في الفنون . وبحثت عن أن تقسر إعجاب أبيها .

ولكن والد آن توارى ، في يوم من الأيام ، مع إحدى صديقاته ، تاركاً زوجته وابنته . واستجابت آن استجابة عنيفة كما تفعل ذلك **عشيقة منبوذة** . لقد كانت منهارة بصورة مزدوجة :

١ – كانت ترى نفسها وقد حلّت محلها امرأة واحدة ، وكفّت عن أن تكون الأثيرة .

٢ – وكان أبوها قد فقد حظوته : فبدلاً من أن يكون له مئة إمرأة عند رجليه ، فانه هو ذاته الذي كان قد أصبح عاشقاً .

وكان على آن أن تتبنى (بصورة لاشعورية) سلوكاً كان سيجلب لها بعض السلام الداخلي ، الحقيقي أو المزيف . كان بامكانها :

– إما أن تقفز فوق هذه الأب الحبيب ، وتصبح ذات مظهر رجولي ، وتسحق الرجال لتنتقم لنفسها ، وتخضعهم الواحد بعد الآخر لكي تتركهم فيما بعد ، الخ ؛

– وإما أن تعود إلى أمها ، وتصبح « شريكتها » ضد الرجال . وذلك ما فعلته .

كانت آن تقول لي :

ألم نكن ، أمي وأنا ، امرأتين هجرهما رجل واحد ؟ وكان من الطبيعي أن نتحالف !

وفي يوم من الأيام ، أعلنت لي آن ، حوالي نهاية التحليل النفسي :

– هل تعلم ؟ إنني أنا التي كنت مغتاظة من الرجال إلى هذا الحد، تزوجت !

ثم قالت بابتسامة وبقية من ضغينة :

– الحقيقة أن أبي كان لا بد من أنه يعاني كونه رجلاً عديم الأهمية إلى هذا الحد . . . ليتني كنت قد استطعت فهمه في ذلك الوقت وفهم نفسي أنا ذاتي !

رابعاً : البوابة

تنطوي مئات الرسائل ، التي وجهتها إلي مراهقات ، على العديد من التشابهات . فيجد المرء فيها :

. . . ضروباً من الحصر :

– في أي سن تكون المراهقة قادرة على أن تحب ؟

. . . وضرباً من طعم الرماد :

– العلاقات الانسانية ، إنها قبيحة كالشرى .

. . . وأعماقاً :

– متى أستشعر « سر » الحياة !

. . . ورحلات لا نهاية لها :

– عمّ أبحث من خلال الرجال دون أن أجده أبداً ؟

. . . وضروباً من التقزز :

– بلغت العشرين ، وأتعاطى حبوب منع الحمل . لقد جعلتني أفكر بالمتقيئين الرومان . يخففون من الامتلاء ويبدأون مجدّداً . فلماذا

. . . ورغبة مترامية الأطراف :

– متى أكون مستعدة لتكوين ثنائي دائم ؟

تلك هي الموضوعات . فهل هذا انحطاط ؟ هل هو انهيار ؟ أم هو ثورة تهيء لولادة ؟ ما أعرفه هو أن جميع الحقائق ليست سوى حقائق فردية ، مع أنها تسبح ، على وجه الاحتمال ، في حقيقة جماعية.

وتفيض الكتب والمجلات في الحديث عن الطريق الإنسانية ، حديث مدعوم بالكثير من الحماسة ، ولكنهم يتكلمون قليلاً على الموجود الإنساني الذي يجب أن يسلك هذه الطريق .

وفي هذا الفصل ، حاولت أن أبيّن كيف يمكن للمراهقة أن تصبح امرأة متفتحة .

١ – دور الأم النوعي

الأم سطح واسع من الماء . والبنت اسفنجة . ولا بد من أن تبتّل هذه الاسفنجة بذلك الماء . وبعبارة أخرى : أنوثة البنت منوطة بأنوثة الأم على نحو أساسي .

ولكن كيف هي أنوثة الأم ؟ ناجحة هي أم فاشلة ؟ مقبولة أم مرفوضة ؟ قوية أم مصابة بالعطالة ؟ سطحية أم متألقة ؟ باهتة أم فاعلة ؟

ونضج الفتاة تابع :

– للطريقة الايجابية التي تستشعر بها هذه البنت أنوثة أمها .

– للأسلوب الذي تنفصل به البنت عن أمها ، وهي تبقى في الوقت نفسه صديقتها .

إننا نعتقد أن النجاح الكامل نادر جداً ، ذلك أن هذا النجاح يفترض أن تتمتع البنت والأم بالصحة السيكولوجية .

ويبدو غالباً أن العلاقات بين الأم والبنت علاقات سطحية . ولكن ثمة عداوات ، وطفالات ، وتماثلات ، وضروب من الرفض العنيف ، رفض « التشبه بالأم » ، راكدة في اللاشعور . وكل هذا مقنّع ، في العادة ، تحت مظاهر ضروب من اللطف .

ودور الأم أن تبيّن لابنتها ، بسلوكها وحده ، ماذا يجب أن يكون موقفها أمام الحياة . إنها الصورة القوية والفريدة ، صورة اللاشعور

العميق ، صورة « النفس » ، صورة الثقة . والأسلوب الذي تنظر به البنت إلى الوجود منوط بالطريقة التي تستشعر بها أمها .

وإذا كان صحيحاً أن تجديد كوكبنا منوط بتجديد الأنوثة ، وإذا كانت الأمهات ، من جهة أخرى ، يؤثرن إلى هذا الحد على لاشعور بناتهن ، فان على الأمهات إذن إنما يرتكز مستقبل المعمورة .

إن الأم ، لدى كل امرأة ، هي التي ، في الأعماق ، تحتل المكان الراجح دائماً (السلبي أو الايجابي) .

ووجه الأم البعيد ، في التحليل النفسي ، هو الذي ينبعث دائماً ، في نهاية المطاف ، سبباً لجميع الاضطرابات . أوليست الأم هي شخصية اللاشعور الأكثر اتصافاً بأنها خفية ؟ أوليست الأم هي نقطة انطلاق كل وجود ؟

٢ – دور الأب

ها هي ذي ، أول الأمر ، لوحة تبيّن الأدوار التقليدية ، أدوار الأم والأب إزاء المراهقة .

الأم	الأب
– تمنح حبها بصورة غير مشروطة . وهي بوسعها أن تسحب تقديرها مؤقتاً ، ولكن الحب العميق باق .	– « يهب » تقديره ، ويضع شروطاً : ينبغي على ابنته أن تنجح في المدرسة ، وتبدو ذكية ، وتبدو ناجعة ، ومنافسة. إنه يقضي معتمداً على المجردات : الواجب ، والشرف ، والأخلاق ، والعدالة .

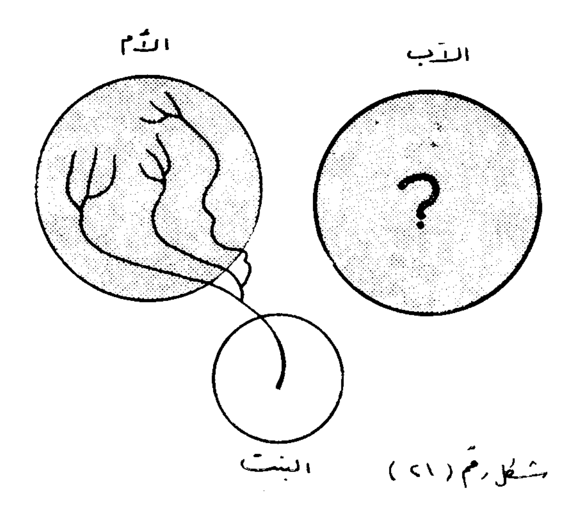
— إنها تمنح القليل من الاهتمام إلى المظهر الخارجي .	— إنه لاشخصي ، ومجرد ، ومشغول بعمله ، ومشغول بـ «أفكاره» ؛
— تعتمد على الماهية ، لا على «المظهر» .	— «يمنح» اهتمامه للبنيّة ، شريطة أن توافق ما ينتظره منها.
— إنها تحكم على ابنتها بطريقة شخصية ومشخصة .	
تؤثر الأم على . . .	**يؤثّر الأب على ...**
— أنوثة المراهقة .	— ذكورة المراهقة .
— ثقتها بالحياة العميقة .	— الثقة بامكاناتها في التنافس الاجتماعي .
	— الشخصية الاجتماعية واللاشخصية .
— الأنا العميقة والشخصية.	— المظهر ، والإبداع والذكاء المعبّر عنهما في الخارج .
— الوجود ، والابداعية والذكاء الداخليين .	— الميل إلى المغامرة والمخاطرة
— جذور النوع ، والصبر .	— الاصطناعي في الحياة .
— «النفس» ، والاستقبالية ، والمشاركة مع الغير ، وقوة الطبع العميقة .	— التأكيد الاجتماعي للذات.

ويرى المرء ، عندما يفحص عمود « الأب » ، أن **كل شيء فيه خارجي ، واجتماعي ، وقائم على النجوع ، والنجاح ، والمظهر .** وثمة قليل من الأشياء تتصف حقاً بأنها عميقة ، وداخلية ، وذلك للسبب البسيط الذي مفاده أن الرجال تعلّموا أن يكبتوا وجدانيتهم ، وأن يظهروا قبل كل شيء ناجعين .

٣ – دور الثنائي

هذا الوضع ، وضع الأب ، يُظهر صعوبة هائلة .

وتبيّن التخطيطية أن الأب ، بالنظر إلى أنه من نوع الذكور ، يبقى « غريباً » بالنسبة إلى الفتاة التي هي من نوع الإناث . **ويبقى الأب علامة استفهام ، في البدء على الأقل . من هو ؟** ما الرجل؟



شكل رقم (٢١)

والأب ، بالنسبة إلى بنيّة في سن ما قبل البلوغ ، ضرب من الممثل الصامت . إنه شخصية خارجية . يذهب ، ويأتي ، ويعود ، ويذهب

مجدّداً . إنه « من الخارج ، » كما لو أنه مفصول عن الثنائي أم — بنت. فكيف تستشعر بنيّة أباها الذي يتصف بأنه من نوع الذكور ؟ إنها **تراه** ، ولكنها **لا تدركه** .

ثم تكبر البنيّة ، ويبدو الطمث ، وتصبح الطفلة امرأة . ومن المؤكد أنها ستستشعر أباها بطريقة مختلفة كل الاختلاف . ولكن هل **تعرفه** ؟ وكيف يكون ممكناً بالنسبة إليها أن تتواصل مع أبيها ، وأن ترتوي منه ؟

يمكن للمرء أن يتساءل فيما إذا لم يكن الوضع من غير مخرج ، وإذا لم يكن مستحيلاً على فتاة أن تعرف أباها معرفة عميقة.وبالتالي فيما إذا كان ممكناً لامرأة أبداً أن تعرف رجلاً ، والعكس بالعكس ، وفيما إذا لم يكن الثنائي إذن ضرباً من الخديعة ، ووهماً من الأوهام .

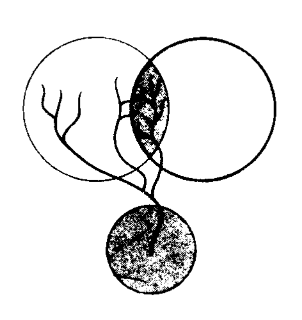
ومن المتعذر معرفة شعب من الشعوب ، من عرق آخر ، إذا لم يكن بالحياة معه خلال زمن طويل ، وبأن يصبح المرء شبيهاً به . والحال أن فتاة من الفتيات ليس لديها غير القليل من الزمن لتستشعر أباها . ستة أعوام أو عشرة ، زمن قصير ، في الحقيقة ، بالنظر إلى الفرق الذي يفصل بينهما . وبين البلوغ والزواج ، تمر السنون سريعة . ويبقى الأب سراً غامضاً .

وفي هذا المجال إنما تتدخل الأم . وبقدر ما يكون الثنائي حقيقياً ، بقدر ما تؤلف الأم مع الأب شخصاً واحداً . فهي سفيرة الأب ، كما لو أن كل شيء فيها كان يقول :

ها هو ذا العرق الغريب الذي أحبه : أبوك . إنني أعرفه جيداً . لقد

أصبحت جزءاً منه ، وأصبح جزءاً مني . وبامكانك معرفة أبيك من خلال الثنائي الذي أكوّنه معه .

إننا ، بالتأكيد ، بعيدون كل البعد عن الأمهات اللائي يوجّهن بناتهن ضد الأب . وتصبح التخطيطية كما يلي :



ويكفّ الأب عن أن يكون غريباً . **وتغرز البنت جذورها في الثنائي ، في المزيج الوجداني** لأبويها . ويمكنها منذئذ أن تدمج صفات الرجولة الداخلية لأبيها .

ولكن علينا أن نلاحظ أن الفتاة ، حتى في هذه الحالة المثالية ، لا تلتقط أباها بصورة مباشرة ، **بل من محطة أمها .**

وفي نهاية المطاف ، هذا يعني من الناحية العملية :

١ ـ أن أي فتاة لا يمكنها أن تحقق كلية وجدانيتها إذا كان أبواها لا يكوّنان ثنائياً موحداً من الناحية الوجدانية ، ملتحماً بعمق ، وإذا لم يكوّنا « شخصاً واحداً في اثنين » .

٢ ـ أن دور الأم دور فوق إنساني على وجه التقريب ، لأنه ذو شأن لا يُدرك مداه . فعليها ، أولاً ، أن تمنح ابنتها أنوثة قوية . وهي ،

ثانياً ، تقوم مقام الصاروخ الحامل ، فتضع ابنتها في مدار أبيها ، وفي الوقت اللازم . ويغذي الأب ابنته وجدانياً . ثم إنه ، لكي نكمل الصورة ذاتها ، يساعدها على أن تشعل محركاتها الخاصة وتترك المدار على نحو مستقل .

وهكذا نجحت المراهقة في امتحان عقدة أوديب بالحد الأقصى من النقاط ،وبوسعها الآن أن تدخل حياة الرشد . إنها امرأة فتية متوازنة ، فرحة بالحياة ، قادرة على الابداع ، داخلياً وخارجياً ، وقادرة ، بصورة خاصة ، على أن تكوّن ، بدورها ، « ثنائياً وجدانياً » مع رجل .

ولن يكون هذا الثنائي ، إياه ، بحاجة إلى أن نتمنى له حظاً سعيداً .



المرأة مدعوّة ، أكثر فأكثر ، إلى المساهمة في أعمال « الحاضرة » ، لا إلى المساهمة في أعمال « العالم » . فلماذا هذا التقييد وهذا التحديد ، اللذان لا علاقة لهما باعتقاد في عجزها ؟

السبب في ذلك أن الحاضرة « أسرة » مغلقة ، نعلم أن بالإمكان أن تديرها أم طيبة ، حريصة قبل كل شيء على الوجوه الإنسانية .

حيث يتصلّب الرجل أمام عَلَم ، دون أن يعرف من يمسك به ، تنظر المرأة إلى الموجود الإنساني ، مهملة علامة الشعار المجردة .

أعتقد أن النساء اللواتي حققن ذواتهن أقل غضباً أمام عبوديتيهن القديمة والحديثة منهن أمام عجزهن عن منع بعض الضروب من جنون الرجال الهدّامة . ويحس هؤلاء النساء ، إياهن ، إلى أي حد يتصف تدخلهن بأنه ملح وضروري في عالم تورّم من الرجولات الزائفة ، كيما يضعن فيه ، مجدّداً ، نظاماً وإنسانية تلاشيا .

المرأة متّحدية * ، في حين أن الرجل يتخندق ، وهو مصاب بالحصر ، في فردانية جافة ولا إنسانية .

قد تكون المرأة العادية سعيدة ، أما الرجل العادي فلن يكون سعيداً على الإطلاق .

(*) نسبة الى متحد : Communauté



الفصل الثاني عشر

من هي..؟

> **أشعر أنني أصبحت امرأة حقيقية، حفية ورحيما ، الى درجة أنني أستشعر اللامبالاة إزاء موتي لو حدث في أحضاني الخاصة.**
> **(امرأة صبية في أثناء التحليل النفسي) .**

لو طلب إلي أحدهم : « **عرّف المرأة ، وتكلّم عليها وأنت تحكم ترتيب الكلمات** » ، لأجبت :

– هل يمكن أن نشرح عالماً منحنياً بواسطة المستقيم ؟ أو أن نحتفظ بالماء في أيدينا كيما نعطيه شكلاً ؟ وهل يمكن الإحاطة باحساسات الحياة ، الاحساسات الواسعة التي تتصف المرأة بأنها المؤتمن عليها ، بفعل طبيعتها ذاتها ؟ ذلك أن من المتعذر أن نحصر المرأة في قوانين دقيقة ، مثلما أننا لا نعرّف الدائرة بالمربع . فالمرأة شبيهة بمحيط الدائرة الذي تحسبه بواسطة القطر : ثمة دائماً كسر عشري يفوتك، إلى ما لا نهاية .

وأقول أيضاً :

— المؤنث في المرأة لامتمايز ، ولا صورة له . إنه يُجمل ، ويحيط ، ويتكيّف . إنه صبر . إنه يلاحظ ، ويهتز ، ويلتقط ، ويصغي ، ويتلقى رسائل الأشياء . إنه وضوح ، ونفاذ بصيرة ، وفطانة .

وعلى الرغم من المظاهر ، ثمة امرأة أبدية ولا ريب. هذه الأبدية هي أبدية نوعها .**فمن هي إذن ؟ ماذا تستشعر ؟ وكيف تستشعر ؟** ما الفروق الكبيرة التي تختلف بها عن الرجل ، والتي لا يمكنها أن تمحوها أبداً ، على الرغم من أن بعضهم ينصحونها بأن تفعل ذلك ، مع المجازفة بقتلها ، في حين أن هذه الفروق تصنع قوتها ؟

والتخطيطية هي ذاتها دوماً . عندما تتفجر مناقشة بين الجنسين . فتقعقع الهرمونات المذكرة . ويغضب الرجال فجأة ، حتى دون بحث الموضوع . وينطلقون في الهجوم . ويرتادون المجهول ، متحمسين ودون أن ينتظروا ، مع احتمال أن يسقطوا على الدرب . وما هو موقف المرأة ؟ ليست بهذه الحيوانية وبهذه السذاجة : إنها تنتظر ، وتلاحظ ، وتصمت ، في حين يستمر الرجال . وفي نهاية القليل من الزمن ، تتعب الأفكار من الصراخ ، فتهذي ، وتتصدع .

وفي هذه اللحظة إنما تتدخّل المرأة . إنها ، حتى هذا الوقت ، كانت صامتة . وقد يمكن لبعضهم أن يعتقدها شاردة ، وغير معنيّة : لم يكن ثمة شيء من ذلك . ويرتفع صوتها : ضرب من « **نعم ، ولكن**. . . . » ، يحاول أن يضع بعضاً من الانسجام في صنوف هجوم الرجال ، المفاجىء وغير المنظّم . ويعتقد بعضهم أنها تذر السمكة تذهب إلى أن تضلّ في اليم . ثم تلقي بشباكها لتعيدها إلى الميناء .

وما أن يستقر النظام ، وتوضع الأفكار في مكانها ، حتى تستأنف اللعبة . وينطلق الرجال ، الذين لم يفهموا شيئاً ، أقوى ممن كانوا عليه من قبل .

كل « المرأة » موجود في هذا المثال . أيعتقدون أنها خجولة ؟ إنها ليست كذلك . إنها تصبر وتستشعر . أيقال عنها أحياناً مصابة بالعطالة؟ إنها تلبث دونما حركة ، تجمّع الاحساسات . هل تبدو حكيمة ؟ مشخّصة وعملية ؟ إنها لكذلك . وهي بحاجة إلى النظام في جميع الأمور : في الأفكار ، وفي الطبيعة ، وفي الناس ، وفي إدارة المنزل . وهي قادرة على أن تصبر طوال قرن ، دون أن تنبس بكلمة . ولكن لا شيء يفوتّها. إنها تستشعر ما هو صحيح وعادل . وتصمت وتبتسم أمام حذلقة الرجال . ذلك أنها فطانة دون أن تعلم .

وفي مناقشة من المناقشات التي يندفع فيها الصبيان ، ورؤوسهم منحنية وأصواتهم تشق عنان السماء ، تتدخل فتاة بعد زمن من الانتظار :

— **ما المرأة ؟** تقول . **أنتم تتكلمون على النساء ، ولكنني ، أنا ، أستشعر ما يتصف به « كون الانسان امرأة » . إنها لأسلوب في تصور الحياة ، وموقف إزاء الوجود .**

— اشرحي ! قال أحد الصبيان ، الذي كان يرغب في المعادلات .

— **لا أستطيع . فليس الأمر هنا** (وأشارت إلى رأسها) ، **بل هنا** (هل أشارت إلى قلبها أم إلى بطنها ؟) . **وعندما أقول« امرأة » ، أحس ببطني الذي ينقبض وينتفخ . وليس بوسعي أن أقول لماذا . فليست فكرة الطفل هي التي أستطيع أن أمتلكها . . . إنه لشيء آخر ، أوسع وأعظم . . . إنه عالم برمته . . . إنه لأمر داخلي .**

أولاً – المرأة والعاطفة الشخصية

١ – النساء لا يبالين بالمجردات

يبدو لنا ، إذا أصغينا إلى الرجال العاديين (١) ، أنهم يجعلون حياتهم تدور حول ما قدتسميه النساء « الكلمات العظيمة » : « الشرف » ، و « الواجب » ، و « العمل » ، و « الأخلاق » ، و « المنطق » ، و « العقل » ، الخ .

وبالاختصار ، يجعل الرجال العاديون حياتهم تدور حول سلسلة من المجردات . وهكذا ينظر العديد من الرجال إلى الوجود على أنه منصب في ضرب من القالب العام ، المفروض من الخارج . ثم يحاولون أن يمتثلوا له امتثالاً ليس بالجيد ولا بالسيء. بل إنهم يمتثلون في أغلب الأحيان امتثالاً أكثر سوءاً مما هو جيد ، ذلك أن المرء يمكن أن يكون على يقين بأن أي رجل يتكلم على الشرف والواجب ، فيقول « شرفي » و« واجبي » ، يحتفظ في رأسه بالعمومية المقنّنة .

ومع ذلك ، ليس لأي مجرّد قيمة إنسانية إلاّ إذا جعله كل فرد متلائماً مع أناه الشخصية . فمن المتعذر أن يحس شخصان بشيء واحد عندما يتكلمان على الشرف ، أو على أي موضوع آخر من النوع ذاته .

---

(١) أفهم من الرجال العاديين ، أولئك الذين يعتقدون أنهم يعيشون على العقل المنطقي وحده ، دون أن يخطر في بالهم أن ثمة حياة داخلية ، حياة هي ، من ناحية الكمون ، أوسع من كل المجردات . فالمقصود إذن رجال « مرضى » ، إذ أنهم انبتروا من جزء من ذواتهم ، من الجزء الأغنى . وبما أن هؤلاء الرجال عديدون جداً ، كان بامكاننا أن نقول عنهم إنهم « أسوياء » ، بمعنى أننا نجدهم في كل مكان على كوكبنا ، وأنهم يكونون العدد الأكبر .

ولن تستخدم أي امرأة على الإطلاق هذه التعبيرات العامة ، الجاهزة ، التي تتصف بأنها ، بالنسبة إليها ، فارغة من المعنى .

وتنظر المرأة مندهشة إلى الرجال الذين يستخدمون هذه الكلمات اللاشخصية ، والمثلّجة بالتالي .

والمرأة مشخصة . ويمكن موازنتها بنواة كرة هائلة . وبما أن المرأة انتظمت ، منذ مراهقتها ، حول بطنها ، فقد أصبح هذا البطن بالتدريج مركز شخصيتها الرمزي . أما الرجل ، إياه ، فانه يتوزع على الآلاف من نقاط محيط الدائرة ، ويغرب الواقع وحياته الداخلية عن باله ، دفعة واحدة .

ولهذا السبب ، فان الرجل العادي يعاني الحاجة إلى أن يتّخذ مكاناً قصيّاً من الأشياء ، وتلك حاجة مرضية على الغالب . **إنه لضرب من بعد البصر الوجداني** . فهو يلجأ إلى المجردات حين لم يعد يستشعر واقعه العميق .

والمرأة ، على العكس ، قريبة من الأشياء والواقع ، لأنها **هي** هذا الواقع . **إنه لضرب من حسور البصر الوجداني** .

ولهذا السبب كانت المرأة شخصية أكثر من الرجل بما لا يقاس . إنها تقول : عملي **أنا** ، بيتي **أنا** ، وواجبي **أنا** ، ومنطقي **أنا** ، في حين يقول رجل : « الوطن » . وهو عاجز ، على الغالب ، عن أن يوظّف في هذه الكلمة أي قيمة وجدانية . فيحاول عندئذ أن يحيطها بالعاطفية ، والطبول والأبواق . ولكن « الوطن » يبقى بالنسبة إليه فكرة .

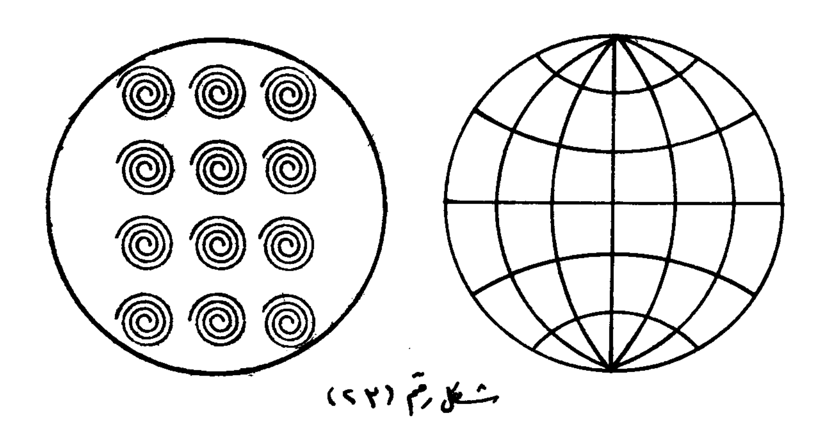
وستقول إحدى النساء : « وطني **أنا** » . والمقصود ، بالنسبة إليها . أسرة ينبغي المحافظة عليها . فاذا كان ثمة خطر ، ذلك يعني أن عليها أن تحشد كل أولئك الذين يؤلفون جزءاً من هذه الأسرة (كما تفعل مع أولادها) ، فتجمعهم في « حجرها » ، أي في بطنها من الناحية الرمزية .

إذا قال أحد الرجال : « لا بد لهم من أن يمروا على جثتي »، فانه يتصدى مجدداً إلى جماعة من الأعداء ، يستشعرهم **بصورة مجردة** ، في حين أن المرأة تقصد : « الغرباء في بيتي (وطني) لن يمدوا أيديهم على مواطني بلدي ، أي على أعضاء أسرتي . وإذا رغبتم في إيضاحات بالمثال ، فانكم تجدون منها في أفلام الحرب ، وفي الروايات عن الغرب الامريكي ، وفي الأفلام السينمائية القصيرة . والمرأة ، في هذا المجال ، أكثر أصالة بعمق ، وأكثر اتصافاً بأنها طبيعية ، وأكثر إخلاصاً بصورة مباشرة ، في حين أن الرجل يراهن على القوة المادية .

٢ ــ كيف المرأة ترى العالم ؟

كثير من النساء ينظرن إلى العالم الانساني ، بسبب هذه النزعة إلى إضفاء الصفة الشخصية على كل شيء ، على أنه تجمع من جماعات صغيرة إتنية أو ثقافية ، كالأسر المنطوية على ذاتها ، التي قلّما تعاشر جيرانها . فليس لديهن نظرة إجمالية عن المعمورة ، في حين أن الرجل يكتفي بنظرة عامة ويهمل الخاص . وتؤثر المرأة ، معتمدة على عواطفها الشخصية بمغالاة ، أن تساعد « أولئك الذين تحبهم » ، مع احتمال أن تجهل « أولئك الذين لا تحبهم » .

فاذا نظرنا إلى الرجل والمرأة من هذه الزاوية ، فان الرجل والمرأة «السياسيين » يظهران كما يلي :



شكل رقم (٢٢)

الرجل يرى العالم ، على الغالب ، جملة وببرود ، ودون أن تتدخل عواطفه الشخصية . وتلك هي « السياسة » المجردة واللاشخصية .

المرأة ترى العالم ،على الغالب ، على أنه مجموعة من الأسر ،هي صديقتها أو على خلاف معها ، تحبها أو لا تحبها . إنها « سياسة » العاطفة الشخصية .

ولا يعني هذا أن المرأة لا تبالي بأمور العالم ، بل إنها لا « تتعاطى » الأحاديث العظيمة التي يسقطها الرجل في أغلب الأحيان على المستقبل .

كانت إحدى النساء قد قالت لي :

— إنه لمخيف أن يرى المرء أن عدداً قليلاً من رؤساء الدول شخصيون . إنهم يتوحّدون بنظريات أو ببلدانهم . . .

وقالت أخرى :

ـ رجال السياسة يقومون بحركات ، ويطلقون كلمات رنّانة، ولا يتميّزون من أمورهم أو من نجاحهم . ولكن ، أين يوجدون ، هم، في هذه الأقوال؟ نحن ،معشر النساء ، نبحث دائماً عن الماهية خلف المظاهر.

هنا إنما نجد الهوة الكبيرة التي تفصل بين الجنسين . فالرجل يتوحّد بما **يصنع** ، لا بما **هو عليه** ، والمرأة تقتضي أن يكون الرجل ما هو عليه .

عندما يصرّح أحد الرجال في السياسة :

ـ إنني أنا النظرية . . . أنا المشروع . . . أنا المثال . . .

. . . . تجيب المرأة :

ـ نحن الانسانية .

وذلك يعني أمرين : الأول أن الرجل ، على الرغم من أنه يريد أن يكون فردياً ، يمتزج بما يفعل ، ويفصل بصعوبة بين عمله وبين شخصه . ولهذا السبب ، ترغب المرأة في أن تعرف « **حياة رجال الدولة الخاصة**» ، وهي شغوفة أن تكتشف فيها ، لا الفضائح كما يعتقد بعضهم ، بل وجه هؤلاء الرجال الانساني والشخصي . ذلك أن الفضيحة ، الواقعية أو المختلقة ، إنما هي أيضاً الوجه الانساني لشخص ما كان يبدو أنه ذو وجه إنساني .

والأمر الثاني أن المرأة **جماعية، وشيوعية**، ولكن بمعنى أنها تتمنى لو تحوّل العالم برمته إلى أسرة . والمرأة **محافظة** : إنها « يمينية » بعمق ، لأنها حافظت على جذورها . وهي بحاجة إلى التقاليد لأنها حضرية ،

مرتبطة ببيت **ها** ، ببلد **ها** ، برئيس **ها** ، بملك **ها** ، بخوري **ها** .
والمرأة ، بوصفها ملتحمة بالحياة ، أُضفيت عليها القداسة . والتقاليد ، في نظرها ، طقسي يديم الجو الأسري .

وجذر هذه المواقف موجود في الطفولة .

فالصبي نزّاع ، بطبيعته ذاتها ، إلى أن يهجر أسرته ، وأن يهرب منها ، لا بفعل الميل إلى الاكتشاف (اكتشاف الحياة) فحسب ، بل لأن هذه الأسرة تذكّره بعدمه الأصيل كذلك .

أما البنت ، فانها نزّاعة ، ولو أنها مولعة بالحرية ، أن تبقى في الجو الأسري ، أو أن تعود إليه : مكان مغلق ودافىء ، أُضفيت عليه الداخلية . فالمرأة ، على هذا النحو ، تنتمي إلى الجماعة .

كانت مدام أنديرا غاندي تقول :

ألا يتصف تنظيم بلد من البلدان بأنه ، على مستوى أوسع ، ما هي عليه ، على مستوى صميمي ، مهمة سيدة بيت ممتازة ؟ فما أن أدخل مكتبي حتى أرى بنظرة واحدة ما يتسم بأنه على غير ما يرام . . .

ولا تبدي المرأة أي حماسة لأن تحترف السياسة ، لأنها تتصف بأنها سياسية ، أي حذرة ، أمومية ، تدير كل الأمور بوصفها أم أسرة .

والمرأة ، موجود من موجودات الحاضرة ، لا موجود كوكب لاشخصي . إنها ، إذا كانت عمدة مدينة أو قرية ، تنظمها بوصفها أم أسرة . و « الجمهورية » ، و « المملكة » ، لا قيمة لها ، بالنسبة إليها ، إلا من خلال إنسانية النساء والرجال الذين يديرونها ، ومن خلال أخوتهم .

هل سيكون دور المرأة السياسي ، يوماً من الأيام ، أن تجعل الوجوه

الإنسانية تسكن مجدّداً هذه الجمعيات التي تسودها « أفكار » المنظّرين الحديثين ، أفكارهم المثلّجة ؟

٣ — المرأة والعدالة :

والأمر ذاته فيما يتعلق بـ « العدالة » . فليس بعيداً على الرجل أن يتوحّد بالقانون.إنه يطلب رأس مجرم من المجرمين باسم « العدالة ». ولن تقول ذلك امرأة أبداً . ولن تفكر فيه .

والمرأة ، أولاً ، تضع كل شيء بالجمع : « القضاة » ، و«القوانين» ، و « اللوائح » ، ولا تفعل كما يفعل الرجل : « القانون » ، و « اللائحة » . إنها ، هنا أيضاً ، بحاجة — حاجة أساسية — إلى أن تضفي الصفة الإنسانية على المجردات .

وبوسع أحد الرجال أن يدافع ، مخلصاً ، دون أن يدرس «موكّله» ، في حين أن إحدى النساء السويات تكون عاجزة عن تطبيق عدالة ما دون أن تعرف الوجه الإنساني لمن هو موضوع موضع الاتّهام ، لأنها ترفض اللاشخصية في الكلمات والأفكار .

ولهذا السبب كانت المرأة **المدعية العامة** ضرباً من العبث . فالمرأة السوية لا تستطيع القيام بهذه الوظيفة . إنها وظيفة ستكون ضد طبيعتها . وستكون هذه المرأة عاجزة عن اتهام أي كان باسم هذا المجرد : « القانون » . ولا يمكنها الغش في هذا المجال ، إذ أنها بحاجة إلى تطبيق حقيقتها الشخصية قبل أن تنتقل إلى العموميات .

وأعتقد أن المرأة تدافع ، في هذا المجال أيضاً ، باسم**النظام الأسري في الحاضرة**.وليس بوسعها أن تتصور **الجريمة** ، بل تتصور **هذا المجرم أو ذاك** . وهي تريد أن تفحص الظروف الإنسانية التي قادته إلىالجرم.

إنه ، بالنسبة إليها ، موجود « ضد المجتمع » ، أي موجود يسبّب الاضطراب في الحجيرة الأسرية أو يفسدها ، في حين أن الرجل يقول : «اللائحة هي اللائحة» . أو يقول على نحو أكثر نبلاً ، إذا شئتم : القانون قاس ، ولكنه القانون .

٤ – المرأة والعمل

كانت إحدى النساء قد قالت لي :

– إنني مندهشة من أن أرى صديقات لي حزن على الشهادات ، ولديهن إمكانية العمل الحر ، الموجب للاهتمام ، ينكفئن في بيوتهن بعد زمن معيّن من الاهتمامات الخارجية . فهل وقعن في شرك الزي القديم ، زي المرأة في المنزل ؟ .

ويبدو لي أن السؤال لا يكمن هنا . فاذا أحست امرأة أن عملها عمل غير شخصي ، ومجرد ، فرّت في أول مناسبة تسنح لها . وحتى المرأة التي تجاوزت نزعتها الغريزية ، فلا تخرج « من ذاتها » ، ولا « من بيتها » ، بحاجة إلى أن تضفي الصفة الشخصية على حياتها . وإذا كان العمل المطلوب منها عملاً غير شخصي ، سوّلت لها نفسها أن تدور نصف دورة وهي تفكر بـ : « بيتي الخاص بي » ، و « أسرتي الخاصة بي » . إنها ترغب في أن تجد ثانية عالمها الدائري ، والمنحني ، والمغلق كبطن دافىء .

و « العمل » في ذاته لا يعنيها . ولكنها تتمسك بعملها إذا كان بوسعها ، على وجه الخصوص ، أن تعمل مع أناس تحبهم . وهي بحاجة إلى أن تضفي الصفة الشخصية على عملها . إن الرجل يفكّر : «إنني »

وزير ، « إنني » مدير هذا المشروع أو موظف فيه . ولن يفكر : « إنني أنا ، قبل كل شيء ، الذي ، فيما بعد ، يقوم بعمل وزاري ، أو إداري ، أو عمل موظف » . ولكنه يصبح العمل الذي ينجزه ، ويتوحّد بعمله .

والمرأة ، على العكس ، **تفصل بين شخصها وبين شغلها**. وهي بحاجة إلى أن تعمل مع أناس تحبهم ، لأن هذا الشغل يتحوّل ، على هذا النحو ، إلى جمعية أسرية . ويصبح المشروع « بيتها » ، والمكتب غرفة الجلوس لديها ، بل « بهوها » . إنها ترغب في مهنة يكون بوسعها أن توظّف شخصيتها فيها : مهنة حرة على سبيل المثال ، فتصنع منها ولايتها وترسخ فيها . ولكن **عدم استقرارها** كبير إذا كان عليها أن تعمل لشركة مغفلة حيث تشغل وظيفة مغفلة مثلها ، أيا كان شأن هذه الوظيفة. وعندئذ إنما نراها تعود « إلى بيتها » ، حتى ولو كان المستقبل يبشر بالخير العميم . وهي ، على العكس ، تتجذّر في شركة تبقى « أسرية » ، حيث يعرف الناس بعضهم بعضاً ، وحيث لا تزال التبادلات الانسانية مستمرة . وليس من النادر أن تعدّ موظفيها « أبناء » إذا كانت مديرة، أو رئيسها « أباً » إذا كانت مرؤوسة . وهي ستخلص دائماً بطريقة فريدة .

ثانياً — المرأة والزمن

١ — هاجس المباشر .

يتشتت الرجل ، على الغالب ، نحو مستقبل مجرد يريد أن يغزوه ، في حين أن المرأة تجمع طاقاتها في سبيل ما هو مفيد بصورة مباشرة . ويمكننا أن نتخيل حواراً — حوار الطرشان على الغالب — بين الجنسين .

الرجل

– علينا أن نتوقّع المستقبل ، ولو أنه لايزال حلماً . وأياً كان الثمن ، سنحقق فكرتنا في يوم بعيد من الأيام . وعلينا أن نمضي دائماً إلى ما هو أبعد ، وأعلى .

المرأة :

– إنكم تعدّون لمستقبل فرضي ، في حين أن كثيراً من الناس يتعفّنون حالياً في الفوضى ، والتعاسة ، والحرب ، والجوع .

الرجل :

– الغد هو وحده المهم . والتوظيفات إلى أجل ، تلك التّي تتصف بالمجازفة ، هي وحدها التي تعنينا . نحن نفكر بالانسانية ، ولكن الوجوه التي تتصف بأن سمتها الوحيدة أنها إنسانية تبقى في الظل .

المرأة :

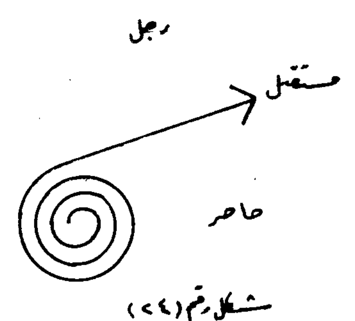
– الآن إنما هو المهم . ينبغي ، أول الأمر ، تنظيم البيت الانساني . ربما كان القمر لا يزال نظيفاً ، ولكن الأرض ليست كذلك. وأسرة الموجودات الانسانية في فوضى ، وفي عدم انسجام . وعليه ، فان المشخص المباشر هو المهم أولاً . والمعمورة ، بالنسبة إلينا ، أسرة تتألف من وجوه واقعية . وهي ، بالنسبة إليكم ، ليست غير فكرة. وليس لكلمتي «بلدان » و « قارات » أي صدى وجداني لديكم . والأعلام والاناشيد الوطنية ، بالنسبة إليكم ، علاقات عارية من الدلالة الانسانية العميقة . والبلدان ، بالنسبة إلينا ، أسر عليها أن تجتمع في يوم من الأيام لكي

لا تشكل سوى أسرة واحدة . وعندما يتم ذلك ، وعندما يسود النظام في البيت الانساني ، عندئذ نستطيع أن ننطلق نحو المستقبل . فالمستقبل سيكون محصلة اليوم ، متينا ، ومشخصاً ، ومفيداً ، بدلاً من أن يكون مجرد فكرة .

هل ينبغي أن نقول إن النساء قلّما يفهمون هذه المسيرة القلقة ، مسيرة الرجال ، كما أن هؤلاء الرجال لا يحسون إحساساً عميقاً برفيقاتهن الأرضيات ؟

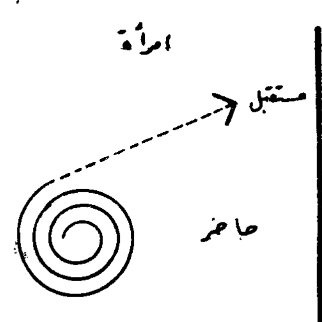
والمرأة ، بفعل بنيتها ذاتها ، تعيش في الحاضر ، وتستشعر الحاضر كما لا يستطيع أي رجل في العالم أن يفعله .

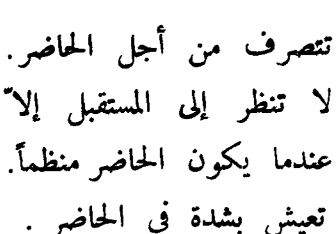
ويهتاج الذكر ، تحرّكه الهرمونات بالتأكيد ، ولكن يحرّكه الخوف من الحياة ومن الموت أيضاً . فهو ، في كل لحظة ، يحسب ، ويتنبأ ، وينظّر ، ويتبصّر ، ويتصرف بالمستقبل قبل أن يمتلكه . ويقيم سقالات من الخطط ، ويركّب بين الأفكار . إنه يقضي حياته بالتفكير : « غداً ، سوف . . . خلال عشر سنوات سوف . . . في أثناء تقاعدي سوف ... » ويحاول أن يهدّىء خوفه من الفراغ ، فيمضي من مشروع إلى مشروع . **إن الرجل نفاذ صبر سائر ، ولا يعيش حاضره أبداً** . فالزمن يخيفه . وعندئذ يقتل الزمن ، وينسى الحاضر . وهو ، لهذا السبب ، يبدو إلى هذا الحد من عدم الاستقرار ، والضعف ، وإلى هذا الحد من الأرب والعبقرية معاً .



شكل رقم (٤٢)

لا يتصرف من أجل الحاضر.
يُسقط أفكاره على المستقبل.
يريد الانفلات من الحاضر.





تتصرف من أجل الحاضر.
لا تنظر إلى المستقبل إلاّ
عندما يكون الحاضر منظماً.
تعيش بشدة في الحاضر .

غير أن المرأة تعلم ، بجسمها ، فحوى كل آن يمر . وبجسمها ، تعرف الاستطاعة التي لا ترحم ، استطاعة الزمن الذي يصنع الأطفال ، والموجودات ، والعالم ، ويهلكهم . لقد عوّدها جسمها وبطنها على أن تقول لنفسها : « ينبغي فعل ذلك الآن ، وحالاً ، إذن أفعله . . . »

وفي هذا إنما تكمن قوة طبعها . ولهذا السبب أيضاً ، تتصف المرأة بأنها سيّالة وقادرة على التكيّف كالماء . وهي تتقن مواجهة الألم بقدر ما تتقن مواجهة السعادة ، ثم تنتصب كالمركب الشراعي بعد وقوعه في تجويف موجة من الأمواج . **إنها تخشى الموت والحياة أقل مما يخشاهما الرجل بما لا يقاس** . وهي ، بوصفها قائمة في الديمومة بصورة مرنة ، تستشعر الأشياء والأحداث بوجدانيتها كلها ، وتتكيف حيث يرتعش الرجل . ذلك أن بوسعنا ، ربما ، أن نقول عن موجود إنه طري كبنيّة ، ولكن ليس بوسعنا ، بالتأكيد ، أن نقول كامرأة .

٢ — الإيقاع الداخلي

آ — زمن تنظّم الظاهرات الداخلية ايقاعه .

يصبح « البطن » ، أو بالحرى « بطنها » ، مع الطمث ، مركز اهتمام المراهقة . ويمكن القول (إذا تجرأت على المجازفة بهذه الصورة) إن بطنها ، بطن الفتاة ، يصبح ، « المكان الأسمى » لردود فعلها العميقة .

والانعكاسات السيكولوجية لهذه الظاهرة هي الّتي تعنينا وحدها . **فالطمث تغير في الايقاع السيكولوجي ، ومفرق طرق في أسلوب تصور الأشياء والحياة .**

كانت الفتاة حتّى هذه المرحلة ، مرحلة البلوغ ، تعيش في زمن ينظم إيقاعه ظاهرات خارجية : ساعات النهار والليل ، والوجبات ، ومواقيت الدروس ، والأعياد التقليدية . وما كان عليها أن تأخذ بالحسبان غير ظروف تقع **خارجها** .

وظهور الظاهرة المبتذلة ، ظاهرة العادة الشهرية ، يقلب كل شخصيتها ، سواء علمت أم لم تعلم ، وأرادت أم لم ترد . فثمة **طريقة جديدة في « تقطيع » الزمن** ، مفروضة على الفتاة . وثمة شاخصات تم وضعها : تواريخ عاداتها الشهرية . فلم يعد الخارج وحده هو الذي تتلقى منه الأوامر ، بل من **داخلها هي** . وينقسم زمنها إلى « أدوار » (وهذه ، من جهة أخرى ، هي الكلمة الدارجة) .

ويتّخذ الزمن بعداً آخر بالنسبة إلى الفتاة . ذلك أنها ها هي ذي

ملزمة بأن تأخذ بالحسبان ، مرة في كل شهر ،ما يجري **في داخلها.** وهكذا يتحوّل الجزء الأكبر من الطاقة التي تجمّعها ، **من الخارج** (ومن إضفاء الخارجية على ذاتها) **صوب الداخل** (وصوب إضفاء الداخلية على ذاتها) .

وتبدأ البنيّة ، التي كانت سيكولوجيتها شبيهة على وجه التقريب بسيكولوجية الصبي الصغير ، منعطفاً واسعاً . والأمومة الكامنة ، والمبثوثة ، والمشعشعة ، والمتوقعة ،تشكّل عندئذ ، وإلى الأبد ، جزءاً من بنياتها. ويغزو مفهوم الزمن ، الذي كان حتى تلك الفترة مفهوماً نظرياً ، جميع مجالات وجودها ، اليومية منها والميتافيزيائية على حد سواء .

وبينما يتصف الرجل بأنه مجرد مشاهد للزمن ، تعرف المرأة بجسدها ، أن تسعة شهور ضرورية لإنجاب طفل . إن هذه الشهور التسعة ، بالنسبة إليها ، شهور مشخصة ، تمضي بالأيام ، يوماً فيوماً . ويقال إن « لها » طفلاً ، أو بوسعها أن يكون « لها » طفل . ويقول الناس البسطاء : إنما « تصنع » طفلاً . وهؤلاء الناس البسطاء يحسون إحساساً صحيحاً . ذلك أن كل شيء إنما يحدث **فيها** .

وتعلم المرأة إلى أي حد تتصف ، بفعل بطنها ، أنها تابعة للزمن ، وأن هذا الزمن ضروري ، وينبغي أنلا تحاول مقاومته . فتسعة أشهر هي تسعة أشهر ، ولا حيلة للمرء في تغييرها .

ويعلم الرجل ، هو أيضاً ، أن الطبيعة تصنع الأشياء وهي تستهلك الزمن الضروري . ولكنه لا يفعل سوى أن يلاحظ ذلك ، دون أن يعيشه في ذاته . وبوسعه أن يتفرغ لمشاغله ، ويسافر ، كما لو أن الزمن غير

موجود (١) . فلا حياة ، ولا مادة ، في بطنه ، تذكّره بالزمن .

أما المرأة ، على العكس ، فكأنها ملتحمة بالزمن . وجسمها تذكير دائم به . وهي ملزمة أن تضع نفسها في موقف الاصغاء للحياة ، لحياتها هي ، في الواقع ، إذ أن كل شيء يحدث فيها . ولكنها ، من خلال هذا الطفل الواقعي أو الممكن ، إنما تصغي إلى العالم .

والحقيقة أن المرأة هي في حالة الاصغاء إلى العالم ، دون أن تعلم أو تريد ذلك . ولكن العمل الحديث ، في أيامنا هذه ، والنجوع والعبث الحديثين ، تقرض هذا الهوائي تدريجياً ، وتشوش هذا الرادار . وقل لي بربك ، لأي شيء بعدُ يمكن استخدام رادار مشوّش ؟

ب – الصبر

المرأة هي الزمن إذن .

والصبر ، شقيق الزمن ، يصبح مألوفاً بالنسبة إليها .

قال لي بعض النساء :

– الصبر ؟ إنه لدينا من الكثرة بحيث يمكننا التعسف في استعماله دون أن يكون ذلك مطعناً كبيراً لنا .

---

(١) لسنا ، بالطبع ، نقصد بذلك هنا الزمن « الاجتماعي » الذي تنظم إيقاعه مواقيت الرجال الحديثين ، الصلفة النكدة ، بل نقصد الزمن الذاتي ، المأخوذ بأحد معانيه الفلسفية . ولكي نختار صورة ، نقول : هذا الزمن شبيه ببساط يندرج يجر معه الأحداث ، في حين أن مراقبا ، ثابتاً في مواجهة الحاضر ، يراه ينزلق من المستقبل نحو الحاضر ، ومن الحاضر صوب الماضي . وهذا الزمن الذاتي يمثل بعداً أساسياً للمرأة .

– الصبر هو لانهايتنا

– حملي عدة مرات علـّمني الصبر .

– قرون من الصبر مضت علينا ، مع ذلك !

– الصبر والزمن شيء واحد .

– نحن نملك جميع ضروب الصبر : ضروب صبر الحب وصبر الكره .

– ليس لصبر المرأة الحقيقية كفؤ إلا سعة نفسها .

– كانت والدتي مسحوقة طوال حياتها ، ونفذ صبرها حتى الرمق.

– صبر المرأة ، صبري ، أحس بهما وكأنهما مياه عميقة ، وفهم كلي . ذلك إنما هو صبر أم تعيد تنظيم الأشياء التي فيها زرع صبياتها الفوضى . . .

فاذا قرأتم هذه الأقوال ، رأيتم فيها أن صبر المرأة قوة ، ولكن ينبغي عدم اساءة استعمال هذه القدرة : ذلك أن للمواد الأمتن نقطة تصدع . بيد أن بوسع صبر المرأة أن يجدّد العالم ، لأنه مرتبط بالزمن .

وصحيح أن صبر امرأة يمكن أن يكون لانهائياً في الحب ، والأمل ، والرعاية التي تمنحها ، والغفران الذي تنعم به ، والأعمال التي تباشرها. ولكنه لانهائي أيضاً في الحقد الذي تعاقب به ، في بعض الأحيان ، شخصاً من الأشخاص . غير أن المرأة ، إذا كانت هي الزمن والصبر ، هي الانتظار أيضاً . . .

ج ـ الانتظار

قال لي بعض النساء :

ـ كل امرأة زوجة بحّار . فهي تنتظر العودة .

ـ تتيح لي امكانياتي في الانتظار أن أصغي إلى الموجودات والحياة.

ـ نستطيع أن ننتظر من نحب زمناً طويلاً .

ـ تنام النساء نوم الانتظار إلى أن يصل .

ـ الانتظار ، نعم . أما الركود ، فلا .

ـ كل انتظار لزوجي يجمّع السعادة في نفسي .

ـ الرجال في حالة يرثى لها . إنهم لا يعرفون الانتظار.

ـ الانتظار ؟ ثقل ، وليل ، ويقظة ، وسعادة .

ـ الانتظار معناه التبعية .

ـ ومن لا ينتظر ؟

ـ ولماذا الصراخ إلى هذا الحد من القوة ؟ كل امرأة تنتظر دائماً أن تكون ملفت النظر ، وموضع الاختيار ، وموضوع الحب .

ـ امرأة تنتظر وحيدة ، بحيرة ميتة في الجبل .

ـ الانتظار . . . خارج الزمن . . . هدوء . . . أن يمتلىء المرء بكل دقيقة .

والانتظار خاصة من خصائص كل ماهو أنثوي في الطبيعة . إنه

لأمر مؤسف أن يكون طويلاً جداً بيان ذلك ، ونحن نتكلم عن وحيدات الخلية ، لكي نصل إلى الحيوانات ، بعد انعطاف في النباتات . فالبويضة ، في النظام الإنساني ، تنتظر أن ينفذ إليها المنيّ . والأرض ، رمز نسائي ، ألا تنتظر الحرث بالمحراث ، رمز عضو الذكر ؟ أوليس التلم ، رمز الأنوثة أو البويضة ، في انتظار البذار ؟

وهكذا « تتخصّص » بعض الحجيرات ، في سبيل أن تقدمّ مدّخراً من الغذاء لنبتة المستقبل . فهي أيضاً تنتظر . ولكن علينا أن نفهم جيداً أننا بصدد انتظار يجمّع الطاقة والمعلومات .

ويلحق هذا الانتظار ، إياه ، باتجاه السلبية . إنه يهيء إضفاء الخارجية على الذات . إنه انتظار البطل الرياضي قبل الانطلاق . إنه الأنوثة ، أنوثة لا صلة لها بالعطالة التي لا يميزها بعضهم منها في أغلب الأحيان .

ثالثاً : المرأة وحاجتها إلى النظام

١ ــ حرب الجوارب

ــ « إنه » يترك جواربه ملقاة في كل مكان ! فهل يحسبني خادمة ، عليها أن تفعل كل شيء ؟

ولكن كلا ، كلا . فهؤلاء النساء ، إياهن ، يندفعون إلى الحرب ، ولكن العدو غير موجود حيث يعتقدن انه موجود . ولندع ، بالطبع ، قليلي التهذيب . ذلك أن ثمة آخرين ، على الرغم من حبهم لزوجاتهم واحترامهم لهن ، ينثرون ، مع ذلك ، جواربهم في زوايا البيت الأربع ، زوايا بيتي « أنا » تقول المرأة .

هذه الحرب ، إياها ، حرب عريقة في القدم ، ومحتومة ، وأبدية .
فهل باليد حيلة ؟

فاذا كان أحد الرجال نزّاع ، بطبيعته ، نحو المستقبل ، نسي الآن . وهذا أمر منطقي . وإذا فكّر في المستقبل – سواء كان المستقبل مصنوعاً من أمور ثانوية أو من أفكار ينبغي تحقيقها – نسي أن يرتّب جواربه . وهو أمر منطقي أيضاً . إنه شبيه ، شبهاً كبيراً أو صغيراً ، بغزاة الفضاء الذين ينسون تناول فطورهم ، وينسون حتى حياتهم .

والرجل مشتت وفوضوي . ولكن المرأة هي النظام . وترعبها الفوضى والأشياء التي يتأخر إنجازها . ولهذا السبب ، لا تميز عمل الرجل من ما هيته . ولا ترى غير الجوارب التي تستخف بها جهاراً .

وعندئذ إنما تصيح المرأة ، واتصافها بعاطفة الأمومة لا يزال باقياً مع ذلك : « هؤلاء هم الرجال حقاً ! »

النظام ؟ هذا أمر حسن . ولكن هوس النظام يترصدها .

وعندئذ ترتّب بيتها ، دون انقطاع ، طيلة ثماني ساعات . فترتّب خزائنها ، ودروجها ، وحساباتها ، ونقودها ، وحاجتها الخاصة بها وحاجاتها الخاصة به . وترتب العالم إلى خانات لو كانت السلطة ممنوحة لها . ويصبح العالم مجموعة من النخاريب ، منظماً كل التنظيم ، ولكنه من غير مستقبل . ولا بلبلة كذلك .

ومع الرجل ، إنه السفح الآخر . فهو يزرع الفوضى في كل شيء إلى حد يسبّب فناء الماء ، والأرض ، والمعمورة .

وتصبح الحياة لدى المرأة ، التي تندثر شخصيتها تحت حاجة إلى النظام مغالية في الالحاح ، ضرباً من التكفير عن الذنوب . وحياة الرجل كذلك ، الرجل الذي يهمل أدواته ، ويحمل بقعة على سترته ، وينهض عن المائدة دون أن يفكّر بترتيب الأطباق . ويرى امرأته تلاحقه عند كل منعطف من منعطفات الرواق .

ولكنه يستمر مع ذلك في ترك جواربه ملقاة في كل مكان .

وهكذا اعتمد عدد من المتحزبات لحقوق المرأة على الجوارب ، وعلى وقائع من هذا النمط ، ليباشروا حرباً ، حرب المئة عام ، دون أن يفهموا أن المرأة متجهة نحو الحاضر ، والرجل نزّاع إلى المستقبل .

٢ – تبديل المنزل والحالة الاكتئابية

هذا الولع بالنظام يشرح من جهة أخرى لماذا كانت **الحالات الاكتئابية** لدى المرأة أقل تواتراً ، بصورة عامة ، منها لدى الرجل . فالمرأة هي تلك التي تعيش في علاقة مشخصة ، مستقرة و « سحرية » بالأشياء . إنها تلك التي « تلقي برقيتها » على الأشياء ، تلك الأشياء التي تصبح عماد استقرارها وسندها .

فأن « تقع في الاكتئاب » امرأة **بعد تبديل المنزل** ، أمر كثير الحدوث مع ذلك . إنها تدّعي التعب ، وهذا صحيح في بعض الحالات . ولكن هذا الاكتئاب العارض يحدث لأنها تائهة . وأعني بذلك أنها لا تفلح في أن تجد وجهتها في المشخص من حياتها . **ذلك أن تبديل المنزل قطيعة مع نظام مغال في التشخيص**. والعالم ، بالنسبة لهؤلاء النساء ، **عالمهن** ، إنما هو النافذة إلى اليمين ، والكوب إلى الشمال ، والملعقة في جزء معيّن ،

من درج معيّن ، من صوان السفرة. فأن تتدخل حالة اكتئابية،أمر يمكن فهمه عندئذ . لأنه كان عليهن أن يخرجن من عالم شديد الانغلاق ، مغال في التنظيم حول البيت ، **بيتهن** ، وحول انطوائيتهن واستقرارهن المغاليين .

٣ – هل المرأة حيادية من الناحية الأخلاقية أم لاأخلاقية ؟

من المتوقع أن تدافع المرأة ، دفاعاً غريزياً ، عن الأخلاق ، لأن الأخلاق تحدّد هدفاً لنفسها هو أن تضع النظام في السلوك الإنساني .

ولكن ، هل **فرويد** هو الذي كتب يقول يوماً :

– . . . يتردد المرء في أن يقول ذلك بصوت عال ، ولكن نفسه تسوّل له أن يستخلص أن الأخلاقية ، بالمعنى الذي نتصوره ، لا تجد إلى نفس النساء سبيلا ؟

كثير من النساء ثرن أمام هذه الأقوال ، لأنهن فهمن فهماً خاطئاً ما كان يقصده فرويد . كما أنهن كن قد احتقرن أنفسهن عندما كان فرويد يؤكد « سلبية » المرأة .

وكانت المعادلة تبدو واضحة : امرأة لا تجد الأخلاقية إلى نفسها سبيلا (أخلاقية الرجال) كانت تعني امرأة مستهترة لاأخلاقية . ولكن المعادلة كانت تعرج . وفي هذا المجال أيضاً ، نكتشف الحاجة إلى التجريد لدى الرجل ، ونزعة المرأة إلى إضفاء الصفة الشخصية على كل شيء.

يقول الرجال : « الأخلاق ! » . فجعلوا منها ، والرؤوس مطأطئة ، تجريداً جديداً يحاولون ، فيما بعد ، أن يمتثلوا له ، في حين أن عبارة «أخلاقي الخاصة بي » ، ليست عبارة رجل ، بل عبارة امرأة .

فلنحدّد بعض المصطلحات ، دون أن ندخل في متاهات الفلسفة

التي لن تأتينا بشيء . ولنلاحظ ، أول الأمر ، أن ثمة بوناً شاسعاً بين شخص حيادي من الناحية الأخلاقية ، وبين شخص لاأخلاقي .

والموجود « الحيادي من الناحية الأخلاقية » يعني :

– أنه موجود لا يبالي ، **من الناحية الوجدانية**، بالقوانين الأخلاقية .

– أنه لا يأخذ القوانين الأخلاقية بالحسبان ، **دون أن يكون معارضاً لها مع ذلك** .

والطبيعة ، والحيوانات ، واللاشعور الانساني ، وكذلك إحساساتنا ، وعواطفنا ، وحياتنا الداخلية ، كلها حيادية من الناحية الأخلاقية . ويبدو إذن أن **كل ما هو طبيعي بصورة أصيلة** ، حيادي من الناحية الأخلاقية .

وحيادي من الناحية الأخلاقية كذلك أي شخص لا يعتقد بالقوانين الأخلاقية « المسبقة الصنع » ، و « المقنّنة » . و « الأخلاق » ، بالنسبة إلى هذا الشخص ، لا وجود لها إلاّ بوصفها صُوى ، يحترمها المرء على وجه التقريب ، ويأخذها بعين الاعتبار لأسباب شتى .

ويبدو لي أن الموجود الحيادي من الناحية الأخلاقية ،لا بد أن يكون :

– **موجوداً شديد الضعف** . فالطفل الصغير حيادي من الناحية الأخلاقية ، ذلك أن الأخلاق لا معنى لها بالنسبة إليه . وبعض الأشخاص الطفاليين ، أو المنحرفين والمرضى العقليين الذين لا يحسون بالفرق بين الخير والشر ، هم حياديون من الناحية الأخلاقية ، **لأن الأخلاق لا معنى لها بالنسبة إليهم** .

– **موجوداً شديد القوة** ، موجوداً قادراً على أن يكتسب أخلاقه .

«الخاصة به» . لخيره الخاص ، وخير الآخرين . ويقتضى هذا التلاؤم الدائم . والإيجابي ، مع الظروف ، زوال الخوف وتحقيق الذات تحقيقاً أصيلاً ، واستقلالاً داخلياً كبيراً : إنه يقتضي ، بعبارة أخرى ، تفتح الوجدانية . ولم يعد الموجود بحاجة ، في هذه الحال ، إلى اللوائح الأخلاقية . **والسيد المسيح** ، بهذا المعنى ، حيادي من الناحية الأخلاقية .

والأخلاق ، كما هو معلوم لدى كل فرد ، تدرس الخير والشر ، والمباح والممنوع . ولكن لا بد للأخلاق من أن تتغيّر ، بما أن قواعد السلوك تتطوّر وفاقاً للعصور وأشكال المجتمعات . فتلك قاعدة أخلاقية أوربية غير سارية المفعول في آسيا ، وليست سارية المفعول كذلك ، في أيامنا هذه ، بعض القوانين الأخلاقية التي كانت سائدة بالأمس .

و « الاخلاق » إذن ، بمعناها العام ، مجردة ، وغير مستقرة ، وذات توازن عارض . فهي ، من جهة ، تعلن أوامر ، وعليها ، من جهة ثانية ، أن تتلوّى بحسب الظروف .

وفي هذا المجال ، **تتصرف المرأة** بأسلوب نعرفه جيداً : إنها تظلّ غير مبالية بـ « الأخلاق » ، صناعة الذكور المجردة ، لأنها لا توقظ لديها أي صدى **وجداني** .

والمرأة حيادية من الناحية الأخلاقية في أعماقها ، وليست لاأخلاقية. فـ « القانون » لا ينطوي ، بصورة عامة ، على أي دلالة بالنسبة إليها . وليس بوسع المرأة أن تنفصل عن الطبيعة ، ولا عن الحياة . ولا تمثّل أخلاق الرجال ، بالنسبة إليها ، سوى مظهر سطحي جداً من مظاهر الوجود ، ولباس من الألبسة الجاهزة ، وامتثالية تحترمها احتراماً مبهماً ومن بعيد ، وكأنها آبد من الأوابد التاريخية .

فهل هي إذن من القوة بحيث يمكنها الاستغناء عن القوانين الأخلاقية ؟ إن موضع السؤال في مكان آخر . فالمرأة معنيّة بقاعدة أخلاقية عندما تدركها من خلال وجدانيتها **هي** ، وإحساساتها الشخصية **هي** . وإذا كانت « البطولة » تذرها لامبالية ، فانها تساهم ، على العكس ، ببطولة أولئك الذين تعرفهم .

وستفكر المرأة :

ـ لا يمكن وجود أي أخلاق جاهزة ، ويحترمها الجميع . ذلك أنه لا وجود لغير الأشخاص الذين لهم وجدانيتهم الشخصية ، ودوافعهم الشخصية .

وهذا ، ولا ريب ، هو ما يمنع المرأة من أن تكون ، على الاطلاق ، لاأخلاقية ودنيئة في بعض ضروب الاختلال في نظام الحياة . ألا نرى عدداً من النساء يمررن في حالات تعارض « قوانين » الأخلاق (وحسبنا أن نفكّر بالبغاء) ، ولكنهن يحتفظن بضرب من براءة في النفس ، وعطف أمومي ، يتركان أصحاب النزعة الاخلاقية والتهذيب الأخلاقي في حالة من الذهول ؟

رابعاً : المرأة والرجل موجودان لا يرتدّ أحدهما إلى الآخر

١ ـ الحكمة والمغامرة

لنتخيل بعض النساء والرجال وقد انحصروا في جزيرة مهجورة . إنهم ، معاً ، يجرّون غصون الأشجار ، ويسبرون الغابة . ولا تقطّب النساء جبينهن في العمل . فكونهن يجدن الراحة في العمل ، أمر لا يعود إلى أيامنا هذه .

ولكن . ما أن ينتهي صنع الزورق . حتّى يتفجر الفرق دفعة واحدة .

يقول الرجال :

– أي قارب جميل هذا ! . . . ولكن ماذا يوجد هناك ، خلف هذا الأفق ؟ إن علينا أن نرتاد ونغزو هذا المجهول الذي يغرينا ويخيفنا .

فتقول النساء :

– نعم ، إنه لقارب جيد . ولكن ثمة أعمالاً تنتظرنا ، أعمالاً مباشرة ، ومشخصة ، ونافعة . أرجؤوا استكشافكم إلى وقت آخر . والأجدر أن تستخدموا القارب في الذهاب إلى الصيد . ثم تستطيعون أن تذهبوا إلى الاكتشاف .

ويقول الرجال :

– أنتن لا تفهمن . فكيف يمكن أن نلبث في المكان مع هذا المجهول المقلق الذي يستخّف بنا ؟

فتقول النساء :

– المجهول إنما هو الحاضر . ينبغي ، أول الأمر ، أن نستعيد قوانا ، ونجدّد طاقاتنا ، ونتهيأ لما قد يطرأ . فلا بد ،أولاً ، من تنظيم جزيرتنا. ثم تستطيعون أن تذهبوا صوب جزر أخرى .

ويقول الرجال :

– المستقبل . . .

فتقول النساء :

— الحاضر أولاً . فثمة أعمال أكثر نفعاً من حساباتكم .

صدّقوني ، ليس هذا الكلام الملغز غير ذي قيمة . إنه يمثّل مشاهد أسرية . ويتيح أن نفهم كثيراً من « الأمور » التي تحدث في العالم . وقد ينفق الرجل ، سريعاً وإلى الأبد ، في هذا الآفاق البعيدة التي تجتذبه ، لولا المرأة وحكمتها الحذرة .

والمرأة تعيد المغامر إلى الميناء ، وتهيء للرحلة القادمة . . . باستثناء ما إذا صمّغت الرجل إلى الأبد .

ذلك أن المرأة ، إذا كانت ، بفعل خصائصها الطبيعية ، تتصرف بحيث يعيش الآخر ويحقّق ذاته معتمداً عليها ، فقد يحدث لها أيضاً أن تبتّر جناحيه ، فلا يبقى منهما غير النتف .

يصبح الرجل، بفعل المرأة، شاعراً أو قاعداً بيته ، متحمساً أو هزيلاً ، غازي المستقبل أو صاحب دكان .

ولننزل إلى الشارع لحظة . أصيخوا السمع قليلاً في كل مكان ، تدركوا الاختلاف ، موضوع حديثنا .

في مخزن للسلع الفوتوغرافية .

قال البائع للزبون :

— خذ هذه القطعة الاضافية لآلة التصوير لديك. فستستطيع على هذا النحو أن تعالجها **— إلى أن تعرفها معرفة تامة .**

(*) الكلمة المقابلة بالفرنسية هي بمعنى يعمل « م » .

وقالت البائعة للزبون نفسه :

– **خذ هذا الفيلم هدية . ستستطيع أن تشحن آلتك وتفرغها ،** وأن تعبث بها وتلعب **كما يحلو لك** .

وفي أحد الاعلانات :

– **متى تنتهي من** اللعب **بآلتك؟**(وتبدو هنا علامة تجارية لأحد الآلات الفوتوغرافية) .

ماسمعناه ونحن مارون :

ثمة رجل ، في مرآبه الخاص ، يضبط محرك سيارة يصدر دوياً كبيراً ظافراً . قالت اه امرأته ، التي كانت واقفة على عتبة الباب ، بلطف :

– **متى تنتهي من** مماحكة **محرك سيارتك ، ألا تذهب للبحث عن خبز لي ؟**

– **خلال ربع ساعة . بقي لي بعض العمل : منافذ الدخان . . .**

– **كان عليك أن تقود سيارتك إلى الميكانيكي . ذلك كان أكثر** حكمة !

فلماذا تتكلم النساء عن **يماحك** ، **يعبث** ، **يلعب**. في حين أن الرجال يلفظون بكثير من الجدية كلمة **العمل** ؟ ولماذا في مثال القارب ، كان قارباً **جيداً** بالنسبة إلى المرأة . وقارباً **جميلاً** بالنسبة إلى الرجل ؟

٢ – عبقريات يوم الأحد

ومن المفيد ، من غير أن تبهرنا مع ذلك نزعات الرجل الطبيعية ، أن نذكّر بحاجته إلى إضفاء الخارجية على ذاته ، وإلى الغزو والكشف . وأن نذكّر بنزعته الأساسية إلى الترحال ، وبحاجته إلى التعجب المتحمس ، وبمشروعاته وحماساته وإنجازاته ..

إنهم ، على هذا النحو ، مئات الملايين ، غزاة الأحد ، وروّاد الأفكار في لحظاتهم الضائعة ، التي تتصف ، في الواقع ، بأنها لحظات نصر على رتابتهم اليومية .

كانت طفولتهم زاخرة بالأحلام ، لأنهم كانوا يريدون في أنفسهم أن يكونوا ، فيما بعد ، مبدعين وصانعين « شيئاً ما » .

أما الآن ، وقد انطفأت الأحلام ، وانقرضت كل إبداعية بين الأضابير ، والآلات المغفلة ، والرؤساء والمواقيت ، فهم يفكرون بيوم الأحد الآتي بلهفة .

ذلك أن يوم الأحد سيشهد ثأرهم ، واستعادة رغباتهم ، رغبات الطفولة . فهؤلاء الرجال هم روّاد الأفكار القدماء ، وغزاة قدماء ، وكانوا قد بلغوا الثامنة من عمرهم في ذلك الزمن : ولكن ماذا يهم ، فأحلامهم كانت موجودة هناك ، في متناول اليد .

والآن ، إنهم ينتظرون ، في أثناء الأسبوع ، وخلال ثماني ساعات في اليوم ، أن تمر الأيام ، وتنقضي الليالي ، وتنتهي رتابة الحلم البشع . وهم يعملون من أجل البيت الصغير ، والحمّام الصغير ، والتقاعد الصغير ، والموت الصغير .

ولكنهم يقولون في أنفسهم ، بصورة غامضة ، إنهم ، في أثناء هذا التقاعد ، سيستردون طفولتهم ، وسيستعيدون ـ أخيراً ـ هذا العمل الخلاّق الذي كان يلازمهم منذ زمن طويل .

وهكذا يلتقي مدخل حياتهم ومدخل مماتهم في إبداعية مستعادة .

إنه يوم الأحد . فالرغبات القديمة تطفو . إنها لم تعد سوى فقاعات ليست ذات صلة قوية بغليانات العهد الماضي . ولكن ماذا يهم : إن جول يصنع رفاً جدارياً ، وليون (يحرتق) في كهرباء بيته ، ولويس يرسم منظراً ، وألبير يصنع بعناية سلماً في الحديقة . والسلم مستقيم على وجه التقريب ، ومتوازن على وجه التقريب . ولكن ، يا للشيطان ! أولا يبحث هؤلاء الشعراء ، والرسامون ، والفيزيائيون ، والبناؤون ، والنجارون ، والميكانيكيون ، مهما يكونوا خرقى ، عن أن يظفروا ببعض الزمن من ضروب خدرهم اليومي ؟

هواية : تلك هي الكلمة التي يطلقونها على ما يفعلون ، (وهي كلمة غبية إلى حد ما *) . ولكن هذه الاهتمامات ، إياها ، كما ترون ، هي الدهشة الوحيدة الباقية لهم على وجه الاحتمال ، والكشف الوحيد الذي لا يزال مباحاً لهم . إذن ، فلنحيّهم .

ذلك أن الموجود الذي لا يبدع أبداً موجود ميت .

(*) المقابل الأجنبي الذي استخدمه المؤلف هو الكلمة الانغليزية Hobby ، وهو يعدها غير مناسبة كثيراً . أما نحن ، فقد استخدمنا المقابل « هواية » . ونعدها مناسبة جداً للتعبير عن هذه الحالة . لذلك وضعنا العبارة ضمن قوسين لنلفت نظر القارىء إلى أن الكلمة الانغليزية هي المقصودة بالعبارة ، لا المقابل العربي « م » .

والشرط الوحيد أن هؤلاء الرجال يبدعون وهم يلعبون ، وأنهم يلعبون وهم يبدعون ، ويتسلون . فتذكروا فابر * ، العالم الاخصائي بالحشرات . كان أحد الأشخاص يرثي لحاله قائلاً : إنه كان عليه أن يتعب نفسه في ملاحظة الحشرات على هذا النحو ، طيلة حياته ، باسم العلم . وأجاب فابر : « باسم العلم ؟ إذا شئت . . . إنني سعيد أن يستفيد العلم من ذلك . أما أنا ، فقد تسلّيت كثيراً ، على أي حال ! »

ذلك أن الرجال الأسوياء لا يعملون من أجل « الفن » أو « الفيزياء». وسواء كانت لهم عبقرية عظيمة أو موهبة زهيدة ، فانهم يسخرون من المجردات المفخّمة . إنهم يتسلون .

ويعلم جيداً هؤلاء الرجال ، لويس وألبير وجول . . . أن ما يصنعونه يباع ، جاهزاً ، في أول مخزن تصل إليه ، وبثمن أرخص بكثير من ثمن المجموعة المتناسقة من الأدوات التي كان عليهم أن يتزوّدوا بها .

ولهذا السبب ، دعنهم ، يا أيتها الزوجات ، يفعلوا ، وساهمن فيما يفعلون ! وقلن إنكن لن تفهمن رجالكن ، إلا إذا كانت لا تزال إبداعيتكن الخاصة ، وقدرتكن على التسلية ، تتنفسان .

فأن ينهمك ، في هذا المجال ، رجل في أفسال** جديدة من الورود ، أو أن يعمل في غزو الفضاء ، أمران لا ينطويان إلا على فرق في الكم لا في الكيف . وذلك شريطة أن يكون هذا الرجل سوياً من الناحية السيكولوجية .

ولنفهم الآن جيداً : إن الرجل بحاجة شديدة ، في بحوثه وانجازاته،

(**) عالم أخصائي بالحشرات . فرنسي عاش بين (١٨٢٣ – ١٩١٥) « م » .

(*) أفسال : مفردها فسل : غصن أو جزء من غصن يفصل عن النبات ، ويغرس ليعطي نباتاً جديداً « م » .

إلى نظرة عميقة من المرأة. ذلك أن الرجل الذي ينبسط باستمرار نحو المستقبل، يتصف بأنه في صيرورة دائمة. ويبقى، من جرّاء ذلك، في طفولة مستمرة. وأنا لا أقول، على الإطلاق، إنه طفالي! ولكنه، طيلة حياته، طفل مصاب بالدهشة. وهو يريد، في بحثه هذا، أن يجعله بحث اثنين، المرأة إلى جانبه. شأنه في ذلك شأنه أنه كان، وهو طفل، يفتش عن نظرة الاستحسان – والتواطؤ – من أمه، عندما كان، وهو يلعب لعبة الراشد، يمزق بنطاله خلال جولاته.

إنه بحاجة إلى مساهمة زوجته، لأنه يبحث عن الحماسة التي تردد صدى حماسته.

إنه يرغب في أن تشاطره زوجته فرحه بالعمل الرائع.

٣ – عندما المرأة تجندل الرجل وهو في كامل انطلاقته

ولكن ماذا لو أن المرأة لم تعد تمتلك الحماسة؟ لو أن دهشتها انطفأت؟ لو أنها أصبحت عاجزة عن اللعب وهي تبدع؟

انظروا ثانية إلى بطاقة هويتها تروا كيف أن بوسعها أن تغرق سريعاً في ضروب من السلوك السلبي.

المرأة ذات استعداد مسبق	**هذه الصفات تتلف غالباً وتصبح:**
– للحياة التي أضفيت عليها الصفة الداخلية.	– انطواء على الذات.
– للصبر	– انقياداً كالحاً، وصمتاً مستهجناً.
– للتحضر *.	– تعذر الخروج من ذاتها، وتعذر إضفاء الصفة الخارجية على هذه الذات.

(*) المقصود هنا أن تصبح حضرية، أي مستقرة «م».

– للأفكار والأعمال – نزعة واقعية مثلجة ، وفقدان المشخصة . المخيلة فقداناً كاملاً .

– للممارسة . – نزعة نفعية .

– للوضوح العميق . – تهكماً هدّاماً .

– للعب المبدع . – عجزاً عن اللعب .

في العمود الأيسر ، نجد ، على سبيل الحصر ، صفات أصابها التلف. كما لو أن الشمس أصبحت ضباباً وأمطاراً .

فما السبب ؟ البنت موجود ينضج سريعاً . وسريعاً تواجهها المادة (مادتها التي تخرج منها) ، والحياة (الحياة التي تصير في بطنها) . **وسريعاً تتفتح عيناها منذ الرابعة عشرة من عمرها أو الخامسة عشرة ، في حين يستمر الصبي ، بمشقة ، في البحث عن معنى هذا الوجود الذي لا يمكنه أن يحس به في جسمه .**

بيد أن الفتاة تنضج ، في بعض الأحيان ، على نحو يغالي في السرعة . وترى نفسها ، وقد انحصرت في عقدة أوديب التي لا مناص منها وأوقفت بين أبيها وأمها ، أنها ملزمة بأن تؤمّن لنفسها نعم المعسكرين . فتتباطأ حياتها الوجدانية ، وتتكاثف ، وتتوقف .

إنها ، عندئذ ، لم تعد قادرة حتى على أن تبني القصور في إسبانيا * . فتتجه ، بصورة نهائية ، نحو حاضر أخضر مزرق ، لا تفلح في الخروج منه . ويصبح المستقبل ، والأفكار ، والمشروعات ، كلمات فارغة من

(*) إشارة إلى الخيال الذي فقدته « م » .

المغنى . ولا تدرك أفكار الرجل ، كبيرة كانت أم صغيرة . فتتراكم الضغائن في بيوت الزوجية .

وتبقى المرأة عندئذ مسمّرة بحاضر نفعي ، كما يتسمّر تمثال بقاعدته .

وتسقط في نزعة واقعية باردة . إن رجليها كانتا من قبل ، بفعل طبيعتها ، على الأرض . أما الآن ، فهي تغوص فيها ، ولم تعد ترى شيئاً من السماء . وتصبح نزعتها الواقعية حساباً ، دونما أدنى انطلاقة نحو اللانفعي ، والمرح ، ولذة الحياة . وهي ، على الغالب ، تنتقل إلى معسكر الأشحاء والبخلاء والورثة الذين يتخاصمون على مزق مورّث ميت . ولم تعد ترى ، ربة منزل كانت أم تعمل في الخارج ، غير المباشر ذي المردود . وجفّت كل دهشة لديها .

وهي إنما تخنق ، عندئذ ، إبداعية الرجل . فتقْدر ، ساخرة دونما رحمة ، « صبيانيات » الرجال . وترعد وتدمدم ، لأن الرجل « يضيّع وقته » في « مماحكة » الأشياء ، مع أن ثمة أموراً كثيرة ينبغي أن يقوم بها. والرف الجداري ؟ إنها تشتريه من مخزن على بعد مئة متر . وليس لديها الوقت للانتظار حتى يفرغ زوجها من تسليته ، لكي يثبت براغي رفه . ومن المؤكد أنها لم تعد تفهم مهندسي يوم الأحد الذين يعملون في مفحّم * سيارة ، طيلة ساعات ، مع أن الميكانيكي قد يرتّب كل شيء في ثلاث دقائق ، وبكلفة أقل .

ويخفي الأزواج رؤوسهم بين الكتفين ، خجلين كباتيست ، وحيدين بصورة يائسة .

(*) مفحم : Carburateur .

يضاف إلى هذا أنهم يشعرون بأنهم مجرمون ، الأمر الذي يمكن فهمه جيداً . فكروا إذن ! زوجاتهم لا تريد غير النافع ، ويرفضن اللعب.فالمرأةتطلب ما له مردود . والحال أنهم يتسلون ، ويروقهم هذا العمل الذي تصفه بالمماحكة . إنهم يعلمون أن هذه (الحرتقة) ليست ذات مردود . ويشعرون أن هؤلاء الزوجات ، اللواتي هن من الجدية بحيث أصبحن ضرباً من الشهود السود الذين لا يتحركون ، تتربصن بهم ، وتطاردنهم ، وتنتقدنهم ، وتستهجنّهم .

والحدود ، مع ذلك ، متعرجة ، لدى النساء والرجال على السواء. فأين يقف المعنى العملي للمرأة وأين تبدأ نزعتها النفعية الجافة ؟ **وإبداعية الرجل ، في أي لحظة** تنصب في المجرد الدخاني ، أو في التسليات التي لا تناسب عمره وظروفه ؟

ذلك أن اللعب بقطار كهربائي، طيلة ساعات ، أمر غير سديد ، وإن كان أمراً سديداً إصلاح قطار كهربائي بشغف . فأنا أعلم أن هذا إنما هو حلم الطفل. كان يرغب لنفسه أن يكون موظفاً في سكة حديدية ، في طريقه نحو الآفاق . ولكن هذا الأمر يغيظ مع ذلك .

وتبقى ، في جميع الأحوال ، هوة بين الرجل والمرأة ، يتعذر ردمها ، لأنها تشكل جزءاً من طبيعة الجنسين .

ها هو جول ، مرحاً ، يقدّم الرف الجداري إلى زوجته . هل إنجازه رائع ؟ وتلاحظ زوجته أنه رائع . ولكنها ، على وجه العموم ، لا تذهب إلى ما هو أبعد من الملاحظة ولن تسأله أبداً : **كيف** فعلت ؟ **كيف** جمعت هذه الألواح بطريقة هي على هذه الدرجة من الكمال ؟ كيف توصلت إلى ذلك ؟

ذلك أنها تعنى بالنتيجة ، لا بالطريقة التي تتم فيها الإبداعية .

ولنتصور أيضاً أن جول مهندس ، ويلقي بالجسور على الحفر . فكونوا على ثقة أن زوجته تستعجل استخدام الجسر ، بصورة عملية جداً ، ولكنها قلّما تسأل « كيف » تم تخيّل هذه الانطلاقة ، وهذا المنحني ، وهذه الخفة . ولن تنظر إلا إلى العمل المنتهي ، القابل للاستخدام ، دون أن تهتم بسلسلة الابداعيات والبحوث التي جعلته ممكناً .

وهذا هو السبب الذي من أجله يسخر الرجال ، على خطأ ، من النساء اللائي لا يمزن المفحّم من حساب التفاضل . إنهن غير معنيّات بالطريقة التي « تسير » فيها الآلة ، بل معنيّات بمجرد كونها تعمل ، ومجرد كونها نافعة . أما الباقي ، كما ترون ، فمن « شؤون الرجال ».

ولكن « عليهن » أن لا يندهشن ، وأن لا يصبن بالاهتياج ، إذا أمضى الرجال ساعات في المناقشة معاً ، وفي البحث والبحث أيضاً : سواء كان الأمر (حرتقة) ، وصيدا في البحر ، ولعبة كرة ، أم كان رياضيات عالية .

وإليكم هذا القول : ذلك ما يذكرني بملاحظة للويز دو فيلموران : « إن الأكاديمية الفرنسية هي المكان الوحيد الذي لا يزال بوسع الرجال أن يتسلوا فيه معاً ، شريطة أن لا تدخلها النساء » .

٤ ــ ولكن المرأة تستطيع إنقاذ الرجل

بعد الظلام ، يأتي النور . وبعد المرأة التي تجمّد الرجل ، ها هي

المرأة التي بوسعها أن تنقذه من أخطأئه ، ومن صدمات عبقريته التي يمكن أن تكون كارثية ، أعني من أمراضه .

آ – نفاذ بصيرة المرأة « المرعب »

قلت إن المرأة ضرب من الرادار . إنها تعلم كل شيء ، وتحس بكل شيء . وليس لها مثيل في تمييز الصحيح من الخطأ ، والماهية من المظهر . ولكنها تجهل ذلك . فهي شبيهة بهذا البستاني الذي يكشف بغريزته زهرة صناعية انزلقت في حزمة الأزهار .

تذكّروا المرأة التي كنت أتكلم عليها فيما سبق . فهي تذر الذكور يتلهون بالأباطيل ، ويحسبون كيفما اتفق ، ويركضون دون نظام . وهي تنتظر ، ولكنها ما أن يصبح فقدان النظام فوضى ، وتتفجر النظريات وكأنها ألعاب نارية لا مستقبل لها ، وتراهم يجدّفون نحو أفق يبتعد بصورة نهائية بسبب انعدام النظام لديهم ، حتى تتدخّل وتعيد الصيادين الضالين ، وتشعرهم بعبث سلوكهم . ثم يستأنفون إبحارهم ، بعد أن تكون المرأة قد أصلحت البوصلة .

إنها ، بالاختصار ، تقول ما ينبغي أن تقول ، وتفعل ما تقتضيه الحكمة أن تفعل . أو كذلك ، إنها تحس ، وهي تعرف الطبيعة الحقيقية للأمور معرفة لاشعورية ، بأخطار ضلال الذكر ، وبالقصور في كلامه، الذي يفضي ، بصورة حتمية ، إلى القصور في أفعاله .

فجزء المرأة الأنثوي يمنحها التصاقاً حقيقياً بالطبيعة . والمرأة ملتحمة

بالواقع . **فالمؤنث،في المرأة ، أنتولوجي*** ، يكشف الأشياء في ذاتها ، ويضرب صفحاً عن المظاهر .

كانت إحدى النساء قد قالت لي :

— إنني أنزعج من سماع الرجال يمجّدون نجاحاتهم وأفكارهم . ولكن من هم هؤلاء الرجال ؟ إنهم لا يتسرب الشك إلى أنفسهم في مدى ما نحس بهم كما هم ، وكأنهم عراة . فلماذا يخدعون أنفسهم ؟

واستأنفت تقول :

— النساء تنزلن الأفعال إلى المستوى الثاني . فالماهية هي التي تعنينا . ونحن نعرف أموراً كثيرة دون أن يكون بوسعنا التعبير عنها ، لأن لغتنا داخلية وليست ، وليست عقلانية كلغة الرجال. فبالعقل، يمكن البرهان على أي شيء ، حتى العبث . ولكن الداخل لا يغش أبداً ، ويود لو أن بمقدوره أن يفعل غير ذلك . فنلبث ، ونحن لا نستطيع أن نقول بصورة واضحة ما نشعر به ، مشاهدات عاجزات في عالم مزيّف ، لديهن الرغبة في الصراخ بجرأة لا مثيل لها دون أن يستطعن ذلك ، إذ أن طريقتنا في جس الحياة متناقضة كل التناقض مع طريقة الرجال ، وبالتالي منبوذة .

إنني أعرفك كما لو أنني صنعتك ! » : إنه مجرد كلام امرأة أو أم .

(*) الأنتولوجي : هو المنسوب إلى الانتولوجيا (علم الوجود) والانتولوجيا ، حسب تعريف أرسطو ، هي العلم الذي يبحث في الموجود في ذاته مستقلا عن أحواله وظواهره أو هو علم الموجود من حيث هو موجود . وبهذا المعنى ، فالانتولوجي هو المتعلق بحقيقة الوجود ، لا بظواهر الموجود (مأخوذ عن « المعجم الفلسفي ، الدكتور جميل صليبا) «م» .

ويحس الرجل بأن نظرة المرأة تضغط عليه . وقلت إنه يخشاها . فيحيد عن هذه النظرة الصامتة ، البصيرة .

ونفاذ بصيرة الأنثى تثير حصر الرجال . فلماذا ؟ ألأنهم يعلمون أنهم شوهدوا كما هم ؟ هذا أمر لا ريب فيه ، ولكن ثمة ما هو أكثر . فلنجر ضرباً من العودة إلى الوراء . ولنتذكر كم يخشى رجل من الرجال أن يكونلا شيء . وكم يرتاع من العدم ، عدمه ، وإلى أي حد يعلم — بالرغم من مظاهر نجاحه الخارجية — أنه قليل الأهمية .

ولنتذكر أيضاً : **المرأة هي الشاهد الطبيعي للضعف الانساني** . إنها تعلم ، حتى وهي طفلة ، أن كل طبيعة إنسانية ثلوم وعابرة . وتستطيع أن تقول للرجل ، وهي تشرع على هذا النحو في غناء معاكس لهذه اللازمة المضجرة ، لازمة الذكور ، التي قرأتموها :

— إنني صانعة الحياة ، حتى دون أن يكون عليّ أن أقوم بعمل . فالحياة تستطيع أن تتم فيّ ، لمجرد أنني موجودة . وبطني هو البوتقة التي تنبعث فيها الحياة من لا شيء. إنني في وضع يمكنّني من معرفة كيف بدأت ، وكيف انتقلت من اللاشعور الكثيف إلى الشعور الهزيل ، القصير الأجل . وأراك تتمسك بشبابك وشخصيتك الوهمية ، وبأعمالك التي تأمل أن تدوم بواسطتها ، وبشبابك الذي ترغب أن يكون أبدياً ، و « بمظاهرك » التي توهمك بأن أي شيء لا يمكن أن يحدث لك . ولكنني أعلم ، أنا ، وأعلم بصورة عميقة ، أنك موجود بين محطتين ، وليس ثمة شيء أكثر . وأنظر بدهشة كم تتكلم ، وتهتاج ، كيما تنسى ما أنت عليه .

والرجل ؟ **إنه يعلم أنها تعلم** ، وأن هذه المرأة تقيمه بقيمته الانسانية الصحيحة ، وأنها لا تثق بالضفادع التي ترغب في أن تكون ثيراناً ، وأنها تعيد إلى الأشياء مكانها الصحيح وقيمتها الحقيقية ، دون أن تريد ذلك .

ويرتجف الرجل لاشعورياً ، وقد استولى عليه الخوف ، والخجل ، والذعر ، والعدوانية ، أمام هذا « الشاهد » الذي يحس بكل شيء يصدر منه ، عبر الفعل الأكثر ابتذالاً والأكثر سعة على حد سواء .

قال لي أحد الرجال :

– أعاني الاحساس بـ « أنهن » يرين من خلالي . ولا يقلن شيئاً ، ولكنهن يفكرن بذلك . وعندئذ أقدّم آيات الاحترام والتبجيل .

وقال لي أحد المحامين :

– ما أن تراقبني زميلتي ، حتى أفقد خيط أفكاري . وذلك ليس من الخجل إطلاقاً ، ولكن كما لو أن نظرتها كانت تعني : « هذا لا يخدع » ! وذلك ما يحدث ، على وجه الخصوص ، عندما أنطلق في « إقلاعة كبيرة » مع المبالغة فيها . فهل لأنني أنا ذاتي ، لا أثق كثيراً بهذه الانطلاقة ؟ إنني أشعر أمام نظرتها أنني جُردت من ثيابي .

والرجل ، الخطيب المرموق ، إنما هو الذي يلجلج ، في الحياة العادية ، عندما يرتفع حاجبا إحدى النساء تهكماً . إنه اجتماع المتحذلقين الذكور ، حيث يمجّد الواحد منهم شدقيه بأمتارهما الثلاثة طولاً ، شدقين لا يصدقهما الآخرون مع ذلك ، وينتظرون المناسبة لعرض

مآثرهم الخاصة . ولكن الاجتماع ، الصيّاح والحماسي ، يتوقّف على الفور عندما تدخل زوجة أحدهم . لماذا ؟ لأنهم يحسون بأن المرأة يمكنها أن تقول : « ثمة أمور أكثر اتصافاً بأنها مشخصة من تبجحاتكم . فأنا أعلم أنكم لستم غير أقنعة ، وأنكم ، في الحقيقة ، تلبثون صبياناً صغاراً » .

وباختصار ، إن إدعاء الشجاعة ، أمام المرأة ، يفضي إلى الاستسلام ، اللهم إلا إذا لجأ الرجال ، تعويضاً ، إلى مضاعفة الادعاء بالشجاعة .

ويفهم المرء لماذا يرتجف الرجل . فلا تحمله المرأة محمل الجد . إنها ترى ما هو كائن فيما وراء المظاهر ، وتُشل ضروب التعويض الزائفة بكلمة واحدة . ويتعرّض الرجل ، في كل آن ، إلى خطر أن «ينكشف قناعه » ، كما تكشف أم قاسية ، على نحو يتسم بالوضوح ، قناع طفلها . ويحس الرجل أن المرأة « لا تُخدع » ، وأنها تريد الحقيقي والمتين . ويمكننا أن نكرّر العبارة التي ذكرناها أعلاه : « إنني أعرفك كما لو أنني كنت قد صنعتك » .

ب ــ المرأة تعدل دفة المركب :

قليل من المنطق : إذا كانت المرأة العادية والمتفوقة قادرة على اكتشاف ضلالات الرجال ، ألا يكون دورها أن تقوّم هذه الضلالات ؟ أن تعيد هؤلاء المغامرين ، مغامري أعالي البحار الذين هم الكثير من الرجال ، إلى الاتجاه الحقيقي ؟

نعم ، أعتقد ذلك : إنها خبيرة بالأخطاء المرتكبة ، ومجبولة على تعديل دفة المركب .

ذلك أن المرأة إذا كانت تنحرف نحو عيوب صفاتها ، فان الرجل

يضيع سريعاً في ضروب من القصور المرضية . فأن يكون لدى المرء ثم يحققها ، ذلك أمر حسن جداً . أما أن ينزلق نحو مجردات ومفهومات خالية من الحياة ، فذلك ما يلحق بالعبث والمرض . **وإذا كان الرجل « ينتقل سريعاً » بين الأفكار ،فمن المحتمل أيضاًأن يهرب فيها،وأن يضيع مغموراً بها ، ولم يعد يحس بشيء .**

وهؤلاء الأشخاص الذين أتحدث عنهم ليسوا شعراء ، بل مصابون بفصام في الشخصية (١). والمأساوي في الأمر أنهم يبنون فلسفات أو مُثُلاً ، ومنظومات تقنية أو امبراطوريات مالية ليست قائمة على أفكار مشخصة ، ولكنهم يسوّغونها بواسطة عقلنة علمية .

والواضح أن هؤلاء الرجال يهربون من شيء من الأشياء . فلماذا أصبحوا جبال ثلج طافية إنسانية ، في حين أنهم كانوا يمتلكون وجدانية كغيرهم من الناس ؟ ولماذا أصبحوا تكنولوجيين لا تقنيين، وأصحاب نزعةثقافية لا مثقفين؟**ولماذا بنوا عالماً من الأشياء ، لا عالماً من الموجودات، بدءاً من أنفسهم هم** ؟

لقد كبتوا وجدانيتهم ، ولكنهم يجهلونها ما دام الكبت يهدف إلى الاحتفاظ ، مطموراً ، بما يمكن أن يكون شديد الخطر ، أو مؤلماً ، على توازن الشخصية .

إن مجهراً عقلياً قد يكتشف ، في معظم الحالات ، آثار طفولة أجهضتها أم . **فصورة الأم،الصورة الذهنية المثالية ، ابتعلت كل شيء** . بيد أنهم ، ولنكرر ، يجهلون هذا الأمر . ووجدانيتهم توحّدت

(١) انظر : « الانتصارات المذهلة لعلم النفس الحديث » .

بأم يستشعرونها سيئة ، أو شديدة الخطر ، أو خانقة . وهذا هو السبب الذين من أجله لا يستطيعون أن يزهروا . فالمؤنث فيهم مختلط بأمهم ، وبطفولتهم التي يكرهونها . هذه الأم علّمتهم الخوف من الوجود . **فالمؤنث ، والحياة الداخلية ، والعفوية ، والمشاركة في الوجود العميق، أبواب جهنم بالنسبة إليهم .**

وعندئذ يتعاطون مخدراً هو هذه الجنّات الصناعية التي هي «الأفكار». ولكن اذهبوا وقولوا لهم : إن ذلك بعيد بقدر بعد طفولتهم التي يسعون إلى الهرب منها ، والتي لا يريدون أن يبقى منها غير بعض المزق المذهبة. فعواطفهم تحوّلت إلى جليد . ولكن كيف لهم أن يعرفوا ذلك ما داموا لم يعودوا يحسون ؟

إنهم ، حقاً ، هؤلاء المصابون بفصام الشخصية الذين ينجحون غالباً في المجالات التي لا يروج فيها الإنساني والمبدأ . فهم رجال قدماء انحطوا إلى مجرد رؤوس باحثة .

قالت لي إحدى النساء :

– ثمة عدد من الرجال ليسوا غير أفكار تسير . وليس عالمهم غير عالم من الأفكار . فهم لا يعيرون اهتماماً لسلام الناس إذا كانوا سياسيين ، حتى عندما يعتقدون العكس مخلصين . إنهم يجهلون إلى أي مدى لا يأخذون الشخصية الانسانية بالحسبان ، على الرغم من احتجاجاتهم بالانسانية . والفكرة في ذاتها هي التي تعنيهم وحدها . وهم يختبرون عندئذ تجارب مبنيّة على أفكار مع احتمال تدمير أنفسهم وتدمير العالم في الوقت ذاته . وهؤلاء الرجال لا يريدون الحرب ، ولا السلم ،

ولكنهم يثيرون الحرب ، أو يصنعون السلم ، وهدفهم الوحيد أن يتحققوا من فكرتهم . فكيف يمكنهم الاهتمام بالناس في الحاضر والمستقبل ما داموا لا يفكرون الا بصورة مجردة ؟ ولكن النساء إنسانيات ، ومن المرجح أن يكون أسريا عالم يتألف من النساء .

والمرأة السليمة ، بغريزتها ، شأنها شأن الكلب الضرو ، تستشعر الفرق بين رجل يبحث ويكتشف بغية ضرب من التحقيق المناسب للحياة ، وبين رجل يلوّح بالأفكار ، يلوّح بمجردات لا وجود لها .

وهي ، بغريزتها أيضاً ، حذرة من التقنية ، لا من التقنية في ذاتها. ولكنها تعلم إلى أي حد يسقط الرجل سريعاً في التكنولوجيا ، وإلى أي مدى يتصف بأنه جاهز ليجعل منها منظومة خالية من الفرح واللب .

وتستشعر المرأة ضروب العبث هذه ، وتشمّها من بعيد ، وتكتشفها منذ أن تقترب . ولكن كيف يمكنها أن تقول ذلك أو أن تنادي به صراخاً ؟ إنها تابع في عالم الذكر . ولم يسبق لها أن كانت قنّاً بمثل ما تتصف به في أيامنا هذه . إنها إنما تعمل لمصلحة الرجال . وعندما يستأجر هؤلاء الرجال امرأة ذكية ، فانهم يزيلونها . وقد رأيناً ذلك ، من حيث هي شاهد . ويجعلونها متواطئة معهم ، فيحولون ، على هذا النحو ، بينها وبين أن تتكلم وتفضح .

فكيف يمكن للمرأة أن تقول ما تعلم ، وفمها مكموم ويداها مقيدتان ؟ وهي ، بطبيعتها ، غير قادرة على أن تعبّر عن نفسها بصورة مجردة . فتبقى ، في هذا المجال ، عاجزة ، لا يمكنها سوى الملاحظة : مثلها في ذلك مثل شخص يراقب الغيوم ، ويعلم بغريزته أن السفينة

ستغرق ، في حين أن قائدها يعتمد ، بصورة عمياء ، على آلات مصابة بالخلل .

ج ــ الوجه الآخر لنفاذ البصيرة

هل المرأة نافذة البصيرة ؟ هذا أمر مؤكد . ولكن ، ماذا يحدث إذا غيّر اتجاهه نفاذ البصيرة هذا ، وغيّر هدفه ، وانعطف نحو الظلام ، وتجمّع بغية التدمير بدلاً من أن يكون بنّاء ؟

ذلك هو الوجه الآخر للقلادة . انظروا حولكم : « إنهن » عديدات . فنفاذ بصيرتهن يصبح لدغة ، ونكداً ، وتهكماً ، وهزءاً ، وسخرية . والأنكى أنهن ينجحن تسع مرات من عشر . وهنّ ، لأنهن نافذات البصيرة ، يتقنّ اللدغ ، في المكان المؤلم على وجه الدقة ، ومهاجمة ضعف وخطأ وسمة من سمات الطبع . ويعاودن الكرة دون هدنة ولا راحة ، مصوّبات على الدريئة نفسها دائماً . وثمة بعض الرجال الذين يعرفون شيئاً من ذلك . ولا حيلة لهم سوى أن يحكّوا ، متهيجين ، هذه الضروب من اللدغ .

إنهن نافذات البصيرة بالتأكيد ، لأنهن يمسسن النقطة المقصودة على وجه الدقة . ولكن ، كأن نفاذ البصيرة هذا متمحور على التدمير ، يحدّده ضرب من « الخبث » الناشيء من خيبة الأمل ، والحسد ، والإحباط ، والمهانة . فيحاولن أن يغضبن الرجل . والمرأة ، وقد خيّب أملها ضرب من « ضعف » الرجل ، تذكّره بذلك ألف مرة إلى أن يصلح نفسه ، حَنِقاً ، ثم يُظهر نفسه ثانية أنه السيد الذكر الذي كان يرغب في أن يكون .

فهل يبدو إذن أن هؤلاء النساء بحاجة ، على نحو لاشعوري ، إلى أن يكنّ مغلوبات ، كيما يكون بوسعهن الاعجاب ثانية بالرجل ، وقدأصبح الأقوى مجدّداً ؟ ولكن نفاذ البصيرة هذا — الكلام الخبيث اللاذع — يفضي ، على وجه العموم ، إلى ثلاثة حلول خاطئة أيضاً :

١ — إذا توارى الرجل تحت الجروح السامة ، أعلنت المرأة نفسها شهيداً ، مهجورة .

٢ — اذا الرجل نكّس العلم ، احتقرته المرأة لكونه لم يعد الذكر الذي ينبغي أن يكون .

٣ — إذا خرج الرجل منتصراً في المناوشة ، كان موضع إعجاب ودلال .

والحلول الثلاثة تقودنا بعيداً جداً عن الأصالة . وها هما ، من جهة أخرى ، مظهران آخران سلبيان من مظاهر نفاذ البصيرة . ولنتذكّر ، أول الأمر ، أن الأنوثة كالماء : لامتمايزة ، وعديمة الشكل ولكنها يمكن أن تتّخذ كل الأشكال . فاذا نظرنا من الجانب السلبي ، فإن الماء يحيط ، ويحاصر بصمت ، ويتسلّل بمكر .

ونفاذ البصيرة المناوش صورة من صور حرب الغوار ، ذات المظهر المؤنث على نحو نموذجي (لدى المرأة ، وكذلك لدى الرجل الذي انحدرت أنوثته) .

وحرب الغوار حرب لامتمايزة . فهي تصل من كل مكان ، ومن كل جهة . إنها ليست ذات شكل : فالعدو يلبث غير مرئي ، وضبابياً ، ورخواً . وحرب الغوار حرب « مظلمة كالأعماق البحرية » ،

والمناوشات تحدث ليلاً ، وبصمت . ويمكن القول : إن جماعة من المغاوير تمثّل الموقف المؤنث لجيش من الجيوش ، أي موقفه « الأنثوي » (عملاً في الظلام ، ومناورات الهدم المعنوي ، وخنق الخصم بصورة تدريجية ، وقسوة وجرأة في الهجوم المتغيّر رأياً وموقفاً ، والمتكرّر دون انقطاع) . ونكتشف في حرب الغوار كذلك **معصومية الأنوثة من الجروح** : فمن المؤكد أن جماعة من المغاوير ، أقل تعرضاً للتهديد بما لا يُقاس ، بفضل مرونتها وقدرتها على التلاؤم ، من جيش « قضيبي » يتقدم مستقيماً ، ومجابهة ، وفي وضح النهار .

وهدف حرب الغوار على وجه العموم ، وهي السلاح المفضل لدى العديد من النساء ، نيل حق ، أو تحقيق رغبة . وحرب الغوار تؤلف تكتيكاً يمكن أن يخيف الخصم ، وقد أخافه كما رأينا فيما سبق .

القصد المبطن سلاح آخر لكثير من النساء ، مشتق من نفاذ البصيرة السلبي كذلك . والقصد المبطن يصيب الهدف أيضاً . فقوامه بثّ كلام خدّاع ، وفريات ، وكلام مبطّن . والقصد المبطن ، شأنه شأن حرب الغوار ، لامتمايز ، ومن غير شكل ، ولا يمكن أن يقع في قبضة اليد . وبوسعنا ، من بين الحالات الأكثر شيوعاً ، أن نذكر الرسائل المغفلة (التي تنسل كالماء) ، والصمت « الذي يحدّثك عنهن طويلاً » (الذي يمثّل تهديداً صامتاً) ، والتسميم المادي أو المعنوي (الذي « يولج » السم) .

وعلى هذا النحو نكتشف ثانية رمز الماء ، بمظهره السلبي . وغني عن البيان أن القصد المبطّن هو ، دائماً ، صنع النساء أو الرجال الذين انحطّت أنوثتهم .

خامساً ــ ذكاء المرأة

١ ــ بعض المقاربات

الجنسان لا يمكن أن يكونا على درجة قصوى من الحساسية مثلما يكونان حول موضوع الذكاء . فهما يتصارعان لكي يؤكد كل منهما أولية ملكة ليس أي منهما مسؤولاً عنها أبداً ، ولم يتمكن ، من جهة أخرى ، علم النفس ، ولا الفلسفة ، ولا علم التوجيه الحديث ، من تحديدها .

والحيلة معروفة لدينا : فكل فرق بين الرجال والنساء يتم تأويله على أنه فرق في الكيف ، وتتم ترجمته ، على نحو مباشر ، بمصطلحي «الدونية » أو « التفوق » . والناس ، على سبيل المثال ، يعلنون عن فرق بين الجنسين إذا قيل إن الرجل يفكر عموماً بطريقة مجردة والمرأة بطريقة مشخصة . ولكنهم ، رجالاً كانوا أم نساء، يتعجلون اعطاء هذا الفرق ضرباً من مفهوم « القيمة » .

والناس ميّالون ، من جهة أخرى ، إلى أن لا يأخذوا بالحسبان غير النتائج **المرئية** لما يسمونه الذكاء . فيقال : « النساء ذكيات ، إذ أن السيدة س كانت من علماء الرياضيات الكبار ، أو « الرجال أذكياء، إذ أنهم اخترعوا هذا أو ذاك » .

وبوسعي أن أقترح عليكم هذا الشرح ، شرح **رافيسون** ، من بين مئة وأربعين تعريفاً للذكاء : « يشير الذكاء إلى المعرفة الحدسية والمباشرة بقدر ما يشير إلى المعرفة التصورية والاستدلالية » .

أولا يبدو أن هذا التعريف يجعل المرأة والرجل على وفاق ؟

بيد أننا لا بد من أن نذكّر ، **قبل أن نمضي إلى ما هو أبعد** ، أننا انبعثنا جميعاً ، رجالاً ونساء ، من حالة لاشعورية عميقة . والنوعان ، من حيث هما نوعان ، نوع الذكور ونوع الاناث ، لامتمايزان **قطعاً** ، ويرقيّان ، وكامنان . وعلى هذه الحمأة العامة إنما تتكوّن فقاعات ، فتصبح نساء أو رجالاً ، وذكوراً وإناثاً معاً ، وإناثاً وذكوراً في الوقت نفسه ، بالنظر إلى أن كل فرد يحتوي على نسبة أكبر أو أصغر من «الأنوثة » و « الذكورة » .

٢ – لنعد إلى القطبين

نحن نعلم أن كل امرأة سوية تمتلك جزءاً مؤنثاً راجحاً (**القطب المؤنث**) ، وجزءاً مذكراً (**القطب المذكر**) يحتاز على النسبة التي تبقى. و « جرعة » المؤنث والمذكر مختلفة ، بالطبع ، لدى كل فرد .

وثمة سؤال يطرح نفسه : **كيف يعمل ذكاء كل من هذين القطبين؟** نحن نعلم أن الأنوثة والذكورة **اتجاهان** إزاء الحياة ، وطريقتان في الاستجابة للظروف . ولهذا السبب ، فان ذكاء المرأة يغيّر صورته آلياً إذا انتقلت من اتجاه من اتجاهات الأنوثة إلى اتجاه من اتجاهات الذكورة.

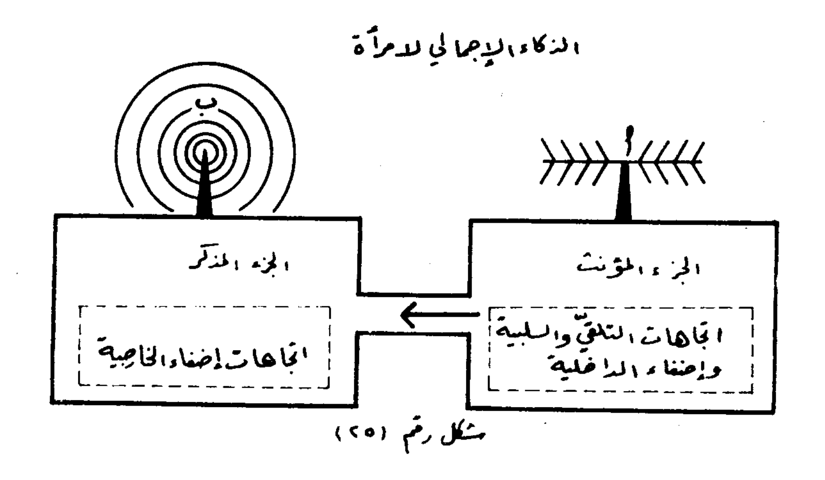
فالنقطة الأهم هي إذن ما يلي :

– إن صورة كل ذكاء ، وتعبيره ، وعمقه أو سطحيته ، منوطة بالوجدانية قبل كل شيء ، ومنوطة ، بالتالي ، بحالة هذه الوجدانية (متفتحة أو متقلّصة ، سليمة أو مريضة) .

الخزان آ – إنه الخزان المترامي الأطراف ، خزان اللاشعور ، والوجدانية ، والحياة الداخلية . هذه الصورة من الذكاء تغوص في الواقع

العميق من الوجود ، كالمغرفة . وهي صورة مصنوعة من الاحساسات . إنه إذن ذكاء محض متلق ، ومرن ، ومتكيّف ، وسيّال ، ومتحرك ، ومصدر تأملات صامته ، وضروب من الالهام التي تتراكم ، ومنبع نفاذ البصيرة . إنه الذكاء غير العقلاني ، ذكاء سعادة الحياة وقوة الطبع . وهو مصنوع من حيوانية فرحة ، ومن مشاركة مع الأشياء والموجودات ، مشاركة عفوية لها ألوان قوس قزح . هذه الصورة من الذكاء هي في حالة إصغاء للآخر : لا لما يقول أو يفعل ، بل لما هو عليه .

وقد سمّيت هذه الصورة من الذكاء الذكاء **الدافيء** ، لأنها ملتصقة بالحياة .



شكل رقم (٢٥)

الذكاء « الدافيء »	الذكاء « البارد »
إنه مؤلف من إحساسات وحدوس ، ويتصف بأنه متلق . إنه هوائي الحياة ، و « يوصل » بالوجود ، وهو موصول بنشيبة مباشرة عليه . ويتسم بأنه لامتمايز. إنه يستشعر . ونمو هذه الصورة من الذكاء منوط بالطريقة التي تقبل بها الفتاة أمها أو ترفضها ، وتدمجها أو تنبذها .	إنه مؤلف من محاكمات شعورية . ويتصف بأنه صلب ، وخطي . إنه مرسل !(منطق ، وآراء واضحة ، وتأليفات ، وتوقعات ، الخ) . ونمو هذه الصورة من الذكاء منوط بالطريقة التي أتقن بها الأب واستطاع «تنشيط » شخصية الفتاة .

إنه ذكاء الأنوثة أو ، إذا شئت ، ذكاء القطب المؤنث لامرأة .

الخزان ب — إنه خزّان الشعور ، والعقل المنطقي ، والفكر الاستدلالي . وهو الذكاء الذي يبرز إلى الخارج بطريقة واضحة . وهذه الصورة من الذكاء تضع في « معادلات » ما يصعد من الخزان آ .

ولهذا السبب سمّيته الذكاء **البارد** .

إنه ذكاء الذكورة أو ، إذا شئت ، ذكاء القطب المذكر لامرأة .

٣ — سدّادات وممرات حرة

الوضع بالنسبة إلى الذكاء كالوضع بالنسبة إلى الطاقة : فكل فرد زُوّد منه بقدر ، على نحو كامن ، منذ ولادته . والآلات الضرورية استقرت بصورة نهائية ، وتمّت الألعاب . وعلى كل موجود إنساني أن « ينمّي » ذكاءه بصورة مثالية . الأمر الذي يعني ، في الواقع

أن يعرف كمية الذكاءالتي كان قد اختص بها،وأن يبلغها ويستخدمها .

ولنكرّر ، فيما يتعلق بالمرأة ، أن جزءها المؤنث يتصف ، عادة ، بأنه أوسع من جزئها المذكر . و « خزانها » آ ، وهو أوسع من ب ، يجعلها تعيش على صورة الذكاء التي تتعلق به ، أكثر مما تعيش على صورة الذكاء المتعلقة بالخزان ب . فالمرأة ، إذن قبل كل شيء ، **ذات ذكاء دافىء** ، مع كل ما يرافق هذا الذكاء من اتجاهات إزاء الحياة مشتقة منه .

ومن الواضح أن ضرباً من الانتقال الحر بين الخزانين أمر لا غنى عنه لذكاء إجمالي. ولكن الحياة كلما تقدمت إلى الأمام ، صنعت على الغالب سدّادات متينة . فثمة العديد من النساء ، اللائي كن ، في البدء، يمتلكن ، مع ذلك ، خزاناً رائعاً آ وخزاناً في منتهى الإتقان ب ، اصطدمن ، خلال طفولتهن ومراهقتهن ، بالأخلاق ، والخوف ، والحصر ، وبموانع أخرى . لقد سمعن يتردد « أن المنطق والمحاكمة وقف على الرجال » . ومُنعن من التعبير عن آرائهن وشخصيتهن . وضللن دربهن ، على وجه الخصوص ، خلال عقدة أوديب . وكان لهن أمهات أعطينهن مثالاً سيئاً عن الأنوثة ، فلوّثن الخزان آ على هذا النحو . وكان لهن آباء لم يتقنوا تعليمهن كيف يعبّرن عن ذواتهن في الخارج ، فسدّوا ، من جراء ذلك ، مدخل الخزان ب . بحيث أن الانتقال بين الخزانين أصبح سيئاً ، أو أنه توقّف .

عندما يكون الخزان ب غير مستخدم

تلك هي الحالة الغالبة . والمرأة ، عندئذ ، تملك في بعض الأحيان

ذكاء داخلياً مدهشاً . إنها « تحس » احساساً شديداً ، ولكنها لا تفلح في « التعبير عن ذاتها » . وثمة كتلة من الإحساسات تغزوها ، وبروق حقيقية من الحدوس تنفذ إليها. إن اللاشعور يأكل هذه المرأة : **فذكاؤها الدافيء** منضغط في إناء مغلق ، لا قدرة له على الانتشار في الخزان ب. وهي تصبح عاجزة عن المحاكمة المنطقية ، وعن التعبير عن ذاتها بالطبع. إنها النوع من النساء الذي يقول : « من المرجح أنني سأقول حماقة ، ولكن ألا تعتقد أن . . . » .

إنها تبيّن ، بهذه الجملة المبتذلة ، أنها لا تعرف إمكانات الخزان ب. يضاف إلى هذا أنها ، بدلاً من أن تقول ، قبل أن تعلن عن رأي ، « أعتقد أن . . . » ، تستجدي دعم الآخر ، وربما ترى رأيه ، وعلى الأخص إذا كان هذا الآخر رجلاً (انظر إلى ما سيأتي فيما بعد) .

إذا كان الخزان آ ملوّثاً

ثمة بعض النساء اللواتي يفقدن الاتصال المباشر بوجدانيتهن العميقة التي يكبتنها . ولم يعد هؤلاء النساء يستشعرن شيئاً هاماً يتصف بأنه أصيل أو عفوي . فيصبحن ذوات نزعة فكرية ، وعقلانيات بافراط. إنهن ، بوصفهن مريضات من الناحية الوجدانية ، شبيهات بهؤلاء الرجال الذين تحدثت عنهم : لقد كففن عن أن يكنّ فنانات الحياة لكي يصبحن مهندساتها المسّاحات . وانفصلن عن ذواتهن . ويمكن القول : إن محاكماتهن تنقصها الحرارة . والحقيقة أنهن يعملن ، بصورة خاصة ، على الخزان ب الذي يغذّيه الخزان آ تغذية سيئة . فالعنفة تدور ، ولكن ضغط البخار في عجز . إنهن أولئك النسوة ذوات الذكاء البارد ، الذي يتجمّد منذ أن يفقد الخزان آ استطاعته .

٣ — المرأة والمنطق

إذا فتحنا باب السقف ، الذي يوصل إلى الأفكار المبتذلة ذات العلاقة بالمرأة ، كان من المحتمل أن تتدحرج كتلة هذه الأفكار على رؤوسنا . وثمة رأي مسبق ، راسخ كل الرسوخ ، مفاده **أن المرأة ينقصها المنطق** . ومفاد الرأي المسبق الثاني **أن المرأة تتقلب كالهواء** . والرأي الثاني نتيجة للرأي الأول . أما الثالث ، فمفاده **أن المرأة تمارس** الكذب ببراعة مذهلة .

آ — الأنوثة والذكورة أمام المنطق

والحماقة الأولى لشتى هذه الآراء المسبقة تكمن في أنها تضع جميع النساء في حَوْش واحد . والضلال الثاني يكمن في الزعم بأن « المرأة» ، كل امرأة ، ينقصها المنطق . ولكي تفهم ذلك جيداً ، لا بد لنا من العودة إلى الأنوثة والذكورة ، اللتين تتألف منهما كل شخصية إنسانية .

القول إن الأنوثة منطقية أو غير منطقية لا ينطوي على أي معنى . الأنوثة تلتقط ، مثل الهوائي . فهل الهوائي منطقي ؟ إنه في حالة الإصغاء، نعم . ويتلقى « الرسائل » . ولكنه يتلقاها جملة ، ومن غير تنظيم ، ومختلطة وممتزجة ، ودون أي اصطفاء ، وفي لاتمايز كلي .

ينبغي القول اذن : إن الأنوثة ، الموجودة في كل امرأة (وفي كل رجل) ، لا عمل لها مع المنطق . ذلك أن المنطق ، الذي يتصف بأنه خطي ومحاكمة دقيقة والذي يقفز من نقطة إلى أخرى ، ينتمي إلى القطب المذكر . إنه ليس الهوائي ، بل الجهاز الاصطفائي على نحو كامل .

ويُصدر الجزء المذكر من امرأة محاكمات منطقية . أما جزؤها المؤنث ، فلا يفعل ذلك أبداً .

كثير من النساء السليمات لا يفهمن ، في الحقيقة ، شيئاً من منطق بعض الرجال . ولكن أي منطق ؟ هل هو المنطق الذي يصدر عن حياة داخلية في حالة جيدة ، أم المنطق المجرد على سبيل الحصر ، الذي يقع على بعد ألف ذراع من الحياة الواقعية ؟ هل هو المنطق الذي يثير المناقشة ، لا في سبيل هدف مشخص ، بل على أنها غاية في ذاتها ؟

وإذا كانت المرأة تفهم ، على نحو كامل ، منطقاً سليماً ، فهي تبقى مذهولة أمام منطق مجرد على سبيل الحصر . ونحن نعلم السبب : لأنها ، وهي المرتبطة بالحياة ارتباطاً مباشراً ، لا تشعر بالحاجة إلى الهرب من الوجود بواسطة كلمات لا جذور لها ، ولا هدف .

ب ــ المرأة « اللامنطقية بصورة شهية »

أطلق الذكور على المرأة شتى الألقاب ، وعلى سبيل المثال : مخيخ عصفور ، دوّارة هواء معبودة ، متقلبة الأطوار لا يمكن التفوق عليها .
و « نزعتها اللامنطقية » تسحر كثيراً من الرجال وتثير غضبهم معاً : إنهم يرفعون عيونهم نحو السماء ، وهم فخورون في الوقت نفسه بضرب من « التفوق » الذي يعتقدون بأنه لا يقبل المناقشة .

حقاً ! عندما تباشر هذه اللامنطقية بصورة شهية في مناوشة الرجل وممارسة حرب الغوار ، هذه الحرب الرائعة التي كنت قد تكلمت عليها أعلاه ، بوسعي أن أؤكد لكم أن المنطق المذكر يتهاوى ، ويتهاوى

يقينه في الوقت نفسه . واسمحوا لي أن أقول ، بكلمة واحدة : إنهم يستسلمون . فكيف نشرح هذا الوضع ؟

يحسب الذكور دائماً أن المرأة تفكر حسب منطقهم هم ، الأمر الذي يتصف بأنه متعذر ، نظراً للاختلاف في الطبيعة . ولكن هؤلاء الذكور يتهمون رفيقاتهم بالكذب أمام تغيير الرأي . ومقصودهم بالطبع أن المسألة هي مسألة كذب بالقياس إلى المعايير الاجتماعية . وبهذا المعنى ، ليس ثمة أدنى شك أن هذه المرأة تكذب . ومن جهة أخرى ، ألم يقل الناس ، في كل الأزمنة ، إن « الكذب » خاصة من خصائص الطبيعة النسوية ؟

ونحن ، مجدداً ، نكتشف الحاجز الكبير الذي يفصل بين الجنسين . والرجل ؟ إنه « الأخلاق » . إنه « الأخلاق الفلسفية » التي تتصف على الغالب بأنها متعالية ، ومطلقة ، وبعبارة أخرى : مجردة ، وعقلانية ، وغيرمحسوس بها ، وذات قوالب ثابتة ، ومتصلبة كالأنا العليا .

وما الأمر بالنسبة إلى المرأة ، أو ، بالحري ، بالنسبة إلى الأنوثة ؟ إنها لا تفهم . ولا تستشعر هذا الجانب المجرد والعام من الأخلاق الفلسفية المذكرة . فهي تعيش على القيم المتحركة والسيّالة ، التي تنشأ من مرونتها وقدرتها على التكيّف الداخليتين . وتعيش المرأة في ديمومة تحذو حذو ظروف الحياة . ولنتذكّر أن المرأة موصولة « وصلاً مباشراً » بأعماق الوجود . فكيف لا تتموج ، بوصفها مفعمة بالاحساسات الكثيرة والمتغيرة ؟

وعلى الرجل أن يضلّ دربه . ذلك أنه إذا كان مكرهاً لاتباع

الخطوط الحديدية القاسية التي صنعها ، كيف يفهم أن المرأة ، المشبعة بالإحساسات الوجودية ، تنتقل من إحساس إلى آخر ، لا لأنها تريد ذلك ، بل لأن هذه الاحساسات تحملها على ذلك ؟ ويعتقد الرجل ، وقد أضلّه منطق متناقض **في الظاهر** ، أنه إزاء نزعة لامنطقية وكذب ، في حين أن الأمر مجرد ضروب من السلوك الاستجابة لإحساسات ، ومجرد تصرفات ليست ذات علاقة بـ « المنطق » أو « الكذب » بل هي شبيهة بأمواج البحر تحت سماوات متغيّرة ، وهي ، من جراء **ذلك** ، تتصف في كل مرة بأنها حقائق تطابق الحياة الداخلية **الآنية** .

وهكذا فان الحقيقة لدى هذه المرأة ، **حقيقتها** الآنية ، ليست حقيقة الآن السابق . فهل يقال عنها متقلبة الأطوار ؟ بيد أنها تتردد بين كثير من الحقائق الوجودية ، سواء كان الأمر أمر مسائل كبرى أم أمر اختيار لون فستان . . .

ولا بد من الالحاح على ما يلي: هذه المرأة « غير منطقية » و« كاذبة » بالقياس إلى بعض القيم الاجتماعية ، المصنوعة ، والفارغة من الإنسانية العميقة . ولكن بوسع المرء أن يكون واثقاً من أنها تبقى مخلصة إخلاصاً تاماً للحياة ، **التي لا يمكن أن تكذب تجاهها** .

ولنتذكّر ، من جهة ثانية ، أن الحدس ذو منطق معصوم ، مع أنه لاشعوري . إنه بداهة داخلية ، في الحالة الصرف ، لم يتطفل عليها شيء ، وليس لها صلة بضروب المنطق المتقن .

٤ ــ آراؤ « هنّ » التي لا يمكن استئصالها

المرأة التي أذكرها هنا امرأة مرعبة ومنتشرة . إنها ليست أكثر

ذكاء من امرأة أخرى وليست أقل . ولكنها تصدر آراء هي من الاتصاف بالحسم ، واللهجة التي تصدر بها هي من الاتصاف باليقين، بحيث تفحم أقوى علماء الجدل . ويبدو عليها أنها واثقة من نفسها ثقة كاملة . بل يمكن الاعتقاد بأنها ذات ادعاء مذهل ، أو أنها عنيدة بصورة شيطانية . والحال أنها لا تُغفل جانباً من الجوانب ، كما سترون . ومع ذلك ، ثمة رجال أذكياء يلبثون ، أمامها ، فاغري الفم ، عزّلا . ويستشيط آخرون غيظاً ، كما لو أنه غير مباح لهم أن يفعلوا ذلك .

هذا النوع من النساء ينقسم ، من جهة أخرى ، إلى عدة أقسام متراتبة . فثمة نساء أفكارهن تبدو رفيعة الشأن ، ولكنها حاسمة ، وتستبعد كل مناقشة . وأخريات يصدرن بهدوء أفكاراً تشبه الحِكَم. وأخيراً ، يعيث في الأرض فساداً نموذج آخر من النساء تشبه آراؤهن ، حتى ليلتبس الأمر ، آراء محرر للحوادث اليومية في جريدة من المرتبة الثانية .

وعندما يصغي المرء جيداً — حتى إلى نساء قمة التراتب — يستشعر أن آراءهن تتجذّر في مكان ما لا علاقة له باقتناع شخصي .

إنني أستشهد بـ **يونغ** (ترجمة **كاهن**) :

والواقع أن هذه الآراء ليست مبرَّرة ، ولا ثمرة فعل من أفعال الفكر . وهي موجودة جاهزة ، كما لو أنها مسبقة الصنع وجاهزة للاستهلاك . فهي حاضرة في الوجود الذهني للمرأة التي تصيغها وتكررها ، لأن لهذه الآراء في ذهنها طابعاً من الواقع وقوة من الاقتناع المباشر بحيث لا تخطر في بالها فكرة إخضاعها لإمكانية شك بسيط .

والحال ، بصورة عامة ، **أن هذا النموذج من المرأة يأخذ على عاتقه آراء رجال ، لا آراء نساء على الاطلاق** . يضاف إلى هذا أن المقصود رجال يمثّلون ، في ذهن المرأة ، سلطاناً . إما سلطانا عاماً (كتاباً معروفاً أو شخصية مشهورة) ، وإما سلطاناً أكثر اتصافاً بالمحلية (الخوري، وعضو المجلس النيابي ، والمعلم) . هذا إذا لم يكن رأيها «الشخصي » صدى جملة ، نقطة فنقطة ، قرأتها في صحيفة أو سمعتها من الإذاعة (صحيفة وإذاعة يديرهما الرجال بصورة تقليدية) .

فلماذا ؟

يشترك هؤلاء النساء في أنهن عاجزات عن التعبير عن رأي شخصي . إنهن يحسسن ، ولكنهن لا يفلحن في قول ما يفكرن بههن ،**من خلال أناهن** . فيخترن إذن ــ بصورة لاشعورية ــ أنا شخص آخر : أنا رجل ، والحالة هذه ، يمثّل ، بالنسبة إليهن ، سنداً لا يُناقش . ويتصف بالنسبة إليهن دائماً أنه لا ينخدع أبداً . أفلا يجعلنا ذلك نفكر بسلوك مراهقة تتخذ كل ما يقول والدها على أنه خبز مقدس ؟

ونصل في نهاية المطاف ، مرة أخرى ، إلى ضروب الوجود النسوي ومدمّرها : عقدة أوديب. والواقع أننا لو كنا نعرف هؤلاء النساء معرفة جيدة ، لرأينا أن الأب كان غائباً عن وجودهن . فإما أنه ميت أو غائب من الناحية السيكولوجية . وإما أن المراهقة لم تستطيع أن تعقد أي صلة به .

ولم يستطع الأب ، على هذا النحو ، أن ينجز دوره الرئيس : أن يعمل مدرّباً على الحياة الاجتماعية . ويساعد الفتاة على أن تتجلى ، دون

خوف ولا عدوانية ، أمام الآخرين .وتبقى المرأة ، من جراء ذلك ، في داخليتها ، مبخوسة القدر ، عاجزة عن إبداء رأي شخصي . وعندئذ إنما تبحث — كيف أقول ؟ — عن رأي « أب » : عن سلطان مذكّر ، والحالة هذه ، أيا كانت صورة هذا السلطان **الذي لا يمكن أن ينخدع بحسب رأيها** . وتبدو ، لهذا السبب ، قريرة العين في ثقتها بما تؤكد ، والرأي الذي تعرضه يشبه ، على هذا النحو ، جلمود صخر شديد الصلابة .

ومساعدتها من الصعوبة بمكان كبير ، للسبب البسيط المتمثل في أنها لا تشعر ، من الناحية العملية ، بما يحدث في داخلها . إنها واثقة من أن أفكارها ناشئة من « أنا » ها ، ولا يخطر في بالها أنها تقتصر على تكرار رأي رجل يمثّل ، بالنسبة إليها ، « أبا » حالياً ، بديل الأب الآخر الذي لم تعرفه .

سادساً — ليولد الرجل مرة ثانية منها . . .

إلى الأم ، في نهاية المطاف ، إنما نعود دائماً بوصفها تأليفاً أساسياً لكل امرأة ، شعبية أم ارستقراطية ، فتيّة أم مسنة ، امرأة رجل واحد أم بغي ، لها أطفال أم لا . وليس ثمة امرأة ، من أدنى الأرض إلى أقصاها ، لا تحسب أن رفيقها هو « طفلها » قبل كل شيء . ذلك أن المرأة — وكم هي على صواب ! — تفكّر برأسها أقل ، بما لا يقاس ، مما تفكّر بواسطة الدائرة الوجدانية الواسعة التي يمثّلها ، بالنسبة إليها ، بطنها . وسيبقى حتى الرفيق القوي القادر طفلها ، لأنه أعزل بالقياس إليها هي ، التي تعرف أسرار الحياة والأشياء .

ولهذا السبب ، فان الرجل ، أي رجل ، يمكن ، بواسطة المرأة ، أن يولد مجدّداً ، يوماً بعد يوم ، أو أن يموت .

وكل طفل معدّ لكي يخرج من أمه ، ثم ينطلق انطلاقة تومّنها له . ولكن بوسع المرأة الأم أيضاً أن ترتبط بهذا الطفل إلى الأبد ، تجفّفه في مكانه . وما تفعله الأم بولدها ، يمكن أن تكرّره مع رفيقها .

هذا إنما هو أمر يمكن فهمه بعد كل شيء . فعندما ينهي الرسام لوحة يحبها ، هل ينفصل عنها ، والحسرة في نفسه ، أم يحتفظ بها ؟ أيمكنه أن يقذف بأثره الفني بعيداً عنه ، أم يحتفظ به كيما يتأمله بصورة غير محدودة ، بوصفه نرجساً مقنعاً ؟

تلك هي القضية العنادية — التي تتصف ، مع ذلك ، بأنها مأساوية إلى حد ما ! — ، قضية كل امرأة ، وكل مبدع ، وكل فنان : أن يعطي أو أن يحتفظ .

المرأة الأم ! إنها لبليغة الأثر ومرعبة هذه النزعة ، نزعتها إلى أن تنكبّ على موجود منذ أن يصيبه الضعف ، والحرمان ، والمرض والجراح ، وبالاختصار ، منذ أن يصبح « طفلاً » مرة ثانية . وهي لا تسأله ، عدواً كان أم صديقاً ، وديعاً كان أم فظاً ، من أين يأتي ، ولا ما هو ، ولا إلى أين يمضي . بل هي قادرة على أن لا تسأله عن اسمه. إنها تعنى به ، وتصغي إليه ، وترأف به .

ويعرف المحتالون ذلك جيداً ، هؤلاء المحتالون الذين يحاصرون المرأة باستغلال الألم . قل « إنني أتألم ! »: وها هي المرأة تلين ، مستعدة لتهب نفسها ، جسماً وروحاً ، لمن يتصف بأنه محروم .

ويقودنا كل هذا ، بعيداً وعميقاً ، إلى مناطق متغيّرة كالبحر ، ولكنها ، جميعاً ، ذات جبلّة واحدة .

ذلك أن البحر ، هو أيضاً ، يحمل السفن أو يبتلعها .

وها هي ذي مقتبسات من جمل قرأناها ، من هنا وهناك ، في روايات تتكلم على الثنائي : « إنها تضعه تحت رحمتها إذ تضطجع بقربه . . . وأُصيب بالدوار ، وغرق فيها . . . وتلاشى في هذه المرأة خلال الجماع . . . ثم ارتقى الهُوى * التي كان قد وقع فيها . . . إنه ، واثقاً وخائفاً ، كان قد عاد إلى الطفولة . . . وبعد هذا الالغاء ، إلغاء الزمن ، استأنف انطلاقته . . . وفني فيها . . . »

وفي هذه الروايات ، كما ترون ، يتكلم المؤلفون على الرجل الطفل ، والرجل المحروم ،والرجل الجريح . ولكن دانونزيو ** كان قد كتب أيضاً : « . . . كما لو أن جسم المرأة كله كان قد اتخذ صفة الفم الماصّ . . . . »

أما وقد تجمّع كل ذلك ، فالى أين نمضي ؟ إننا نمضي نحو اليقين بأن هذه الجمل تقول الحقيقة .

فالرجل يتلاشى ويفنى في المرأة . ذلك أنه ، في الحقيقة ، يغرق فيها ! أما وقد استولى عليه الهوى والدوار ، فان أقنعته تسقط ، وتمحّي حياة النجوع والمظهر لديه ، ولم يعد سوى موجود أعزل . وهذا ليس من الأدب في شيء : إنه ما هو كائن . إنه « في بطنها هي ، ويكفّ عن

(*) الهوى : جمع هاوية .

(**) دانونزيو : d'Annuzio .

أن يتظاهر بأنه الرجل . فتحسه المرأة مباشرة وكأنه طفل « يستمتع » بالدفء والأمن الأموميين ، وكأنه كان يحتمي فيها من الحياة التي تدمّره. وتستحيل المرأة عندئذ إلى أم راعية ، مهتمة .

وتبحث المرأة ، سوية كانت أم غير سوية ، عن تمديد الآن بالحب ، أطول فترة ممكنة .

يُقال ويُقال . . . وتقال أشياء كثيرة ، ومعظمها صحيح .

يقال، وهذا صحيح ، إن بعض النساء يشعرن بالاشباع المازوخي في أن « تخترقهن » قوة الذكر ، و « تثقبهن » و « تغتصبهن » ، وتحيلهن إلى لا شيء .

ويقال ، وهذا صحيح ، إن بعض النساء يرغبن في خصاء الرجل رغبة لاشعورية ، وفي أن يثأرن منه على هذا النحو ، ويحتفظن بهذا العضو الذي يأسفن بأنهن لا يمتلكنه .

ويقال أيضاً ،وهذا صحيح ، إن ثمة نساء يحوّلن الحب إلى رضى بوضع الرجل تحت رحمتهن ، إذ يثأرن من سيطرته وفظاظته .

ويقال أخيراً،وهذا صحيح ، إن المرأة ترغب ، أمام هذه الرجل الذي استسلم لرغباته كطفل ، في أن تحتفظ به إلى الأبد بقربها ، كيما تسهر عليه وتحميه من الوجود . فتتصور الحب عندئذ وكأنه مرفأ السلام بالنسبة إليه . وفي هذا إنما هي شبيهة بالرسام الذي تحدثنا عنه منذ قليل. فهل تحاول أن تحول بينه وبين أن ينطلق ثانية نحو عمله وهواجسه ؟ أم أنها ، على العكس ، تفكّر بأنها ، وقد جرّده الحب الذي منحته إياه وقوّاه ، تلده ثانية كطفل نهل من قرب أمه قوى نفسية جديدة ؟

وهنا إنما يبدو فرق واسع وأساسي . ذلك أن معظم الرجال يستولي عليهم الحصر أو التقزز . وتقول النساء إن المسألة ، بالنسبة إليهم ، هي مسألة فعل كغيره من الأفعال

الأخرى ، وإنهم لا يتوانون عن الانسحاب ، والمزاح ، والتفكير بشيء آخر . ذلك أن المرأة إنما تحس حقاً بالرجل في أثناء عفويته وكأنه طفل . وهو يعلم أنه ظهر كما هو عليه ، أي قليل الأهمية . لقد شعر وكأنه « ممتص » ، وضائع من خلال الدوار . إنه إذن يريد ، وفي الحال ، أن يفارق هذه الحالة من « الموت » ، لكي يجد ثانية دروعه . وسيتظاهر ثانية ، على عجل ، أنه الرجل .

والحقيقة أن هذا الرجل ، إياه ، يتصف بأنه ، قرب رفيقته ، جريح الحياة المحتوم . فتنكبّ المرأة عليه ، كما لو أنها ترغب في أن تجعله يغوص ثانية في أعمق أعماقها ، فتضفي الصفة الأبدية على آن الثنائي .

وهكذا تسهر المرأة . إنها الحامية في معارك الرجال . فهي تنظر إليهم ، وتتركهم يقولون ، ولكنها تصمت . وهي تعلم أنهم يجهلون الأساسي إلى الأبد ، أي الانحناء على حياة مخلوقة ، والمحافظة عليها ، ثم جعلها تكبر بالحفاوة القلبية .

وهي تعلم كذلك أن الرجل يرجع إليها دائماً . وهو يعلم أنها تعلم : هذا الذي يبقى قلقاً بصورة يائسة أمام مسائل لا تنطوي انتصاراته الخارجية على أي جواب عنها . « يقول : فعلت هذا ، وأفلحت في ذاك ، وقاتلت وفزت . ولكنكِ أنتِ ، ماذا تعتقدين ؟ » ذلك أن أي انتصار على الأشياء ، لا يمكن أن يجلب الصدى المغذّي للرجل .

وعندئذ إنما المرأة تصبح الاصغاء ، والصمت ، والانتظار . فيبدأ الرجل بالكلام ، والبحث أيضاً ، إلى أن يقول الكلام الذي يشرح.

ذلك أنها هي **الكلمة** في الواقع !

ولكن قولوا لي ، جميعكن وجميعكم ، ماذا فعلنا ، في أيامنا هذه ، بهذه المرأة إياها ؟

الفهرس

المقدمة	٥
المدخل	١٥
الفصل الأول ـ **خدعة الحرية**	١٩
ـ العالم التكنولوجي المجرد من الانسانية ومخططه المعادي للمرأة	٢٠
ـ النتائج بالنسبة الى المرأة	٢٣
ـ العالم التكنولوجي المجرد من الانسانية مهتم	٢٧
ـ ما الحل	٣٣
الفصل الثاني ـ **خدعة الدونية**	٣٩
ـ الدونية المزعومة ، دونية المرأة	٤٠
ـ كيف يتحدد موقع المرأة	٥٠
ـ وضع الرجل	٥٨
ـ لماذا تشعر المرأة بأنها أدنى	٦٢
ـ ما الحل	٦٤

الفصل الثالث ــ **فرويد : من سوء حظ المرأة**	٦٩
ــ الثورة الفرويدية	٧٠
ــ المرأة موضوع لعبة رمي الدمى	٨٥
ــ الصعوبة الراهنة	١٠٥
الفصل الرابع ــ **عضو الخدعة**	١١٣
ــ الى ماذا ترمز الوظيفة البولية ؟	١١٤
ــ الانفلات من الزمنية	١٣٠
ــ وكل ذلك سيستمر . . .	١٣٦
الفصل الخامس ــ المجازر **وضروب التآخي**	١٤١
ــ الاحساسات السلبية	١٤٩
ــ الاحساسات الايجابية	١٨٨
الفصل السادس ــ رموز المرأة	١٩٧
ــ المرأة من خلال الصور	١٩٧
ــ رمز الماء	٢٠٣
ــ رمز الجبل	٢١٣
ــ رمز الأرض	٢١٤
ــ الرموز رواسب فاعلة	٢١٦
ــ الرموز أمام المحكمة العرفية	٢٢٤
الفصل السابع ــ **ناصلات اللون**	٢٢٩
الفصل الثامن ــ الأنوثة والذكورة	٢٤٥
ــ نقطة البدء	٢٤٧
ــ وجهة نظر جديدة	٢٥٣
ــ دور الأنوثة والذكورة	٢٦٦
ــ هل ثمة امكان لثورة ؟	٢٩٧

الفصل التاسع – **صوب الثنائي** ٣٠٩

– ما هو الثنائي ٣١٠

– دور المرأة في الثنائي ٣١٧

– رواسب عقدة أوديب ٣٣٠

– الثنائي الذي أضفيت عليه القداسة ٣٤١

– ثنائي من أربع شخصيات ٣٤٧

الفصل العاشر – **مايحدث لهن في بعض الأحيان . .** ٣٥١

– المرأة المسماة باردة جنسياً ٣٥١

– المرأة النرجسية ٣٦٨

– المرأة المازوخية ٣٧٤

– السحاقيات ٣٨٩

الفصل الحادي عشر – **البنت المحصورة** ٤٢٣

– النقاط الأساسية ٤٢٥

– العوائق ٤٣٩

– المآلات الأربعة للوضع الأوديبي ٤٥٣

– البوابة ٤٦٣

الفصل الثاني عشر – **من هي ؟** ٤٧٥

– المرأة والعاطفة الشخصية ٤٧٨

ـ المرأة والزمن	٤٨٦
ـ المرأة وحاجتها إلى النظام	٤٩٥
ـ المرأة والرجل موجودان لايرتد أحدهما إلى الآخر	٥٠١
ـ ذكاء المرأة	٥٢٤
ـ ليولد الرجل مرة ثانية منها . . .	٥٣٦

٣٥٠٠ / ٩ / ١٩٨٣